

علم اللغة
تأليف
الدكتور / على عبد الواحد وافى
نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع
أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة ١٩٣٨



علم اللغة

أطراه مجمع اللغة العربية
وتقرر تدريسه بجامعة القاهرة

تأليف

الدكتور علي عبد الواحد وافي

دكتور في الآداب من جامعة باريس
عضو "المجمع الدولي لعلم الاجتماع"
عميد كلية الآداب بجامعة أم درمان
وعميد كلية التربية بجامعة الأزهر
ووكيل كلية الآداب ورئيس قسم الاجتماع بجامعة القاهرة سابقا



نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع
أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة ١٩٣٨

العنوان: علم اللغة
المؤلف: د. على عبد الواحد وافى
إشراف عام: داليا محمد إبراهيم .
تاريخ النشر: الطبعة التاسعة أبريل 2004م .
رقم الإيداع: 2004/7090
الترقيم الدولى: ISBN 977-14-2695-x

الإدارة العامة للنشر: 21 ش أحمد عرابى ـ المهندسين ـ الجيزة
ت: 3466434(02)–3472864 (02) فاكس:3462576 (02) ص.ب:21 إمبابة
البريد الإلكترونى للإدارة العامة للنشر: Publishing@nahdetmisr.com

المطابع:80 المنطقة الصناعية الرابعة ـ مدينة السادس من أكتوبر
ت: 8330287 (02) ـ 8330289 (02) ـ فاكس: 8330296 (02)
البريد الإلكترونى للمطابع: Press@nahdetmisr.com

مركز التوزيع الرئيسى: 18 ش كامل صدقى – الفجالة – القاهرة – ص . ب : 96 الفجالة – القاهرة.
ت : 5909827 (02) – 5908895 (02) ـ فاكس: 5903395 (02)

مركز خدمة العملاء: الرقم المجانى: 08002226222
البريد الإلكترونى لإدارة البيع: Sales@nahdetmisr.com

مركز التوزيع بالإسكندرية: 408 طريق الحرية (رشدى)
ت: 5230569 (03)
مركز التوزيع بالمنصورة: 47 شارع عبد السلام عارف
ت: 2259675 (050)

موقع الشركة على الإنترنت: كافة إصدارات شركة نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع تجدونها على موقع الشركة بالعنوان التالى: www.nahdetmisr.com الرقم المجانى 07775666



إطراء مجمع اللغة العربية
لكتابي "علم اللغة" و"فقه اللغة"

مجمع فؤاد الأول للغة العربية فى ١٨/٦/٤٥

حضرة الأستاذ الدكتور على عبد الواحد وافى

عرض على لجنة الأدب فى المجمع كتابكم « علم اللغة » وصنوه « فقه اللغة » . وقد حمدت لكم اللجنة مابذلتم من جهد فى البحث والدرس والاستخلاص . فقد حوى هذان الكتابان من مختلف مسائل اللغة وعالجا من مشكلاتها ما تمس اليه حاجة الباحث المتطلع . وقد انتهجتهم فى التأليف طريقة علمية حقيقية بالتقدير، وبسطتم من المعلومات ما يدل على غزارة مادة وحسن احاطة ، وكان لما أيدتم أو فندتم من وجهات النظر المتباينة مظهر من استقلال الرأى .

واننا اذ نشكر لكم هذا المجهود فى التأليف ، نرجو لكم المزيد من التوفيق . وتقبلوا أطيب تحياتى .

١٨/٦/٤٥

رئيس المجمع
أحمد لطفى السيد

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الأولى[1]

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه ومن تبعهم باحسان .

وبعد فمنذ عهد بعيد، وخاصة منذ أن كشفت اللغة السنسكريتية، لم تنفك موضوعات علم اللغة موضع عناية عدد كبير من أعلام الباحثين فى أمم الغرب . وقد بذلت فى هذا السبيل جهود قيمة مشكورة بلغ بفضلها هذا العلم درجة راقية من النضج والكمال ، فوضحت حدوده ومناهجه ، وهذبت أساليبه وطرق دراسته ، وتميزت فروعه بعضها من بعض ، واختص فى كل فرع منها عدد كبير من العلماء ، فتوفروا على دراسته ، وقتلوا مسائله بحثا . ومن ثم أصبحت مراجع هذا العلم من أكثر مراجع العلوم عددا ، وأوسعها نطاقا ، وأدقها بحثا ، وأجلها قيمة .

وعلى الرغم من ذلك ، لم يكتب فيه باللغة العربية — على ما أعلم — مؤلف يعتد به ، اللهم الا بعض كتب قديمة تمثل هذه البحوث فى أدوار طفولتها الأولى ، بل فى أدوارها السابقة للطفولة ، ولا تكاد اليوم — وقد أيفع هذا العلم — تنقع من صدى ولا تسمن من جوع .

حيال هذا ، رأيت أن الواجب يحتم على — وقد وقفت قسطا من جهودى على هذا العلم ، وقمت بتدريسه مدة طويلة — أن أقوم بأول

(١) ظهرت الطبعة الأولى لهذا الكتاب حوالى سنة ١٩٤٠ .

محاولة فى هذا السبيل ، فكتبت هذه العجالة ، معتمدا فيها على طائفة كبيرة من أوثق المصادر العربية والافرنجية التى يرى القارىء بعضها مشارا اليه فى ثنايا تعليقاتنا وبعضها مدونا فى ثبت المراجع فى آخر الكتاب .

ولم آل جهدا أن أوفق بين غرضين، ليس من اليسير التوفيق بينهما: أحدهما ألا أغادر ناحية من النواحى البارزة فى هذا العلم الا عرضت لها مناقشا أهم ما قيل فيها ومدليا بما يصح الركون اليه فى صددها ؛ والآخر مراعاة الايجاز فى علاج الموضوعات حتى لا أتجاوز النطاق الذى رسمته لهذه العجالة والذى ينبغى أن تكون عليه أول محاولة.

والله أسأل أن يتيح متابعة ما بدأته وتنقيحه وتكملته وأن يهيىء لنا من أمرنا رشدا .

دكتور : على عبد الواحد وافى

تمهيد
في التعريف بعلم اللغة

- ١ -

البحوث اللغوية وما يدخل منها تحت علم اللغة :

ترجع أهم البحوث اللغوية الى الموضوعات التالية :

١ ـ البحوث المتعلقة بنشأة اللغة الانسانية ، والأشكال الأولى التى ظهر فيها التعبير ، والأدوار التى اجتازها حتى وصل الى مرحلة الأصوات ذات الدلالات الوضعية ، والأسس التى سار عليها الانسان، والنماذج التى احتذاها فى وضع الكلمات وفى تعيين مدلولاتها ، ونشأة مراكز اللغة فى النوع الانسانى ...وما الى ذلك من البحوث التى تعالج اللغة فى أدوار نشأتها الأولى . ـ ويطلقون على هذا الفرع من البحوث اللغوية اسم « أصل اللغة » أو « نشأة اللغة » Origine du Langage

وكل ما يذهب اليه الباحثون بهذا الصدد ـ كما سيظهر فى الفصل الأول من هذا الكتاب ـ يتألف من آراء ظنية تعتمد فى بعض نواحيها على الحدس والتخمين وفى نواح أخرى على حجج ضعيفة لا يطمئن الى مثلها التحقيق العلمي . وهكذا شأن جميع البحوث التى تعرض لأصول النظم الانسانية .

ولذلك يرى كثير من العلماء اخراج هذا الموضوع من نطاق علم اللغة والحاقه بالبحوث الفلسفية الميتافيزيقية ، لأن منهج البحث فيه لا يتفق فى شىء مع ما ينبغى أن تكون عليه مناهج البحث فى العلوم . ـ وهذا الرأى هو السائد الآن، ولذلك لا يكاد المحدثون من

علماء اللغة يعرضون لهذا الموضوع ، وان عرضوا له تناولوه على أنه دخيل على مادتهم ومثال من البحوث اللغوية فى أدوارها الأولى .

٢ - البحوث المتعلقة بحياة اللغة وما يطرأ عليها من غنى وفقر، وسعة وضيق ، وعظمة وضعة ، وما تتعرض له من انقسامها الى لهجات، واستحالة هذه اللهجات مع الزمن الى لغات مستقلة ، وتعدد مظاهرها تبعا لتعدد فنونها ووجوه استخدامها ، وما تقوم به من صراع مع غيرها ، وما ينجم عن هذا الصراع من انتصار أو هزيمة ، واحتلالها مناطق جديدة أو تخليها عما كانت تملكه ، وما يؤول اليه أمرها من شيخوخة وهرم وفناء ، وما تتمثل فيه ظواهر انحلالها من اختفاء من عالم المحادثة والكتابة ودروس آثارها ، أو اختفاء من المحادثة وحدها ، أو اختفاء من المحادثة والكتابة مع بقائها فى المعجمات والمؤلفات ، وعوامل كل ظاهرة من هذه الظواهر ونتائجها والقوانين الخاضعة لها . ويطلق على هذا البحث اسم (حياة اللغة) Vie du Langage .

ومن أهم فروع هذا البحث وأوسعها نطاقا فرع يسمى « الدياليكتولوجى » Dialectologie أى علم اللهجات .. وموضوعه دراسة الظواهر المتعلقة بانقسام اللغة الى لهجات تختلف باختلاف البلاد أو باختلاف الجماعات الناطقة بها ... وما الى ذلك .

٣ - دراسة الأصوات التى تتألف منها اللغة وبيان أقسامها وفصائلها وخواص كل قسم ومخارجه ، وما تعتمد عليه من أعضاء النطق، وطريقة احساس السامع بها ، واختلاف النطق بالحروف واختلاف الأصوات التى تتألف منها الكلمة فى لغة ما باختلاف عصورها والأمم الناطقة بها ، والعوامل التى تنجم عنها هذه الظواهر ، والنتائج اللغوية التى تترتب على كل منها ، والقوانين التى تخضع لها ... وما الى ذلك. ويطلقون على هذا البحث اسم « الفونيتيك » Phonétique - أى « علم الصوت » .

٤ - دراسة اللغة من حيث دلالتها ، أى من حيث انها أداة للتعبير

عما يجول بالخاطر . — ويطلق على هذا البحث اسم « السيمنتيك » (١) Sémantique أى « علم الـدلالة » . — ومن « الفـــونيتيك » و « السيمنتيك » (علم الصوت وعلم الدلالة) يتألف أهم فروع علم اللغة وأدقها وأكثرها نضجا .

وينتظم علم الدلالة بحوثا كثيرة ، استقل الآن كل منها عما عداه وأصبح موضوع شعبة دراسية قائمة بذاتها . وأهم هــذه البحــوث ما يلى :

(أ) البحث فى معانى الكلمات، ومصادر هذه المعانى، واختلافها فى لغة ما باختلاف عصورها والأمم الناطقة بها ، وموت بعض معــانى الكلمة ونشأة معان جديدة ، والعوامل المختلفة التى ترجع اليها هــذه الظواهر ، والنتائج اللغوية التى تترتب على كل منها ، والقوانين التى تخضع لها فى سيرها .. وما الى ذلك . — ويطلق على هذا البحث اسم « ليكسيكولوجيا » Lexicologie أى « علم المفردات » .

(ب) البحث فى القواعد المتصلة باشتقاق الكلمــات وتصريفها وتغير أبنيتها بتغير المعنى وما يتصل بذلك . — ويطلقون على هــذا البحث اسم « المورفولوجيا » Morphologie أى « علم البنية » وهو ثلاثة أنواع :

« المورفولوجيا التعليمى » أى «علم البنية التعليمى» وهو الذى يدرس القواعد السابق ذكرها فى لغة ما لمجرد جمعها وترتيبها وتنسيقها حتى يسهل تعلمها وتعليمها ومراعاتها فى الحديث والكتابة . ومن هذا النوع علم الصرف فى اللغة العربية .

« المورفولوجيا التاريخى » أى « علم البنية التاريخى » ، وهو الذى يدرس هذه القواعد فى لغة ما دراسة تاريخية تحليلية ، فيدرس

---

(١) يرجع الفضل فى وضع هذا الاسم الى العلامة بريال M. Bréal .

الأشكال التى كانت عليها فى أقدم مراحل هذه اللغة ، وما طرأ عليها من تغير فى مختلف العصور والأمم ، وعوامل تطورها ونتائجه ، والقوانين التى تسير عليها فى مختلف مظاهرها ... وما الى ذلك .

« المورفولوجيا المقارن » أى « علم البنية المقارن » وهو الذى يدرس القواعد السابقة دراسة تاريخ وتحليل ومقارنة فى فصيلة من اللغات الانسانية أو فى جميع اللغات . فهو يمتاز عن الشعبة السابقة بالموازنة التى يجريها بين اللغات فيما يتعلق بقواعد البنية فى كل منها.

هذا ، والقسمان الأخيران هما اللذان يدخلان فى نطاق علم اللغة . أما القسم الأول وهو « المورفولوجيا التعليمى » فليس من بحوث علم اللغة ، بل من بحوث القواعد التعليمية .

(ج) البحث فى أقسام الكلمات (تقسيمها الى اسم وفعل وحرف ... الخ) وأنواع كل قسم ووظيفته فى الدلالة ، وأجزاء الجملة وترتيبها وأثر كل جزء منها فى الآخر (من ذلك مثلا تأنيث كلمة أو تذكيرها أو جمعها أو تثنيتها ... تبعا لحالة كلمة أخرى فى الجملة) ، وعلاقة أجزاء الجملة بعضها ببعض وطريقة ربطها ، وتقسيم العبارة الى جمل وترتيب هذه الجمل وطريقة وصلها أو فصلها ... وما يتصل بذلك . ويطلق على هذا البحث اسم « السنتكس » Syntaxe أى «علم التنظيم» . وينقسم الأقسام الثلاثة نفسها التى انقسم اليها « المورفولوجيا » أو « علم البنية » ، أى الى تعليمى وتاريخى ومقارن :

« فالسنتكس التعليمى » أى علم التنظيم التعليمى ، هو الذى يدرس قواعد التنظيم فى لغة ما لمجرد جمعها وترتيبها وتنسيقها حتى يسهل تعلمها وتعليمها واحتذاؤها فى الحديث والكتابة . — ومن هذه الشعبة بعض أبواب النحو والمعانى فى اللغة العربية .

« والسنتكس التاريخى » أى علم التنظيم التاريخى ، هو الذى يدرس قواعد التنظيم فى لغة ما دراسة تاريخية تحليلية .

« والسنتكس المقارن » أى علم التنظيم المقارن ، هو الذى يدرس قواعد التنظيم دراسة تاريخ وتحليل ومقارنة فى فصيلة من اللغات أو فى جميع اللغات .

والقسمان الأخيران هما اللذان يعدان من فروع علم اللغة . أما « السنتكس التعليمى » فليس من بحوث هذا العلم .

هذا ، ومن « المورفولوجيا » و « السنتكس » أى علم البنية وعلم التنظيم ، يتألف ما يسمونه « الجرامير » Grammaire أى القواعد . — ومما تقدم يتبين لك أن دراسة الجرامير بفرعيها تكون تارة تعليمية وتارة تاريخية وتارة مقارنة ، وأن القسمين الأخيرين وحدهما هما اللذان يدخلان فى علم اللغة .

(د) البحث فى أساليب اللغة واختلافها باختلاف فنونها (الشعر ، النثر ، الخطابة ، المحادثة ، الكتابة ، المسرح .. الخ) وباختلاف العصور والأمم الناطقة بها ، والطرق التى تسلكها الأساليب فى تطورها والقوانين الخاضعة لها ... وما يتصل بذلك . — ويطلق على هذا البحث اسم « الستيليستيك » Stylistique أى « علم الأساليب » .

وهذا البحث يمكن أن يدرس على الوجوه الثلاثة نفسها التى أشرنا اليها فى البحثين السابقين .

فاذا درس على الوجه الأول ، بأن كان الغرض منه مجرد جمع القواعد المتعلقة بأساليب لغة ما وتنسيقها وترتيبها ليسهل تعلمها وتعليمها واحتذاؤها فى المحادثة والكتابة ، أطلق عليه اسم « الستيليستيك التعليمى » أى « علم الأساليب التعليمى » . — ومن هذا النوع بعض أبواب المعانى والبيان والبديع فى اللغة العربية .

واذا درس على الوجه الثانى ، بأن كان الغرض منه دراسة الأساليب فى لغة ما دراسة تاريخية وتعقبها فى مختلف مراحل هذه اللغة وفى مختلف الأمم الناطقة بها وشرح تطورها والقوانين الخاضعة

لها بهـذا الصدد ، أطلق عليه اسم « الستيليستيك التاريخى » أى علم الأساليب التاريخى .

واذا درس على الوجه الثالث ، بأن كان الغرض منه دراسة الأساليب فى عدة لغات دراسة تاريخ وتحليل ومقارنة ، أطلق عليه اسم « الستيليستيك المقارن » أى علم الأساليب المقارن .

والنوعان الأخيران هما اللذان يدخلان فى نطاق علم اللغة ، أما دراسة الأساليب على الوجه الأول فليست من بحوث هذا العلم بل من بحوث « علوم البلاغة » .

٥ — البحث فى الأصول التى جاءت منها الكلمات فى لغة ما ، بأن نبحث مثلا عن الأصول الاغريقية واللاتينية .. وغيرها التى انحدرت منها كل كلمة من الكلمات الفرنسية : ويطلق على هـذا البحث اسم « الايتيمولوجيا » Etymologie أى « أصول الكلمات » .

ويختلف هذا البحث عن البحثين الأخيرين (علم الصوت وعلم الدلالة أو الفونيتيك والسيمنتيك) فى أنهما يدرسان أمورا كلية ويرميان الى كشف القوانين العامة الخاضعة لها ظواهر الصوت أو ظواهر الدلالة ، على حين أن هذا البحث يدرس أمورا جزئية وليس من أغراضه ولا من شأن دراسته الوصول الى قوانين ، فهو يبحث عن الأصول التى جاءت منها كل كلمة من كلمات اللغة على حدتها .

ولكن الصلة وثيقة — على الرغم من ذلك — بينه وبين البحثين السابقين. فدراسته تفيدهما كثيرا، كما ينتفع هو كثيرا بدراستهما . وذلك أن معرفة أصول الكلمات (موضوع هذا البحث) يساعد كثيرا على الوقوف على تطور الأصوات وتطور الدلالات وعلى كشف القوانين الخاضع لها هذا التطور فى مظهريه ، أى يعين البحثين السابقين (الفونيتيك والسيمنتيك) على الوصول الى أغراضهما ؛ كما أن الوقوف على القوانين التى يخضع لها كل من الصوت والدلالة فى

تطورهما (وهو موضوع البحثين السابقين) يساعد على معرفة أصول الكلمات ، أي يساعد هذا البحث على الوصول الى أغراضه .

هذا ، ومن أهم شعب الايتيمولوجيا شعبة تسمى (الأونوماستيك) Onomastique وموضوعها البحث عن أصول الأعلام بمختلف أقسامها : أعلام الأشخاص والقبائل والعشائر والجبال والأنهار والأمصار ... وما الى ذلك . ومن أهم فروع « الأونوماستيك » فرع يسمى « التوبونوماستيك » Toponomastique ، وموضوعه البحث عن أصول أسماء الأمكنة على اختلاف أنواعها .

٦ — بحوث اجتماعية ترمى الى بيان العلاقة بين اللغة والحياة الاجتماعية وأثر المجتمع وحضارته ونظمه وتاريخه وتركيبه وبيئته الجغرافية .. فى مختلف الظواهر اللغوية .

والى هذه البحوث تحتاج معظم الفروع السابقة . لأن نشأة اللغة الانسانية والأشكال الأولى التى ظهر فيها التعبير والأدوار التى اجتازها حتى وصل الى مرحلة الأصوات ذات الدلالات الوضعية ... (موضوع الفرع الأول) ؛ وحياة كل لغة وما يطرأ عليها من غنى وفقر وقوة وضعف وسعة وضيق ، وانقسامها الى فنون والى لهجات وتفرع لغات عامية منها ، وما تقوم به من صراع مع غيرها وما ينجم عن هذا الصراع ، وما يؤول اليه أمرها من شيخوخة وهرم وفناء .. (موضوع الفرع الثانى) ؛ وما يتعلق بأصواتها ودلالاتها وأصول مفرداتها ... (موضوع الفروع الثالث والرابع والخامس) ... كل أولئك وما اليه ترجع أهم عوامله الى ظواهر اجتماعية .

فموضوعات البحث الذى نحن بصدده تمتزج بموضوعات الفروع السابقة جميعا وتفسر ظواهرها . ولذلك لا يكاد يخلو منها مبحث من مباحث علم اللغة .

غير أن علماء الاجتماع قد أخذوا على القدامى من علماء اللغة بهذا الصدد مآخذ كثيرة ، ترجع الى تقصيرهم فى بيان العلاقة بين

الظواهر اللغوية والظواهر الاجتماعية ، وانحرافهم أحيانا عن جادة الصواب فى هذه السبيل ، وتفسيرهم لبعض الظواهر اللغوية تفسيرا خاطئا يبعد بها عن المجتمع وشئونه . ولذلك أنشئوا فرعا خاصا فى علمهم سموه « علم الاجتماع اللغوى » Sociologie Linguistique وعالجوا فيه الظواهر اللغوية بطريقة تكشف عن العلاقات التى تربطها بمختلف الظواهر الاجتماعية ، وتكفل سد ما فى البحوث القديمة من نقص واصلاح ما بها من أخطاء . وقد أوغل بعضهم فى هذا السبيل حتى كاد ينكر أن لغير العوامل الاجتماعية أثرا فى شئون اللغة .

ومهما يكن نصيب نظرياتهم من الصواب ، فهى قد أعطت هذه البحوث شخصية متميزة ، وجعلتها موضوع فرع مستقل ، وجعلت كثيرا من علماء اللغة أنفسهم ينزلها هذه المنزلة ويفرد لها دراسة خاصة. ولذلك سنوجه اليها قسطا كبيرا من عنايتنا فى معظم فصول هذا الكتاب .

٧ ـ بحوث نفسية تدرس العلاقة بين الظواهر اللغوية والظواهر النفسية بمختلف أنواعها من تفكير وخيال وتذكر ووجدان ونزوع ... الخ ، وتبين أثر كل طائفة منها فى الأخرى ، وتشرح ما تؤديه اللغة من وظائف معتمدة فى أدائها على ظواهر نفسية كالايحاء والتأثير ، وتعرض لما يعتمد عليه كسب الطفل للغة من قوى نفسية ... وهلم جرا .

ولا تقل أهمية هذه البحوث فى دراسة اللغة عن أهمية البحوث الاجتماعية السابقة . وذلك أن أهم العوامل التى تؤثر فى الظواهر اللغوية لاتخرج عن طائفتين : ظواهر اجتماعية عامة ، وظواهر نفسية فردية (١) .

فموضوعات البحث الذى نحن بصدده تمتزج بموضوعات الفروع

---

(١) تتأثر الظواهر اللغوية كذلك بالظواهر البيولوجية والفيزيولوجية والجغرافية كما سنذكر ذلك بتفصيل عند كلامنا على علاقة علم اللغة بما عداه (انظر صفحة ٣٠ وتوابعها) . ولكن أهمية هذه العوامل أقل كثيرا من أهمية الظواهر الاجتماعية والنفسية

السابقة جميعًا وتحتاج اليها هذه الفروع فى تفسير ظواهرها وتعليلها. ولذلك لا يكاد يخلو منها مبحث من مباحث اللغة .

غير أن علماء النفس قد وجهوا لهذه البحـــوث قسطا كبيرا من عنايتهم ، وجعلوها موضوع فرع مستقل من علمهم سموه « عـــلم النفس اللغوى» Psychologie du Langage وتوفر على دراسته عدد كبير من أعلامهم ، فبلغوا به درجة راقية من النضج والكمال . وقـــد تأثر بهم عدد كبير من علماء اللغة أنفسهم ، فأفردوا لهذه الموضوعات دراسة خاصـــة .

بقى من البحوث اللغوية ما يسمونه « الفيلولوجيا » Philologie وهو بحث غير محدد النطاق ولا متميز الحـــدود . وذلك أن مدلول هذه الكلمة قد اختلف كثيرا باختلاف العصور وباختلاف الأمم . ولا يزال العلماء يختلفون فى فهمها واطلاقها .

فأحيانا تطلق ويراد بها ما يشمل معظم البحوث السابقة. — ويكاد يتعين هذا المعنى اذا وصفت بما يدل على عموم بحوثها . فقيل مثلا : (فيلولوجيا مقارنة) Philologie comparée

وأحيانا تطلق ويراد بها دراسة لغة أو لغات من حيث قـــواعدها وتاريخ أدبها ونقد نصوصها (١) .

وأحيانا تطلق ويراد بها دراسة الحياة العقلية ومنتجاتها عـــلى العموم فى أمة ما أو فى طائفة من الأمم .

وهى بمعنييها الأخـــيرين ترادف ما نســـميه أدب اللغـــة وتاريخ أدبهـــا .

---

(١) كانت اذا أطلقت فى عصر احياء العلوم لا تنصرف الا الى دراسة اللغتين الاغريقية واللاتينية دراســـة قواعد وأدب . ولكن الآن لا تفيد هذا المعنى الا اذا قيدت فقيـــل « فيلولوجيا كلاسيكية » «Phil. Classique»

ويطلق على جميع البحوث السابقة ــ ما عدا الفيلولوجيا بمعنييها الأخيرين وما عدا المورفولوجيا التعليمى والسنتكس التعليمى والستيليستيك التعليمى ــ اسم « علم اللغة » (١) .
«Linguistique» ou «Science du Langage»

وقد اخترنا هذا الاسم لكتابنا ، لأن موضوعاته ستكون شاملة لجميع البحوث التى تدخل تحت « علم اللغة » .

هذا ، وقد وضع المؤلفون من العرب أسماء لبحوث تشبه بعض البحوث السابقة :

فوضعوا اسم « الصرف » لبحوث من فصيلة « المورفولوجيا التعليمى » ، واسم «النحو» لبحوث من فصيلة «السنتكس التعليمى»، واسم « البلاغة » لبحوث من «الستيليستيك التعليمى» واسم « أدب اللغة وتاريخ أدب اللغة » لبحوث من نوع الفيلولوجيا بمعنييها الأخيرين .

غير أنهم لم يطلقوا هذه الأسماء الا على ما يتعلق من البحوث السابقة باللغة العربية وحدها .

ومهما يكن من شىء فقد علمت أن « المورفولوجيا التعليمى » و «السنتكس التعليمى» و «الستيليستيك التعليمى» و «الفيلولوجيا» بمعنييها الأخيرين ، ليست من علم اللغة فى شىء .

أما بحوث علم اللغة نفسه فقد درس المؤلفون من العرب بعضها تحت أسماء مختلفة ، أشهرها اسم « فقه اللغة » (٢) .

وهذه التسمية هى خير ما يوضع لهذه البحوث ، فان فقه الشىء

---

(١) يخرج كذلك بعض المؤلفين من نطاق علم اللغة البحث الخاص بنشأة اللغة . وقد أشرنا فيما سبق لمذهبهم هذا وذكرنا وجهة نظرهم (انظر ص ٦ ، ٧) .

(٢) سيأتى تفصيل ذلك فى الفقرة الخاصة بتاريخ البحوث اللغوية .

هو كل ما يتصل بفلسفته وفهمه والوقوف على ما يسير عليه من قوانين. فقد قال صاحب المصباح : « الفقه فهم الشيء » وقال ابن فارس : «كل علم لشيء فهو فقه » .

وقد كنا نود أن نسمى كتابنا هذا باسم « فقه اللغة » لولا أن هذا الاسم قد خصص مدلوله فى الاستعمال المألوف ، فأصبح لا يفهم منه الا البحوث المتعلقة بفقه اللغة العربية وحدها .

- ٢ -
أغراض علم اللغة

يرمى هذا العلم من وراء دراسته للظواهر اللغوية السابق بيانها الى أغراض وصفية تحليلية يرجع أهمها الى الأمور الآتية :

١ - الوقوف على حقيقة الظواهر اللغوية ، والعناصر التى تتألف منها والأسس القائمة عليها .

٢ - الوقوف على الوظائف التى تؤديها فى مختلف مظاهرها وفى شتى المجتمعات الانسانية .

٣ - الوقوف على العلاقات التى تربطها بعضها ببعض ، والعلاقات التى تربطها بما عداها من الظواهر : كالظواهر الاجتماعية والنفسية والتاريخية والجغرافية والطبيعية والفيزيولوجية والأنتروبولوجية ... وهلم جرا .

٤ - الوقوف على أساليب تطورها واختلافها باختلاف الأمم والعصور .

٥ - كشف القوانين التى تخضع لها فى جميع نواحيها والتى تسير عليها فى مختلف مظاهرها (القوانين التى تسير عليها فى تكونها ونشأتها وأدائها لوظائفها وعلاقاتها المتبادلة وعلاقاتها بغيرها وتطورها... وما الى ذلك)

وهذا الغرض الأخير هو الأساسى لبحوث علم اللغة، بل يكاد يكون

غرضها الفذ ، وذلك أن الأغراض السابقة ليست فى الواقع الا وسائل للوصول اليه . فعلم اللغة لا يعرض لحقيقة الظواهر اللغوية والوظائف التى تؤديها والعلاقات التى تربطها بعضها ببعض والتى تربطها بغيرها والتطورات التى تعتورها ... لا يعرض لهذا كله لمجرد الوصف وسرد الحقائق التاريخية ، ولكن ليصل فى ضوئه الى كشف القوانين الخاضعة لها هذه الظواهر .

- ٣ -

قوانين العلوم

وبهذه المناسبة لا نرى مندوحة عن ذكر كلمة عن قوانين علم اللغة التى قررنا أنها الغرض الأساسى فى دراساته . — وسنمهد لهذا بالكلام على قوانين العلوم على العموم فنقول :

تطلق كلمة القوانين فى العرف العلمى على الأصول العامة التى تبين ارتباط الأسباب بمسبباتها والمقدمات بنتائجها اللازمة ، أو بعبارة أخرى التى تنبىء بحدوث نتائج معينة لازمة اذا حدثت أسباب خاصة وترجع النتائج الحادثة الى أسبابها (١) . فما يقرره علماء الرياضيات والطبيعيات والاقتصاد وغيرهم من القواعد التى تبين علاقة السببية بين أمرين أو أكثر يصدق عليه اسم قوانين : وذلك كقوانين ضرب عدد فى عدد (٢) وقوانين الربح (٣) وقوانين تساوى المثلثين (٤) فى الرياضيات

---

(١) يعرفها منتسكيو بأنها « العلاقات الضرورية التى تنشأ من طبيعة الأشياء » .

(٢) مثال ذلك : اذا ضربت أربع وحدات فى خمس وحدات كان الحاصل عشرين وحدة .

(٣) مثال ذلك : ربح مبلغ ما يساوى حاصل ضرب رأس المال فى الزمن فى السعر مقسوما على مائة .

(٤) مثال ذلك : ينطبق المثلثان كل على الآخر تمام الانطباق اذا ساوى فى كل ضلعان والزاوية المحصورة بينهما نظائرها فى الآخر .

وقانون الجذب العام ، وقانون أرشميدس (١) وقانون بويل (٢) فى الطبيعيات ، وقوانين العرض والطلب (٣) وقانون جريشـــام (٤) فى الاقتصاديات .. وهلم جرا .

هذا ، وقد فطن الانسان منذ عصور سحيقة فى القدم الى خضوع الكواكب والنجوم فى سيرها وبزوغها وأفولها لقوانين ثابتة مطردة ، هدته الى ذلك مشاهداته اليومية وملاحظته لاطراد النظام الذى تسير عليه هذه الأجرام . وعلى هذه المشاهدات أسس علم من أقدم العلوم الانسانية وهو علم الفلك .

ومع ارتقــاء الفكر الانسانى أخذ الاعتقاد بخضــوع الظواهر لقوانين ثابتة يتسع نطاقه قليلا قليلا حتى شمل كل نواحى الطبيعة وكل مظاهر الحياة ، وحفز الباحثين على انشــاء علوم الطبيعة والكيميـاء والجغرافيا والبيولوجيا والتاريخ الطبيعى ... وما الى ذلك من البحوث التى لم تغادر ظاهرة من ظواهر الطبيعة ولا ناحية من نــواحى النمو الا كشفت عما يسيطر عليها من قوانين . وبذلك تكونت مجموعة من العلوم هى العلوم الطبيعية .

ولم يمض على ذلك أمد طويل حتى تمكن العلماء من الوقوف على القوانين الطبيعية الخاضعة لها الرياح والعواصف والأمواج ... وما الى ذلك من الظواهر التى كانت مضرب الأمثال فى التقلب وعــدم الاستقرار والتى كان الشعراء يجعلونها رمزا للتحرر من ربقة القواعد

---

(١) كل جسم مغمور فى سائل يكون مدفوعا من أسفل الى أعلى بقوة تساوى وزن السائل الذى يحل محله .

(٢) فى درجة الحرارة الواحدة تكون حجوم مقدار معين من غاز مناسبة للضغوط الواقعة عليه تناسبا عكسيا .

(٣) يرتفع الثمن كلما زاد الطلب أو قل العرض وينخفض الثمن كلما قل الطلب أو زاد العرض . كلما ارتفع الثمن قل الطلب وزاد العرض وكلما انخفض الثمن زاد الطلب وقل العرض .

(٤) اذا اجتمع نقدان فى التعامل أحدهما ردىء والآخر جيد فان الردىء يتغلب على الجيد ويطرده من السوق .

والقوانين . فأنشئوا « الميتيورولوجيا » (علم الأحوال الجوية) و « الأسيونوجرافيا » (علم أحوال المحيطات) ، وتمكنوا فى بحوثهم الجغرافية وغيرها من الكشف عن القوانين الخاضعة لها التيارات البحرية والزلازل والبراكين .

وفى أثناء ذلك ، بل من قبل ذلك ، فطن الانسان الى القوانين التى يخضع لها الكم من حيث انه مقيس أو معدود . وعلى هذا الأساس أنشئت علوم الرياضة .

واستطاع العلماء كذلك أن يقفوا على القوانين التى تخضع لها الظواهر النفسية الفردية من ادراك ووجدان ونزوع . ومن هذه البحوث تألف « علم النفس » أو « السيكولوجيا » .

وقد كان لزاما بعد هذا كله أن تتجه الأفكار شطر المجتمع الانسانى ، وأن يتساءل الباحثون عما اذا كانت الأعمال الاجتماعية خاضعة لقوانين شبيهة بالقوانين الخاضعة لها ظواهر الطبيعة . غير أنهم قد طال تساؤلهم وترددوا كثيرا بهذا الصدد . وذلك أن الظواهر الاجتماعية تبدو حرة طليقة غير خاضعة لما نسميه بالقوانين : فارتفاع ثمن سلعة ما أو انخفاضه ، واختلاف مدلول كلمة ما أو اختلاف حروفها وأصواتها فى جيلين متعاقبين ، وتغير الأوضاع السياسية فى أمة ما ... هذه الأمور وما اليها من الظواهر الاجتماعية تظهر للنظرة الأولى أنها حرة طليقة ، ويصعب بداءة ذى بدء الاعتقاد بخضوعها لقوانين ثابتة مطردة كالقوانين الخاضع لها القمر فى تزايده وتناقصه أو النهار والليل فى اختلافهما باختلاف الفصول .

لمثل هذه الشبهات لم ينفك الباحثون يقدمون فى هذه السبيل رجلا ويؤخرون أخرى ، حتى ظهر فى القرن الرابع عشر العلامة ابن خلدون وألف مقدمته الشهيرة التى أثبت فيها بالأدلة القاطعة أن أعمال المجتمع وظواهر العمران خاضعة فى مختلف نواحيها لقوانين لا تقل

فى صرامتها واطرادها عن القوانين الخاضعة لها الظواهر الطبيعية (١) . — غير أن آراءه وبحوثه فى هذه الناحية لم يتح لها ما كانت أهلا له من الذيوع والانتشار وما كان يعوزها من التنقيح والتهذيب الا فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين . فقد ظهر فى هذين القرنين فى مختلف بلدان أوربا وبخاصة فى فرنسا طائفة من قادة الفكر لم تدع مؤلفاتهم أى مجال للريب فى خضوع الظواهر الاجتماعية بمختلف أنواعها لقوانين يمكن استنباطها من ملاحظة هذه الظواهر فى مختلف أحوالها وفى شتى الأمم والعصور . ومن ذلك الحين أخذ المشتغلون بدراسة الظواهر الاجتماعية يوجهون كل عنايتهم الى كشف القوانين الخاضعة لها ، وأخذت العلوم الاجتماعية تظهر شيئا فشيئا وينمو عددها قليلا قليلا وتتكون من فروعها مجموعة حديثة بجانب المجموعات الثلاث السابق ذكرها وأعنى بها العلوم الرياضية والطبيعية وعلم النفس .

- ٤ -
قوانين علم اللغة

على هذا الأساس قام علم اللغة، كما قام غيره من العلوم الاجتماعية، واتجهت عناية الباحثين فيه الى كشف القوانين الخاضعة لها الظواهر اللغوية فى مختلف أشكالها ومناحيها . وقد اهتدوا الى طائفة كبيرة من هذه القوانين : منها ما يتعلق بالأصوات ومنها ما يتعلق بالدلالات ، ومنها ما يتعلق بحياة اللغة ، ومنها ما يتعلق بوظائفها ...؛ بعضها خاص يصدق على لغة معينة ، وبعضها عام ينطبق على فصيلة من اللغات ، وبعضها أعم يصدق على جميع اللغات . — وسيمر بك فى كل فصل من فصول هذا الكتاب أمثلة كثيرة من هذه القوانين ، وسترى على ضوئها أن الظواهر اللغوية لا تسير وفقا لارادة الأفراد والمجتمعات ،

(١) انظر الباب الثانى من كتابنا « ابن خلدون ، منشىء علم الاجتماع » .

أو تبعا للأهواء والمصادفات ، وانما تسير وفقا لنواميس لا تقل فى ثباتها وصرامتها واطرادها وعدم قابليتها للتخلف عن النواميس الخاضعة لها ظواهر الفلك والطبيعة . — فقد يكون فى استطاعة الفرد أو فى استطاعة الجماعة اختراع لفظ أو تركيب ، ولكن بمجرد أن يقذف بهذا اللفظ أو بهذا التركيب فى التداول اللغوى وتتناقله الألسنة يفلت من ارادة مخترعه ويخضع فى سيره وتطوره وحياته... لقوانين ثابتة صارمة لايستطيع الفرد ولا الجماعة الى تعويقها أو تغييرها سبيلا . فالكلمة الجديدة أو التركيب الجديد أشبه شىء بحجر يقذف به القاذف من جهة معينة بقوة خاصة ، فانه بمجرد أن يفارق يده يخضع فى سيره لقوانين ثابتة صارمة لا يد للقاذف ولا لغيره على تعطيلها أو وقف آثارها .

ومن هذا يظهر أنه ليس فى قدرة الأفراد والجماعات أن يقفوا تطور لغة ما ، أو يجعلوها تجمد على وضع خاص ، أو يحولوا دون تطورها على الطريقة التى ترسمها قوانين علم اللغة . فمهما أجادوا فى وضع معجماتها وتحديد ألفاظها ومدلولاتها وضبط قواعدها وأصواتها وكتابتها ، ومهما أجهدوا أنفسهم فى اتقان تعليمها للأطفال قراءة وكتابة ونطقا وفى وضع طرق ثابتة سليمة يسير عليها المعلمون بهذا الصدد ، ومهما بذلوا من قوة فى محاربة ما يطرأ عليها من لحن وخطأ وتحريف .. ، فانها لا تلبث أن تحطم هذه الأغلال ، وتفلت من هذه القيود ، وتسير فى السبيل التى تريدها على السير فيها سنن التطور والارتقاء التى ترسمها قوانين علم اللغة .

ومن ثم يظهر كذلك خطأ من يحاولون علاج تعدد اللغات بانشاء لغة عالمية (اسبرانتو Espéranto) يتحدث بها الناس من مختلف الأمم والشعوب . وذلك أن هذه اللغة الصناعية ، على فرض امكان اختراعها والزام الناس باستخدامها (١) ، لا تلبث بعد تداولها على

---

(١) هذه الأمنية ، وان كانت ممكنة نظريا ، يحول دون تحقيقها عمليا صعوبات جمة سنعرض لها فى الفقرة الثانية من الفصل الأول من الباب الثانى .
ومع ذلك لايزال المتعصبون لفكرة الاسبرانتو كثيرين فى مختلف الأمم ، ولايزالون =

الألسـنة أن تخضع فى أصـواتها ومدلولاتها وحياتها وتطورها لجميع القوانين التى تخضع لها اللغات الطبيعية والتى خضعت لها أول لغة تكلم بها الانسان . فما دام أفراد الأمم الناطقة بهـا مختلفين فى التكوين الطبيعى لجسومهم وأعضاء نطقهم ، وفى الظروف الجغرافية والطبيعية والاجتماعية المحيطة بهم ، وفى قواهم الادراكية والوجدانية ، ومادامت سنة الطبيعة تقضى أن يختلف كل جيل عن الجيل السابق له فى كل هذه الأمور ، فلا بد أن تختلف هذه اللغة الصناعية فى كلماتها وأصواتها ودلالاتها وتراكيبها ... باختلاف العصور وباختلاف الشعوب الناطقة بها ، وتختلف أقسامها باختلاف فنونها ، وتنقسم الى لهجات يختلف كل منها عما عداه ، وتتفرع منها لغات عامية ، وتتسع الهوة بين لهجاتها قليلا قليلا حتى تنفصل كل لهجة منها عما عداها انفصـالا تاما وتصبح غير مفهومة الا لأهلها ، شأنها فى ذلك شـأن غيرها من اللغات . وهكذا لن يمضى زمن قصير أو طويل حتى تتولد من هذا العـلاج المشكلة نفسها التى حاولنا القضاء عليها : « ولو شاء ربك لجعل الناس أمة

= دائبين على نشر مشروعهم والدعاية له وعقد مؤتمرات دولية لدراسته واذاعته . وقد جاء فى هذا الصدد بجريدة الأهرام الصادرة فى ٤٨/٨/٤ ما يلى :

« افتتح يوم السبت الماضى المؤتمر الثالث والثـلاثون للاسـبرانتو فى مدينة مالمو بالسويد ، وقد تولى رياسته الفخرية المسيو تاجى ارلاند رئيس الحـكومة السويدية وحضر جلساته مندوبون عن اثنتين وثلاثين دولة ، ومثل جمعية الاسبرانتو المصرية فيه الأستاذ نصيف أسعد . ولهذه المناسبة تلقينا من الأستاذ سعيد صالح سكرتير الجمعية كلمة نوه فيها بما يمتاز به هذا المؤتمر عن المؤتمرات الأخرى فقال : ان المشـتركين فيـه يتحدثون ، رغم اختلافهم فى الجنسيات واللغات ، بلغة واحدة هى لغة الاسبرانتو ، التى ألفها الطبيب البولندى الدكتور زامنهوف Zamenhof فى عـام ١٨٨٧ ، ثم أخذت تنتشر حتى اعترفت بمزاياها دول كثيرة وراحت تدرسها فى معـاهدها التعليمية المختلفة وتستعملها للدعاية عن نفسها واجتذاب السائحين اليها من شتى بلاد العالم . ـ وبعد أن ذكر أن كثيرا من محطات الاذاعة كمحطات باريس وفارسوفيا وفينا تخصص جزءا من برامجها بلغة الاسبرانتو وأن البنوك والشركات التجارية الكبرى أصبحت تستخدم هذه اللغـة ، رجا أن تولى مصلحة الدعاية والسياحة المصرية الاسبرانتو ما تستحقه من عناية ، اذ ان بلادنا فى حاجة الى مختلف وسائل الدعاية » .

وورد فى جريدة المصرى الصادرة فى ٤٩/٧/١١ ما يأتى :

« سيغادر مصر هـذا الاسبوع الاسـتاذ تاردرس مجلى المندوب الرئيسى لجمعية الاسبرانتو العالمية فى القطر المصرى لحضور مؤتمر الاسبرانتو العالمى الرابع والثلاثين الذى سيعقد بانجلترا فى أوائل أغسطس ، وسيزور أيضا السويد والدانيمرك بدعوة من مكتب الصحافة السويدى » .

واحدة ولا يزالون مختلفين الا من رحم ربك ... ولذلك خلقهم » ، « ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم ان فى ذلك لآيات للعالمين (١) »

- ٥ -

قوانين (الفونيتيك) وقوانين (السيمنتيك)

غير أن علماء اللغة لم يصلوا بعد الى استنباط قوانين بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة الا فى الشعبة الخاصة بدراسة الأصوات (الفونيتيك) . أما فى الشعبة الخاصة بالدلالة (السيمنتيك) فكثير مما كشفوه لم يصل بعد فى دقته وضبطه وعمومه الى المستوى الذى يستحق فيه اسم « القوانين » .

والسبب فى ذلك راجع الى أن الظواهر الصوتية فى مختلف أشكالها ترجع أهم عواملها الى أعضاء النطق وطريقة أدائها لوظائفها وتأثرها بالظواهر الجغرافية وأساليب انتقالها بطريق الوراثة من الأصول الى الفروع وما الى ذلك . وعوامل هذه طبيعتها من الممكن تحديد آثارها وتحديد العلاقات التى توجد بينها وبين مختلف الظواهر اللغوية . فطبيعة الظواهر التى تدرسها هذه الشعبة تسمح باستنباط قوانين دقيقة مضبوطة .

وليس الأمر كذلك فى الظواهر اللغوية المتعلقة بالدلالة (موضوع السيمنتيك) . وذلك أن العوامل التى تؤثر فى معانى الكلمات وفى قواعد اللغة وأساليبها فتؤدى الى اختلافها وتطورها ... وما الى ذلك ، يرجع أهمها الى ظواهر اجتماعية وتاريخية وسياسية وثقافية ... وهلم جرا . وعوامل هذا شأنها ليس من اليسير تحديد آثار كل منها وتحديد العلاقات التى تربطه بالظواهر اللغوية . — فلا ينبغى أن ننتظر من علم اللغة أن يصل فى هذه الناحية الى قوانين ثابتة صارمة عامة الا بعد زمن طويل ومجهود كبير .

---

(١) بكسر اللام على رواية حفص عن عاصم ، أى العارفين المتأملين .

- ٦ -

الشعبة التى ينتمى اليها علم اللغة

تمهيد فى تعريف العلم والفن وأمثلتهما وأقسام كل منهما

ترجع أهم شعب البحوث الى قسمين : بحوث علمية ، وبحوث فنية .

ويطلق العلم Science اصطلاحا على كل بحث موضوعه دراسة طائفة معينة من الظواهر لبيان حقيقتها وعناصرها ونشأتها وتطورها ووظائفها والعلاقات التى تربطها بعضها ببعض والتى تربطها بغيرها وكشف القوانين الخاضعة لها فى مختلف نواحيها .

ويطلق الفن Art اصطلاحا على كل بحث موضوعه بيان الوسائل التى ينبغى الالتجاء اليها للوصول الى طائفة معينة من الغايات العملية.

فالبحث فى جسم الانسان مثلا يختلف الحكم عليه باختلاف ما يرمى اليه من أغراض . فان كان الغرض منه شرح أعضائه وأجهزته وبيان العناصر التى تتألف منها ، ومعرفة الوظائف التى تقوم بها ، والوقوف على تطورها ونموها ، وتوضيح العلاقات التى تربطها بعضها ببعض والتى تربطها بغيرها ، وكشف القوانين التى تخضع لها فى تكونها ونشوئها وتطورها وأدائها لوظائفها ... صدق عليه أنه «علم» . وان كان الغرض منه بيان الوسائل التى ينبغى الالتجاء اليها لشفاء الجسم مثلا مما عسى أن ينتابه من مرض واختلال ، صدق عليه أنه « فن » . — ومن ثم يعدون « الفيزيولوجيا » علما ، لأنها تدرس جسم الانسان من وجهة النظر الأولى ، على حين أنهم يعتبرون « الطب » من طائفة الفنون ، لأنه يدرس جسم الانسان من وجهة النظر الثانية .

وكذلك البحث فى القوى العقلية : فالحكم عليه يختلف باختلاف الطريق التى يسير فيها والغرض الذى يرمى اليه . فاذا كان موضوعه وصف هذه القوى وشرحها ببيان حقيقتها والعناصر التى تتألف منها ،

والوظائف التى تؤديها ، والمراحل التى تجتازها فى نموها ، والعلاقات التى تربطها بعضها ببعض والتى تربطها بغيرها ، والقوانين الخاضعة لها فى مختلف نواحيها ... كان جديرا باسم « العلم » . — وان كان الغرض منه بيان الوسائل التى ينبغى الالتجاء اليها للتأثير فى هــذه القوى وتربيتها وتهذيبها ... صدق عليه أنه « فن » . — ومن ثم كانت بحوث « السيكولوجيا » (علم النفس) من طوائف العلوم ، وكانت « البيداجوچيا العامة » (التربية العامة) شعبة من شعب الفنون .

ومن هذا يتبين أن أهم فارق بين العلوم والفنون أن الأولى نظرية وصفية تحليلية ترمى الى شرح ما هو كائن ، على حين أن الأخرى عملية تطبيقية يهمها بيان ما ينبغى أن يكون (١) .

هذا وتنقسم الفنون قسمين رئيسيين :

١ — فنون يقينية Arts rationnels ، وهى ما كانت بحوثها الفنية مؤسسة على بحوث علمية ومستمدة منها ، وذلك كفن الطب الحديث فانه مؤسس على علم « الفيزيولوجيا » ، وكفنون التربية الحديثة ، فان الخطط التى ترسمها للتأثير فى جسم الطفل وعقله وخلقه مؤسسة على بحوث علم النفس وعلم وظائف الأعضاء وما اليهما .

٢ — فنون غير يقينية Arts irrationnels ، وهى ما كانت بحوثها

---

(١) وبجانب هاتين الطائفتين توجد طائفة ثالثة من البحوث ترمى الى تكوين مثل عليا وبيان قيم الأشياء وما يجب أن تكون عليه حتى تتفق مع هذه المثل . وتسمى هذه الطائفة بالبحوث المعيارية أو التقويمية ، وهى ليست من البحوث العلمية فى شىء .

ولا صحة لما ذهب اليــه فونت Wundt من أن العــلوم تنقسم قسمين : وصــفية موضوعهـا الوصف والتحليل ، ومعيارية Normatives موضــوعها بيان ما يجب عمله . لان فى تقسيمه هذا خلطاً بين العلوم والبحوث المعيارية ، ولان البحوث التى سماها علوما معيارية تختلف اختلافا جوهريا عن العلوم . — هذا وقد كفانا العلامة « ليفى برول Levy Brühl » مئونة الاطالة فى الرد على هذه النظرية بما كتبه عنها فى مؤلفه الجليل « الأخلاق وعلم الاجتمــاع الخــلقى » La Morale et La Sciences des Mœurs.

وبجانب هذه الطوائف الثلاث من البحوث توجد طائفة رابعة هى البحوث التاريخية الخالصة التى ترمى الى مجرد وصف الأشياء والحوادث على ما هى عليه أو على ما كانت عليه .

الفنية غير مؤسسة على بحوث علمية . وذلك كفنون السحر والشعوذة والطب القديم وما الى ذلك من الفنون التى تعتمد فيما تقرره على العقائد أو الأساطير والخرافات أو على محض التجارب .

أما العلوم فتنقسم باعتبار الظواهر التى تدرسها الى ثلاث طوائف رئيسية :

١ ـ العلوم الرياضية ، وهى العلوم التى تدرس خواص الكم من حيث انه معدود أو مقيس ، كالحساب والجبر والهندسة وما اليها .

٢ ـ العلوم الطبيعية ، وهى التى تدرس ظواهر الكون ، سماوية كانت أم أرضية ، عضوية كانت أم غير عضوية ، كالفلك والجيولوجيا والجغرافيا الطبيعية وعلم الحيوان وعلم النبات والطبيعة والكيمياء ... وما اليهـا .

٣ ـ العلوم الانسانية ، وهى التى تبحث فى الانسـان أو فى المجتمع الانسانى . وهى لذلك تنقسم قسمين :

(أحدهما) علوم فردية ، وهى التى تدرس الانسان من حيث انه فرد كالأنتربولوجيا (علم الانسـان) والفيزيولوجيا الانسـانية (علم وظائف الأعضاء الانسانية) والسيكولوجيا (علم النفس) .

(والآخر) علوم اجتماعية وهى التى تدرس الانسان من حيث انه عضو فى مجتمع ، أو بعبارة أخرى تدرس العلاقات التى تتـكون بين أفراد يضمهم مجتمع . ـ ولتعدد هذه العلاقات تعددت علوم هذه الطائفة : فمنها ما يدرس العلاقات السياسية ويبحث فى نشـأة الأمم وتطورها ونظم الحكم فيها وعلاقاتها بعضها ببعض ... الخ ، ويسمى « علم السياسة » ؛ ومنها ما يدرس النظم القضائية وتطورها والأسس المبنية عليها ... وما يتصل بذلك ، ويسمى « علم الحقوق » ؛ ومنها ما يدرس النظم الدينية ويبحث فى أصولها وتطورها وآثارها ، ويسمى « علم الأديان » ؛ ومنها ما يبحث فى النظم الاقتصادية المتعلقة بانتاج

الثروة واستبدالها وتوزيعها واستهلاكها ويشرح حقيقتها ونشأتها وتطورها والأسس القائمة عليها ووظائفها والقوانين الخاضعة لها ... ويسمى « علم الاقتصاد السياسى » ؛ ومنها ما يبحث فى النظم الخلقية ويسمى « علم الأخلاق » ... وهلم جرا .

وتمتاز هذه الطائفة الأخيرة ، وهى طائفة العلوم الاجتماعية ، عن بقية طوائف العلوم بشدة الصلة التى تربط فروعها بعضها ببعض . فبحوث علم الأخلاق تمت بصلة وثيقة الى بحوث علم الأديان ، وبحوث علم السياسة شديدة الارتباط ببحوث علمى الأخلاق والحقوق ... وهلم جرا . والسبب فى هذا راجع الى أن فروع هذه الطائفة متحدة فى موضوعها الرئيسى وهو الانسان من حيث انه عضو فى مجتمع ، والى أن النظم الاجتماعية التى تدرسها متداخل بعضها فى بعض ومتأثر بعضها ببعض لدرجة تجعل تقسيمها الى فروع ضربا من الاصطلاح ومجرد وسيلة لتسهيل الدراسة . — وهذا ما حدا بأوجيست كونت Auguste Comte على أن يجمعها كلها تحت لواء علم واحد سماه علم الاجتماع أو « السوسيولوجيا » . Sociologie

وعلى العكس من ذلك العلوم الطبيعية ، فان موضوعات كل فرع منها متميزة تمام التميز عن موضوعات ما عداه . فموضوعات الجيولوجيا مثلا لا يمكن أن تلتبس بموضوعات علم الفلك ، اذ أن الأول يدرس طبقات الأرض على حين أن الثانى يبحث فى أفلاك السماء .

الشعبة التى تنتمى اليها بحوث علم اللغة

فاذا عرفت هذا ورجعت الى ما قلناه فى الفقرات السابقة عن بحوث علم اللغة وموضوعاتها وأغراضها وقوانينها ، ظهر لك أن هذه البحوث من طائفة العلوم لا الفنون وأنها من فصيلة العلوم الاجتماعية. أما أنها من طائفة العلوم فذلك لأنها ترمى من وراء دراستها للظواهر

اللغوية الى أغراض وصفية تحليلية ترجع الى الوقوف على حقيقتها والعناصر التى تتألف منها ، والوظائف التى تؤديها ، والعلاقات التى تربطها بعضها ببعض والتى تربطها بما عداها ، وأساليب تطورها ، والقوانين التى تخضع لها فى مختلف نواحيها ، وبالجملة تدرس الظواهر اللغوية لشرح ما هو كائن لا لبيان ما ينبغى أن يكون . وقد تقدم أن كل بحث هذا شأنه يسمى علما . — وأما أنها من فصيلة العلوم الاجتماعية ، فذلك لأن موضوع العلوم الاجتماعية ، كما تقدم ، هو دراسة العلاقات التى تتكون بين أفراد يضمهم مجتمع . ومن الواضح أن الظواهر اللغوية التى تدرسها بحوث علم اللغة ليست الا شعبة من شعب هذه العلاقات . فالنظم التى يسير عليها أفراد أمة ما فى تفاهمهم والتعبير عما يجول بخواطرهم لا تختلف فى هذه الناحية عن النظم الاقتصادية التى يسيرون عليها فى مبادلاتهم ، والنظم الدينية التى يتبعونها فى عباداتهم وعقائدهم وفهمهم لما وراء الطبيعة ، والنظم الخلقية التى يأخذون بها فى تمييزهم بين الخير والشر والفضيلة والرذيلة، والنظم العائلية التى يخضعون لهافى الزواج والطلاق والتوريث وتحديد درجة القرابة، والنظم السياسيةالتى يحتذونها فيما يتعلق بشكل الحكومةونظام الحكم وتوزيع السلطات وحقوق كل سلطة وواجباتها ، والنظم القضائية التى يطبقونها فى الجرائم والعقوبات والمسئولية والعقود والالتزامات. فكما أن كلا من النظم الاقتصادية والدينية والخلقية والعائلية والسياسية والقضائية تنظم ناحية من العلاقات الاجتماعية ، كذلك النظم اللغوية تنظم ناحية هامة من هذه العلاقات وهى الناحية المتصلة بالتفاهم بين الأفراد والتعبير عما يجول بالخواطر .

- ٧ -

الانتفاع ببحوث علم اللغة من الناحية العملية

غير أنه من الممكن الانتفاع بحقائق هذا العلم من الناحية العملية، أي الاهتداء على ضوئه الى ما ينبغي عمله في ظواهر اللغة ، شأنه في ذلك شأن غيره من العلوم . فكما أن بحوث الفيزيولوجيا التي تدرس وظائف الأعضاء دراسة علمية ، أي دراسة وصف وتحليل ، قد أقيم على أسسها فن الطب الذي يشرح الوسائل التي ينبغي الالتجاء اليها للوصول الى طائفة معينة من الغايات العملية المتصلة بجسم الانسان ، وكما أن بحوث السيكولوجيا (علم النفس) التي تدرس القوى النفسية لمجرد وصفها وتحليلها وكشف القوانين الخاضعة لها ، قد أقيم على أسسها فن « البيداجوجيا » الذي يشرح الوسائل التي ينبغي اتخاذها لتربية قوى الطفل النفسية وتعليتها وتهذيبها واعدادها اعدادا صالحا للحياة المستقبلة، كذلك من الممكن أن يقام على القواعد التي يكشفها علم اللغة بحوث فنية ترشدنا الى ما ينبغي عمله في مختلف الشئون اللغوية ، فترشدنا مثلا الى خير الوسائل التي ينبغي اتخاذها في تعليم اللغات الحية وغيرها ، وفي وضع كتب القواعد والأدب وطرق تدريسها ، وفي اصلاح قواعد الاملاء والشكل والترقيم ، وفي تدوين معجمات اللغة وضبط مفرداتها وتحديد دلالاتها ، وفي النهوض باللغة ومحاربة ما يطرأ عليها من لحن أو تحريف ، وفي تهذيب مصطلحاتها وتوسيع نطاقها وترقية لهجاتها العامية وادخال مفردات جديدة على مفرداتها، وفي احلال لغة أخرى محلها، وفي انشاء لغة عالمية يتحدث بها جميع أفراد النوع الانساني ... وما الى ذلك من الشئون اللغوية التي تستأثر الآن بقسط كبير من نشاط الباحثين والمصلحين والتي من أجلها تنشأ المجامع اللغوية و « الأكاديميات » وينظم عدد كبير من المؤتمرات المحلية والدولية .

وفى الحق أن كثيرا من المصلحين والمفكرين قد أخذوا الآن يولون وجوههم فى حل هذه المشاكل شطر علم اللغة ويستمدون منه المعونة ويقيمون اصلاحاتهم على الأسس التى تقررها قوانينه وتطمئن اليها قواعده ، بعد أن كانوا من قبل يصدرون عن آراء فردية فطيرة وتسيرهم آمال ورغبات لا سند لها من العلم الصحيح . ومن ثم اضطروا الى تغيير كثير من الخطط الفاسدة التى كانوا يسيرون عليها من قبل ، وأخذوا ينصرفون عن كثير من المشروعات التى شغلتهم زمنا غير قصير، بعد أن تبين لهم من قوانين علم اللغة استحالة تنفيذها ، كمشروع انشاء لغة عالمية (١) .

فاذا هذبت هذه البحوث الفنية وربطت فى مختلف نواحيها ببحوث علم اللغة ، ونسقت موضوعاتها ، ونظمت مسائلها ، وجمعت نتائجها ، وفصلت عما عداها من البحوث ، ودونت فى مؤلفات مستقلة، لا تلبث أن يتكون منها فن يقينى شبيه بالفنون التى تكونت على أسس الفيزيولوجيا والسيكولوجيا كالطب والتربية العامة وما اليهما . ويظهر للمتأمل فى هذه البحوث أنها سائرة الى هذه الغاية بخطى حثيثة ، وأن اليوم الذى يتم فيه تكوين هذا الفن على الوجه الذى وصفناه ليس ببعيد .

- ٨ -

علاقة علم اللغة بما عداه من البحوث

تقدم أن علم اللغة من العلوم الاجتماعية ، وأن طائفة العلوم الاجتماعية تمتاز عن بقية طوائف العلوم بشدة الصلة التى تربط فروعها بعضها ببعض (٢) . فعلم اللغة متصل اذن اتصالا وثيقا ببقية أفراد فصيلته ونعنى بها العلوم الاجتماعية . وذلك أن للظواهر الاجتماعية

---

(١) انظر ما ذكرناه فى هذا الصدد بصفحتى ٢١ ، ٢٢ وما سنذكره بشأنه كذلك فى الفقرة الثانية من الفصل الأول من الباب الثانى .

(٢) انظر آخر صفحة ٢٦ وصفحتى ٢٨ ، ٢٩ .

بمختلف أنواعها آثارا بليغة فى مختلف شئون اللغة . فنشأة اللغة ، وانقسامها الى فصائل ، وحياتها وانتشارها ، وما يطرأ عليها من قوة وضعف وسعة وضيق وعظمة وضعة ، وصراعهـا مع غيرها وانتصارها أو هزيمتها واحتلالها مناطق كانت تابعة لغـيرها أو تخليها لغيرها عن جميع مناطقها أو عن بعضها ، وتعدد مظاهرها تبعا لتعـدد فنـونها ، وانقسامها الى لهجات وتفرع لغات عامية منها ، والتطورات التى تحدث فى أصواتها ومدلولاتها وأساليبها وقواعدها ... كل أولئك وما اليـه لا يمكن فهمه والوقوف على أصوله وأسبابه الا فى ضـوء الظواهر الاجتماعية الأخرى من سـياسية ودينية واقتصادية ... وهلم جرا . فلا غرابة اذن أن تكون الصلة وثيقة بين العلم الذى يدرس الظواهر اللغوية (علم اللغة) والعلوم التى تدرس الظواهر الاجتماعية الأخرى كعلوم السياسة والأديان والاقتصاد والتاريخ ... وما الى ذلك .

وليس علم اللغة مرتبطا بالعلوم الاجتماعية فحسب ، بل ان بحوثه متصلة كذلك ببحوث علم النفس . فكثير من المسائل التى يعرض لهـا يتوقف شرحها وفهمها وبيان أصولها وأسبابها على الرجوع الى ما ترتبط بها من الظواهر النفسية والى ما يقوله علم النفس فى صددها . فتكوين المتكلم لعباراته وفق أفكاره ، وادراك السـامع الحديث وفهمه له ، وصوغ العبارات وتدوينها كتابة ، وفهم القـارىء لنقوش الكتابة ، وكسب الطفل للغته ، وأداء اللغة لوظائفها الدلالية والايحائية والتأثيرية، وانحطاط لغة فى عصر ما أو عند بعض الشعوب الناطقة بها وارتقاؤها فى عصر آخر أو عند شعوب أخرى ، وتعدد فروع اللغة تبعا لتعدد نواحى التفكير ، وتطور اللغة فى مدلولات كلماتها وأساليبها ... كل هذه الظواهر وما اليها تعتمد اعتمادا جوهريا على ظواهر عقلية كالادراك الحسى والتفكير وادراك المعـانى الكلية والحكم والاستدلال وخيال الحركة والخيال السمعى والخيال النظرى والحافظة والذاكرة وتداعى المعانى والحالات الوجدانية والانتباه والعادة ومظاهر النزوع والارادة والأمزجة ووراثة الصفات النفسية ... وهلم جرا . ومن الواضح أن

هذه الظواهر هى موضوع علم النفس ، ولا يمكن فهمها وتحديد صلتها باللغة وأثرها فيها الا بالرجوع اليه .

ويتصل علم اللغة كذلك بالبحوث التاريخية والجغرافية . فكثير من الظواهر اللغوية التى يعرض لها ترجع عواملها وأصولها الى ظواهر جغرافية وتاريخية . فانتشار اللغة وصراعها مع غيرها وانتصارها أو هزيمتها واحتلالها مناطق كانت تابعة لغيرها أو تخليها لغيرها عن جميع مناطق نفوذها أو عن بعضها ، وانقسامها الى لهجات وتفرع لغات عامية منها وانتشار الدخيل بين ألفاظها ، واستعارتها كلمات من غيرها ، وتأثرها بقواعد غيرها من اللغات أو بأساليبها ، وما يطرأ عليها فى أثناء حياتها من قوة وضعف وسعة وضيق ، والتطورات التى تحدث فى أصواتها ومدلولاتها وأساليبها ... كل ذلك وما اليه ترجع طائفة من أسبابه الى ظواهر تاريخية وجغرافية : كالغزو ، وتغلب أمة على أخرى، والهجرة ، واندماج أمم بعضها فى بعض ، واتصال الأمة بما عداها ، واعتناقها دينا غير دينها الأصلى ... وكالموقع الجغرافى للبلد ، وحالة الجو ، وطبيعة الأرض ، وما تشتمل عليه من تضاريس وجبال وفجوات وخلجان ، والحدود الطبيعية التى تفصل أجزاء الأمة الواحدة أو تفصل المناطق الناطقة بلغة واحدة بعضها عن بعض ... وهلم جرا .

ويتصل علم اللغة كذلك بعلوم الطبيعة ووظائف الأعضاء والتشريح والبيولوجيا والأنتروبولوجيا . فهو يستعين ببحوث علم الطبيعة فى تحليل الصوت والوقوف على خواصه وقوته ومدته وموجاته وذبذبته وانتشاره وما يتصل بذلك . ويستعين بالتشريح والفيزيولوجيا الانسانية (وظائف أعضاء الانسان) فى الوقوف على مخارج الحروف وتحليل أعضاء النطق والسمع ، والوقوف على وظائفها ، وكيفية قيامها بهذه الوظائف ، واختلافها باختلاف الأفراد ، واختلافها فى الفرد الواحد باختلاف سنه ، واختلافها باختلاف الأمم ، واختلافها فى الأمة الواحدة باختلاف عصورها ، وبيان أثر هذه الظواهر جميعها وما اليها فى اللغة نشأتها وتطورها . ويستعين بالبيولوجيا (علم الحياة) والأنتروبولوجيا

(علم الانسان) فى الوقوف على نشأة الفصيلة الانسانية، ونشأة مراكز اللغة عند الانسان ونشأة أجهزة السمع والنطق ، والتطورات التى اجتازتها الفصيلة الانسانية فيما يتعلق بالتكوين الجسمى وعلى الأخص تكوين أعضاء السمع والنطق ، وفى الوقوف على قوانين الوراثة وانتقال الصفات الجسمية من الأصول الى الفروع ، وبيان أثر هذه الظواهر كلها وما اليها فى اللغة الانسانية نشأتها وانتشارها وتطورها (١) .

وحمادى القول : ان علم اللغة يتصل بكل طوائف العلوم ؛ غير أن صلته بأفراد فصيلته ، ونعنى بها العلوم الاجتماعية ، أشد من صلته بالطوائف الأخرى . — على أن ما يصدق على علم اللغة بهذا الصدد ، يصدق على ما عداه من العلوم ؛ فالمعارف الانسانية كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا .

هذا ، وتشتد حاجة علم اللغة الى الطبيعة والفيزيولوجيا والتشريح والأنتروبولوجيا فى بحوثه الخاصة بالأصوات « شعبة الفونيتيك (٢) » ، على حين أن حاجته الى الاجتماع وعلم النفس والتاريخ والجغرافيا تشتد فى بحوثه المتعلقة بالدلالة « شعبة السيمنتيك (٣) » والمتعلقة بحياة اللغة (٤) ... وما الى ذلك .

- ٩ -
مناهج البحث فى علم اللغة

يراد بمناهج البحث الطرق التى يسير عليها العلماء فى علاج المسائل والتى يصلون بفضلها الى ما يرمون اليه من أغراض . وقد تقدم لك أن العلوم تتفق جميعها فى اتجاهاتها الأساسية وفى وجهة

(١) لم يفكر علماء اللغة فى الاستعانة بعلوم الطبيعة والفيزيولوجيا والتشريح والبيولوجيا والأنتروبولوجيا الا منذ عهد قريب .

(٢) انظر موضوع هذه الشعبة بصفحة ٧ (رقم ٣) .

(٣) انظر موضوع هذه الشعبة بصفحة ٧ (رقم ٤) والصفحات التالية لها .

(٤) انظر موضوع هذه البحوث فى صفحة ٧ (رقم ٢) .

نظرها الى الظواهر التى تعالجها وفى الأغراض العامة التى ترمى اليها من وُراء دراستها . وقد كان لزاما ، وهى متفقة فى هذه الأمور ، أن تتحد فيها بعض مناهج البحث . ولذلك كان من بين منـــاهج البحث بعض طرق تستخدم فى مختلف فروع العلوم . — ويطلقون على هذه الطرق اسم « الطرق العامة » أو « مناهج البحث المشتركة » .

ولكن لكل فرع منها موضوعات معينة وأغراضا يمتاز بها عما عداه من الفروع . وقد نجم عن هذا أن اســـتخدم كل علم منها فى دراسته — زيادة على الطرق العامة التى سبق ذكرها — طرقا خاصة به تتفق مع طبيعة موضوعاته وتدعو اليها مميزات ظواهره وما يرمى اليه من أغراض خاصة به .

ولكل شعبة من شعب العلم الواحد مســـائل متميزة تختلف فى بعض خواصها ومظاهرها عن مسائل الشعب الأخرى . ولذلك نرى أن العلم الواحد قد يستخدم فى دراسته لموضـــوع من موضوعاته طرقا لا يستخدمها ، ولا ينبغى استخدامها ، فى موضوع آخر من العلم نفسه .

وعلى هذا السنن سار علم اللغة فى دراساته : فاستخدم طرقا عامة يشترك فيها مع غيره من البحوث العلمية ؛ واستخدم كذلك طرقا خاصة به تقتضيها طبيعة الظواهر التى يعرض لدراستها ولا تتلاءم مع غيرها؛ وامتازت كل شعبة من شـــعبه عما عداها ببعض طرق دراســـية تواتى طبيعة مسائلها وتحقق أغراضها من أقرب سبيل .

وسنعرض بايجاز فيما يلى لأهم هذه الطرق معلقين على كل منها بما يوضح نوعها ونواحى استخدامها ويبين منشأها وما بها من محاسن وعيـــوب .

(الطريقة الأولى) طريقة الملاحظة المباشرة

أى التى لايلتجأ فيها الى التجارب ولا تستخدم فيها الأجهـــزة،

بل يقتصر فيها على ملاحظة الظواهر اللغوية فى حالاتها العادية ، ولا يستعين فيها الباحث بغير حواسه وقواه العقلية .

وفى هذه الطريقة يشترك علم اللغة مع عـدد كبير من العلوم الأخرى وبخاصة العلوم الطبيعية . ـ وهى أقدم طريقة اسـتخدمها الباحثون فى علم اللغة ، ولا تزال الى الآن من أهم طرقهم ، واليها يرجع الفضل فى معظم ما وصلوا اليه . فعلى ضوء الملاحظة استطاعوا أن يقسموا الظواهر اللغوية الى أقسـام متميزة ويرجعوها الى طوائف محددة ويردوا الفروع الى أصولها ، فنظمت بذلك موضوعات العلم ونسقت فروعه وسهلت دراسته . وبفضل هذه الطريقة كذلك كشف العلماء عن كثير من الحقائق المتصلة بنشأة اللغة وحياتهـا وتطورها ووظائفها والعلاقات التى تربط ظواهرها بعضها ببعض والتى تربطها بما عداها والقوانين الخاضعة لها فى مختلف نواحيها .

وتنقسم الملاحظة أقساما كثيرة باعتبارات مختلفة :

فتنقسم باعتبار نوع الظواهر اللغوية التى تعالجها الى قسمين : ملاحظة صـوتية phonétique وهى ملاحظة الظواهر اللغوية المتعلقة بالصـوت ؛ وملاحظة دلاليـة sémantique وهى ملاحظة الظواهر اللغوية المتعلقة بالدلالة .

وتنقسم باعتبار نوع اللغات التى يتناولها البحث الى قسـمين : ملاحظة اللغات الحية ؛ وملاحظة اللغات الميتة . أما ملاحظـة اللغـات الحية فسبيلها واضحة ؛ وأما ملاحظة اللغات الميتة فتتحقق بالرجوع الى ما وصل الينا عنها فى المؤلفات والوثائق والآثار ... وما الى ذلك . ــ وملاحظة اللغات الميتة كبيرة الأهمية فى الدراسات اللغوية على العموم وفى دراسة نشأة اللغات وتطورها على الخصوص . فلو اقتصر علماء اللغة على ملاحظة اللغات الحية لـما وصلوا الى شىء يعتد به بصـدد التطور اللغوى ، ولتعرضـت بحوثهم وآراؤهم بهذا الصـدد للزلل والاضطراب ، وما كان يتاح لعلمهم فى هذا الأمد القصير أن يصل الى

ما وصل اليه من حقائق وقوانين تنتظم جميع الظواهر اللغوية . وذلك أن ارتقاء اللغات وتطورها لا تظهر آثارهما جلية واضحة الا بملاحظة مرحلة طويلة من مراحل التاريخ الانسانى ، وهذا لا يتاح الا بدراسة اللغات الميتة من بطون الكتب والآثار . وقد بدأ علم اللغة بداءة حسنة بهذا الصدد ، فقد وجه الباحثون فيه منذ نشأته عناية كبيرة الى دراسة اللغـــات الميتة القديمة ، بل ان عناية القدامى منهم بملاحظة اللهجـــات الحية واللغات الحاضرة لم تكن شيئا مذكورا بجانب عنايتهم بدراســـة ما دثر من اللغـــات (١) .

وتنقسم الملاحظة كذلك باعتبار تعلقها بشخص الملاحظ (بكسر الحاء) أو بغيره الى قسمين : أحدهما الملاحظة الذاتية Subjective وهى أن يلاحظ الباحث ما يصدر عنه هو من ظواهر لغوية ويدون ملاحظاته ويحللها ليصل على ضوئها الى تحقيق ما يرمى اليه ، أو أن يكلف شخصا آخر أن يلاحظ ما يصدر عنه (عن ذلك الشخص الآخر) من ظواهر لغوية ويطلب اليه أن يصفها له ، فيدون هذا الوصف ويحلله ويوازنه بملاحظات أخرى ويستخدمه فى علاج ما تعنيه دراســته . وثانيهما الملاحظة الخارجية Objectif وهى ملاحظة الباحث لما يصدر عن شخص آخر من ظواهر لغوية بدون أن يكون لهذا الشخص الآخر أى دخل فى الملاحظة . وهذا القسم الأخير ينقسم هو نفسه قسمين : ملاحظة خارجية سلبية Passive ، وملاحظة خارجية إيجابية Positive . فالسلبية هى ما يترك فيها الملاحظ (بفتح الحاء) على حالته الطبيعية ، بأن يقتصر الباحث على الاستماع اليه وهو يتحدث حديثا عاديا . والايجابية هى ما يعمل فيها الباحث على توجيه الشخص الذى تجرى عليه الملاحظة وجهة معينة ، بأن يلقى عليه أسئلة خاصة فى الموضوعات التى يهمه بحثها ليصل على ضوء اجاباته الى الوقوف على ما يعنيه الوقوف عليه .

---

(١) سنتكلم عن هذا بتفصيل فى أثناء كلامنا عن تاريخ البحوث اللغوية (انظر الفقرة التالية) .

وقد أخذ علماء اللغة على طريقة الملاحظة بمختلف أنواعها مآخذ كثيرة ، وتبين لهم نقصها فى كثير من الشئون .

فكثير من العلماء لا يثقون بالملاحظة الذاتية (ملاحظة الباحث لما يصدر عنه هو من ظواهر لغوية) ويرتابون فى كل ما يصل عن طريقها من حقائق . وذلك أنهم يرون أن قوى العقل فى أثناء ملاحظة الانسان لما يصدر عنه ويقوم به من ظواهر لغوية تكون موزعة مشتتة: فهى تشرف على اصدار الظواهر اللغوية وتلاحظ فى الوقت نفسه ما تصدره من هذه الظواهر . وتكون النتيجة أن كلا الأمرين (الاصدار والملاحظة) يكون ناقصا غير طبيعى ، لعدم تفرغ القوى العقلية له ولاشتغالها بشىء آخر فى أثناء قيامها به . هذا اذا لاحظ الباحث نفسه فى أثناء قيامها بالظاهرة اللغوية . أما اذا لم يشغل نفسه بالملاحظة الا بعد الفراغ من الظاهرة اللغوية ، فان ملاحظته فى هذه الحالة تكون منصبة على ما تستعيده ذاكرته من عناصر الظاهرة التى فرغ منها . وملاحظة كهذه لا يوثق بها ، لأنه من المتعذر أن يتذكر الانسان كل ما أصدره أو قام به تذكرا صحيحا لا نقص فيه ولا زيادة ولا تغيير ولا تبديل .

هذا الى أن عزم الشخص على ملاحظة ما يصدر عنه من ظواهر لغوية ، سواء أراد أن تجرى هذه الملاحظة فى أثناء قيامه بالعمل أو بعد فراغه منه ، يحمله على توجيه قسط من انتباهه للعمل فى أثناء صدوره. وتوجيه الانتباه لعمل ما من الأعمال العادية فى أثناء صدوره يشوهه ويجعله يصدر فى صورة غير طبيعية . ألا ترى أنك لو حاولت أن تعرف مثلا كيف تكتب أو كيف تمشى لاعتراك اضطراب فى أعصابك فتتشوه كتابتك وتتعثر فى مشيتك ؟

وكثيرا ما يكون علماء اللغة متأثرين فى أثناء ملاحظتهم لما يصدر عنهم من ظواهر لغوية ببعض مبادىء ونظريات ، فمهما حاولوا الدقة فى الملاحظة فان هذه المبادىء والنظريات تفسد عليهم أحكامهم وتبعدها عن الحقيقة من حيث لا يشعرون .

وكثيرا ما تغرى الملاحظة الذاتية الباحثين بالتسرع فىأحكامهم . فقد يكون بعض ما يصدر عنهم من ظواهر لغوية خاصا بهم لا يشترك معهم فيه غيرهم من الأفراد . فالاقتصار على الملاحظة الذاتية فى حالات كهـذه يغرر بالباحثين ويجعلهم ينظرون الى أمور فردية نظرتهم الى ظواهر عامة .

هذا الى أن الفرد لا يمكن أن يمثل فى حياته الفردية الا ناحية يسيرة من ظواهر لغته . فالاقتصار على الملاحظة الذاتية يجعل دائرة البحث ضيقة كل الضيق .

على أن ثم ظواهر لغـوية كثيرة لا تمكن فيهـا مطلقا الملاحظة الذاتية . ومن ذلك الظواهر اللغوية فى أدوار الطفولة الأولى . وذلك لأن الطفل لا يشعر بما يصدر عنه وما يقوم به من ظواهر لغوية شعورا دقيقا ولا يستطيع أن يصفه وصفا يعتد به .

وقد دلت التجارب على خطأ الملاحظة الذاتية حتى فى الظواهر اللغوية الداخلية التى لا يدركها بشكل مباشر الا المتكلم نفسه كحركات اللسان مثلا فى أثناء النطق بصوت ما . فقد ظهر للبـاحثين بعد أن استخدموا الأجهزة الدقيقة فى دراسة هذه الطائفة من الظواهر فساد كثير من النظريات القديمة التى كان مصدرها الملاحظة الذاتية .

وكثير من العلماء لا يطمئن كذلك الى المـلاحظة الخارجية فى شكليها السلبى والايجابى. أما شكلها السلبى فلبطئه وضآلة محصوله. فاذا اقتصر الباحث على ملاحظة الناس فى حالاتهم العادية فقد ينقضى عمره قبل أن يتم له تحقيق مسألة لغوية واحدة . وأما شكلها الايجابى فلأنه عرضة للزلل وخطأ التأويل . فقد لا يفهم الملاحظ (بفتح الحاء) حق الفهم ما يلقى عليه من أسئلة فيجيب اجابات مضللة . هذا الى أن شعوره بأن لغته موضوع ملاحظة يغير من اتجاهها ويخرج بها عن حالاتها الطبيعية .

ووجهت كذلك اعتراضات كثيرة الى الملاحظة الصـوتية (ملاحظة

الظواهر اللغوية المتعلقة بالصوت) . فقد أخذ كثير من العلماء على هذه الملاحظة أنها تعتمد على الأذن الانسانية ، وأن هذه الحاسة غير دقيقة فى تمييز أنواع الصوت وادراك خصائصه .

ويزيد من فساد ادراكاتها ثلاثة أمور :

(أحدها) تأثر السامع بالشكل الكتابى للكلمة ، فلا يسمعها على الوجه الذى لفظت به ، بل على الوجه الذى يتفق مع رسمها . فكثيرا منا ينطق مثلا بالعبارات الآتية على هذا النحو: «ضارِ لْعلوم»، « مسألَ صعبَ جدًّا » . « جَرِ تّلْمَصْرى » ، « صوْط جميل » : ولكن يخيل لمن يسمعها اذا كان ملما بالقراءة والكتابة أنه يسمعها على النحو الآتى : « دار العلوم » « مسألة صعبة جدا » « جريدة المصرى » « صوته جميل » . وذلك لتأثره فى سماعها بالشكل الذى ترسم به .

(وثانيها) أن السامع يوجه قسطا كبيرا من انتباهه فى أثناء السماع الى مدلول الكلمات والعبارات ولا يعنى كثيرا بادراك الأصوات . وهذا الاتجاه الذى لا يستطيع أى سامع أن يتحرر منه تمام التحرر يجعل ادراكه السمعى عرضة للزلل . فهو بمجرد أن يدرك معنى الكلمة ، وذلك يتحقق بسماع بعض حروفها ، وبمجرد أن يدرك معنى الجملة ، وذلك يتحقق بادراك بعض كلماتها ، ينصرف عن سماع الباقى فلا يدركه ادراكا سمعيا صحيحا . تعمد مثلا تحريف بعض كلمات فى جملة وناقش السامع فيما سمعه ، تر أنه لم يتبين هذا التحريف . قل مثلا لزائر « ازّىْ صِحِّتَ » فانه يسمعها « ازاى صحتك » ولا يتبين حذفك لكاف الخطاب ، وقل مثلا فى أثناء التحسر على شخص : « بسكين الراجل ده » ، فان المخاطب يسمعها « مسكين » ولا يفطن لاستبدال الباء بالميم .

(وثالثها) أن غرابة الصوت على الأذن ، أى عدم ايلافها سماعه من قبل ، يجعلها تدركه ادراكا خاطئا . ويظهر هذا من سماعك لكلمات

لغة أجنبية لا تعرفها ، فانك لا تكاد تتبين الأصوات التى سمعتها ولا تستطيع اعادتها صحيحة لأول مرة .

ولكن ، على الرغم من جميع هذه المآخذ ، لا تزال طريقة الملاحظة المباشرة من أهم الطرق المستخدمة فى علم اللغة ومن أعمها نفعا وأكثرها انتاجا . ولا يمكن لأية شعبة من شعبه الاستغناء عنها ، بل ان بعض الشعب لا يواتيها فى بحوثها الا هذه الطريقة (1) .

غير أن هذه الاعتراضات ترشدنا الى اتخاذ احتياطات كثيرة بهذا الصدد . فمن ذلك :

١ — أن الاقتصار على شكل واحد من أشكال الملاحظة المباشرة يعرض الباحث للزلل وخطل الرأى . فينبغى أن تتضافر جميع أشكال هذه الطريقة ويدعم بعضها بعضا ليسد ما فى كل منها من نقص ويصلح ما به من فساد . وذلك بأن نجمع بين الملاحظة الذاتية والملاحظة الخارجية السلبية والملاحظة الخارجية الايجابية ، ونتخذ فى كل منها من وسائل الحيطة ما يكفل بعده عن مظان الخطأ والريبة التى أشرنا اليها فى الاعتراضات السابقة .

٢ — وأنه من الخطأ الاقتصار على طريقة الملاحظة المباشرة فى دراسة « الفونيتيك » (دراسة المظهر الصوتى فى اللغة) ، بل الواجب أن تضم اليها طرق أخرى أدق منها فى علاج هذه الظواهر ، كطريقة الأجهزة والمقاييس التى سيأتى الكلام عنها .

٣ — وأن استخدام هذه الطريقة فى « الفونيتيك » يتطلب من الباحث أن يكون دقيق الاحساس مرهف السمع . وذلك لايتحقق الا اذا عنى بتربية هذه الحاسة وأخذها فى كل شئونها بالدقة وعودها الضبط وقوة التمييز . فقد تستطيع حينئذ أن تقوم بما يعجز عن القيام

(1) فشعبة « السيمنتيك » مثلا تعتمد فى أهم بحوثها على طريقة الملاحظة المباشرة ولا يواتيها غيرها .

به أدق الأجهزة . على أنها فى حالاتها العادية قـــد بلغت فى بعض ادراكاتها درجة من الدقة لم يبلغ مثلها بعد أى جهـاز صناعى . فهى تدرك احساسات سمعية كثيرة فى آن واحد وتميز بينها ، وتستطيع أن تحس فروقا لغوية دقيقة لا يقوى على تسجيلها أحدث جهاز . فقـد يبلغ الشخص فى اجادة لغة أجنبية درجة لا يستطيع معها أدق الأجهزة أن يسجل فرقا بين نطقه ونطـق أبنائها ، ولكنه بمجرد أن يلفظ امام أحدهم كلمات منها يدرك السامع من فوره أن المتكلم أجنبى ويحس ما فى أصواته من غرابة ومخالفة للمألوف . والقـرى المتقاربة قـد تتقارب لغات أهلها لدرجة لايقوى معها أى جهاز على تسجيل فرق بينها، ولكن بمجرد أن ينطق أحدهم أمام آخر ببعض كلمات يستطيع السامع أن يدرك ان كان المتكلم من أهل قريته أو من غيرها .

وخير طريقة تسهل على الأذن القيام بوظائفها وتعودها الدقـة فى ادراكاتها ، أن يأخذ الباحث نفسه بما يسمونه « الكتابة السمعية »؛ وذلك بأن يعنى بتدوين الكلمات عقب سماعه لهـا مباشرة بالشـكل الذى يتفق مع الأصوات التى لفظت بها وبدون أن يدع لرسمها العادى أى أثر على نفسه فى أثناء ذلك. ويتطلب هذا النوع من الكتابة حروف هجاء أكثر من حروف الهجاء المصطلح عليها. وذلك أنه فى هجائنا العادى لايوجد لكل صوت الا حرف واحد، مع أن هذا الصوت يختلف اختلافا كبيرا فى شكله ونبرته وقوته ومدة النطق به... باختلاف الكلمات والجمل وباختلاف موقعه فى الكلمة أو العبارة ، ويختلف النطق به فى كل حالة من هذه الحالات باختلاف الأفراد والمناطق ... وهلم جرا . واليك مثلا اللام فى الله : فانها تارة ترقق (بالله مثلا) وتارة تفخم (والله وتالله مثلا) ، وأحيانا لا يقف اللسان عندها وأحيانا يستمر صوتها مدة طويلة (اذا أراد السامع التأكيد فى قسم مثلا) . ولا ينطق بها فى القسم كما ينطق بها فى غير القسم (فنطقك باللام فى والله اذا كانت الواو عاطفة ليس كنطقك بها اذا كانت واو قسم) . فينبغى فى « الكتابة السمعية»

أن يكون لكل شكل من أشكال اللام حرف خاص يرمز اليه . واليك مثلا آخر حرف الجيم : فان النطق به يختلف اختلافا كبيرا باختلاف المناطق والأفراد وباختلاف الكلمات . ففى العالم العربى وحده يوجد عدد كبير من أصوات الجيم . فالجيم المنقلبة عن قاف عربية يختلف النطق بها عن الجيم الأصلية ، وكلتا الجيمين يختلف النطق بها باختلاف المناطق ، فلكل من سكان الصعيد وسكان الدلتا والحجازيين واليمنيين والسوريين واللبنانيين والعراقيين والمغاربة ... فى نطق كل جيم منهـا أسلوب صوتى خاص يختلف عن أسلوب من عداهم ، بل ان بلاد المنطقة الواحدة لتختلف أحيانا بهذا الصدد فيما بينها اختلافا غير يسـير . فينبغى فى « الكتابة السمعية » أن يكون لكل شكل من أشكال الجيم حرف خاص يرمز اليه . وما قلناه فى اللام والجيم يصدق على ماعداهما من الحـروف .

(الطريقة الثانية) طريقة الأجهزة فى دراسـة الفونيتيك (علم الأصوات)

ان عدم دقة الأذن الانسانية فى تمييز أنواع الصوت وخصائصه وادراك نبراته وقياس قوته ومدته ، والعوامل الكثيرة المحيطة بها والتى تجعل مدركاتها عرضة للزلل .. كل أولئك قد حمل علماء الفـونيتيك (دراسة أصوات اللغة) على البحث عن وسيلة أخرى تبرأ من كل هذه العيوب ، فاهتدوا الى طريقة الأجهزة . وهى آلات تدار بطرق خاصة فلا تغادر صغيرة ولا كبيرة مما يتعلق بالصوت الا أحصتها وسجلتها بشكل دقيق مضبوط . وبذلك تستحيل ظواهر الصـوت الى علامات مخطوطة تقاس باليد وتحسها العين ، وتغنى الباحث عن استخدام أذنه وتقيه شر أخطائها ، وتجعل بحوثه مبنية على أسس متينة صادقة لايتطرق اليها الشك ولا يأتيها الباطل .

وترجع الحقائق التى ترشدنا اليها هذه الأجهـزة الى طائفتين مختلفتين : أحدهما تتعـلق بطبيعة الأصوات ، والأخـرى تتعـلق بمخـارجها .

فبالتأمل فيما تسجله هذه الأجهزة من العلامات الممثلة لنبرات الصوت وقوته ومدته ... وما الى ذلك نستطيع أن نقف على طبيعته ، وبالتأمل فيما ينطبع فيها بصدد الأعضاء التى تلفظه نستطيع أن نقف على مخارجه .

ومن ثم انقسمت طرقهم بهذا الصدد الى طريقتين لكل طريقة منهما أجهزة خاصة : احداهما يسمونها طريقة « التدوين المباشر » Inscription directe وهى التى نقف بفضلها على مخارج الحروف، والأخرى يسمونها «طريقة العلامات» Méthode Graphique وهى التى نقف بفضلها على طبيعة الصوت .

أما طريقة « التدوين المباشر » فترمى الى الوقوف على الأعضاء التى تشترك فى لفظ صوت ما وانتقالات كل عضو منها فى أثناء لفظه، عن طريق أجهزة تترك فيها هذه الأعضاء وهذه الانتقالات أثرا مباشرا. وهذه الأجهزة كثيرة متنوعة . فمنها « السقف الصناعى » وهو آلة على شكل سقف الحلق يغطى ظاهرها بطبقة من الحكك أو ما شاكله وتركب فى الفم بحيث يكون باطنها ملصقا بسقف الحلق ، ويطلب الى الشخص النطق بحرف من الحروف التى يشترك فى لفظها اللسان وسقف الحلق فعندما يتصل لسانه بسقف حلقه يترك فى المادة الجيرية اثرا . ومن هذا الأثر وموضعه من الجهاز يتبين للباحث ، فى صورة واضحة ، المكان الذى يلتقى فيه اللسان بسقف الحلق فى أثناء النطق بهذا الحرف .

وأما طريقة العلامات فهى أهم كثيرا من الطريقة الأولى وأعظم منها فائدة وأكبر أثرا فى تقدم هذا العلم ، وهى ترمى الى الوقوف على طبيعة الصوت أى على خواصه ومميزاته من حيث نبرته وقوته ومدته ... وما الى ذلك ، عن طريق أجهزة تحس هذه الخواص وتسجلها بعلامات وخطوط دقيقة الدلالة بهذا الصدد . وذلك أنه بالتأمل فى هذه الخطوط وقياسها والنظر فى اتجاهاتها نستطيع أن نقف بطريقة مضبوطة

على مختلف الخواص المميزة للصوت الذى نختبره وعلى مبلغ كل خاصة منها ودرجتها . وكل جهاز من هذه الأجهزة يشتمل على ثلاثة أجزاء :

١ ـ الكاشف Explorateur ، ويوضع على العضو الذى يراد دراسة حركته فى أثناء النطق للوقوف على خاصة من خواص الصوت . ويختلف شكل الكاشف وتركيبه باختلاف الأعضاء التى يوضع عليها. وهو موضوع بطريقة تجعله يحس احساسا دقيقا كل ما يقوم به العضو من حركة مهما كانت ضئيلة .

٢ ـ المدون Inscripteur وهو على شكل قلم متصل بالكاشف، يتحرك حركات معينة تبعا لحركات العضو التى يحسها الكاشف ، ويخط فى أثناء تحركه خطوطا تمثل ، فى اتجاهاتها وأطوالها وأشكالها ، حركات العضو .

٣ ـ المسجل Enregistreur وهى اسطوانة تدور حول محورها يخط عليها المدون الخطوط السابق ذكرها، والغرض من دورانها أن تقع الخطوط منفصلة بعضها عن بعض .

ولكل جهاز من هذا النوع نظام خاص فى سيره وتركيبه وحل رموزه ، ويستخدم عدد كبير من هذه الأجهزة فى وقت واحد فى أثناء النطق ، فيوضع جهاز على الرئة وآخر على القلب وثالث على القصبة الهوائية ورابع على الحنجرة وخامس على الأنف وسادس على الفم ... وهلم جرا . فعلى ضوء الخطوط التى تظهر فى سجلات هذه الأجهزة نستطيع ـ بعد قياسها وحل رموزها ـ أن نقف على مختلف خواص الصوت الذى نجرى عليه الاختبار وأن نصفه وصفا دقيقا لا لبس فيه ولا ابهام .

هذا ، وقد شاع تسمية البحوث القائمة على طريقة الأجهزة باسم «الفونيتيك التجريبى» Phonétique Expérimentale أى دراسة

الصوت دراسة تجريبية ، ولكن هذه التسمية غير صحيحة ، لأننا لسنا بصدد تجارب أى تغيير الظروف العادية المحيطة بالظاهرة أو بالشخص الملاحظ ، بل بصدد ملاحظة فى ظروف طبيعية عادية ، ولكن عن طريق أجهزة ومسجلات آلية لا عن طريق الأذن والحواس الانسانية . ــ حقا ان الباحث قد يلجأ احيانا الى التجربة اى الى تغيير الظروف المحيطة بالظاهرة أو بالشخص الملاحظ ، ولكن هذا لم يحدث الا فى حالات نادرة لم نحصل منها على نتائج ذات بال . ومهما يكن من شىء فلم تكن التجارب هى الغرض الأساسى الذى دعا الى اختراع الأجهزة وليست هى الغرض الأساسى الذى يدعو الى استخدامها ، وانما أهم ما قصد من اختراعها وما يقصد من استعمالها هو ملاحظة الظواهر عن طريق آلة دقيقة ، لا عن طريق الأذن التى كثيرا ما تضلل الباحثين .

وقد مهد لهذا الأسلوب من البحوث العلامة مارى Marey باستخدامه أجهزة من هذا القبيل فى « الفيزيولوجيا » (علم وظائف الأعضاء) . ولكن أول من استخدمه فى الظواهر اللغوية هو العلامة روسلو Rousselot ، وكان ذلك عام ١٨٩٠ . وهو الذى أطلق على البحوث القائمة على هذه الطريقة اسم « الفونيتيك التجريبى » أى « علم الصوت التجريبى » . ويلتمس له العذر فى اطلاق هذا الاسم الخاطىء . ففى عصره كانت تطلق كلمة « التجريبى » على كل ماتستعمل فيه الأجهزة ولو لم يكن للتجارب حظ فيه .

(الطريقة الثالثة) الطريقة التجريبية

تقوم هذه الطريقة ــ كما أشير الى ذلك فيما سبق ــ على تغيير الظروف العادية المحيطة بظاهرة لغوية ما او المحيطة بالشخص الذى تجرى عليه الملاحظة ، بحيث يمكننا الوقوف ، من طريق سهل مختصر مأمون العواقب ، على مايتعذر الوقوف عليه فى الظروف العادية أو على ما يقتضينا الوقوف عليه فى الظروف العادية اسرافا فى الوقت والمجهود .

وعلى هذه الطريقة تعتمد طائفة كبيرة من العلوم الطبيعية كالطبيعة والكيمياء والتاريخ الطبيعي وما الى ذلك . فأهم ما كشفه الباحثون فى هذه العلوم يرجع الفضل فيه الى الطريقة التجـريبية . ولو أنهم اقتصروا على ملاحظة الظواهر فى حالاتها العادية لما وصلوا الى عشر معشار ما وصلوا اليه . فعالم الطبيعة مثلا لا يكتفى فيما يتعلق بالجذب والكهربائية والمغناطيسية والضغط الجـوى ... وما الى ذلك بملاحظة ظواهرها فى حالاتها العادية ، ولا ينتظر حتى تحدث الظاهرة التى يريد دراستها ، بل يخلقها خلقا فى معمله ويغير من الظـروف المحيطة بها ويختبر النتائج التى تنجم عن تجاربه ، وعلى ضوء هذا كله يصـل الى كشف القوانين الخاضعة لها فى مختلف أحوالها وأوضاعها .

أما العلوم الانسانية ، فلم تنتشر فيها هذه الطريقة انتشارا كبيرا ولم يتجاوز استخدامها فيها دائرة ضيقة . وذلك أن معظم الظـواهر التى تدرسها العلوم الانسانية لاتواتيها طريقة التجارب . فليس فى طاقة الباحث أن يخلق مثلا نظاما من النظم الاجتماعية ويحـور فيه وفى الظروف المحيطة به وينظر الى النتائج التى تنجم عن كل حـالة من حالاته كما يفعل هذا حيـال ظاهرة جذب أو حيال نبات أو حيوان .

ولكن هذا لم يثن الباحثين فى العلوم الانسانية عن الانتفاع بهذه الطريقة ما استطاعوا الى ذلك سبيلا . فاستخدمت أولا فى علم النفس، وشاع استخدامها فيه حتى أصبحت الآن معظم الظواهر النفسية ، من حفظ وذكر وانتباه وتداعى معان .. وما الى ذلك ، تدرس على النحو التجريبى الذى تدرس به ظواهر الطبيعة . ثم أخذ استخدامها منـذ عهد قريب ينتشر فى العلوم الاجتماعية وخاصة علم اللغة .

وقد صادفت ميدانا فسيحا فى شعبة « الفونيتيك » . فلم يكتف الباحثون فى هذه الشعبة بملاحظة الظواهر اللغوية فى ظروفها العادية، بل لجئوا فى مواطن كثيرة الى التجارب ، أى الى خلق الظواهر واثارتها وتغيير أوضاعها والظروف المحيطة بها وبالأشخاص الذين تجرى عليهم

الملاحظة . ووصلوا بفضل هذه الطريقة — على الرغم من قرب العهد بها — الى كثير من النتائج القيمة بصدد العلاقة بين اللفظ والسمع، وأخطاء الأذن ، والفرق بين الأصوات الغنائية والأصوات الكلامية ، واختلاف النطق بالحروف باختلاف الأمم والمناطق وباختلاف السن ، وتعلم اللغات الأجنبية ، وكسب الطفل للغته ، وتعليم الصم الكلام ... وهلم جرا . وينتظر أن يتسع نطاق هذه الطريقة فى المستقبل وأن يصل الباحثون على ضوئها الى حل كثير من المشكلات الصوتية التى لا تزال قائمة الى الآن .

وقد يصحب التجربة فى هذه الشعبة استخدام الأجهزة كماتقدمت الاشارة الى ذلك ؛ ولكن هذا ليس ضروريا . فالطريقة التجريبية تتحقق فى كل حالة يحاول فيها الباحث تكوين ظاهرة لغوية أو اثارتها ولو لم يستخدم فى ذلك أى جهاز صناعى ؛ كأن يطلب الى الشخص الذى تجرى عليه الملاحظة أن ينطق بكلمة ما ، أو يغير من أوضاع حروفها ويطلب اليه النطق بها أو ينطق بها أمامه ويطلب اليه تكرار ما سمعه... وهلم جرا .

واستخدمت هذه الطريقة كذلك فى الظواهر اللغوية المتعلقة بالدلالة (السيمنتيك) ، ووصل بفضلها العلماء الى نتائج ذات بال وبخاصة فى دراسة اللهجات واللغات العامية (الدياليكتولوجى) . فلم يكتف الباحثون فى هذه الناحية بملاحظة الأشخاص وهم يتحدثون فى حالاتهم العادية ، بل لجئوا كذلك الى التجارب أى اثارة الظواهر اللغوية وتوجيهها فى النواحى التى تتيح لهم الوقوف على حقيقة أو استنباط قانون .

ومن الواضح أن تجارب هذه الشعبة لا مجال فيها لاستخدام الأجهزة . فمادة التجارب فيها لا تتجاوز الأسئلة والأجوبة ، ووسائل اصدار الظواهر وتسجيلها وملاحظتها لاتتجاوز أعضاء الجسم والقوى العقلية . وذلك بأن يطلب الباحث مثلا الى الشخص الذى تجرى

عليه الملاحظة أن يعبر عن معنى أو يصف مظهرا أو يذكر له كلمة ويطلب اليه ذكر مترادفاتها أو يريه شيئا ويطلب اليه بيان اسمه أو أسمائه فى لغته ، أو يعمل عملا ويطلب اليه التعبير عما يدل عليه ، أو ينطق أمامه بجملة صحيحة ويطلب اليه تفسيرها بلغتـه العـامية ، أو بجملة خاطئة ويطلب اليـه أن يرشده الى ما فيها من نقص بصدد الدلالة ... وهـلم جـرا .

هذا ، ولم يتح للطريقة التجريبية من ظروف النجاح والانتشار فى علم اللغة ما أتيح لغيرها . فهى لا تزال تسير فيه بخطى بطيئة ، بل لا يزال بعض علمائه ينظرون اليها بعين الريبة ولا يثقون كل الثقة بما تصل اليه من نتائج . وذلك أنهم يرون أن تغيير الظروف العادية المحيطة بظاهرة لغوية قد يخرج بها عن طبيعتها ويصورها فى غير صـورتها الحقيقية ، فيتعرض الباحث للخطأ فى الحكم اذ يلتبس عليه الطبيعى بالمتصـنع .

ورأيهم هذا على ما فيـه من مبالغة فى الشـك ، يرشدنا الى ما يحف بهذه الطريقة من أخطار والى وجوب استخدامها بقصد وحرص واتخاذ أقصى ما يمكن اتخاذه من وسائل الحيطة لاتقاء الزلل واللبس وللتمييز بين الطبيعى والمتصنع من أعمـال الأفراد الذين تجرى عليهم التجـارب .

(الطريقة الرابعة) طريقة قياس الغابر على الحاضر .

ترشدنا الملاحظة الى كثير من التطورات التى اعتـورت اللغات القديمة فى مختلف مظاهرها . فقد اختلفت كل واحدة منها فى أصواتها ودلالتها وقواعدها وأساليبها ... باختـلاف عصورها وباختلاف الأمم الناطقة بها . ومن الواضح أن عالم اللغة لا يقنع بتسجيل هذه التطورات ووصفها وصف المؤرخ الأمين ، بل يبحث كذلك عن أسبابها ويعمـل على كشف العوامل التى أدت اليها .

ولما كان من الصعب الاهتداء بشكل مباشر الى هذه الأسـباب

والعوامل لتعلقها بظواهر قد تقادم عليها العهد ، اســـتخدم العلماء للوصول اليها طرقا غير مباشرة . ومن هذه الطرق « طريقة قياس الغابر على الحاضر » . فللوقوف على أسباب مظهر من مظاهر التطور فى لغة قديمة يبحثون عن تطور مشبه له فى اللغات الحديثة ويدرسون أسبابه (وأسباب التطورات الحديثة لايحتاج كشفها الى كبير عناء لوضـــوح أثرها وقرب العهد بها) ، ثم ينظرون الى أى مدى يمكن أن تكون أسباب التطور القديم مشبهة لهذه الأسباب .

واستخدام هذه الطريقة فىتطورات الدلالة (السيمنتيك) محفوف بالأخطار وعرضة للزلل . وذلك أن العوامل التى تؤدى الى تطوراللغة فى معانى كلماتها وقواعدها وأساليبها ... قلما تتحد فى عصرين أو فى لغتين . لأن معظمها يرجع الى ظواهر اجتماعية وتاريخية وســـياسية وجغرافية وثقافية ... وهلم جرا ... ومن الواضح أن هذه الطائفة من العوامل لا يمكن أن تتكرر بشكل واحد ولا أن تتحـــد نتائجها فى عصرين ولا فى أمتين . فمن المجازفة اذن أن نعزو تطورا دلاليا حـــدث فى لغة قديمة الى عوامل مماثلة للعوامل التى أحدثت تطورا يشـــبهه فى لغة حديثة .

أما فيما يتعلق بالناحية الصوتية من اللغة (الفونيتيك) فلا ضـــير من استخدام هذه الطريقة . وذلك أن التطورات الصوتية يرجع معظمها الى أمور تتعلق بأعضاء النطق ، وطريقة أدائهـــا لوظائفها ، وتأثرها بالظواهر الجغرافية ، وأساليب انتقالها بطريق الوراثة من الأصـــول الى الفروع ... وما الى ذلك . وعوامل هذه طبيعتها قلما تختلف آثارها باختلاف العصور والأمم . فعلى ضوء العوامل التى أدت الى تطـــور صوتى فى لغة حديثة ، نستطيع أن نصل الى كشف العوامل التى أدت الى تطور مشبه له فى لغة قديمة .

(الطريقة الخامسة) طريقة الموازنة Méthode Comparative

تقوم هذه الطريقة على الموازنة بين الظواهر اللغوية فى طائفـــة

من اللغات لاستنباط خواصها المشتركة ، وللوقوف على وجوه الاتفاق والخلاف فى عواملها ونتائجها ، وللوصول من وراء هذا كله الى كشف القوانين العامة الخاضعة لها فى مختلف مظاهرها .

ومع أهمية هذه الطريقة فى دراسة علم اللغة ، ومع أن العلماء قد وصلوا بفضلها الى معظم ما وصلوا اليه من حقائقه ، فانها كثيرا ماتكون عرضة للزلل والانحراف عن جادة الصواب . غير أن معظم الأخطاء بهذا الصدد لا يرجع فى الحقيقة الى الطريقة ذاتها ، وانما يرجع الى سوء استخدامها ، وخاصة الى نقص الاستقراء والتسرع فى صوغ القوانين العامة . فقد يلاحظ الباحث مثلا بصدد ظاهرة لغوية أنها قد حدثت فى طائفة من اللغات على أثر بعض أمور ، فيتعجل بوضع قانون عام يقرر فيه أن هذه الظاهرة نتيجة لازمة لهذه الأمور وحدها ، مع أن الواقع قد يكون غير ذلك . فقد لا يكون بين هذه الظاهرة وتلك الأمور علاقة سبب بمسبب ؛ وقد يظهر له اذا اتسع نطاق استقرائه أن الأمر بينهما لا يعدو مصاحبة اتفق حدوثها فى بعض اللغات ، وأن هذه الأمور قد حدثت فى لغات أخرى بدون أن تحدث هذه الظاهرة، أو أن الظاهرة قد حدثت أحيانا بدون أن تسبقها هذه الأمور . وقد يبدو له مثلا تشابه فى بعض الكلمات فى لغتين فيتسرع فى الحكم عليهما بأنهما من فصيلة واحدة ؛ مع أن الواقع قد يكون غير ذلك ، فقد يكون سبب الاتفاق أن احداهما قد اقتبست هذه الكلمات اقتباسا من الأخرى مع انتمائهما الى فصيلتين مختلفتين ، كما اقتبست السريانية عددا كبيرا من الكلمات الاغريقية ، مع أن السريانية من فصيلة اللغات السامية والاغريقية من فصيلة اللغات الهندية — الأوربية ، وكما اقتبست الفارسية الحديثة كلمات كثيرة من العربية ، مع أن أولاهما من اللغات الآرية وثانيتهما من اللغات السامية ، وكما اقتبست التركية قسما كبيرا من متن لغتها من العربية والفارسية ، مع أنها من فصيلة غير فصيلتى العربية والفارسية ، وهى الفصيلة التترية .

(الطريقة السادسة) الطريقة الاستنباطية Méthode d'Induction .

تستخدم هــذه الطريقة للوقوف على علل الظـــواهر ونتائجها اللازمة ولكشف علاقة السببية بين ظاهرتين أو أكثر .

وقد قسمها ستورت ميل أربع طرق سماها طرق الاستنباط، ووضع لكل منها ضابطا أو قانونا خاصا بها ، وهى :

طريقة التلازم فى الوقوع Méthode de concordance وهى التى يحكم بمقتضاها على ظاهرة بأنها علة لظاهرة أخرى اذا ثبت بالمشاهدة أنه كلما وقعت الأولى وقعت الثانية .

وطريقة التلازم فى التخلف Méthode de différence وهى التى يحكم بمقتضاها على ظاهرة بأنها علة لظاهرة أخرى اذا ثبت بالملاحظة أنه اذا لم تقع احداهما لم تقع الأخرى .

وطـــريقة التـــلازم فى التغـير Méthode des Variations Concomittantes وهى التى يحكم بمقتضاها على ظاهرة بأنها علة لظاهرة أخرى اذا ثبت بالملاحظة أنه كلما حصل تغير فى احداهما صحبه تغير فى الأخرى بنفس النسبة والقدر .

وطريقة البواقى Méthode des Résidus وهىالتى يحكم بمقتضاها على حادثة من مجموعة حوادث بأنها علة لناحية من ظاهرة ما اذا ثبت علميا التلازم بين مجموعة الحوادث وجميع نواحى الظاهرة وثبت كذلك أن ما عدا هذه الحادثة من المجموعة علة لما عدا هــذه النــاحية من الظــاهرة .

ولا يدخل فى نطاق بحثنا شرح هذه الطرق ومناقشتها وبيــان مدى صحة كل منها ، فهذا كله موضعه كتب المنطق . والذى يهمنــا تقريره هو أنه على الرغم من شيوع استخدام هذه الطرق فى العــلوم الطبيعية للوقوف على علل الظواهر ونتائجها اللازمة ولكشف العلاقات

التى تربط بين ظاهرتين أو أكثر ، فان علماء اللغة لم يستخدموها لهذه الأغراض الا فى حالات قليلة . وذلك أنه قد تبين لهم أن الطرق الثلاثة الأخيرة ليست مطردة فى الظواهر اللغوية (١) . فاقتصروا على استخدام الطريقة الأولى وهى «طريقة التلازم فى الوقوع» . فعند محاولتهم الوقوف — عن طريق الاستنباط — على العلاقة بين ظاهرتين لغويتين ، أو ظاهرة لغوية من جهة وظاهرة اجتماعية أو نفسية أو فيزيولوجية ... من جهة أخرى ، لا ينظرون الا الى مبلغ التلازم فى وقوعهما ، فيستقرئون الحالات التى تبدو فيها كلتا الظاهرتين ، فاذا تبين لهم أنه فى كل حالة تبدو فيها احداهما تظهر الأخرى حكموا على اللاحقة منهما بأنها نتيجة للسابقة .

- ١٠ -

تاريخ البحوث اللغوية

عرضنا فى الفقرات السابقة لعلم اللغة فى وضعه الأخير ، وسنتكلم بايجاز فى هذه الفقرة عن المراحل التى اجتازتها البحوث اللغوية حتى وصلت الى هذا الوضع ، مقسمين موضوعنا قسمين : أحدهما خاص بتاريخ هذه البحوث فى الغرب ، وثانيهما خاص بتاريخها فى اللغة العربية .

تاريخ البحوث اللغوية فى الغرب :

ظلت البحوث اللغوية عند أمم أوروبا ، حتى أواخر القرن الثامن عشر الميلادى محصورة فى دائرة ضيقة لا تعدو كثيرا مسائل علوم البنية والتنظيم والأسلوب (المورفولوجيا والسنتيكس والستيليستيك) فى أشكالها التعليمية (٢) .

---

(١) يرجع هذا الى أسباب كثيرة لا يتسع المقام لتفصيلها .

(٢) انظر صفحات ٨ — ١٠ .

فلم يكن معظم العلماء ليعرضوا لغير هذه البحوث الثلاثة الا استطرادا وفى صورة ناقصة وبطريقة تبعد كثيرا عن مناهج البحث العلمى . فمن ذلك : بعض نظرات فى أصوات اللغة (الفونيتيك) وردت فى مؤلف لكورديموا Cordemoy ظهر فى سنة ١٦٦٨ ؛ وبعض ملاحظات وتجارب على الصوت قامت بها المدارس المنشأة فى القرن الثامن عشر لتعليم الصم البكم ؛ وبعض آراء لسانت أوجيستان Saint Augustin بصدد تطور اللغة ؛ وبعض آراء فى أصول الكلمات الفرنسية والايطالية والأسبانية (ايتيمولوجيا) (١) لكلود فوشيه Claud Fauchet وبيريون Joachin Périon وهنرى اتيان Henri Estienne وميناج Ménage (الذى ألف سنة ١٦٥٠ معجما فى أصول الكلمات الفرنسية) أودان Oudin وابنه ؛ وبعض بحوث لغوية عامة وخاصة قامت بها (الأكاديميات) (المجامع اللغوية) التى أنشئت فى صدر العصور الحديثة ، كالأكاديمية الفرنسية والأكاديمية الاسبانية وأكاديمية فلورنسا (أكاديمية كروسكا Crusca) وغيرها وقام بها مؤلفو المعجمات الكبيرة ودوائر المعارف فى هذا العصر .

وثم مظهر آخر لضيق البحوث اللغوية فى هذه المرحلة ، وذلك أنها كانت مقصورة على اللغتين الاغريقية واللاتينية وبعض اللغات الأوربية الفصحى . فلم يكن للهجات الشعبية ولا لغير اللغات الأوربية فى هذه المرحلة الطويلة حظ يعتد به من الدراسة (٢) .

وفى أواخر القرن الثامن عشر حدث بهذا الصدد نهضة كبيرة يرجع معظم الفضل فيها الى كشف اللغة السنسكريتية Sanscrit وحل رموزها. فقد أزاح هذا الكشف الستار عما بين اللغات الهندية والايرانية من

---

(١) انظر معنى هذه الكلمة بصفحة ١١ رقم ٥ .

(٢) بل ان هذه اللهجات كانت محاربة ومعدودة من مصادر الخطر على الأدب . وقد بلغ العداء لهذه اللغات مبلغا كبيرا فى فرنسا ، حتى لقد عهدت الجمعية الوطنية Convention Nationale التى تمخضت عنها الثورة الفرنسية الى الأب جريجوار (أحد أعضائها) عام ١٧٩٤ أن يقدم تقريرا عما ينبغى اتخاذه للقضاء على اللهجات الشعبية الفرنسية وتعميم اللغة الفصحى .

جهة واللغات الاغريقية واللاتينية والجرمانية من جهة أخرى من تشابه وصلات قرابة وروابط وثيقة ، ومهد السبيل لانشاء علوم القواعد التاريخية والمقارنة (١) ، ووسع بذلك نطاق الدراسات اللغوية .

وكان من أشهر من افتتح هذه السبيل العلامة الألمانى شليجيل Schlegel فقد نبه أذهان العلماء الى صلات التشابه الكثيرة التى تربط اللغات الأوروبية والهندية والآرية بعضها ببعض : تلك اللغات التى رجعها العلماء من بعده الى فصيلة واحدة سموها « الفصيلة الهندية — الأوربية » كما سيأتى بيان ذلك (٢) .

ومن ذلك الحين أخذ العلماء يدرسون هذه الفصيلة دراسة علمية عميقة ويكشفون عما بين أفرادها من تشابه فى أصول الكلمات وفى قواعد الصرف والاشتقاق والتنظيم ، فبلغوا بعلم « القواعد المقارن » شأوا راقيا . وكان من أنبه أفراد هذه الحلبة ذكرا وأجلهم أثرا فى هذه النهضة عالمان ألمانيان هما بوب Franz Bopp (٣) وجريم Jacques Louis Grimm (٤)

وقد مهدت بحوث « علم القواعد المقارن » السبيل الى بحوث « علم القواعد التاريخى » . فانتقل العلماء من الموازنة بين اللغات الهندية الأوروبية الى الموازنة بين مظاهر كل لغة منها فى مراحلها المختلفة ، ومن البحث فى تفرع هذه اللغات بعضها من بعض وتفرعها عن أصل واحد الى البحث فى الطريقة التى تسلكها كل لغة منها على حدتها فى تطورها وارتقائها من جميع نواحيها وبخاصة من ناحية قواعدها . — وكان من أشهر من افتتح هذا السبيل جاك لويس جريم

---

(١) انظر صفحات ٨ ، ٩ ، ١٠ .

(٢) انظر الفصل الثانى من الباب الثانى .

(٣) ولد بماينس Mayence عام ١٧٩١ ، وتوفى عام ١٨٦٧ . — ومن أشهر مؤلفاته كتاب « القواعد المقارنة للغات الهندية — الأوربية » .

(٤) هو أول من كتب فى الفيلولوجيا الجرمانية ولد عام ١٧٨٥ وتوفى عام ١٨٦٣ .

السابق ذكره ودييز[1] Friedrich Diez وبراشيه Auguste Brachet [2]
وقد استمدت هذه الدراسات اللغوية بعض موادها من بحـوث فى آداب اللغات الأوروبية بالعصور الوسطى قام بها قبيل ذلك العصر وفى أثنائه جماعة من مؤرخى الأدب ، ومن أشـهرهم بولان باريس Paulan Paris [3] ورينوآر François Reynouar [4] .

ثم انتقل البحث من هذه الدائرة المقصورة على اللغات الهندية ـ الأوروبية الى دائرة عامة ترمى الى كشف القوانين التى تخضع لها كل لغة انسانية فى تطورها وارتقائها من حيث أصواتها وقواعد تصريفها.. وما الى ذلك . وقد افتتح هـذه الحلبة العـلامة الألمانى ماكس مولر Max Müller [5] وتبعـه كثيرون من أشـهرهم العلامة الانجليزى سيس Archibald-Henry Sayce [6]

---

(١) فردريك دييز من أشهر علماء الفيلولوجيا الألمان ، ولد عام ١٧٩٤ وتوفى عام ١٨٧٩ . ـ ومن أشهر مؤلفاته « معجم فى أصول مفردات اللغات الرومانية » و « قواعد اللغات الرومانيـة » (واللغـات الرومانية Langues Romanes هى اللغات المتفرعـة من اللاتينية) .

(٢) ولد بتور من أعمال فرنسا سنة ١٨٤٤ وتوفى بها سنة ١٨٩٨ . وكان أستاذا للفيلولوجيا بمعهد الدراسات العليا بفرنسا . ومن أشهر مؤلفاته : « بحث فى القواعد التاريخية للغة الفرنسية » و « معجم فى أصول كلمات اللغة الفرنسية » .

(٣) ولد عام ١٨٠٠ ، وتوفى عام ١٨٨١ ، وله مؤلفات قيمة فى آداب اللغة الفرنسية بالعصور الوسطى .

(٤) ولد عام ١٧٦١ وتوفى عام ١٨٣٦ ، وله بحوث قيمة فى آداب اللغة الفرنسية بالعصور الوسطى .

(٥) ولد ببلدة ديسو Dessau من أعمال ألمانيا عام ١٨٢٣ وتوفى بأكسفورد عام ١٩٠٠ . وهو ابن الشاعر غليوم مولر ، تخرج من جامعتى ليبزج وبرلين ، ثم رحل الى باريس حيث حضر دروس الأستاذ برنوف Burnouf فى اللغـة السنسكريتية . ثم ذهب الى انجلترا واستقر بأكسفورد حيث عين أستاذا بجامعاتها للآداب واللغات الحديثة ثم أستاذا للقواعد المقارنة . ومن أشهر مؤلفاته «دروس فى علم اللغة» ظهر عام ١٨٦١ و « دروس حديثة فى علم اللغة » ظهر عام ١٨٦٤ . وكان لهذين الكتابين شأن كبير فى القرن السابق . وله كذلك مؤلفات كثيرة فى الأديان وتاريخها .

(٦) ولد ببلدة شـيريهمتون Shirihempton بجوار مدينة بريسـتول Pristol عام ١٨٤٦ . وقد خلف ماكس مولر فى تدريس القواعد المقارنة بجامعة اكسفورد . وله نظريات ومؤلفات كثيرة فى هذا العلم من أشهرها : « أصـول الفيلولوجيـا المقـارنة » و « مقدمة فى علم اللغة » . ـ وقد كان كذلك من شهيرى المستشرقين ، وله عدة مؤلفـات فى كثير من اللغات السامية وبخاصة اللغة الآشورية القديمة .

وقد كان لزاما أن يصل العلماء فى تعقبهم لأصول اللغات ومراحل ارتقائها الى أقدم مرحلة للتعبير الانسانى ، وأن يحاولوا الكشف عن منشأ اللغة فى الفصيلة الانسانية وعن الأسس الأولى التى قام عليها التخاطب بالأصوات ذات الدلالات الوضعية . وقد استأثرت هذه المشكلة بقسط كبير من نشاطهم فى منتصف القرن التاسع عشر ، وانقسموا بصددها الى فرق كثيرة سيأتى الكلام عنها فى الباب الأول من هذا الكتاب . — ومن أشهر من عرض لهذا الموضوع الفيكونت دوبونالد (١) Viconte de Bonald وماكس مولر ، وسيس ، ورينان Renan (٢)

وفى أواخر القرن التاسع عشر ظهر عند المشتغلين بالبحوث اللغوية اتجاهان هامان كان لكل منهما أثر كبير فى النهوض بهذا العلم .

(الاتجاه الأول) يتمثل فى جعل البحوث اللغوية بحوثا علمية بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة ، وذلك باخضاعها لمناهج البحث العلمى ، وتوجيهها الى الأغراض نفسها التى ترمى اليها العلوم ، وجعل غايتها الأساسية الوصول الى كشف القوانين الخاضعة لها الظواهر اللغوية (٣)

---

(١) اسمه لويس جبرائيل امبرواز Louis-Gabriel-Ambroise ولد فى مدينة ميو Millau من أعمال فرنسا عام ١٧٥٤ وتوفى بها عام ١٨٤٠ وله مؤلفات كثيرة فى السياسة والفلسفة . وكان من أشهر المتعصبين لنظام الحكومة الملكية الخاضعة للنفوذ الدينى الكاثوليكى .

(٢) ارنست رينان Ernest Renan من أشهر المؤرخين والفلاسفة وعلماء اللغة الفرنسيين فى القرن التاسع عشر ، ولد ببلدة تريجييه Tréguier عام ١٨٢٣ وتوفى بباريس عام ١٨٩٠ . درس اللاهوت واللغات الشرقية والعلوم ومختلف فروع الفلسفة والآداب ، وتولى تدريس اللاهوت واللغة العبرية والتاريخ والفلسفة فى كثير من المعاهد . وعين عضوا بالأكاديمية الفرنسية ومديرا للكوليج دوفرانس Collège de France وله نحو خمسين مؤلفا كبيرا فى التاريخ العام وتاريخ الديانات وفى اللغات والأخلاق والفلسفة واللاهوت والسياسة وغيرها . وقد كان لمؤلفاته أكبر أثر فى الثقافة الفرنسية فى القرن التاسع عشر . ومن أشهر كتبه فى اللغات : « تاريخ اللغات السامية » و « نشأة اللغة » .

(٣) انظر صفحات ١٧ — ٢٣ .

وتخليصها من جميع المسائل الفلسفية التى لا يتفق منهج البحث فيها مع ما ينبغى أن تكون عليه مناهج البحث فى العلوم والتى لا يمكن الوصول فيها الا الى فروض وآراء ظنية لا تسمو الى درجة اليقين ولا يطمئن الى مثلها التحقيق العلمى .

وقد كان لهذا الاتجاه آثار جليلة فى مختلف فروع هذا العلم . فبفضله وضحت حدود كل فرع منهاومناهجه ، وهذبت أساليبه وطرق دراسته ، واجتذب اليه عددا كبيرا من أعلام الباحثين، فكثر الانتاج ورقى نوعه . وكان من آثاره كذلك أن انصرف العلماء عن البحث فى موضوع نشأة اللغة وتركوا دراسته للفلاسفة والميتافيزيقيين (الباحثين فيما وراء الطبيعة) (١) .

ويرجع الفضل فى توكيد هذا الاتجاه الى مدرسة ألمانية الأصل أطلق على أفرادها اسم «المحدثين من علماء القواعد» Néo-Grammairiens فقد ذهبت (هذه المدرسة الى (جبرية) الظواهر اللغوية، فقررت أن هذه الظواهر لا تسير وفقا لارادة الأفراد أو تبعا للأهواء والمصادفات، وانما تسير وفقا لقوانين لا يستطيع الفرد الى تعويقها أو تغييرها سبيلا، ولا تقل فى ثباتها وصرامتها واطرادها وعدم قابليتها للتخلف عن النواميس الخاضعة لها ظواهر الفلك والطبيعة (٢) ، وأن واجب الباحث فى هذه الظواهر ينبغى أن ينحصر فى تحليلها لكشف القوانين الخاضعة لها . ومن أشهر أفراد هذه المدرسة ليسكين Leskien وبروجمان Brugmann وأستوف Ostof وهرمان بول Hermann Paul ودلبروك Belbrück .

وقد لقى مذهبهم هذا فى مبدأ أمره مقاومة كبيرة من طوائف كثيرة وبخاصة من ثلاث طوائف :

---

(١) انظر صفحة ٦ .

(٢) انظر توضيح ذلك بصفحات ٢٠ - ٢٣ .

احداها «المدرسة الايطالية» التى كان العلامة أسكولى Ascoli من أبرز أعضائها . فقد ذهبت هذه المدرسة فى تعليل كثير من الظواهر اللغوية مذهبا يختلف عن آراء المحدثين من علماء القواعد ، ولا يتفق فى بعض مظاهره مع القول بجبرية الظواهر اللغوية .

وثانيتها «المدرسة الانجليزية» التى كان الأستاذان سيس Sayce وسويت Sweet الانجليزيان والعلامة جيسبرسن Jespersen الدانيمركى من أظهر ممثليها . فقد أنكرت هذه المدرسة جبرية الظواهر اللغوية وذهبت الى أن جميع هذه الظواهر بما فى ذلك التطورات الصوتية نفسها ترجع أهم أسبابها الى أمور يقوم بها الأفراد وتنتشر عن طريق التقليد (١) . ولعل هذه المدرسة قد تأثرت فيما ذهبت اليه بنظرية العلامة الفرنسى جبرائيل تارد Tarde الذى يذهب الى أن جميع الظواهر الاجتماعية فردية المنشأ وتصبح اجتماعية عن طريق التقليد (٢) .

وثالثتها طائفة يمثلها العلامة الفرنسى بريال Bréal فقد سلمت هذه الطائفة ، مع شىء من التحفظ ، بمذهب « الجبرية » فيما يتعلق بظواهر الصوت (موضوع الفونيتيك) ؛ ولكنها خالفت هذا المذهب فيما يتعلق بظواهر الدلالة (موضوع السيمنتيك) ، فذهبت الى أن كل التغيرات التى تحدث فى مدلولات اللغة عبارة عن اصلاحات مقصودة أو شبه مقصودة تعتمد على جهود يقوم بها الناطقون بهذه اللغة وتسير بها دائما الى حيث الكمال ، وأن من أهم هذه الجهود

---

(١) انظر كتاب الاستاذ سيس Sayce « أصول الفيلولوجيا المقارنة » Principles of Comparative philology وكتابى سويت Sweet «تاريخ أصوات اللغة الانجليزية» History of English Sounds و « الدراسة العملية للغة » The Practical Study of Languge وكتابى جيسبرسن Jespersen : « تطور اللغة » The Progress of Language و « اللغة طبيعتها وتطورها ومنشؤها » .
Language : Its nature, development and origin

(٢) انظر كتابه « قوانين التقليد Lois de l'Imitation » .

ما يبذله الأدباء والكتاب فى كل عصر للنهوض باللغة (١) .

(والاتجاه الثانى) يتمثل فى التخصص فى دراسة فرع واحد أو بعض مسائل من فرع من بحوث اللغة . ولذلك انصرف المحدثون من علماء اللغة عما كان يحاوله القدامى من معالجة جميع المسائل ، وآثر كل منهم التفرغ لناحية من البحوث اللغوية . وكان لهذا الاتجاه فضل كبير فى النهوض بمختلف شعب هذا العلم .

ومن بين هذه الشعب خمس شعب اتسع نطاق البحث فيها اتساعا كبيرا فى هذا العصر، وتخصص فى دراستها كثير من العلماء، واستأثرت بقسط وافر من نشاطهم ، فوصلت الى شأو عظيم فى النضج والكمال بعد أن لم تكن شيئا مذكورا فى المراحل السابقة، وهى : «الفونيتيك» Phonétique أو دراسة الأصوات (٢) ، و « الدياليكتولوچيا » Dialectologie أو دراسة اللهجات العامية (٣) ، و « السيكولوجيا اللغوية» Psychologie Linguistique أو علم النفس اللغوى ، وهو دراسة العلاقة بين الظواهر اللغوية والظواهر النفسية بمختلف أنواعها وبيان أثر كل منها فى الآخر (٤) ، « والسيمنتيك » Sémantique أو دراسة اللغة من ناحية الدلالة (٥) ، و « السوسيولوچيا اللغوية » Sociologie Linguistique أو علم الاجتماع اللغوى ، وهو دراسة العلاقة بين اللغة والظواهر الاجتماعية وبيان أثر المجتمع ونظمه وتاريخه وتركيبه وبنيته ... فى مختلف الظواهر اللغوية (٦) .

---

(١) انظر كتاب الأستاذ بريال « بحث فى السيمنتيك » . وبريال هو أول من سمى هذه الشعبة باسم « السيمنتيك » . وسننقد هذه النظريات جميعها فى مواطنها .

(٢) انظر صفحات ٧ (رقم ٣) ، ٢٣ (رقم ٥) ، آخر ٣٨ — ٤٢ . — وسنقف فصلا خاصا على دراسة هذه الشعبة (الفصل الخامس من الباب الثانى) .

(٣) انظر صفحات ٧ (رقم ٢) ، وآخر ٤٧ وأول ٤٨ . — وسنعرض لهذا الموضوع بتفصيل فى الفصل الخاص بتفرع اللغة (الفصل الأول من الباب الثانى) .

(٤) انظر ص ١٣ (رقم ٧) ، ١٤ ، ٣١ .

(٥) انظر آخر ٧ — ١١ ، ٢٣ ، ٤٧ .

(٦) انظر صفحات ١٢ (رقم ٦) ، ١٣ ، ٢٦ ، ٢٨ .

١ - أما شعبة (الفونيتيك) فيرجع الفضل فى النهوض بها الى طائفة كبيرة من العلماء فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين وخاصة مدرسة «المحدثين من علماء القواعد Néo-Grammairiens التى سبقت الاشارة اليها (١) . فقد وجد أعضاء هذه المدرسة فى مسائل « الفونيتيك » ، ما يؤيد مذهبهم فى « جبرية الظواهر اللغوية (٢) » ، فخصوا هذه الشعبة بعنايتهم ووجهوا نحوها قسطا كبيرا من جهودهم ، فبلغوا بها شأوا راقيا وكشفوا عن الأسباب الصحيحة التى يرجع اليها تطور الأصوات اللغوية . - ومن أشهر المبرزين فى هذه الحلبة من أعضاء هذه المدرسة وغيرهم :

ليسكين Leskien وبروجمان Brugmann وأستوف Ostoff وهرمان - پول Hermann-Paul . وأربعتهم من أقدم الأعضاء الألمان لمدرسة « المحدثين من علماء القواعد » . والى رابعهم يرجع النصيب الأكبر من الفضل فى توجيه الأنظار الى أثر التغيرات الجسمية الخاصة بأعضاء النطق فى تطور اللغة من ناحيتها الصوتية . وقد مهد بذلك السبيل الى علم الفونيتيك التجريبى الذى أشرنا اليه فيما سبق (٣) .

وجاستون باريس Gaston Paris وهو أول فرنسى فكر فى انشاء معمل للتجارب المتعلقة بدراسة الأصوات (وقد أنشأه بالكوليج دو فرانس Collège de France) . والى جهوده العظيمة فى دراسة تطور الأصوات فى اللغات الرومانية (وهى اللغات المتفرعة من اللاتينية) يرجع أكبر قسط من الفضل فى النهوض بهذه الشعبة وفى تأييد نظرية « المحدثين من علماء القواعد » .

وبول باسى Paul Passy الذى تعد بحوثه فى التطورات الصوتية وعواملها من أجل ما ألف فى هذه الشعبة (٤) .

---

(١) انظر صفحات ٥٧ وتوابعها .

(٢) انظر صفحات ٢٠ - ٢٣ ، ٥٧ ، ٥٨ .

(٣) انظر صفحات ٤٢ - ٤٥ .

(٤) من أشهر مؤلفاته فى ذلك بحث فى « دراسة التطورات الصوتية فى اللغة » Etudes sur les changements Phonétiques وقد ظهر هذا الكتاب عام ١٨٩٠ .

وروسلو Rousselot ، وهو أول من استخدم الآلات فى دراسة الصوت ، وأنشأ بذلك الشعبة الشهيرة التى سماها « الفونيتيك التجريبى» (١). — ويرجع الفضل فى توجيه روسلو هذا الاتجاه الجديد الى الأساتذة مارى Marey وهرمان پول Hermann Paul وجاستون پاريس Gaston Paris كما سبقت الاشارة الى ذلك (٢) .

٢ — وأما الدياليكتولوجيا ، أو دراسة اللهجات الشعبية واللغات العامية ، فقد كان مهملا كل الاهمال قبل أواخر القرن التاسع عشر لأسباب كثيرة : منها أن العلماء كانوا يحاربون اللغات العامية ويرون فيها مصدر خطر على الأدب كما سبقت الاشارة الى ذلك (٣) ؛ ومنها أنهم وجدوا فى اللغات الفصيحة وفى اللغات القديمة مجالا واسعا للبحث استأثر بكل نشاطهم ؛ ومنها أن دراسة اللغات الشعبية والعامية كانت تتطلب الأسفار والرحلات والاختلاط بسكان الريف ، وعلماء اللغة فى ذلك العصر كانوا يؤثرون الدراسة الهادئة فى المكاتب والتنقيب فى بطون المؤلفات .

ولم تبد العناية بهذه الشعبة الا منذ عهد قريب ، ولكنها خطت فى هذا الأمد الوجيز خطوات واسعة حتى كادت تلحق الفروع الأخرى بل سبقت بعضها . ويرجع الفضل فى النهوض بها الى طائفة من أعلام الباحثين فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين من أشهرهم :

« جاستون باريس » الذى سبقت الاشارة اليه بين المبرزين من علماء الفونيتيك . وهو أول فرنسى نادى بوجوب دراسة اللهجات الشعبية واللغات العامية . وقد أنشأ بمعهد الدراسات العالية بفرنسا

---

(١) انظر صفحات ٤٢ — ٤٥ .

(٢) انظر صفحتى ٤٥ ، ٦٠ هذا ، ومن أشهر مؤلفات روسلو كتابه فى «التغييرات الصوتية فى اللغة » Les Modifications Phonétiques du Langage الذى كان له أكبر أثر فى النهوض بهذه الشعبة .

(٣) انظر صفحة ٥٣ والتعليق الثانى من تعليقاتها .

Ecole Pratique des Hautes Etudes قسما خاصا لهذه الشعبة ، واليه يرجع الفضل فى تمهيد الطريق لدراسة كثير من اللغات الشعبية الفرنسية

والايطاليـــان « كورنو » و « أســكولى » Cornu et Ascoli اللذان تعد مؤلفاتهما فى هذه الشعبة من أجل البحوث .

والأساتذة الفرنسيون «تورتولون» Tourtoulon و «برنجييه» Bringuiet و « أنطوان توماس » Antoine Tomas و «البرت دوزا» Albert Dauzat الذين كان لجهودهم المشكورة فى دراسة اللغات الشعبية الأوربية ، وبخاصــة اللغـــات الرومانية (وهى المتفرعة من اللاتينية) واللهجات الفرنسية ، أثر كبير فى النهوض بهذه الشعبة (١).

وأشـــهر من هـؤلاء جميعا عالمان اقتســما بينهمـا دراســة «الدياليكتولوجيا» . فعنى أحدهما بناحيتها الصــوتية (الفونيتيكية) ، وهو الأب روسلو الذى سبقت الاشارة اليه أكثر من مرة ؛ وعنى الآخر بناحيتها الدلالية (السيمنتيكية) وهو العلامة چيليرون Gillieron .

ثم انتشر الاشتغال بهذه الشعبة بين جميع علماء (الفونيتيك) وجميع علماء (السيمنتيك) وذلك لما تبين لهم من أهميتها فى دراستهم.

وقد أصبح الآن من المتعذر أن يدرس أى موضوع لغوى بدون الاستعانة بهذه الشعبة .

٣ ــ وأما علم النفس اللغوى Psychologie Linguistique فقد تضافر على النهوض به عوامل كثيرة ، من أهمها اتساع البحوث المتعلقة بكسب الطفل للغة وارتقاء الدراسات الخاصة بأمراض اللغة (الأفازيا Aphasie).

---

(١) من أشهر مؤلفات «أنطوان توماس» : بحث فى الفيلولوجيا الفرنسية Essais de Philologie Française « وبحوث فى الايتيمولوجيــا » (أصــول الكلمات) الفرنســية Mélanges d'Etymologie Française ظهر أولهما عام ١٨٩٧ وثانيهما عام ١٩٠٢ .

ومن أشهر مؤلفات العلامة « دوزا » فى هذه الشعبة كتابه « اللغات العامية أو الريفية » Les Patois وكتابه « دراســات لغوية للهجات أوفيرنى الســفلى » فى أربعة أجــزاء Etudes linguistiques sur la Basse-Auvergne

أما الأستاذان (تورتولون) و (برنجييه) فقد قضيا شطرا كبيرا من حياتهما فى دراسة بعض اللهجات الفرنسية .

فقد كثرت الاصابات بهذه الأمراض فى أثناء الحرب العالمية الأولى بين الجنود وغيرهم ، فأتاح هذا فرصا واسعة للبحوث والتجارب فى هذه السبيل . وقد ظهر للعلماء على ضوء هذه الدراسات قوة الصلة التى تربط مظاهر اللغة بمختلف المظاهر العقلية ، وتبين لهم أن كل دراسة لغوية لا تقوم على دراسة القوى النفسية وكل دراسة نفسية لا تقوم على دراسة اللغة تكون ناقصة مبتورة ، قليلة الجدوى ، فاسدة النتائج . فعكف علماء النفس وعلماء اللغة على دراسة « علم النفس اللغوى » ، وجعله كل فريق منهم شعبة مستقلة من بحوث علمه ، وتوفر على دراسته عدد كبير من أعلامهم فبلغوا به شأوا راقيا فى النضج والكمال . ومن أشهر من برز فيه الأساتذة : ريبو (١) Ribot وبالى (٢) Bally وبولان (٣) Paulhan وبوردون (٤) Bourdon وبرونو (٥) Brunot وجيوم (٦) Guillaume وفان جينيكين (٧) Van Ginnken وباولو فيتش (٨) Pavlovitch وبياجيه (٩) Piaget وسان - بول (١٠) Saint-Paule وسيجلاس Seglas (١١) والعلامة فرديك جارلاندا (١٢) Fréderic Garlanda وأستاذى المأسوف عليه العلامة هنرى دولاكروا Henri Delacroix عميد كلية الآداب بجامعة السربون وأستاذ علم النفس بها سابقا : فقد وقف قسطا كبيرا من جهوده

---

(١) انظر على الأخص الفصل الثانى من كتابه تطور المعانى الكلية Evolution des Idées Générales وكتابه « أمراض الذاكرة » Les Maladies de la Mémoire

(٢) انظر على الأخص كتابيه بالفرنسيه : «اللغة والحياة» و «بحث فى علم الأسلوب»

(٣) انظر على الأخص كتابه بالفرنسية : « الوظيفة المزدوجة للغة » Double Fonction du Langage

(٤) انظر كتابه بالفرنسية : « التعبير الطبيعى عن الانفعال واتجاهات اللغة » .

(٥) من أشهر مؤلفاته بهذا الصدد كتابه بالفرنسية : « اللغة والتفكير » .

(٦) انظر كتابه بالفرنسية : « التقليد عند الطفل » وعلى الأخص القسم الثانى الذى وقفه على التقليد فى اللغة .

(٧) انظر كتابه بالفرنسية : « أصول علم اللغة النفسى » .

(٨) انظر كتابه بالفرنسية : « لغة الطفل » .

(٩) انظر كتابه بالفرنسية : « التفكير واللغة عند الطفل » .

(١٠) انظر كتابه بالفرنسية : « الكلام النفسى » .

(١١) انظر كتابه بالفرنسية : « أمراض اللغة » .

(١٢) انظر كتابه بالايطالية : « فلسفة اللغة » .

العلمية على هذه الشعبة وقام فيها ببحوث قيمة ، ألقى بعضها علينا في جامعة السربون ، ونشر بعضها فى كثير من المجلات النفسية والفلسفية ، وضمن كثيرا منها كتابه الشهير : « اللغة والتفكير » Le Langage et La Pensée (١)

٤ — وأما « السيمنتيك » (أى دراسة اللغة من ناحية الدلالة) فقد كان لنهضة الشعب الثلاث السابقة أثر كبير فى الارتقاء به من ناحيتى الطريقة والمادة . فقد تهذبت طريقته تحت تأثير (الفونيتيك) ، واتسعت مادته وكثر انتاجه بفضل دراسات « الدياليكتولوجيا » (علم اللهجات) و « علم النفس اللغوى » .

وذلك أن علماءه قد اعجبوا بالاتجاه العلمى الذى نحا اليه زملاؤهم علماء « الفونيتيك » والذى أشرنا اليه فيما سبق (٢) فأخذوا يسيرون على غرارهم ويختطون لأنفسهم فى علاج مسائل الدلالة خططا جديدة أدنى الى الكمال وأقرب الى مناهج البحث العلمى، فأهملوا جميع الطرق التى يسيطر عليها النظر الفلسفى ولا تؤدى الى نتائج يقينية ، واستخدموا ، زيادة على طريق الملاحظة التى كان يقتصر عليها كثير من القدامى ، طرقا حديثة أخرى كطريقة التجارب وقياس الغابر على الحاضر والموازنة والاستنباط (٣) ، واتخذوا في جميع هذه الطرق من وسائل الحيطة ما يكفل عصمتها من الزلل ويبعد بها عن مظان الانحراف. فأتيح بذلك لمناهج البحث السيمنتيكى ما أتيح لمناهج البحث الفونيتيكى من وسائل الرقى والتهذيب .

وكما ارتقت طريقة الدراسة فى هذه الشعبة ، اتسعت مادتها وكثر انتاجها ، وكان ذلك بفضل بحوث «الدياليكتولوجيا» (دراسة اللهجات العامية) وبحوث « علم النفس اللغوى » . فقد قدمت « الدياليكتولوجيا » مادة وفيرة لعلماء السيمنتيك وكشفت لهم عن

---

(١) انظر كذلك ما كتبه فى الجزء الثانى من كتاب علم النفس
Traité de Psychologie Par Dumas et collabolateurs

(٢) انظر صفحات ٥٦ — ٥٩ .

(٣) أنظر صفحات ٤٥ — ٥٢ .

آفاق واسعة كانت مجهولة من قبل ، وحلت لهم كثيرا من المشكلات التى استعصى حلها على القدامى منهم . وقد تبين لهم على ضوء « علم النفس اللغوى » أن أهم العوامل التى تتأثر بها اللغة من ناحية الدلالة ترجع الى أمور نفسية ، وأن كشف القوانين الخاضعة لها ظواهر شعبتهم يتوقف على الالمام بمختلف العلاقات التى تربط الظواهر اللغوية بظواهر علم النفس ، فاتجهوا الى هذا العلم يستمدون منه المعونة من جهة ويعملون على تهذيبه وتكملته وربط مسائله ببحوث شعبتهم من جهة أخرى ، فأفاد من جهودهم أيما فائدة ، وأصابت شعبتهم بفضله حظا كبيرا من النهوض والكمال .

هذا ، ومن أظهر علماء السيمنتيك أثرا فى هذه النهضة : من الانجليز العلامة (وتنى) Withney [١]؛ ومن الفرنسيين «دار مستيتير» Arsène Darmesteter [٢] و «بريال» Michel Bréal [٣] وألبير دوزا Albert Dauzat [٤] ؛ ومن الايطاليين «كروس» Croce ؛ ومن الألمان فونت Wundt وثام Thumb ومارب Marbe .

٥ — وأما « علم الاجتماع اللغوى » Sociologie Linguistique فقد تضافر على النهوض به « أعضاء المدرسة الاجتماعية الفرنسية Ecoles Sociologiques Française » التى أنشأها العلامة دور كايم Durkheim فى أوائل القرن الحاضر [٥] وطائفة من أئمة علماء

---

(١) من أشهر مؤلفاته : « حياة اللغة » (ظهر عام ١٨٧٥) و « اللغة ودراستها » (ظهر سنة ١٨٦٧) .

(٢) من أشهر مؤلفاته : « حياة الكلمات » La Vie des mots.

(٣) سبقت الاشارة الى العلامة بريال وكتبه ومذهبه فى السيمنتيك بآخر صفحة ٥٨ وأول ٥٩ .

(٤) سبقت الاشارة الى العلامة دوزا فى صفحة ٦٢ وتعليقها ، ومن أشهر مؤلفاته التى عرض فيها للسيمنتيك كتاباه : « فلسفة اللغة » و « حياة اللغة » .

(٥) من أشهر أعضاء هذه المدرسة الاساتذة ليفى برول Levy Bruhl وموس Mauss وبوجليه Bouglé وفوكونيه Fauconnet (أستاذ الاجتماع بالسربون سابقا) وهلفاكس Halbwachs ودافى Davy وقد كان لى شرف التلمذة على الأربعة الأول من هؤلاء بجامعة السربون وبالكوليج دوفرانس وشرف الاشتراك مع المرحوم فوكونيه فى طائفة من البحوث الاجتماعية ، وبعض مؤلفاتى باللغة الفرنسية مصدر بمقدمة منه .

اللغة انضمت الى هذه المدرســـة واعتنقت مذهبها ، ومن أشهرهم الأساتذة دوسوسور De Saussure ومييه Meillet وفندريس Vendryes .

وترمى هذه البحوث كما تقدم (١) الى بيان العلاقة بين اللغــة والحياة الاجتماعية وأثر المجتمع وحضارته ونظمــه وتاريخه وتركيبه وبنيته فى مختلف الظواهر اللغوية .

والى هذه الشعبة تحتاج جميع الشعب الأخرى من عــلم اللغة . وذلك أن نشأة اللغة الانسانية والأدوار التى اجتازتها ، وحياة كل لغة وما يطرأ عليها من غنى وفقر ، وقوة وضعف ، وسعة وضيق ، وانقسامها الى فنون والى لهجات ، وما تقوم به من صراع مع غيرها ، وما ينجم عن هذا الصراع ، والتطورات التى تحــدث فى أصــواتها ومعانيها وأساليبها وقواعدها ... كل أولئك وما اليه ترجع أهم عوامله الى ظواهر اجتماعية . ـــ فموضوعات البحوث التى نحن بصددها تمتزج بجميــع فروع علم اللغة وتفسر ظواهرها .

غير أن علماء الاجتماع الذين أشرنا اليهم ومن نهج نهجهم قد أخــذوا على قدامى الباحثين من علماء اللغة وعلى أعضــاء مدرســة « المحدثين من علماء القواعد » (٢) تقصيرهم فى بيان العلاقة بين الظواهر اللغوية والظواهر الاجتماعية ، وانحرافهم أحيانا عن جادة الصــواب فى هذه السبيل ، وتفسيرهم لكثير من ظواهر اللغة ، وخاصة الظواهر الصوتية ، تفسيرا خاطئا يبعد بها عن المجتمع وشئونه . فعملوا على سد هذا النقص واصلاح هذه الأخطاء ، فأنشئوا فرعا خاصا سموه « علم الاجتماع اللغوى » أو « السوسيولوجيا اللغوية » Sociologie Linguistique توفروا فيه على كشف العلاقات التى تربط بين الظواهر اللغـــوية ومختلف الظواهر الاجتماعية ، فنهضوا بالدراسات اللغوية نهضــة مشكورة . وقد زادهم قوة انضمام عدد كبير من أئمة علماء اللغة اليهم

(١) انظر صفحة ١٢ (رقم ٦) وصفحة ١٣ .

(٢) انظر الفقرة الأخيرة من صفحة ٥٧ وتوابعها .

« كفرديناند دوسوسور » Ferdinand De Saussure الذى وقف قسطا كبيرا من جهوده العلمية على هــذه البحوث (١) والأســتاذ فنــدريس Vendryes الذى نشر رســائل قيمة فى هــذا الفـــرع فى كثير من المجلات العلمية وعرج فى مؤلفاته على كثير من مسائله (٢) ، والعلامة « مييه » Meillet الذى تعد مؤلفاته من أهم مراجع علم اللغــة فى العصر الحاضر ومن أوسعها نطاقا وأدقها بحثا (٣) . ــ وقد جرت العادة أن يطلق على هذه الطائفة من اللغويين اسم « علماء اللغة المحدثين » Néo-Linguistes .

وقد أوغل بعض أفراد هذه الطائفة ، كالعلامة دوسوسور ، فى الانتصار لنظريتهم حتى كاد ينكر أن لغير العوامل الاجتماعية أثرا فى شئون اللغة ، فانبرى للرد عليهم طائفة من الباحثين فى « علم النفس اللغوى» على رأسها أستاذى المأسوف عليه دولا كروا Delacroix (٤)

---

(١) جمع تلاميذ العلامة دوســوســور بعد وفاته طائفة من بحوثه القيمة فى كتاب سموه « دروس فى علم اللغة » Cours de Linguistique Générale ، طبع بلوزان عام ١٩١٦ .

(٢) من أشهر مؤلفاته : « اللغة » Le Langage و « مقتطفات من بحوث مييه » Mélange Meillet . ومن رسائله بحث نشر بصحيفة علم النفس Journal de Psychologie عنوانه : « اللغات وصفاتها الاجتماعية ومذهب دوسوسور » .

(٣) العلامة مييه من تلاميذ فرديناند دوسوسور وهو أستاذ فى الكوليج دوفرانس ومدير معهد الدراسات العليا بباريس ورئيس « جمعية علم اللغة » بباريس . وهــو من أكثر علماء اللغة مؤلفات وأوسعهم انتاجا . وقد كتب أكثر من عشرين مجلدا ضخما فى مختلف بحوث هذا العلم ، منها : « علم اللغة التاريخى وعلم اللغة العام » و « اللغات الهندية ــ الاوربية » و « تاريخ اللغة اليونانية » و « الصفات العامة للغات الجرمانية » و « اللغات فى أوربا الحديثة » و « لغات العالم » (وهذا الكتاب كان بالاشتراك مع الأستاذ مرسل كوهين Marcel Cohen وآخرين) . وقد اشترك مع العلامة دوركايم Durkheim وأعضـــاء المدرســـة الاجتماعية الفرنسية فى اصدار « التقويم الاجتمـــاعى Année Sociologique » الذى يعد أهم مجلة أوربية فى علم الاجتماع فى العصر الحاضر . وللاستاذ مييه فى معظم أجزاء هذا التقويم بحوث قيمة فى علم اللغة ، من أهمها بحث ظهر فى المجلد التاسع عام ١٩٠٦ ، تحت عنوان « كيف تتغير معانى الكلمات » .

(٤) انظر الفصل الثانى من الكتاب الأول من مؤلفه « اللغة والفكر » . ــ فقد وقف هذا الفصل جميعه على نقد نظرية دوسوسور .

وطائفة من «علماء اللغة» على رأسها العلامة دوزا Dauzat (١) ، فعادت هذه المناقشات على علم اللغة بأحسن النتائج وأطيب الثمرات(٢)

تاريخ البحوث اللغوية فى الثقافة العربية :

ترجع أهم البحوث اللغوية فى الثقافة العربية الى الفروع الآتية :

١ ــ النحو والصرف : أما النحو فكان الغرض الأساسى منه فى مبدأ الأمر ضبط القواعد التى يسير عليها اعراب المفردات ليسهل تعلمها وتعليمها واحتذاؤها فى الحديث والكتابة ، ولتعصم الناس من اللحن الذى أخذ يتفشى منذ صدر الاسلام من جراء تطور اللغة واختلاط العرب بالعجم . ثم أخذ نطاق هذا العلم يتسع قليلا قليلا وأخذ علماؤه يعرضون لكثير من الموضوعات المتصلة بأجزاء الجملة وترتيبها ، وأثر كل جزء منها فى الآخر ، وعلاقة هذه الأجزاء بعضها ببعض ، وطريقة ربطها ، وأنواع الجمل ، وعلاقة الجمل التى تتألف منها العبارة بعضها ببعض ، وأقسام الكلمة ، وأنواع كل قسم منها ، ووظيفته فى الدلالة، حتى شمل جميع البحوث التى يطلق الفرنجة على مثلها اسم « السنتكس التعليمى» ، أى «علم التنظيم التعليمى» (٣) . ــ وأما الصرف فموضوعه ضبط القواعد المتصلة بأوزان الكلمات العربية واشتقاقها وتصريفها وتغير أبنيتها بتغير المعنى وما يتصل بذلك من البحوث التى يطلق الفرنجة على مثلها اسم « المورفولوجيا التعليمية » أى « علم البنية التعليمى (٤) .

وقد كانت العناية فى المبدأ مقصورة على البحوث النحوية ، وظل الأمر كذلك حتى أواخر القرن الأول الهجرى . ثم أخذ العلماء يعالجون

---

(١) انظر صفحات ١٨٢ ــ ١٩٥ من كتابه « فلسفة اللغة » .

(٢) سنعالج هذا الموضوع من جميع وجوهه فى الفصل الرابع من الباب الثانى .

(٣) انظر صفحة ٩ (رقم جـ) وصفحة ١٠ .

(٤) انظر صفحة ٨ (رقم ب) وص ٩ .

بعض مسائل الصرف استطرادا وفى خلال دراستهم لمسائل النحو ثم أخذت مسائل الصرف تنفصل شيئا فشيئا عن مسائل النحو ، وتدرس على حدة ، حتى تكون منها علم متميز . غير أن هذا العلم لم يستقل تمام الاستقلال عن النحو . فلا تزال طائفة كبيرة من مسائله ممتزجة بالنحو . ولم ينفك الباحثون ، الى عهد قريب ، ينظرون الى الشعبتين نظرتهم الى علم واحد ويعالجون مسائلهما فى مؤلفات واحدة (١) .

ويرجع الفضل فى النهوض بهاتين الشعبتين الى عدد كبير من أعلام الباحثين بالبصرة والكوفة وبغداد ومصر وغيرها فى العصرين الأموى والعباسى ، ومن أشهرهم أبو الأسود الدؤلى (واضع النحو بارشاد الامام على بن أبى طالب) وعنبسة الفيل ، وعبد الرحمن بن هرمز الأعرج ، ونصر بن عاصم ، ويحيى بن يعمر ، وميمون الأقرن ، وعبد الله ابن اسحق الحضرمى ، والأخفش الأكبر ، وأبو عمرو بن العلاء (وجميع هؤلاء من قدامى الباحثين من البصريين ، ولم يصل الينا شىء يعتد به من مؤلفاتهم) — وعيسى بن عمر الثقفى (وكان على رأس جماعة يرجع اليها الفضل فى نقل هذا العلم الى الكوفة ، ويقال انه ألف فى نحو البصريين أكثر من سبعين مجلدا منها كتابا «الجامع» و «الاكمال» ولكن لم يصل الينا شىء يعتد به من مؤلفاته) — وأبو جعفر الرؤاسى صاحب كتاب « الفيصل » فى نحو الكوفيين ، وأبو مسلم معاذ الهراء (وكلاهما من قدامى الباحثين من الكوفيين) — والخليل بن أحمد الذى يرجع الى جهوده القيمة ومؤلفاته الجليلة وعبقريته النادرة أكبر قسط من الفضل فى النهوض بهاتين الشعبتين وغيرهما من شعب البحوث اللسانية — وأعضاء مدرسة المحدثين من البصريين الذين كان على رأسهم سيبويه (أشهر أئمة النحو وصاحب « الكتاب » ، الذى صار اماما لكل الباحثين من بعده) ، ثم الأخفش الأوسط (شارح « كتاب » سيبويه)

---

(١) ولكن جرت عادة معظمهم أن يفرد لكل منهما أبوابا على حدة .

ثم أبو على الفارسى وأبو القاسم الزجاج (وقد كتب كلاهما كتبا مختصرة للمتعلمين يحذو فيها حذو سيبويه) ، ثم المازنى والسجستانى ثم المبرد — ومدرسة المحدثين من الكوفيين الذين كان على رأسهم الكسائى ثم الفراء (صاحب كتاب «الحدود») ، ثم ابن السكيت وابن سلام ، ثم ثعلب (وقد حدث بين هذه المدرسة ومدرسة المحدثين من البصريين خلاف فى طائفة كبيرة من المسائل وفى اعراب كثير من آى القرآن ، ونشأت بينهما مساجلات طريفة فاضت بها كتب الأخبار) — وابن خالويه (صاحب « كتاب ليس » و « رسالة فى اعراب ثلاثين سورة من القرآن) ، وابن جنى (صاحب كتب « سر الصناعة » فى النحو و «شرح تصريف المازنى» و «اللمع» فى النحو و « المحتسب » فى اعراب الشواذ» و «علل التثنية» .. وغيرها) — وجماعة المتأخرين الذين جاءوا بمذهبهم فى الاختصار والاستيعاب لجميع أبواب العلم ، فوضعوا أهم كتب النحو والصرف وأكملها وأدقها وأكثرها تهذيبا وتنقيحا ، ومن أشهرهم الزمخشرى (صاحب «المفصل» فى النحو) وابن الحاجب (صاحب «الكافية» و « الشافية » فى النحو والصرف) ، وابن معطى (صاحب ألفية فى النحو) ، وابن مالك (صاحب كتاب « التسهيل » و « الكافية الشافية » و « الألفية » الشهيرة) ، وعز الدين الزنجانى (صاحب كتاب «تصريف العزى») ، والسكاكى (صاحب كتاب «مفتاح العلوم» فى النحو والصرف والبلاغة والعروض) ، وابن هشام (صاحب كتب «القطر» و «التوضيح» و «الشذور» و «المغنى» ... وغيرها) وهو أكثر المتأخرين مؤلفات وأدقهم بحثا (١) .

٣ — علوم البلاغة ، التى تشمل ثلاثة بحوث : المعانى وموضوعه بيان ما ينبغى أن يكون عليه الأسلوب العربى ليطابق مقتضى الحال

(١) وقد شهد بذلك العلامة ابن خلدون فى مقدمته اذ يقول بصدد كتابه المغنى : « استوفى فيه أحكام الاعراب مجملة ومفصلة وتكلم عن الحروف والمفردات والجمل وحذف ماق الصناعة من المنكر فى أكثر أبوابها ، وأشار الى نكت اعراب القرآن كلها ... فوقفنا منه على علم جم يشهد بعلو قدره فى هذه الصناعة ووفور بضاعته منها ... وقوة ملكته واطلاعه » .

وليعبر عن المراد أبلغ تعبير ؛ والبيان وموضوعه شرح المناهج التى يسلكها الأسلوب العربى فى استخدام التشبيه والمجاز والكناية ؛ والبديع وموضوعه دراسة المحسنات المعنوية واللفظية التى يحتملها الأسلوب العربى . — فموضوعات البحوث الثلاثة ترجع الى ما يسميه المحدثون من علماء الفرنجة « الستيليستيك التعليمى » [١] أى « علم الأسلوب التعليمى » .

وقد كتب المتقدمون بعض بحوث فى هذه العلوم . فمن ذلك « مجاز القرآن » لأبى عبيدة ، و « اعجاز القرآن » للجاحظ ، و «البديع» لابن المعتز[٢] وبعض آراء للمبرد فى الأغراض البلاغية لتوكيد الكلام ، وبعض بحوث لقدامة بن جعفر عقب بها على بديع ابن المعتز وحاول فيها تكملته . — ولكن أول من تصدى لاستيعاب هذه البحوث الثلاثة فى مؤلف مستقل هو أبو هلال العسكرى فى كتابه «الصناعتين». ثم جاء من بعده عبد القاهر الجرجانى فميز بحوث المعانى من بحوث البيان ، ورد مسائل كل منهما الى قواعد مضبوطة سهلة المأخذ ، فكان بذلك المنشىء الحقيقى لهذين العلمين [٣] . ثم خلف من بعده خلف من الأعاجم كتبوا فى هذه العلوم بأساليب ركيكة أساءت الى البلاغة أكثر مما أحسنت اليها . ومن هؤلاء السكاكى الذى وقف قسما كبيرا من كتابه « مفتاح العلوم » على المعانى والبيان البديع ، والخطيب القزوينى الذى لخص هذا القسم فى كتابه « تلخيص المفتاح » .

٣ — علوم القراءات ، وموضوعها بيان الوجوه التى قرئت بها آى الذكر الحكيم . وقد ظلت موضوعات هذه البحوث يأخذها الناس عن القراء عن طريق التلقين ، حتى جاء العصر العباسى ،فعكف العلماء

---

(١) انظر صفحتى ١٠ (رقم د) و ١١ .

(٢) جمع ابن المعتز نحو سبعة عشر نوعا من المحسنات سماها البديع . ولم تكن جميعها ، فى الواقع ، من المحسنات البديعية ، بل كان من بينها بعض مسائل البيان كالاستعارة والكناية .

(٣) كتب عبد القادر كتابيه « دلائل الاعجاز » و « اسرار البلاغة » . وقد وقف معظم فصول الأول على المعانى ومعظم فصول الثانى على البيان .

على تدوينها ، وضبط قواعدها ، ونقد أسانيدها فقطعوا بها شوطا كبيرا فى سبيل الكمال . — وأهمية هذه البحوث من الناحية اللغوية ترجع الى الأمرين الآتيين :

(أولا) أنها تقفنا على كثير من نواحى اللهجات العربية فى صدر الاسلام . وذلك أن اختلاف القراءات يرجع بعض أسبابه الى اختلاف العرب فى لهجاتها ، والى أن الرسول عليه السلام كان يقرأ القرآن لكل قبيلة ، بوحى من الله تعالى ، بالطريقة التى تتفق مع لهجتها .

(ثانيا) أن معظم المؤلفات فى القراءات قد اشتملت على بحوث دقيقة قيمة فى أصوات اللغة العربية وطبيعتها وصفاتها وأنواعها ومخارجها ، والمد وأحكامه ومدته ، والغن ضروبه ، وتأثر أصوات الكلمة أو الكلمات المتجاورة بعضها ببعض .. وما الى ذلك من مسائل «الفونيتيك» (١) الخاصة باللغة العربية (٢) .

٤ ـ أدب اللغة وتاريخ الأدب والنقد الأدبى . — نهضت هذه الفروع نهضة كبيرة فى العصر العباسى ، ولم تنفك ، منذ ذلك العهد الى الآن ، موضع عناية الباحثين من العرب وغيرهم ، حتى أصبحت المكتبة العربية من أغنى مكتبات العالم فى هذه الناحية ، وأصبحت مراجع هذه الفروع من أكبر المراجع عددا ، وأوسعها نطاقا ، وأجلها قيمة (٣) .

٥ — متن اللغة ، وتنقسم مؤلفاته ثلاثة أقسام : —

(ا) معجمات ترمى الى شرح المفردات، فترتب الكلمات ترتيبا خاصا ليسهل على من يريد الوقوف على معنى أى كلمة الرجوع اليها

---

(١) انظر معنى هذه الكلمة بصفحة ٧ (رقم ٣) .

(٢) انظر تفصيل الكلام فى موضوع القراءات بكتابنا « فقه اللغة » الطبعة السابعة بصفحتى ١٢٢ ، ١٢٣ .

(٣) لضعف العلاقة التى تربط هذه البحوث بموضوعنا لم نر كبير حاجة للكلام عن تاريخها وأشهر المؤلفين فيها كما فعلنا فى الفروع السابقة .

فى موطنها . وأول من عمل على تدوين معجم شامل من هذا القبيل هو الخليل بن أحمد . فقد وضع كتابه « العين » ، ورتب كلماته حسب ترتيبها فى مخارج أول حروفها ، مبتدئا بأقصى الحلق (ولذلك بدأه بحرف العين الذى سمى الكتاب باسمه) ومنتهيا بالشفتين . غير أنه يظهر أن المنون قد عاجلته قبل اتمامه ، فأكمله جماعة بعد وفاته بأكثر من نصف قرن . وظهر بعد ذلك معجم « الجمهرة » لابن دريد ، وقد جمع مواده من كتاب العين ومن كتب أخرى للاصمعى وأبى عبيدة وغيرهما، ورتب مفرداته حسب ترتيب حروف الهجاء من الهمزة الى الياء. وألف الأزهرى أبو منصور محمد بن أحمد معجمه « التهذيب » على ترتيب الخليل لكتابه العين فى عشرة مجلدات . وألف الصاحب بن عباد معجمه « المحيط » فى سبعة مجلدات ، وأحمد بن فارس «المجمل» ، والجوهرى « الصحاح » الذى جمع فيه أربعين ألف مادة، « والفيروزابادى » القاموس المحيط والزمخشرى « أساس البلاغة »، والصغانى (تكملة الصحاح) و (العباب) ثم جمعها فى كتاب واحد سماه « مجمع البحرين » ، وابن منظور المصرى « لسان العرب » الذى ضمنه معظم ما كتب قبله فى هذا الباب ، والمقرى «المصباح المنير » ، والرازى « مختار الصحاح » الذى اختصر فيه صحاح الجوهرى ... وغير ذلك كثير (١) .

وهذا النوع من المعجمات قليل الفائدة للباحث فى علم اللغة . وذلك أن مؤلفيها قد وجهوا كل عنايتهم الى ذكر معانى الكلمات والاستشهاد أحيانا بالقرآن والحديث والمأثور من كلام العرب . ولكنهم أغفلوا اغفالا تاما تعقب معانى كل كلمة فى مراحل حياتها ، وشرح تطورها فى مختلف العصور ، وبيان الأصول التى انحدرت منها ، .. وما الى ذلك من مسائل «الليكسيكولوجيا » و « الايتيمولوجيا » (٢)

---

(١) انظر تفصيل الكلام فى هذا النوع من المعجمات بكتابنا « فقه اللغة » الطبعة السابعة صفحات ٢٨٢ — ٢٩٤ .

(٢) انظر صفحة ٨ (رقم أ) وصفحة ١١ (رقم ٥) .

التى تشغل الآن أكبر حيز فى المعجمات الأفرنجية الحديثة ، وتهم كثيرا طوائف الباحثين فى علم اللغة . هذا الى أن معظم هذه المعجمات العربية لم يتبع نظاما معينا فى ترتيب معانى الكلمة ، فخلط بين الحقيقى منها والمجازى ، والقديم والحديث ، كما خلط بين المعانى فى مختلف لهجات العرب ، فأصبح البحث فيها شاقا ، وجاءت مضللة فى مواطن كثيرة (١).

(ب) معجمات ترمى الى بيان المفردات الموضوعة لمختلف المعانى. فترتب المعانى بطريقة خاصة وتذكر الألفاظ التى تقال للتعبير عن كل معنى منها . فنجد أبوابها مرتبة على مثل هذا الوضع : خلق الانسان، الحمل والولادة ؛ الرضاع والفطام ؛ الغذاء السيء للولد ؛ أسنان الأولاد وتسميتها فى المراحل المختلفة ؛ شخص الانسان وقامته وصورته؛ صفات الرأس؛ قلة الشعر وتفرقه فى الرأس ... وهلم جرا . وتذكر فى كل باب المفردات التى تعبر عن موضوعه ، مرتبة ترتيبا خاصا ، ومبينة مدلولاتها ومواطن استعمال كل منها .

فالقسم الأول من المعجمات يحتاج اليه من يعرف اللفظ ويرغب فى الوقوف على معناه ، على حين أن هذا القسم يحتاج اليه من يعرف المعنى ويرغب فى الوقوف على الألفاظ الموضوعة له .

ومن أشهر ما ألف من معجمات هذا القسم خمسة كتب : أولها «كتاب الألفاظ» لابن السكيت وهو أقدم ما ألف من هذا النوع (٢)؛

---

(١) يستثنى من ذلك بعض معجمات قديمة حرصت نوعا ما على التفرقة بين الحقيقة والمجاز (أساس الزمخشرى مثلا) وبعض معجمات حديثة سارت من بعض الوجوه على غرار المعجمات الأوربية فى تنظيم الكلمات وترتيب معانيها .. وما الى ذلك . ومن هذه الطائفة « محيط المحيط » لبطرس البستانى ، و « أقرب الموارد » للشرتونى ، و « البستان » لعبد الله البستانى .

(٢) هو العلامة أبو يوسف يعقوب بن اسحق السكيت ، توفى عام ٢٤٣ أو ٢٤٦ هـ فى خلافة المتوكل . وقد راجع « كتاب الألفاظ » ونقحه وشرح شواهده وكملها وعلق عليه الخطيب التبريزى شارح ديوان الحماسة ، وضمن هذا كله كتابا سماه « كنز الحفاظ فى تهذيب الالفاظ » أى فى تهذيب « كتاب الالفاظ » لابن السكيت ، وقد عثر بمكتبة ليدن على نسخة خطية من هذا الكتاب الاخير ، فأشرف على طبعها بالمطبعة الكاثوليكية ببيروت جماعة من الآباء اليسوعيين على رأسهم الأب لويس شيخو ، بعد أن أضافوا اليها كثيرا من التعليقات اللغوية الهامة وذيلوها بشروح واصلاحات وفوائد وفهارس كبيرة القيمة .

وثانيها «الألفاظ الكتابية» للهمذانى (المتوفى سنة ٣٢٧ هـ) ؛ وثالثها « مبادىء اللغة » للاسكافى (المتوفى سنة ٤٢١ هـ) ؛ ورابعها « فقه اللغة » للثعالبى فى مجلد واحد صغير (١) ؛ وخامسها « المخصص » لابن سيده (٢) فى سبعة عشر جزءا ، وهو أدقها دراسة ، وأحسنها تنسيقا ، وأكثرها استيعابا لمسائل البحث .

وقد تناول كلا الكتابين الأخيرين ، فى أثناء دراسته لمسائله الأساسية ، بعض بحوث من فصيلة أخرى سنعرض لها عند كلامنا عن بحوث فقه اللغة (٣) .

(حـ) رسائل فى طوائف خاصة من الألفاظ أو المعانى : ككتاب أبى حنيفة فى الأنواء والنبات ؛ وكتب يعقوب فى النبات والأصوات والفرق ؛ وكتب أبى حاتم فى الأزمنة والحشرات والطير ؛ وكتب الأصمعى فى السلاح والابل والخيل ؛ وكتب أبى زيد فى المطر واللبأ واللبن والعزائز والجرائم (٤) ؛ وشرح غريب الحديث للجزرى؛ وكتاب الأضداد فى اللغة للأنبارى (٥) ؛ وكتاب نجعة الرائد وشرعة الوارد فى المترادف والمتوارد (٦) . ومن هذا النوع كذلك المعجمات الفلسفية

---

(١) هو أبو منصور عبد الملك بن محمد الثعالبى ولد فى نيسابور عام ٣٥٠ هـ وتوفى عام ٤٢٩ هـ ، وله مؤلفات كثيرة قيمة فى مختلف فروع العلوم اللسانية . — وفى تسمية كتابه هذا بفقه اللغة شىء كثير من التجوز ، وذلك انه ليس فيه ما يصح تسميته فقه اللغة بالمعنى الذى شرحناه فى الفقرة الأولى من هذا التمهيد الا نحو خمس عشرة صفحة (الباب التاسع والعشرون) . أما ما عدا ذلك فمتن لغة مرتب حسب فصائل المعانى .

(٢) هو أبو الحسن على بن اسماعيل الأندلسى المتوفى عام ٤٥٨ هـ .

(٣) ص ٧٦ — ٧٨ .

(٤) ذكر هذه الكتب صاحب المخصص من بين الكتب التى رجع اليها فى مؤلفه (انظر الجزء الأول من المخصص صفحتى ١١ ، ١٢) .

(٥) هو محمد بن القاسم محمد بن بشار الانبارى ، جمع فى كتابه هذا طائفة كبيرة من الألفاظ التى يطلق كل منها على المعنى وضده وشرحها شرحا وافيا مستشهدا بما ورد بصددها فى كلام العرب شعره ونثره .

(٦) كتاب حديث للشيخ ابراهيم اليازجى اللبنانى ، ضمنه طائفة من الألفاظ المترادفة فى مختلف الشئون وطبع بمطبعة المعارف عام ١٩٠٤ .

والعلمية وما اليها ، ككشاف اصطلاحات الفنون للتهانوى ، والتعريفات للجرجانى ، والكليات لأبى البقاء .. وهلم جرا (١) .

وهذا النوع من المعجمات كان أسبق فى الظهور من النوعين السابقين . فقد ظهر بعض كتب منه فى صدر العصر العباسى .

٦ — بحوث فى « فقه اللغة العربية » وبعض مسائل من « علم اللغة العام » (٢) :

فمن ذلك دراسة الأصمعى للاشتقاق فى اللغة العربية .

ومعظم البحوث التى ضمنها ابن فارس (٣) كتابه « الصاحبى : فى فقه اللغة وسنن العرب فى كلامها» ، كبحثه فى : نشأة اللغة العربية(٤) ؛ وخصائص اللسان العربى ؛ واختلاف لغات العرب ؛ ولغات العامة من العرب ؛ والقياس والاشتقاق فى اللغة العربية ؛ وآثار الاسلام فى اللغة العربية ؛ وأسماء الأشخاص ومأخذها ؛ والمترادف ؛ وحروف الهجاء العربية ؛ وحروف المعنى ؛ وسنن العرب فى حقائق الكلام والمجاز والنحت والاشتراك ... وهلم جرا .

والبحوث التى ضمنها ابن جنى (٥) كتابه « الخصائص » : كبحثه

---

(١) انظر أمثلة أخرى من هذا النوع من المعجمات فى كتابنا « فقه اللغة » الطبعة السابعة صفحات ٢٧٩ — ٢٨١ .

(٢) أنظر المعنى الذى نقصده من « فقه اللغة العربية » و « علم اللغة العام » بصحتى ١٥ ، ١٦ .

(٣) هو أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا القزوينى ، من أشهر أئمة اللغة فى القرن الرابع الهجرى .

(٤) درس ابن فارس هذا الموضوع من وجهة نظر ضيقة ، فتساءل هل اللغة العربية توقيف أم اصطلاح ، وذهب الى أنها توقيف بدليل قوله تعالى : « وعلم آدم الأسماء كلها » . وهو بذلك يظن ان اللغة العربية نشأت مع الانسان الاول . وجميع من عرضوا لهذا الموضوع من مؤلفى العرب لم يتجاوز بحثهم هذا النطاق الساذج ما عدا ابن جنى ومن نهج نهجة كما سنذكر ذلك .

(٥) هو أبو الفتح عثمان بن جنى ولد عام ٣٣٠ وتوفى عام ٣٩٢ هـ وهو من أشهر علماء النحو واللغة وأدقهم بحثا وأكثرهم انتاجا .

فى أصل اللغة وهل هى الهام أم اصلاح (١) ؛ والقول فى هذه اللغة أفى وقت واحد وضعت أم تلاحق تابع منها بفارط، والاطراد والشذوذ، ومقاييس العربية ؛ والألفاظ والمعانى فى اللغة العربية ؛ وتعليل ظواهر اللغة ومدى قصد العرب لهذه العلل ؛ والقياس فى كلام العرب؛ وتركيب اللغات ، واختلاف اللهجات ، واتفاق اللفظين واختلاف المعنيين؛ والاشتقاق الأكبر؛ وتصاقب الألفاظ لتصاقب المعانى؛ وامساس الألفاظ أشباه المعانى (٢) ... وهلم جرا .

وبعض البحوث التى عرض لها ابن سيده فى مقدمة كتابه المخصص كالبحث فى نشأة اللغة العربية (٣)، والتى عرض لها فى الأجزاء الأخيرة من هذا الكتاب كالبحوث المتعلقة بالتضاد ، والترادف ، والاشتراك ، والاشتقاق ، والتعريب والمجاز ، والممدود والمقصور ، والتذكير والتأنيث ، وابدال الحروف بعضها من بعض ... وهلم جرا .

وبعض بحوث قليلة ضمنها الثعالبى كتابه « فقه اللغة » : كالبحث فيما يجرى مجرى الموازنة بين العربية والفارسية (أسماء فارسيتها مبتة وعربيتها محكية مستعملة ؛ أسماء عربية يتعذر وجود فارسية أكثرها؛ أسماء قائمة فى لغة العرب والفرس على لفظ واحد ؛ أسماء تفردت بها الفرس دون العرب فاضطرت الى تعريبها أو تركها كما هى ؛ مانسبه بعض الأئمة الى اللغة الرومية) (٤) .

والبحوث التى ضمنها أبو منصور الجواليقى (٥) كتابه « المعرب

---

(١) عرض ابن جنى مختلف الآراء بهذا الصدد ومنها آراء ذهب الى مثلها كثير من علماء الفرنجة فى العصور الحديثة وناقشها مناقشة متزنة حيكمة تشهد بسعة اطلاعه وقوة تفكيره .

(٢) عرض ابن جنى فى الأبواب الثلاثة الأخيرة من الجزء الأول من كتابه لموضوعات هامة فى فقه اللغة وهى دلالة الحروف فى لفظ ما على أصل معنوى كيفما اختلف ترتيبها ، والعلاقة بين أصوات الكلمة ومعانيها .

(٣) انظر الجزء الأول صفحات ٣ — ٦ .

(٤) تشغل هذه البحوث نحو خمس عشرة صفحة فقط من الباب التاسع والعشرين كما سبقت الاشارة الى ذلك بالتعليق الأول بصفحة ٧٥ .

(٥) من علماء القرن السادس الهجرى .

من الكلام الأعجمى » ودرس فيها نشأة التعريب وشروطه ، وذكر معظم الألفاظ المعربة مرتبة على حسب حروف الهجاء .

والبحوث القيمة التى ضمنها السيوطى (١) كتابه « المزهر » ، كالبحث فى : نشأة اللغات، والمصنوع والفصيح، والحوشى والغرائب والشوارد والنوادر ، والمستعمل والمهمل ، وتداخل اللغات ، وتوافق اللغات ، والمعرب ، والمولد ، وخصائص اللغة ، والاشتقاق ، والمشترك والترادف ، والتضاد ، والحقيقة والمجاز ، والعام والخاص ، والمطلق والمقيد ، والابدال ، والقلب ، والنحت ، وما اختلفت فيه لغة الحجاز ولغة تميم ، والتصحيف ، والتحريف ، والأسماء والكنى والألقاب ... وهلم جرا .

والبحوث التى ضمنها شهاب الدين الخفاجى (٢) كتابه « شفاء العليل فيما فى كلام العرب من الدخيل » .

والبحوث التى ضمنها أحمد فارس الشدياق (٣) كتابه « سر الليال فى القلب والابدال » ، وخاصة ما ورد فيه بصدد العلاقة بين أصوات الكلمة ومعانيها ، ودلالة الحروف فى لفظ ما على أصل معنوى كيفما اختلف ترتيبها ، ورجع الكلمات الى أصولها ... وما الى ذلك.

والبحوث الحديثة التى قام بها طائفة من المستشرقين وغيرهم بهذا الصدد كبحوث اليازجى فى كتابه « اللغة والعصر » ومباحث الكرملى والبحوث التى كتبها أعضاء مجمع اللغة العربية بمصر فى مجلة المجمع .

---

(١) جلال الدين السيوطى أسمى من أن يعرف به ، فهو من أشهر مؤلفى العرب فى جميع العلوم ، ولد عام ٨٤٩ هـ . وكتابه المزهر من أجل ما ألف فى فقه اللغة العربية وهو فى جزءين كبيرين .

(٢) من علماء القرن الحادى عشر الهجرى .

(٣) من علماء القرن الثالث عشر الهجرى .

- ١١ -

موضوعات هذا الكتاب

سنعالج فى كتابنا هذا موضوعين تتمثل فيهما أهم مشكلات اللغات وتنطوى دراستهما على أهم ما تتناوله البحوث فى علم اللغة ، وهما : نشأة اللغة ، وحياتها .

وسنعقد لكل منهما بابا على حدة .

ولما كان للغة نشأتان : نشأة عند الانسان ، ونشأة عند الطفل ــ لذلك انقسم الباب الأول الى فصلين يعالج كل منها نشأة خاصة من هاتين النشأتين .

ولما كان ما يعتور اللغة فى حياتها ، وهو موضوع الباب الثانى، يتمثل فى أمور كثيرة من أهمها : تفرع اللغة الى لهجات ولغات ، ونشأة فصائل وشعب لغوية من جراء هذا التفرع ، وصراع اللغة مع لغة أو لغات أخرى ، وتطور اللغة العام ، وتطورها من ناحية أصواتها ، وتطورها من ناحية الدلالة ــ لذلك انقسم الباب الثانى الى ستة فصول يعالج كل فصل منها موضوعا من هذه الموضوعات .

الباب الأول

نشـــأة اللغـــة

للغة نشأتان : نشأة حينما أخذ الانسان يلفظ أصواتا مركبة ذات مقاطع وكلمات متميزة للتعبير عما يجول بخاطره من معان وما يحسه من مدركات ؛ ونشأة حينما يشرع الطفل يقلد أبويه والمحيطين به فيما يلفظونه من مفردات وعبارات ، فتنتقل اليه لغتهم عن هذا الطريق .

فعلى أية صـورة حدثت النشـأة الأولى ؟ وكيف تتم النشـأة الأخرى ؟

هذان هما السؤالان اللذان سنجيب عليهما فى هـذا الباب وسنعقد لكل منهما فصلا على حدة .

الفصل الأول
نشأة اللغة عند الإنسان

- ١ -

أنواع التعبير الانسانى

للتعبير الانسانى طرق كثيرة يرجع أهمها الى قسمين رئيسين :

(القسم الأول) التعبير الطبيعى عن الانفعالات . — ويشمل جميع الأمور الفطرية غير المقصودة التى تصحب مختلف الانفعالات السارة والأليمة : كالصراخ ، والضحك ، والبكاء ، وانبساط الأسارير وانقباضها ، واتساع الحدقة ، واغماض العينين ، واحمرار الوجه واصفراره ، ووقوف شعر الرأس ، وارتعاد الجسم ... وما الى ذلك من الظواهر الفطرية التى تبدو بشكل غير ارادى فى حالات الفرح والحزن والألم والخوف والخجل والاشمئزاز ... وما اليها ، والتى تعبر عن قيام حالة وجدانية خاصة بالشخص الصادرة عنه .

وتنقسم هذه التعبيرات من حيث الحاسة التى ندركها عن طريقها الى نوعين :

١ — تعبيرات بصرية ، أى تصل عن طريق حاسة النظر ، كالحمره والصفرة والرعشة وانقباض الأسارير وانبساطها واتساع الحدقة واغماض العين ووقوف شعر الرأس والعدو ... وما الى ذلك من الظواهر الجسيمة التى تصحب مختلف الانفعالات .

٢ — تعبيرات سمعية ، أى تصل عن طريق حاسة السمع ،

كالضحك والبكاء والصراخ ... وما الى ذلك من الظواهر الصوتية الفطرية التى تصحب حالات الفرح والألم والحزن والسرور ... وهلم جرا . ويتألف هذا النوع فى الغالب من أصوات مبهمة (تشبه أصوات الحيوان وأصوات مظاهر الطبيعة) وأصوات لين (حروف مد) مختلطة أحيانا ببعض أصوات ذات مقاطع (حروف ساكنة) .

وقد تكفلت بحوث علم النفس بدراسة هذا القسم بنوعيه ، وشرح مظاهره ، ومنشأ كل منها ، والقوانين التى تشرف عليه ويخضع لها فى مختلف نواحيه ، ووسائل ادراكه ، وفهم ما يعبر عنه ... وهلم جرا (١)

(والقسم الثانى) التعبير الوضعى الارادى . — ويشمل جميع الوسائل الارادية التى يلجأ اليها الانسان للتعبير عن المعانى التى يود وقوف غيره عليها .

وتنقسم هذه الوسائل من حيث الحاسة التى ندركها عن طريقها الى نوعين مشبهين لنوعى القسم الأول : أحدهما التعبيرات الارادية البصرية ؛ وثانيهما التعبيرات الادارية السمعية :

١ — أما التعبيرات الارادية البصرية ، فهى التى تصل عن طريق حاسة النظر ، وتشمل جميع الاشارات الحسية التى تستخدم بقصد الدلالة . وهى على ضربين :

(أحدهما) اشارات مساعدة ونائبة ، أى تساعد لغة الكلام وتنوب عنها فى حالات خاصة أو لضرورة ما : فمن هذه الطائفة الاشارات البحرية وهى التى يستخدمها عن بعد بحارة سفينة مع بحارة سفينة أخرى (٢)؛ ومنها اشارات الصيد وهى التى يستخدمها الصيادون

---

(١) انظر مؤلفات علم النفس ، وبخاصة البحث الجليل الذى كتبه أستاذنا العلامة دوما Dumas فى الجزء الاول من كتاب « علم النفس » Traité de psychologie الطبعة الأولى صفحات ٦٠٦ — ٧٣٣ .

(٢) هذه الاشارات دولية معروفة لجميع البحارة ، وتدرس فى مدارس البحرية .

بعضهم مع بعض عن بعد حتى لا يسمع صوتهم الحيوان المطارد ؛ ومنها الحركات اليدوية والجسمية التى يستخدمها الصم للتعبير عما يجول بخواطرهم ؛ ومنها الاشارات التى يلجأ اليها الفرد أحيانا للتعبير اذا كان المخاطب لا يفهم لغته ؛ والتى جرت العادة فى بعض الأمم البدائية أن يستخدمها أفراد العشائر المختلفة اللهجات بعضهم مع بعض (١) ؛ ومنها الاشارات التى تستخدم فى بعض الشعوب فى حالات الصيام الدينى عن الكلام (٢) ؛ ومنها الحركات التى يستعين بها فى أثناء حديثهم أهل اللغات الساذجة الناقصة لتكملة ماينقص تعبيرهم وما يعوزه من دلالة (٣)؛ ومنها الحركات التى تصحب حديثنا نحن لتوكيد المعانى أو لتمثيل الحقائق أو لزيادة التوضيح، والتى نستخدمها وحدها للدلالة على

(١) عثر علماء الاتنوجرافيا على هذه الظاهرة عند كثير من قبائل السكان الأصليين لأمريكا واستراليا ، وعند بعض العشائر الافريقية . وقد روى الأستاذ كوهل Kohl انه اذا التقى أحد الهنود الحمر (السكان الأصليين لأمريكا الشمالية) بآخر من غير عشيرته ، مختلف عنه فى لغته ، فانهما يلجآن فى تعبيرهما الى لغة الاشارات التى تعتبر عند هذه العشائر بمثابة لغة دولية . وقد مهر الهنود الحمر فى هذه اللغة ايما مهارة . ففى امكان المتخاطبين أن يظلا يوما كاملا يتحدثان عن طريق الاشارات باليد والأصابع والرجلين ، وأن يقص كل منهما على الآخر كل ما يود قصه عليه . — انظر ليفى برول « الوظائف العقلية فى الامم الأولية » ١٧٨ وتوابعها .
.Levy Bruhl: Fonctions mentales... etc.

(٢) يوجد الصيام الدينى عن الكلام عند كثير من الأمم البدائية وبخاصة عند سكان استراليا وأمريكا . فقد ذكر الاستاذان سبنسر وجيلين فى كتابهما عن سكان استراليا الوسطى حالات كثيرة من هذا القبيل ، منها أن المتوفى عنها زوجها يجب عليها أن تظل مدة طويلة ، تبلغ أحيانا عاما كاملا ، صائمة عن الكلام . — ويظهر أن شيئا من هذا كان موجودا فى ديانة اليهود ، بدليل قوله تعالى حاكيا كلام عيسى وهو فى المهد لمريم : « فاما ترين من البشر أحدا ، فقولى انى نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم انسيا .. فأشارت اليه . الخ » . وقد عرف العرب انفسهم فى الجاهلية هذا النوع من الصيام ومارسوه . وكان يطلق عليه عندهم اسم «الضرس» (بفتح الضاد) . وتقول المعجمات العربية فى شرح هذه الكلمة انه صمت يوم الى الليل ، وقد أزال ابو بكر الصديق وهو خليفة ما بقى من أثر لهذا النوع الغريب من الصوم (انظر كتابنا «الصوم والأضحية» ومقالا لنا عن الصوم فى مجلة «لواء الاسلام» عدد ديسمبر ١٩٧٢) .

(٣) لوحظ هذا فى كثير من الأمم البدائية فقد روى عن البوشيمان Boschimans (عشائر بدائية تسكن افريقيا الجنوبية) انهم اذا أرادوا المحادثة ليلا يضطرون الى اشعال النار ليتمكنوا من رؤية الاشارات اليدوية التى تصحب كلامهم فتكمل ناقصه وتحدد مدلولاته . — انظر ريبو . « تطور المعانى الكلية » ص ٧٨ وتوابعها
.Ribot, Evolution des Idées... etc.

الايجاب والنفى والاستحسان وما الى ذلك ، كالايماء بالرأس للتعبير عن القبول ، وتحريك السبابة حركة مستعرضة للتعبير عن الرفض أو النفى ، ومد الشفتين ووضع السبابة عليهما للأمر بالسكوت ... وهلم جرا .

(وثانيهما) اشارات أصيلة عامة ، وهى التى تتكون منها لغة كاملة مستقلة تستخدم وحدها فى جميع الشئون والظروف . — وقد استخدم هذا النوع من اللغات عند بعض الجماعات الانسانية ولايزال مستعملا فى بعض العشائر . فقد عثر فى الأمم البدائية على جماعات كثيرة لا تكاد تستخدم فى تعبيرها غير الاشارات اليدوية والجسمية . ومن هؤلاء بعض قبائل السكان الأصليين لأمريكا وأستراليا وبعض العشائر بأفريقيا الوسطى . ويطلق على هذا الضرب من التعبير اسم «لغة الاشارات» أو «الاشارات التحليلية» Gestes Analytiques [1] وقد عنى بدراسته عدد كبير من علماء الاتنوجرافيا والاجتماع من أشهرهم الكولونل مولرى Mallery [2] وتيلور Taylor [3] ورومان Romanes [4] وليبوك Lubock [5] ، وسبنسر وجيلين Spencer and Gillen [6] وليفى برول Levy Bruhl [7] ، وريبو

---

(١) صاحب هذه التسمية هو العلامة ريبو Ribot (انظر كتابه : « تطور المعانى الكليه ») .

(٢) انظر بحثه بالانجليزية : « لغة الاشارات بين هنود أمريكا الشمالية » . وقد ظهر فى تقرير مكتب الاتنولوجيا بواشنطن عام ١٨٨١
Sign-Language among the North America Indians

(٣) انظر كتابه بالانجليزية : « تاريخ النوع الانسانى فى عصوره الأولى »
Early History of Mankind

(٤) انظر كتابه بالانجليزية : « التطور العقلى فى الفصيلة الانسانية » .

(٥) انظر كتابه بالانجليزية : « أصول المدنية The Origin of Civilization .

(٦) انظر كتابيهما بالانجليزية : «العشائر الأصلية باستراليا الوسطى» و «العشائر الشمالية باستراليا الوسطى » .

(٧) انظر كتابه بالفرنسية : « الوظائف العقلية عند الأمم البدائية » صفحات ١٧٥ — ٢٠٤ .

Ribot (١) ، والدكتور فيشر الألمانى Fischer (٢) وروث (٣). Roth

وقد صور الدكتور فيشر هذا النوع من اللغات وقربه الى الأذهان اذ يقول :

اذا التقيت بأحد الهنود الحمر وأردت أن أخاطبه بلغة الاشارات لأسأله هل رأى ست عربات تجرها ثيران ويصحبها ستة سائقين منهم ثلاثة مكسيكيون وثلاثة أمريكيون ويسير معهم واحد ممتط صهوة جواده : فاننى أشير الى شخصه بيدى للدلالة على كلمة « أنت » ، ثم أشير الى عينيه للدلالة على فعل « الرؤية » ، ثم أبسط أصابع يدى اليمنى وسبابة يدى اليسرى للدلالة على عدد « ستة » ، ثم أكون صورة دائرة بالصاق نهايتى السبابتين والابهامين احداهما بالأخرى وأمد يدى الى الأمام وأحركهما كما تتحرك عجلات العربة وهى تسير للدلالة على « العربة » ، ثم أضع الكفين ممدودتين بجانبى الجبهة ممثلا قرن حيوان للدلالة على « الثور » ، ثم أمد ثلاثة أصابع من يدى اليسرى وأضع يدى اليمنى تحت شفتى السفلى وأنحدر بها الى صدرى ممثلا اللحية للدلالة على « ثلاثة مكسيكيين » ، ثم أمد مرة ثانية ثلاثة أصابع وأمسح جبهتى بيدى من اليمين الى الشمال ممثلا وجها شاحبا للدلالة على « ثلاثة أمريكيين » ، ثم أرفع اصبعا واحدا وأضع بعد ذلك سبابة اليسرى بين سبابة اليمنى ووسطها ممثلا الراكب للدلالة على « رجل واحد راكب حصانا » . ـ وأضاف الى ذلك أن الوقت الذى يقضيه أحد المتكلمين بهذه اللغة فى أداء هذه الحركات لا يزيد كثيرا عن الوقت الذى يستغرقه تعبيرنا نحن باللغة الكلامية عن هذا المعنى .

وقرر تيلور ، بصدد هذه اللغة ، أن لها قواعد اشارية لربط

---

(١) انظر كتابه بالفرنسية : «تطور المعانى الكلية» صفحات ٥٨ ـ ٦٤ .

(٢) عنى الدكتور فيشر فى بحوث كثيرة بدراسة هذا النوع من اللغات عند عشائر أفريقيا الوسطى ، وعند السكان الأصليين لأمريكا .

(٣) انظر كتابها بالانجليزية « دراسات اثنولوجية للسكان الأصليين بالقسم الشمالى الغربى بكوينسلندا» .

أجزاء العبارة بعضها ببعض وترتيب عناصرها ، وأنها فى مجموعها تكاد تكون متحدة عند جميع الشعوب التى تستخدمها ، فهى من هذه الناحية أشبه شىء بلغة دولية ، وأنه يمكن أحيانا التعبير بها عن حقائق دقيقة كعظات وضرب أمثال وقص حكايات ، وأنها فى جملتها ومعظم تفاصيلها تشبه لغة الصم ــ البكم . فقد جمع الكولونل مولرى بين رجل أصم ــ أبكم وطائفة من الهنود الحمر المتكلمين بلغة الاشارات فأخذ الأصم ــ الأبكم يقص عليهم بالاشارات قصة طويلة تتعلق بحادث سرقة ، وعقب على هذه القصة بتعليقات من عنده ، فلم يفتهم فهم أى حركة من حركاته ، لاتحادها مع حركاتهم اللغوية .

وذهب العلامة ريبو الى أنها قابلة للاصلاح والتهذيب ، وأنه لو طال استخدام الشعوب الانسانية لها لسارت فى سبيل الارتقاء ، ولأصابها كثير من أسباب التنقيح تحت تأثير الرقى العقلى ، ومطالب الحياة الاجتماعية ، واتساع حاجات الانسان ، وأعمال المخترعين والعلماء ... وما الى ذلك .

غير أنه مهما ينلها من التهذيب فلن تخلو من مثالبها الذاتية . فهى تستأثر باليد ، فتحول دون القيام بأى عمل آخر فى أثناء التعبير . ويتوقف ادراكها على النظر ، فلا يمكن التعبير بها عن بعد ولا فى الظلام . وهى قائمة على تقليد الأشياء المحسة ، فلا تكاد تقوى على التعبير عن المعانى الكلية أو وصف المشاعر والوجدان . هذا الى أنها عارية عن الدقة فى كثير من مظاهرها وأنها تقتضى اسرافا كبيرا فى الوقت والمجهود .

٢ ــ وأما التعبيرات الارادية السمعية ، فهى التى تصل عن طريق حاسة السمع . وهى الأصوات المركبة ذات المقاطع التى تتألف منها الكلمات .

وهذا النوع هو الذى تنصرف اليه كلمة « اللغة » اذا أطلقت . وهو وحده الذى يهمنا فى بحثنا . وانما ذكرنا الأنواع اخرى لاستيفاء

مظاهر التعبير من جهة ، ولاننا قد نحتاج اليها من جهة أخرى فى بيان نشأة هذا النـــوع ، أو فى ضرب الأمثال أو الموازنة ، أو مناقشـــة النظريات وتوضيحها .

ويمتاز هذا النوع بأربع خصائص : فهو مكتسب لا فطرى ؛ وهو ارادى أى يصدر عن قصد لا عن طريق آلى ؛ وهو يتمثل فى أصـــوات مركبة ذات مقاطع تتألف منها كلمات وجمـــل لا فى أصوات مبهمـــة ؛ وهو يعبر عن معان تجول فى الذهن لا عن انفعالات تتلبس بها النفس أو يتلبس بها الجسم .

- ٢ -

اختصاص الانسان باللغة ومراكزها

تشترك معظم فصائل الحيوان مع الانســـان فى القسم الأول من قسمى التعبير السابق ذكرهما وهو التعبير الطبيعى عن الانفعالات ، ســـواء فى ذلك التعبير الطبيعى البصرى والتعبير الطبيعى السمعى . فانفعالات الحيوان جسميها ونفسيها ، كالجـــوع والعطش والسرور والفرح والخوف والاطمئنان والحزن والاشمئزاز والغضب ... وما الى ذلك ، يثير كل منها لدى المتلبس به طائفة خاصة من الحركات الفطرية غير المقصودة . وهذه الحركات : بعضها بصرى ، أى يصل عن طريق حاسة النظر ، كاتساع الحدقة وضيقها ، وبسط الأذنين وخفضهما ، والتكشير عن الناب ، ووقوف الشـــعر ، وانتفاخ الجسم والأوداج ، والهرب ، والاختفاء وما الى ذلك ؛ وبعضها ســـمعى ، أى يتمثـــل فى صوت يصل عن طريق الأذن ، كرغاء الناقة وبغامها ، وصهيل الفرس ، وقبعة [1] عند نفوره من شىء ، وحمحمته عند الجوع أو الاستئناس ، وشحيج البغل ، ونهيق الحمـــار ، وخـــوار البقر ، وثغاء الغنم ، وزئير الأسد ، وعواء الذئب وتضوره وتلعلعه عند جوعه ، ونباح الكلب

---

(١) صوت يردده الفرس من منخره الى حلقه عند نفوره من شىء .

وضغاؤه اذا جاع ، ووقوقته اذا خاف ، وهريره اذا أنكر شيئا أو كرهه، وضباح الثعلب ، ومواء الهرة ، وضحك القردة ، وصرصرة البازى ، وقعقعة الصقر ، وهدير الحمام ، وسجع القمرى ، وزقزقة العصفور ، ونعيق الغراب ، وفحيح الحيات وكشيشها وحفيفها عند تحرش بعضها ببعض اذا انسابت ، ونقيق الضفدع .. وهلم جرا (١) .

وتشترك كذلك بعض فصائل الحيوان مع الانسان فى التعبير الارادى البصرى ، وهو التعبير بالاشارة . ويبدو هذا على الأخص لدى الحيوانات التى تعيش جماعات كالنحل والنمل والقردة والبقر والغنم والوعول وما اليها . — فقد ثبت أن كثيرا من هذه الفصائل وغيرها تستخدم أحيانا بعض اشارات جسمية للتعبير بها بشكل مقصود عن بعض شئونها . ففحل الأوعال (الأيل) يستخدم فى أثناء قيادة قطيعه بعض اشارات برأسه وقرونه للوقوف فيقف جميع أفراد القطيع، وبعض اشارات للسير فيسير جميع أفراد القطيع ، ويستحث المتخلفات بأن ينطح كلا منها نطحا خفيفا . ويستخدم الأذكياء من الكلاب مع أفراد فصيلتها ومع الآدميين بعض اشارات بالرأس وغيرها للتعبير بطريق ارادى عن أمور خاصة ، كأن تمر بأظافرها على الباب ليفطن أصحابها الى وجودها فيفتحوا لها ، أو تدفع اناء طعامها برأسها للتعبير عن حاجتها الى الغذاء ... وهلم جرا . وتستخدم كذلك فصائل القردة ، وبخاصة الفصائل العليا منها (الغوريلا ، الشمبنزية ، الجيبون ، الأورانج — أوتانج) وفصائل النحل والنمل بعض اشارات من هذا القبيل . فقد كشف العلامة كوهلر Kohler عن ظواهر كثيرة من هذا النوع عند فصائل القردة العليا ، منها ما يعمله الشمبنزية حينما يريد أن يرافقه آخر فى طريقه ، أو يرغب أن يعطيه أحد زملائه شيئا مما فى يده ، أو يطلب نداءه عن بعد : فانه فى الحالة الأولى يحتك به بخفة ويجذبه من ذراعه محدقا فيه ومتقدما بعض خطوات فى الطريق

---

(١) انظر فى هذه الأصوات وغيرها « فقه اللغة » للثعالبى صفحات ٢٠٩ — ٢١٢ طبعة بيروت .

التى يود أن يسلكاها معا ، وفى الحالة الثانية يمد يده الى زميله مد الاستجداء ، وفى الحالة الثالثة يمد يده ويقبض كفه ويبسطها كما نفعل نحن فى مثل هذه المناسبة (١) . وقرر الأساتذة كيربى وسبنسر وبورميستر وهوبير وفرانكلين Kirby, Spencer, Burmeister, Huber. Franklin أن كثيرا من طوائف النحل والنمل يستخدم أفرادها، بعضها مع بعض، اشارات مقصودة للتعبير بها عن بعض شئونها ، وأن هذه الاشارات تتمثل فى احتكاك بعض أعضاء المتكلم أو أطرافه أو ذؤاباته بجزء من جسم المخاطب بطريقة خاصة . وقام العلامة لوبوك Lubbock بهذا الصدد بطائفة كبيرة من التجارب فتبين له صدق ما ذهب اليه هؤلاء الباحثون (٢) .

وقد نشر الأستاذ « ألن ديفو » فى مجلة « نيتشر مجازين » مقالا تحت عنوان « لغة الحيوان فى الغاب » يتضمن حالات كثيرة من هذا النوع . وفيما يلى بعض مقتطفات من هذا المقال الطريف (٣) :

« اذا وجدت النحلة العاملة زهرة حافلة بالرحيق ، عادت طائرة الى الخلية ، ثم تشرع ترقص محومة فى الفضاء رقصا غريبا خاصا يدل دلالة واضحة على معنى رسالتها المستعجلة . فيفهم سائر النحل فحوى هذا العمل ، فاذا به ينضم اليها واحدة فى أثر واحدة ، ثم لا يلبث الجمع أن يندفع كله قاصدا ينبوع هذا الرحيق . ــ واذا أراد الحجل أن ينذر قومه بالخطر طار مسرعا مسافة قصيرة متنقلا من شجرة الى شجرة ، وهو يصفق بجناحية تصفيقا شديدا . ــ وأنثى الدببة اذا أرادت أن يسرع اليها ولدها نازلا من أعلى شجرة تسلقها ضربت بكفها جذع

---

(١) انظر كوهلر : « ذكاء الفصائل العليا من القردة » صفحة ٢٩٤ وتوابعها :
Kohler : Intelligence des Singes Supérieurs.

(٢) انظر ريبو : « تطور المعانى الكلية » صفحتى ٦٦ ، ٦٧ . ــ وانظر كذلك لوبوك : « النمل والنحل والزنابير » Lubbock : «Ants, Bees, and Wasps»
وانظر كذلك رومان « الذكاء الحيوانى » Romanes : (Animal Intelligence».

(٣) نقلا عن مجلة « المختار » الصادرة فى شهر اكتوبر سنة ١٩٤٧ ، وقد لخصت هذه المجلة المقال المشار اليه .

الشجرة . ــ وأنثى الظباء اذا أرادت أن تقول لحشفها : « اتبعنى » ، شالت بذيلها الكث مرة واحدة حتى يرى بياضه الباطن . ــ ومن أعجب أساليب التفاهم بين الحيوان هو أسلوب الحديث بين الطائر الذى يسمى « الهادى الى العسل » والحيوان المعروف باسم « أبو كعب » أو آكل العسل . فهذا الطائر يحب أكل يرقات النحل حين تكون كالدود ، وآكل العسل منهوم بحب العسل . والطائر الهادى الى العسل لا قبل له بالتغلب على جماعات النحل الساخطة ، أما آكل العسل فهو قصير الرجلين ، فلا يستطيع أن يقطع المسافات الطويلة بحثا عن خلايا النحل . فنرى الهادى الى العسل يطير مطوفا فى أنحاء الغابة باحثا عن شجرة فيها خلية نحل ، ثم يرتد مسرعا الى ذلك القابع الصابر فيحوم فوق رأسه ، وهو يقول له بصوت رفيع عال : « شر ، شر » . ويدلف آكل العسل متثاقل الخطو على أثر الطائر المرفرف بجناحيه . ولما كان هذا الحيوان فى وقاء من جلده الكثيف الشعر فلا يضره لسع النحل ، فهو يهجم على الخلية ويمزقها اربا اربا . ثم يجتمع هو والطائر على المائدة الشهية . ــ ونحل الشجر فى المناطق الاستوائية يتكلم فينتقل كلامه من شجرة الى شجرة ، وذلك بأن يدق دقا شديدا على لحاء الشجر وورقه ، حتى يسمع لدقه صوت كأنه صوت انهمار رذاذ من مطر . ــ أما أسراب الفيلة فلا تكف لحظة عن غمغمة تسمع من حديث أو اشارة ، وهى لغة أداتها الاشارة بالآذان والخراطيم » .

وذكر الفنان والت ديزنى أن الجماعتين من الآيائل الأمريكية المتشعبة القرون تتبادل الاشارات وهى على البعد ، وتستخدم فى هذا الغرض ذيولها البيضاء ، وأنه الى جانب هذه الاشارات تذيع كل جماعة رسالة الى الجماعة الأخرى ، ولا تلبث كل منهما أن تتحقق أن الجماعة الأخرى من بنى جلدتها (١) .

---

(١) انظر جريدة الأهرام فى ٦٤/١١/٧ .

هذا ، وقد أنكر بعض العلماء وجود الاشارات ذات الدلالة المقصودة عند الحيوانات. ومن هؤلاء العلامة واسمان Wasmann الذى يرى أن كل الاشارات الحيوانية التى يخيل الى الانسان أنها من هذا النوع هى فى الحقيقة فطرية وانها لاتدل المخاطب على شىء =

وأما النـــوع الأخير من أنواع التعبير التى ذكرناها فى الفقرة

= معين . بل تقتصر على اثارة نشاطه فى ناحية يحددها العمل الذى سيتلو الاشارة . — وتابعه فى هذا أستاذى العلامة دولا كروا (أنظر دولا كروا «اللغة والفكر» صفحة ٧٥ وتوابعها) .

هذا ، وقد كشف بعض الباحثين أنواعا أخرى غريبة من التفاهم بين الحيوان :

فمن ذلك ما يمكن تسميته التفاهم بالرائحة : « فقد ذكر علماء الحيوان أن الذئب اذا زاد طعامه عن حاجته دفن جزءا منه فى التراب وخلف هناك شيئاً من رائحته عالقـا بالمكان ، فيفهم سائر الذئاب فحوى رسالته حق الفهم . والذئب يفصح عن نفسـه مرة بعد أخرى بأن يخلف رائحته حيث يريد ، فتفهمها الذئاب أجود الفهم ، كما يفهم الرحالة من الناس اذا قرأ مذكرات كتبها رجل سبقه الى هـذه الرحلة . والذئاب والثعالب ، وهى فى الحقيقة من فصيلة الكلاب ، تعيش فى عالم لاتعد أرضه أرضا فحسب ، بل هى أرض مفعمة بالرائحة المعبرة . ويقول الاستاذ ف . بايتندجك الهولنـدى الذى تولى التجارب الشهيرة فى دراسة نفسية الكلاب : « ان الكلب مشغول أبدا بحديث لا ينقطع بينه وبين سائر الكلاب التى فى ناحيته عن طريق الشم » .

(مجلة المختار ، عدد أكتوبر سنة ١٩٤٧) .

وأغرب أنواع التفاهم بين الحيوان هو ما يكون بغير صوت ولا رائحة ولا اشارة ولا أية حركة أخرى . وفى هذا النوع يقول الاستاذ ألن ديفـو : « وقد ذهب بعض علمـاء الحيوان الى أنه ضرب من الاستشفاف « تليباثى » . وذهب آخرون الى أنه ليس الا ضربا من الحواس اللطيفة التى بلغ لطفها مبلغا تعجز عن ادراكه حواس الانسان . وينكر آخرون ذلك كله انكارا باتا . وأستطيع أنا أن أروى غير متحيز الى فئة خبر هرتين عندى هما «سيم» و «سام» بينهما عـلاقة لاتنفصم من الاخـوة والود ، وهما لايختلفان ولا يفترقان الا فى شىء واحد : فان « سيم » يحب الخروج الى الصيد ، أما « سام » فيحب الكسـل ، فيقضى الساعات قابعا فى البيت . ولكن بعد الشقة بينهما حين يفترقان لايمنع فيما يظهر أن يظل بينهما ضرب من التفاهم والاتصال . فقـد يخرج « سيم » أحيـانا يتصيد ، فيغيب نصف يوم ، واذا بى أرى « سام » يهب من مضجعه على مكتبى يقظان فزعا ويرفع أذنيه متلهفا ، ويميل برأسه كالمنصت المصغى ، وماهو الا أن يعـدو نحـو الباب ، فاذا فتحت له الباب انطلق كأنه سهم مقذوف الى الحقول تارة والى الغابة تارة أخرى . ولو بدا لى أن أخرج فى أثره لما خامرنى ريب فيما سوف أجد . فهذا الصياد « سيم » قد ولى وجهة شطر البيت ومعه صيد صاده لساعته ، فعرف « سـام » خبر صاحبه ، وأن كنت لاأدرى كيف عرف . قد تقول انه عجب لايصدق ! نعم وربما كان كما تقول ! ولكن ما أكثر ما نجهل مما يدور فى طوايا حواس الحيوانات ونفوسها ، حتى لنرى أن أكثر العلماء علما وتجربة لايصر اصرار العنيد على انكار اللغـة الصامتة التى يتفاهم بها حيوان الغاب ، أيا كانت طبيعة تلك اللغة » . (مجلة المختار عدد أكتـوبر ١٩٤٧ — ص ٤٨) . — ومن هذا النوع كذلك ما دونه الأستاذ الن ديفو عن الثعالب اذ يقول : « وقفت مستترا ببعض الشجر أرقب ثلاثة من صغار الثعالب تلعب ، وأمهن على الوجار تتبعهن البصر راضية مطمئنة ، فاذا بصغير يعدو موغلا فى المرج ، وكان أصغر من أن يباح له أن يخرج وحيدا يطوف فى أرجاء هذا العالم . فاستوت الأم قائمة ، وسددت أنفها الى الناحية التى ذهب فيها ، وبقيت على هذه الهيئة ساكنة صامتة لاتتزحزح ، ولم يند عنها صوت يســمع ، ولكن لم ألبث قليلا حتى رأيت الصـغير عائـدا أدراجة

السابقة ، وهو اللغة بالمعنى الكامل لهذه الكلمة ، أى الأصوات المركبة ذات المقاطع التى تتألف منها الكلمات ، فيظهر أن الانسان قد اختص بها من سائر الفصائل الحيوانية . حقا ان بعض طوائف الحيوان تصدر عنه أصوات شبيهة فى ظاهرها بهذا النوع من التعبير . ولكن بالتأمل فى هذه الأصوات يتبين أنها عارية عن خصائص اللغة فى صورتها الصحيحة ، وأنها ترجع الى فصيلة أخرى من فصائل الأصوات . وسنعرض فيما يلى لأهم ما يبدو عند الحيوان من هذا القبيل ، معقبين على كل مظهر منها بما يبين وجوه الفرق بينه وبين اللغة الصوتية بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة .

يرجع أهم ما يلفظه الحيوان من هذه الأصوات الى ثلاث طوائف :

(الطائفة الأولى) أصوات فطرية الأصل يستخدمها الحيوان قاصدا بها التعبير عن بعض شئونه : كالحمحمة التى يرددها الفرس الفرس بشكل ارادى عند رؤية صاحبه للتعبير عن حاجته الى العلف ، والمواء الذى يلجأ اليه الهر لينبىء به عن جوعه ، والنباح الذى يلفظه الكلب قاصدا به ايقاظ أهل المنزل أو ارشادهم الى أن شخصا يحوم حول البيت ... وهلم جرا .

وهذه الطائفة ليست فى الواقع من اللغة الصوتية فى شىء ، وان أشبهتها فى ظاهرها ووظيفتها . وذلك أنها أصوات مبهمة عارية عن المقاطع والكلمات وغير متميزة العناصر . — ومن أهم خصائص الكلام كما لا يخفى اشتماله على مقاطع وكلمات وتميز عناصره بعضها من بعض . هذا الى أنها فى الأصل أصوات فطرية تصحب الانفعالات ، وأن كل ما يعمله الحيوان حيالها فى هذه الحالة هو أن يرددها هى نفسها بشكل ارادى للدلالة على الانفعالات نفسها التى تعبر عنها فى شكلها الفطرى أو للدلالة على أمور انفعالية قريبة منها (الجوع ، العطش ، الخوف .. الخ) . — وأصوات هذا شأنها لا يصح عدها

فتلفت يمنه ويسرة ، ثم سدد بصره الى أمه فلم تحول بصرها عنه ، واذا بالصغير يسرع الى وجاره كأنما كانت تجذبه بخيط لا تراه العين » .

(مجلة المختار عدد أكتوبر سنة ١٩٤٧ ص ٤٥) .

كلاما ، لأن أهم خصائص الكلام أنه أصوات موضوعة للدلالة وأنه يعبر به عن معان لا عن انفعالات (١) .

(الطائفة الثانية) أصوات متنوعة تلفظها القردة فى اجتماعاتها بطريقة يتبادر منها الى الذهن أنها وسائل تعبير ارادى ، وأن أفراد القردة تتجاذب بها الحديث بعضها مع بعض . ــ وتبدو هذه الظاهرة بشكل واضح فى الفصائل العليا من القردة وبخاصة طائفة «الجيبون» (٢) .

وهذه الطائفة كذلك ليست فى الواقع من اللغة الصوتية فى شىء وأن أشبهتها فى ظاهرها ومناسبات استخدامها . فقد ظهر بالبحث فيها أن بعضها تعبير طبيعى عن الانفعال ، وبعضها مجرد ترديد ارادى لهذا التعبير (٣)، وبعضها من ظواهر التداعى الآلى (٤) أو العدوى الصوتية(٥) أو تقليد الحيوان بطريق فطرى غير ارادى لأصوات نفسه أو أصوات غيره (٦) . ــ هذا الى أنها ــ على الرغم من تنوعها ، وعلى الرغم من تشابه أعضاء النطق عند فصائل القردة وأعضاء النطق الانسانية ــ أصوات مبهمة بسيطة عارية عن المقاطع والكلمات وغير متميزة العناصر.

---

(١) يبدو كذلك هذا النوع من الأصوات عند الطفل الانسانى فى شهوره الأولى كما سنذكر ذلك فى الفصل الثانى من هذا الباب . وقد رأينا تسمية هذا النوع عند الطفل « الأصوات الوجدانية الارادية » . ــ وقد يلجأ الكبار أنفسهم أحيانا لهذا النوع من التعبير فيضحكون مثلا متكلفين الضحك للتعبير عن السرور .

(٢) ولهذه الأمور وماشاكلها ذهب بعض العلماء الى أن للقردة لغة تتألف من اثنتين وثلاثين كلمة . ويذهب الدكتور أرثر جرينهول المدير العام لحدائق الحيوان فى ديترويت الى أن الحيوانات الوحيدة التى تصدر عنها أصوات تشبه اللغة هى الشمبانزى (أنظر جريدة الأهرام فى عددها الصادر يوم ٤٨/١٢/٨) .

(٣) أى من الأصوات التى سبق ذكرها فى الطائفة الأولى .

(٤) وذلك ان يرتبط الصوت بشىء آخر بطريقة تجعله يظهر بشكل غير ارادى كلما ظهر هذا الشىء . وسيأتى بيان ذلك بتفصيل فى الطائفة الثالثة .

(٥) تبدو ظاهرة العدوى الصوتية عند كثير من أنواع الحيوانات ، وتبدو كذلك عند الأطفال اذا ضمهم مكان واحد : يصوت الوليد منهم فيثير صوته أصوات الآخرين ويبكى أحدهم فيبكى لبكائه الباقون (أنظر تفصيل هذا بكتابى « عوامل التربية » صفحة ١٨٤ وتوابعها) .

(٦) سيأتى شرح هذا فى الطائفة الثالثة .

وقد تقدم (١) أن من أهم خصائص الكلام اشتماله على مقاطع وكلمات وتميز عناصره بعضها من بعض (٢) .

(الطائفة الثالثة) أصوات مركبة ذات مقاطع تلفظها بعض الطيور كالببغاء وما اليها من الفصائل التى امتازت أعضاء صوتها بخصائص طبيعية تتيح لها اخراج هذا النوع .

وهذه الطائفة كذلك ليست فى الواقع من اللغة الصوتية فى شىء، وان أشبهتها فى الظاهر . وذلك أن الطائر لا يقصد بهذه الأصوات التعبير ، فهى تصدر عنه فى ثلاث حالات كلها فطرية آلية عارية بتاتا عن هذا القصد :

(الحالة الأولى) حينما يكون الطائر متلبسا بانفعال جسمى أو نفسى . وهى فى هذه الحالة من نوع التعبير الطبيعى عن الانفعالات: تصدر عن غير قصد ، ويثيرها بشكل آلى الانفعال المتلبس به الطائر . واثارتها مؤسسة على الروابط الطبيعية الفطرية التى تربط أعضاء الصوت بحالات الجسم والنفس بطريقة تجعل هذه الأعضاء تتحرك وحدها بشكل آلى أو منعكس وتلفظ أصواتا مركبة ذات مقاطع عند وجود حالة من الحالات الجسمية أو النفسية المرتبطة بها . فهى حينئذ من قبيل الضحك والبكاء وما اليهما من مظاهر « التعبير السمعى » . وكل ما هنالك أن التعبير الطبيعى السمعى يبدو عند الحيوانات الأخرى فى صورة أصوات بسيطة مبهمة ، ويبدو عند هذه الطيور أحيانا فى صورة أصوات مركبة ذات مقاطع .

(والحالة الثانية) حينما تكون محاكاة لصوت انسانى سمعه

---

(١) أنظر آخر ص ٨٦ وأول ٨٧ .

(٢) انظر فى هذا الموضوع بحوث الاستاذ Pfungst الذى درس أكثر من مائتى قرد فى حديقة الحيوان ببرلين ، وبحوث Bouton الذى لاحظ فى أثناء خمس سنوات نمو قرد من فصيلة الجيبون ، وبحوث كوهلر الذى كتب كثيرا فى القردة وبخاصة القردة العليا التى ألف فيها كتابه الشهير « ذكاء القردة العليا » ، وانظر ما كتبه أستاذى العلامة دولا كروا بهذا الصدد فى كتابه « اللغة والتفكير » ص ٧٧ وتوابعها .

الطائر ، وهى فى هذه الحالة كذلك تصدر بشكل آلى عار عن قصد التعبير بل عن قصد المحاكاة نفسها . وذلك أن هذه الفصائل مزودة بروابط طبيعية تربط جهاز سمعها بجهاز صوتها بطريقة تجعل أعضاء الجهاز الثانى تتحرك أحيانا وحدها وتلفظ بشكل آلى الأصوات نفسها التى يحسها الجهاز الأول : فكلما وصل صوت الى سمعها فى ظروف خاصة انبعث صداه من أفواهها (١) .

(والحالة الثالثة) قد تسمع الببغاء أحيانا كلمات أو أصواتا فى مناسبة ما فتكررها كلما حدثت هذه المناسبة أو مناسبة أخرى تشبهها بطريقة يتبادر منها الى الذهن أنها قد تقصد بها التعبير عن أمر معين : فقد تسمع مثلا أصحابها ينادون طفلا باسمه ، فتكرر هذا الاسم كلما رأت الطفل أو رأت دميته أو متاعا من أمتعته (٢) .

وهذه الأصوات كذلك ليست من اللغة فى شىء وان التبست بها فى بادىء النظر . وذلك أن الطائر لا يقصد بها ، فى الواقع ، التعبير عن أمر ما ، وانما تصدر منه بشكل غير ارادى على الصورة التى تصدر فيها ظواهر « التداعى الآلى » . فمن كثرة تكرار الكلمة أمام الطائر بحضرة الشخص أو الشىء الذى تدل عليه ، يرتبط صوتها بصوت مدلولها ، فينبعث الصوت من الطائر بشكل آلى كلما ظهر أمامه المدلول أو ما يتصل به (٣) .

هذا ، ولا يمتاز الانسان بهذا الصدد عن بقية فصائل الحيوان باللغة الصوتية فحسب ، بل يمتاز عنها كذلك بطائفة من المراكز المخية التى تشرف على مختلف مظاهر هذه اللغة (مركز اصدار الألفاظ ،

---

(١) انظر تفصيل هذا الموضوع بمؤلفى : « عوامل التربية » صفحتى ١٨١ ، ١٨٢ .

(٢) من أهم الملاحظات بهذا الصدد مادونه الدكتور ولكس عضو الجمعية الملكية بصحيفة العلوم العقلية عدد يولية سنة ١٨٧٩ Dr. Wilks, Journal of Mental Science

(٣) انظر فى هذا الموضوع كتابى الاستاذ رومان : «الذكاء الحيوانى» ، و «الارتقاء العقلى للانسان» . ـ وانظر بحثا بهذا الصدد للعلامة ولكس فى المجلة الفلسفية لسنة ١٨٨٠ Revue Philosophique . ـ وانظر كذلك ما كتبه أستاذى العلامة دولا كروا فى كتابه « اللغة والفكر » ص ٧٨ .

مركز حفظ الكلمات المسموعة ... وهلم جرا) . فقد ثبت أن هـذه المراكز لا يوجد لها نظير فى مخ أى فصيلة حيوانية أخرى حتى الفصائل العليا من القردة نفسها .

فالبحث فى نشأة اللغة عند الانسان يتطلب اذن دراسة موضوعين اثنين : أولهما نشأة اللغة فى الفصيلة الانسانية ؛ وثانيهما نشأة مراكز اللغة فى المخ الانسانى . — وسنعقد لكل منهما فقرة خاصة ، ثم نكمل بحوث هذا الفصل بفقرة ثالثة فى المراحل الأولى التى اجتازتها لغـة الانسان بعد نشأتها ، وما انتابها من تطور فى هذه المراحل .

- ٣ -

نشأة الكلام

لا شك أن الفضل فى نشأة اللغة الانسانية يرجع الى المجتمع نفسه والى الحياة الاجتماعية . فلولا اجتماع الأفراد بعضهم مع بعض وحاجتهم الى التعاون والتفـاهم وتبادل الأفكار والتعبير عما يجول بالخواطر من معان ومدركات ما وجدت لغة ولا تعبير ارادى .

ولا شك كذلك أن اللغة ظاهرة اجتماعية تنشأ كما ينشأ غيرها من الظواهر الاجتمـاعية ، فتخلقها طبيعة الاجتماع ، وتنبعث عن الحياة الجمعية وما تقتضيه هذه الحياة من شئون (١) .

فليست المشـكلة اذن فى البحث عن الأسـباب التى دعت الى نشأة اللغة ولا فى البحث عمن أنشأها . وانما المشكلة فى البحث عن العوامل التى دعت الى ظهورها فى صورة أصوات مركبة ذات مقاطع متميزة الكلمات ، والكشف عن الصورة الأولى التى ظهرت بها هذه الأصوات ، أى الأسلوب الذى سار عليه الانسان فى مبدأ الأمر فى

---

(١) أنظر فى ذلك كتابى فى «اللغة والمجتمع» الطبعة الثالثة وخاصة صفحات ٣ — ٧ .

وضع أصوات معينة لمسميات خاصة ، وتوضيح الأسباب التى وجهته الى هذا الأسلوب دون غيره .

وعلى ضوء هذه الحقائق سنناقش النظريات التى قيلت فى نشأة اللغة ، فنرفض كل نظرية تذهب فى ذلك مذهبا لا يتفق مع هذه الحقائق المقررة ، أو تغفل المشكلة الرئيسية التى نحاول حلها .

هذا ، وأهم ما قيل بهذا الصدد يرجع الى أربع نظريات :

(النظرية الأولى) تقرر أن الفضل فى نشأة اللغة الانسانية يرجع الى الهام الهى هبط على الانسان فعلمه النطق وأسماء الأشياء . وقد ذهب الى هذا الرأى فى العصور القديمة الفيلسوف اليونانى هيراكليت Héraclite (١) ، وفى العصور الوسطى بعض الباحثين فى فقه اللغة العربية كابن فارس فى كتابه الصاحبى (٢) ، وفى العصور الحديثة طائفة من العلماء على رأسها الأب لامى Lami فى كتابه « فن الكلام» L'Art de parler (٣) والفيلسوف دوبونالد De Bonald فى كتابه التشريع القديم Législation primitive (٤)

ولا يكاد أصحاب هذه النظرية يقدمون بين يدى مذهبهم دليلا عقليا يعتد به (٥) . أما أدلتهم النقلية فبعضها يحتمل التأويل وبعضها يكاد يكون دليلا عليهم لا لهم . فالمؤيدون لهذا الرأى من باحثى

---

(١) فيلسوف اغريقى من المدرسة اليونية ولد بايفيزيا عام ٥٧٦ وتوفى عام ٤٨٠ ق.م ونسبة هذا الرأى له ليست يقينية .

(٢) انظر الصاحبى صفحات ٥ ــ ٧ . وقد مال الى هذا الرأى كذلك ابن جنى فى كتابه الخصائص أنظر الجزء الاول ص ٤٥ ، وان كان قد رد فى أول الفصل على مايعتمد عليه القائلون به ذاهبا الى أنه لا ينهض دليلا لهم .

(٣) هو دوم فرانسوا لامى Dom Françcis Lami ولد بمنتيرو Montireau من أعمال فرنسا سنة ١٦٣٦ وتوفى بسان دينى Saint Denis سنة ١٧١١ . وقد قام بتدريس الفلسفة فى كثير من المعاهد الدينية . واليه يرجع الفضل فى نشر آراء الفيلسوف ديكارت فى هذه المعاهد .

(٤) أنظر ترجمة دوبانالد فى التعليق الأول بصفحة ٥٦ .

(٥) سنبين فساد الأدلة العقلية التى ذكرها بعض المتعصبين لهذه النظرية عند مناقشتنا للنظرية الثالثة التى لا تختلف كثيرا فى جوهرها عن هذه النظرية .

العرب يعتمدون على قـوله تعـالى « وعلم آدم الأسـماء كلها » [١] وهذا النص ، كما ترى ، ليس صريحا كما يدعون . اذ يحتمل ان يكون معناه — كما ذكر ذلك ابن جنى فى كتابه الخصائص وذهب اليه كثير من أئمة المفسرين — ان الله تعالى أقدر الانسان على وضع الألفاظ . أما القائلون بهذه النظرية من الفرنجة ، فيعتمدون على ما ورد بهـذا الصدد فى سفر التكوين اذ يقـول : « والله خلق من الطـين جميع حيوانات الحقول وجميع طيور السماء ، ثم عرضها على آدم ليرى كيف يسميها وليحمل كل منها الاسم الذى يضعه له الانسان . فوضع آدم أسـماء لجميع الحيوانات المسـتأنسـة ولطيور السـماء ودواب الحقول » [٢] . وهذا النص ، كما ترى ، لا يدل على شىء مما يقـول به أصحاب هذه النظرية، بل يكاد يكون دليلا عليهم. — وفضلا عن هذا كله فان هذه النظرية تغفل اغفـالا تاما المشـكلة الرئيسية التى تهمنا وحدها فى هذا البحث والتى حددناها تحديدا دقيقا فى صدر هذه الفقرة .

(النظرية الثانية) تقرر أن اللغة ابتـدعت واستحدثت بالتواضع والاتفاق وارتجال ألفاظها ارتجالا . وقد ذهب الى هـذا الرأى فى العصور القـديمة الفيلسوف اليـونانى ديموكريت Démocrite (من فلاسفة القرن الخامس ق م) ، وفى العصور الوسطى كثير من الباحثين فى فقه اللغة العربية ، وفى العصور الحديثة الفلاسـفة الانجليز آدم سميث Adam Smith وريد Reid ودجلد ستيوارت Dugald Stewart .

وليس لهذه النظرية أى سند عقلى أو نقلى أو تاريخى . بل ان ما تقرره ليتعارض مع النواميس العامة التى تسير عليها النظم الاجتماعية. فعهدنا بهذه النظم أنها لا ترتجل ارتجالا ولا تخلق خلقا ، بل تتـكون بالتدريج من تلقاء نفسها . — هذا الى أن التواضع على التسـمية

---

(١) سورة البقرة ، آية ٣١ .

(٢) أنظر الفقرتين ١٩ ، ٢٠ من الاصحاح الثانى من سفر التكوين .

يتوقف فى كثير من مظاهره على لغة صوتية يتفاهم بها المتواضعون (١) فما يجعله أصحاب هذه النظرية منشأ للغة يتوقف هو نفسه على وجودها من قبل (٢) . ـ وفضلا عن هذا كله فان هذه النظرية تغفل المشكلة الرئيسية التى تهمنا وحدها فى هذا البحث والتى وضحناها فى صدر هذه الفقرة .

فلسنا هنا بصدد نظرية جديرة بالمناقشة ، بل بصدد تخمين خيالى وفرض عقيم يحمل فى طيه آية بطلانه . وقد ذهب المتعصبون له فى تصوير منشأ اللغة مذاهب ساذجة غريبة تدل أبلغ دلالة على مبلغ انحرافه عن جادة الصواب ونطاق المعقول . واليك نبذة مما يقوله بعضهم بهذا الصدد : « ان أصل اللغة لابد فيه من المواضعة . وذلك كأن يجتمع حكيمان أو ثلاثة فصاعدا فيحتاجوا الى الابانة عن الأشياء ، فيضعوا لكل منها سمة ولفظا يدل عليه ويغنى عن احضاره أمام البصر . وطريقة ذلك أن يقبلوا مثلا على شخص ويومئوا اليه قائلين : انسان ، انسان ، انسان ، فتصبح هذه الكلمة اسما له ، وان أرادوا سمة عينه أو يده أو رأسه أو قدمه أشاروا الى العضو وقالوا : يد ، عين ، رأس ، قدم ... ويسيرون على هذه الوتيرة فى أسماء بقية الأشياء وفى الأفعال والحروف وفى المعانى الكلية والأمور المعنوية نفسها (٣) . وبذلك تنشأ اللغة العربية مثلا . ثم يخطر بعد ذلك لجماعة منهم كلمة «مرد» بدل انسان وكلمة «سر» بدل رأس ... وهكذا فتنشأ اللغة الفارسية ...» (٤)

(النظرية الثالثة) تقرر أن الفضل فى نشأة اللغة يرجع الى غريزة خاصة زود بها فى الأصل جميع أفراد النوع الانسانى ، وأن هذه

---

(١) سيأتى توضيح هذا فى النظرية الثالثة .

(٢) انظر كذلك فى الرد على هذه النظرية ، رينان « أصل اللغة » صفحة ٧٦ وتوابعها Renan : L'Origin du Langage

(٣) لم يبين القائلون بهذه النظرية بوضوح كيف أمكن التواضع على الكلمات الدالة على الافعال والحروف والمعانى الكلية ، مع أن هذه الامور ليس لها فى الخارج مدلول حتى يشير اليه المتواضعون .

(٤) نقلا عن ابن جنى بتصرف : الخصائص ، الجزء الاول ، صفحتى ٤٢ ، ٤٣ .

الغريزة كانت تحمل كل فرد على التعبير عن كل مدرك حسى أو معنوى بكلمة خاصة به ، كما أن غريزة « التعبير الطبيعى عن الانفعالات » تحمل الانسان على القيام بحركات وأصوات خاصة (انقباض الأسارير وانبساطها . وقوف شعر الرأس، الضحك، البكاء .. الخ) كلما قامت به حالات انفعالية معينة (الغضب ، الخوف ، الحزن ، السرور .. الخ) ، وأنها كانت متحدة عند جميع الأفراد فى طبيعتها ووظائفها وما يصدر عنها ، وأنه بفضل ذلك اتحدت المفردات وتشابهت طرق التعبير عند الجماعات الانسانية الأولى ، فاستطاع الأفراد التفاهم فيما بينهم ، وأنه بعد نشأة اللغة الانسانية الأولى لم يستخدم الانسان هذه الغريزة فأخذت تنقرض شيئا فشيئا حتى تلاشت كما انقرض لهذا السبب كثير من الغرائز الانسانية القديمة . ومن أشهر من ذهب هذا المذهب العلامة الألمانى مكس مولر Max Müller (١) ، والعلامة الفرنسى رينان Renan (٢)

وقد اعتمد مكس مولر فى تأييد هذه النظرية على أدلة مستمدة من البحث فى أصول الكلمات فى اللغات الهندية الأوروبية (٣) . فقد ظهر له أن مفردات هذه اللغات جميعها ترجع الى خمسمائة أصل مشترك ، وأن هذه الأصول تمثل اللغة الأولى التى انشعبت منها هذه الفصيلة ، فهى لذلك تمثل اللغة الانسانية فى أقدم عهودها . وتبين له من تحليل هذه الأصول أنها تدل على معان كلية ، وأنه لاتشابه مطلقا بين أصواتها وما تدل عليه من فعل أو حالة .

ففى دلالتها على معان كلية برهان قاطع على أن اللغة الانسانية الأولى لم تكن نتيجة تواضع واتفاق ، كما يذهب الى ذلك أصحاب النظرية الثانية السابق ذكرها . لأن التواضع ، فضلا عن تعارضه مع طبيعة النظم الاجتماعية كما تقدمت الاشارة الى ذلك ، يتوقف هو

---

(١) أنظر ترجمته فى التعليق الخامس بصفحة ٥٥ .

(٢) أنظر ترجمته فى التعليق الثانى بصفحة ٥٦ .

(٣) هى احدى الفصائل التى ترجع اليها اللغات الانسانية كما سيأتى الكلام على ذلك بتفصيل فى الفصل الثانى من الباب الثانى .

نفسه على وسيلة يتفاهم بها المتواضعون . وهذه الوسيلة لايعقل أن تكون اللغة الصوتية ، لأن المفروض أن المتواضع عليه هو أول مانطق به الانسان من هذه اللغة . ولا يعقل كذلك أن تكون لغة الاشارة ، لأننا بصدد ألفاظ تدل على معان كلية أى على أمور معنوية يتعذر استخدام الاشارة الحسية فيها .

وفى عدم وجود تشابه بين أصواتها وما تدل عليه برهان قاطع على أن اللغة الانسانية لم تنشأ من محاكاة الانسان لأصواته الطبيعية (أصوات التعبير الطبيعى عن الانفعالات) وأصوات الحيوانات والأشياء ، كما يذهب الى ذلك أصحاب النظرية الرابعة التى سنتكلم عنها قريبا .

واذا بطل أن اللغة الانسانية كانت نتيجة تواضع ، وبطل كذلك أنها نشأت عن محاكاة لأصوات الانسان الطبيعية وأصوات الحيوانات والأشياء ، لم يبق اذن تفسير معقول لهذه الظاهرة غير التفسير السابق ذكره : وهو أن الفضل فى نشأة اللغة يرجع الى غريزة زود بها الانسان فى الأصل للتعبير عن مدركاته بأصوات مركبة ذات مقاطع ، كما زود باستعداد فطرى للتعبير عن انفعالاته بحركات جسمية وأصوات بسيطة (١) .

وهذه النظرية — على ما فيها من دقة وطرافة وعمق فى البحث — فاسدة من عدة وجوه :

١ — فهى لاتحل شيئا من المشكلة التى نحن بصددها بل تكتفى بأن تضع مكانها مشكلة أخرى أكثر منها غموضا وهى مشكلة «الغريزة الكلامية » .

٢ — هذا الى أن ما تقرره يعتبر — من بعض الوجوه — من قبيل

---

(١) Max Müller : Science du Langage, 9e Leçon

تفسير الشيء بنفسه . فكل ما تقوله يمكن تلخيصه فى العبارة الآتية : « ان الانسان قد لفظ أصواتا مركبة ذات مقاطع ودلالات مقصودة لأنه كانت لديه قدرة على لفظ هذا النوع من الأصوات » . وهذا ، كما لا يخفى ، مجرد تقرير للمشكلة نفسها فى صيغة أخرى .

٣ - على أن قدرة الانسان الفطرية أو المكتسبة على لفظ هذا النوع من الأصوات ليست موضوع البحث ، لأنه من المقرر أن الانسان مزود بأعضاء نطق تسمح له بلفظ هذا النوع من الأصوات، بل ان هذا مشترك بين الانسان وبعض الطيور كما تقدمت الاشارة الى ذلك . وانما الذى يهمنا هو الوقوف على أول مظهر لاستغلال هذه القدرة والانتفاع بها فى تكوين الكلام الانسانى ، أى البحث عن الأسلوب الذى سار عليه الانسان فى مبدأ الأمر فى وضع أصوات معينة لمسميات خاصة ، والكشف عن العوامل التى وجهته الى هذا الأسلوب دون غيره .

٤ - ولكن أكبر خطأ وقعت فيه هذه النظرية هو ذهابها الى أن الأصول الخمسمائة السابق ذكرها تمثل اللغة الانسانية الأولى . - فهذه الأصول ، كما تقدم ، تدل على معان كلية . ومن الواضح أن ادراك المعانى الكلية يتوقف على درجة عقلية راقية لا يتصور وجود مثلها فى فاتحة النشأة الانسانية . وهاهى ذى الأمم البدائية التى تعد أصدق ممثل للانسانية الأولى تؤيد ما نقول . فقد أجمع علماء الاتنوجرافيا الذين قاموا بدراسة هذه الأمم بأمريكا وأستراليا وافريقيا وغيرها على ضعف عقلياتها بهذا الصدد وعجزها عن ادراك المعانى الكلية فى كثير من مظاهرها . وقد كان لهذه العقلية صدى كبير فى لغاتها ، فلا نكاد نجد فى كثير منها لفظا يدل على معنى كلى . ففى لغة الهنود الحمر مثلا يوجد لفظ للدلالة على شجرة البلوط الحمراء وآخر للدلالة على شجرة البلوط السوداء ... وهكذا، ولكن لا يوجد أى لفظ للدلالة على شجرة البلوط ، ومن باب أولى لا يوجد أى لفظ للدلالة على الشجرة على

العموم (١) . وفى لغة الهورونيين Hurons (من السكان الأصليين لأمريكا الشمالية) يوجد لكل حالة من حالات الفعل المتعدى لفظ خاص بها ، ولكن لا يوجد للفعل نفسه لفظ يدل عليه . فيوجد لفظ للتعبير عن الأكل فى حالة تعلقه بالخبز ، ولفظ آخر للتعبير عنه فى حالة تعلقه باللحم ، وثالث فى حالة تعلقه بالزبد ، ورابع فى حالة تعلقه بالموز وهكذا ، ولكن لا يوجد فعل ولا مصدر للدلالة على الأكل على العموم أو الأكل فى زمن ما (٢) . ولغة السكان الأصليين لجزيرة تسمانيا Tasmenis (بقرب استراليا) لا يوجد من بين مفرداتها لفظ يدل على الصفة ، فاذا أرادوا وصف شيء لجئوا الى تشبيهه بآخر مشتمل على الصفة المقصودة ، فيقولون مثلا « فلان كشجرة كذا » اذا أرادوا وصفه بالطول (٣) .

ولذلك يرى المحدثون من علماء اللغة أن الأصول الخمسمائة السابق ذكرها لا تمثل فى شيء اللغة الانسانية الأولى كما يذهب الى ذلك مكس مولر ، بل انها بقايا لغة حديثة قطعت شوطا كبيرا فى سبيل الرقى والكمال ولم تصل اليها الأمم الانسانية الا بعد أن ارتقت عقلياتها ونهض تفكيرها . ويذهب بعضهم الى أبعد من هذا فيقرر أنها مجرد أصول نظرية وأنها لم تكن يوما ما موضوع لغة انسانية (٤) .

(النظرية الرابعة) تقرر أن اللغة الانسانية نشأت من الأصوات الطبيعية (التعبير الطبيعى عن الانفعالات ، أصوات الحيوان ، أصوات مظاهر الطبيعة ، الأصوات التى تحدثها الأفعال عند وقوعها كصوت الضرب والقطع والكسر ... الخ) وسارت فى سبيل الرقى شيئا فشيئا تبعا لارتقاء العقلية الانسانية وتقدم الحضارة واتساع نطاق الحياة

---

(١) Ribot : Evolution des Idées Générales, p. 110.

(٢) Ribot, op. cit., 173, 174.

(٣) Ribot, op. cit., 204 et suiv.

(٤) هذا هو رأى الاستاذين سيس وبريال Sayce, Bréal أنظر فى ذلك Ribot, op. cit., 81-82

الاجتماعية وتعدد حاجات الانسان ... وما الى ذلك — وقد ذهب الى هذا الرأى معظم المحدثين من علماء اللغة وعلى رأسهم العلامة وتنى Whitey (١) . وذهب الى مثله من قبل هؤلاء كثير من فلاسفة العصور القديمة ومن مؤلفى العرب بالعصور الوسطى . فقد تحدث عنه ابن جنى (المتوفى عام ٣٩٢ هـ . أى من نحو ألف سنة) فى كتابه الخصائص فى أسلوب يدل على قدمه وكثرة القائلين به من قبله (٢) .

فبحسب هذه النظرية يكون الانسان قد افتتح هذه السبيل بمحاكاة أصواته الطبيعية التى تعبر عن الانفعالات كأصوات الفرح والحزن والرعب وما اليها ، ومحاكاة أصوات الحيوان ومظاهر الطبيعة والأشياء كدوى الريح وحنين الرعد وخرير الماء وحفيف الشجر وجعجعة الرحى وقعقعة الشنان وصرير الباب وصوت القطع والضرب ... وهلم جرا . وكان يقصد من هذه المحاكاة التعبير عن الشىء الذى يصدر عنه الصوت المحاكى أو عما يلازمه أو يصاحبه من حالات وشئون. واستخدم فى هذه المحاكاة ما زود به من قدرة على لفظ أصوات مركبة ذات مقاطع. وكانت لغته فى مبدأ أمرها محدودة الألفاظ ، قليلة التنوع ، قريبة الشبه بالأصوات الطبيعية التى أخذت عنها ، قاصرة عن الدلالة على المقصود . ولذلك كان لابد لها من مساعد يصحبها فيوضح مدلولاتها ويعين على ادراك ما ترمى اليه . وقد وجد الانسان خير مساعد لها فى الاشارات اليدوية والحركات الجسمية. وهذا المساعد الارادى قد نشأ هو نفسه عن الحركات الفطرية التى تصحب الانفعالات ، فكان فى مبدأ أمره مجرد محاكاة ارادية لهذه الحركات . ثم توسع الانسان فى

---

(١) انظر بعض مظاهر نشاطه العلمى ومؤلفاته ، بصفحة ٦٥ والتعليق الاول من تعليقاتها .

(٢) أنظر الجزء الاول من الخصائص صفحتى ٤٤ ، ٤٥ : « وذهب بعضهم الى أن أصل اللغات كلها انما هو من الأصوات المسموعة كدوى الريح وحنين الرعد وخرير الماء وشحيج البغل ونهيق الحمار ونعيق الغراب وصهيل الفرس ونزيب الظبى ، ثم تولدت اللغات عن ذلك فيما بعد . وهذا عندى وجه صالح ومذهب متقبل »

استخدامه فحاكى به أشكال الأشياء وحجومها وصفاتها .. وما الى ذلك، فازدادت أهميته فى الحديث ، وسد فراغا كبيرا فى اللغة الصوتية . ثم أخذت هذه اللغة يتسع نطاقها تبعا لارتقاء التفكير واتساع حاجات الانسان ومظاهر حضارته ، وتستغنى شيئا فشيئا عن مساعدة الاشارات وتبعد عن أصولها تحت تأثير عوامل كثيرة كالتطورات الطبيعية التى تعتور الصوت وأعضاء النطق الانسانى وكعلاقات المجاورة والمشابهة التى تعتور الدلالات ... وما الى ذلك من الأمور التى سنعرض لها بتفصيل فى الباب الثانى من هذا الكتاب .

وهذه النظرية هى أدنى نظريات هذا البحث الى الصحة ، وأقربها الى المعقول ، وأكثرها اتفاقا مع طبيعة الأمور وسنن النشوء والارتقاء الخاضعة لها الكائنات وظواهر الطبيعة الاجتماعية . وهى الى هذا وذاك تفسر المشكلة التى نحن بصددها ، وهى الأسلوب الذى سار عليه الانسان فى مبدأ الأمر فى وضع أصوات معينة لمسميات خاصة والعوامل التى وجهته الى هذا الأسلوب دون غيره . ولم يقم أى دليل يقينى على خطئها . ولكن لم يقم كذلك أى دليل يقينى على صحتها . وكل ما يذكر لتأييدها لا يقطع بصحتها وانما يقرب تصورها ويرجح الأخذ بها .

ومن أهم أدلتها أن المراحل التى تقررها بصدد اللغة الانسانية تتفق فى كثير من وجوهها مع مراحل الارتقاء اللغوى عند الطفل . فقد ثبت أن الطفل فى المرحلة السابقة لمرحلة الكلام ، يلجأ فى تعبيره الارادى الى محاكاة الأصوات الطبيعية (أصوات التعبير الطبيعى عن الانفعالات، أصوات الحيوان، أصوات مظاهر الطبيعة والأشياء ..) فيحاكى الصوت قاصدا التعبير عن مصدره أو عن أمر يتصل به . وثبت كذلك أنه فى هذه المرحلة وفى مبدأ مرحلة الكلام يعتمد اعتمادا جوهريا فى توضيح تعبيرة الصوتى على الاشارات اليدوية والجسمية . — ومن المقرر أن المراحل التى يجتازها الطفل فى مظهر ما من مظاهر حياته تمثل المراحل التى

اجتازها النوع الانسانى فى هذا المظهر (١) .

ومن أدلتها كذلك ما تقرره بصدد خصائص اللغة الانسانية فى مراحلها الأولى يتفق مع مانعرفه عن خصائص اللغات فى الأمم البدائية. ففى هذه اللغات تكثر المفردات التى تشبه أصواتها أصوات ما تدل عليه. ولنقص هذه اللغات وسذاجتها وابهامها وعدم كفايتها للتعبير لا يجد المتكلمون بها مناصا من الاستعانة بالاشارات اليدوية والجسمية فى أثناء حديثهم لتكملة ما يفتقر اليه من عناصر وما يعوزه من دلالة (٢) . ومن المقرر أن هذه الأمم ، لبعدها عن تيارات الحضارة وبقائها بمعزل عن أسباب النهضة الاجتماعية ، تمثل الى حد كبير النظم الانسانية فى عهودها الأولى .

— ٤ —

نشأة مراكز اللغة

تقدم أن الانسان لا يمتاز عن الفصائل الحيوانية الأخرى باللغة الصوتية فحسب ، بل يمتاز عنها كذلك باشتمال مخه على مراكز تشرف على مختلف مظاهر هذه اللغة (مركز الكلام ، مركز حفظ الأصوات ، مركز الكلمات المرئية .. الخ) (٣) .

وقد اختلف الباحثون اختلافا كبيرا فى نشأة هذه المراكز فى الفصيلة الانسانية .

---

(١) يطلق على هذه النظرية اسم نظرية « هيكل Haeckel » أو « نظرية التلخيص العام » وقد تكلمنا عليها بتفصيل فى كتابنا : « عوامل التربية » صفحات ١٢٣ — ١٢٩ .

هذا ، وسندرس بتفصيل فى الفصل الثانى نشأة اللغة عند الطفل وتطورها ومبلغ تمثيلها لمراحل اللغة الانسانية .

(٢) انظر صفحة ٨٣ والتعليق الثالث من تعليقاتها .

(٣) انظر آخر ص ٩٥ وأول ص ٩٦ . — هذا ولا يتسع المقام للكلام عن هذه المراكز ووظائفها وطريقة آدائها لها ، على أن هذا من بحوث علم النفس والفيزيولوجيا لا من بحوث علم اللغة .

فالقائلون باستقلال النوع الانســانى فى نشأته عن الأنواع الحيوانية الأخرى يذهبون الى أنه قد خلق مزودا بهذه المراكز كما خلق مزودا بخصائصه الأخرى كاعتدال القامة وادراك المعانى الكلية ... وما الى ذلك . ويرون أن هذه المراكز كانت فى مبدأ الخلق ساذجة قاصرة، ثم ارتقت فى بعض الشعوب حتى وصلت الى شأو كبــير فى الدقة والنضج ، على حين أنها جمدت فى شعوب أخرى فلم تتزحزح كثيرا عن الحالة الساذجة التى خلقت عليها . ويرجع الفضل فى ارتقائها الى عوامل كثيرة منها كثـرة اسـتخدامها فى وظائفها وما تمرن عليه من عادات مكتسبة واتساع الحضارة الانسانية وارتقاء التفكير ... وهلم جرا . فمراكز اللغة شأنها فى ذلك شأن أعضاء الحس وأعضـــاء الحركة فى الجسم الانسانى ، تخلق مزودة بالقدرة على القيام بوظائفها ؛ وتظل قابلة للارتقاء فى هذه الناحية ما أتيحت لها الوسائل المواتية . فان لم يتح لها ذلك قصرت عن القيام بوظائفها أو جمدت على الحالة التى كانت عليها فى نشأتها الأولى .

وأما القائلون بمذهب الارتقاء وتفرع الانســان عن غــيره من الفصائل الحيوانية ، فيرون أن الفضل فى نشأة هذه المركز عنــد الانسان يرجع الى الظروف التى أحاطت به فى مبدأ نشأته والى الأمور التى ألجأته اليها مقتضيات حياته وبخاصة مايتصل منها بشئون دفاعه عن نفسه . وقد اختلفوا فى تصوير هذه النشأة على الرغم من اتفاقهم على الأسس السابق ذكرها . وأشهر نظرياتهم بهذا الصدد نظرية دارون التى تتلخص فى أن الانسان كان فى الأصل من الفصــائل المتســلقة الأشجار ، ثم اضطرته ظروف قاهرة الى العيش على الأرض حيث تعرض لاغارة الحيوانات القوية وسطوها عليه . فاستخدم فى مبدأ الامر فى مقاومتها أنيابه وأعضاء جسمه كما كان يفعل من قبل وكما تفعل أفراد فصيلته . ولكن هذه الوسيلة كانت تضطره الى الارتماء فى أحضــان عدوه فتعرض حياته للخطر . فهدته غريزة المحافظة على الحياة الى وسيلة أخرى تدفع عنه عــدوان الحيــوان بدون أن تضطره الى

الاصطدام به ، وذلك بأن يقذف عليه عن بعد قطعا من حجـارة أو خشب أو معدن ... أو بأن يمسك بطرف عصا ويدفعه عنـه أو يضربه بطرفها الآخر . وقد كان لهذا الأسلوب الجديد أثران كبيران فى حياة الانســان :

أحدهما أنه يضطره الى الوقوف على رجلين اثنين فى أثناء دفاعه عن نفسه . ومن تكرار هذه الوقفة أخذت قامته تعتدل شيئا فشـيئا حتى استوى القسم الأعلى من جسمه مع أطرافه السفلى ، وأخذت عادة المشى على أربع تضعف بالتدريج حتى انقرضت (وان كانت تظهر فى بعض مراحل الطفولة الانسانية وفقا لقوانين الوراثة النوعية التى تقضى بأن يجتاز الطفل فى سبيله من الطفولة الى الرجولة المراحل نفسها التى اجتازها النوع فى سبيله من الحيوانية الى الانســانية ومن الوحشية الى الحضارة) .

وثانيهما (وهو الذى يهمنا فى موضوعنا) أن هذا الأسـلوب الدفاعى قد أعفى الانسان من استخدام فكه وأسنانه فى الدفاع عن نفسه ، فتعطلت هذه الأعضاء عن القيام بجزء كبير من وظيفتها ، ونجم عن ذلك تقلص العضلات والعظام الصدغية التى تتحرك مع الفم ، وترتب على هذا التقلص أن اتسع مجال النمو للجمجمة ، فزاد حجمها عما كان عليه ، وباتساع حجم الجمجمة اتسع مجال النمـــو للمخ فزاد حجمه ونشأت به مراكز جديدة لم تكن به من قبل ، من أهمها مراكز اللغــة التى نحن بصدد الكلام عنها .

ولتأييد هذا الأثر الأخير ، قام العلامة أنتونى Anthony بتجربة على عدد من الجراء (الكلاب الصغيرة) . وذلك بأن استأصل جزءا من عضلاتها وعظامها الصدغية ، وتتبع نمو جماجمها بعد هذه العملية ، فتبين له أنها أخذت تتسع أكثر من المعتاد.

وقد تصدى كثير من العلماء المحدثين للتحرى عن هذه الحقائق، فثبت لهم فسادها من نواح كثيرة لا يهمنا منها الآن الا الناحية المتعلقة

بنشأة مراكز اللغة . فقد ظهر لهم بهذا الصدد أن تعطيل الفك والأسنان وان نجم عنه اتساع فى الجمجمة ، لا يترتب عليه مطلقا اتساع فى المخ أو اختلاف فى تعاريجه وشكل تكونه . والتجربة التى قام بها أنتونى تدل هى نفسها على صحة ذلك . فقد ظهر له أن جماجم الجراء قد انحسرت عن أمخاخها ، بدليل أن الآثار التى تنطبع عليها من ملاصقتها للمخ قد انمحت . فاتساع الجمجمة الناجم عن تقلص عضلات الصدغ وعظامه لا يتبعه اذن اتساع فى حجم المخ أو نشأة مراكز جديدة كما يزعم دارون .

وكثيرا ما تتسع الجمجمة عند بعض الناس اتساعا غير عادى لسبب آخر غير تقلص عضلات الصدغ وعظامه ، ولكن لم يحدث مطلقا فى حالة من حالات هذا الاتساع أن زاد حجم المخ أو تغيرت صورته. وعلى العكس من ذلك نمو المخ نفسه : فانه يرغم الجمجمة على الاتساع ويشكلها بالشكل الذى يتفق مع نموه . فان قاومته ، بأن كان عظم اليافوخ (١) قد اشتد قبل أوانه ، تغلب على مقاومتها ، وشق لنفسه طريقا على أى وجه : فأحيانا يدفعها الى الأمام فينشأ الشخص بارز الجبهة ، وأحيانا يدفعها الى الخلف فينشأ الشخص أحدب الرأس ، وأحيانا يدفعها الى أعلى فينشأ مسنم الرأس، وأحيانا يدفعهامن ناحيتين أوأكثر فينشأ مدنخ الرأس (٢) ... وهكذا. ــ فالطريق الطبيعى للارتقاء، ان كان ثم ارتقاء ، هو أن يتسع المخ أولا وتوجد فيه مراكز لم تكن موجودة من قبل ويتبع ذلك اتساع فى الجمجمة ، لا أن تتسع الجمجمة أولا وبتبعها اتساع المخ كما يقول دارون ومن نحا نحوه .

على أن الارتقائيين لم يكونوا فى حاجة الى هذه الفروض التعسفية لتعليل نشأة مراكز اللغة بطريقة تتفق مع مبادئهم . فقد كان

---

(١) حيث يلتقى عظم مقدم الرأس بعظم مؤخره وهو الذى يكون لينا فى الصبى .

(٢) « رجل مدنخ الرأس فى رأسه ارتفاع وانخفاض » (المخصص لابن سيده جزء أول ص ٦٢) . « والمدنخ كمحدث (بتشديد الدال المكسورة) من فى رأسه ارتفاع أو انخفاض » (القاموس المحيط) والعامة تقول شخص برأسين ، أو برءوس .

فى امكانهم أن يذهبوا الى أن هذه المراكز لم تنشأ من العدم ، بل كانت نتيجة تطور لمراكز قديمة أو لأجزاء من مراكز قديمة . كان فى امكانهم مثلا أن يذهبوا الى أن جزءا من مراكز الحركة الخاصة بعضلات الوجه Centres des mouvements des muscles de la face قد تخصص فى حركة أعضاء النطق . ومع تقادم الزمن وكثرة مزاولته لهذه الوظيفة تشكل بالشكل الذى يتفق معها واستقل عن غيره وأخذ يسير فى سبيل الارتقاء حتى وصل الى الحالة التى هو عليها الآن . كان فى امكانهم أن يقولوا هذا بصدد مراكز الكلام ويقولوا مثله بصدد المراكز اللغوية الأخرى ، فيتقوا معظم ما وجه الى فروضهم السابقة من اعتراضات ويكون مذهبهم أدنى الى القبول وأكثر اتفاقا مع حقائق الأمور . وذلك أنه بالموازنة بين مخ الانسان وأمخاج الحيوانات القريبة منه، يظهر أن مراكزه اللغوية — على فرض أنها لم تكن موجودة فى أصل خلقه — كانت نتيجة تشكيل جديد لبعض المراكز الموجودة فى أمخاج هذه الحيوانات .

— ٥ —
المراحل الأولى التى اجتازتها اللغة الانسانية

تقدم أن اللغة الانسانية قد نشأت ناقصة ساذجة مبهمة فى نواحى أصواتها ومدلولاتها وقواعدها ، ثم سارت بالتدريج فى سبيل الارتقاء (١) .

وقد اختلف الباحثون اختلافا كبيرا فى بيان المراحل الأولى التى اجتازتها فى هذا السبيل .

فبعضهم نظر الى الموضوع من الناحية الصوتية فحاول أن يكشف

(١) انظر صفحات ١٠٣ — ١٠٦ .

عما كانت عليه أصوات اللغة الانسانية فى مبدأ نشأتها وعن مراحل ارتقائها . ـ وقد ذهب معظم هؤلاء الى أن اللغة قد سارت بهذا الصدد فى ثلاث مراحل :

(المرحلة الأولى) مرحلة الصراخ Le Cri . ـ وفى هذه المرحلة لم يكن فى أصوات اللغة الانسانية أصوات مد (وهى الأصوات التى نرمز اليها بحروف اللين) ولا أصوات ساكنة (وهى الأصوات التى نرمز اليها بالحروف الساكنة) ، وانما كانت مؤلفة من أصوات مبهمة تشبه أصوات التعبير الطبيعى عن الانفعال كالضحك والبكاء والصراخ ، وأصوات الحيوان ومظاهر الطبيعة والأشياء كدوى الريح وحنين الرعد وخرير الماء وحفيف الشجر وجعجعة الرحى وصوت القطع والضرب .. وهلم جرا .

(والمرحلة الثانية) مرحلة المد Vocalisation ، وفيها ظهرت أصوات اللين فى اللغة الانسانية .

(والمرحلة الثالثة) مرحلة المقاطع Articulation ، وفيها ظهرت الأصوات الساكنة فى اللغة الانسانية (الباء ، التاء ، الثاء ... الخ) .

ويعتمد أصحاب هذه النظرية فى تأييدها على أمور مستمدة من لغة الطفل ولغات الأمم البدائية :

أما فيما يتعلق بالطفل فقد ظهر أن أصواته تجتاز المراحل نفسها التى ذكرها أصحاب هذه النظرية . فأصواته فى المبدأ يتألف معظمها من الصراخ والأصوات المبهمة المشبهة لأصوات الحيوان ومظاهر الطبيعة ، ثم تكثر لديه فى المرحلة التالية أصوات المد ، وفى آخر مرحلة يجتازها قبل أن يظهر لديه التقليد اللغوى، وهى المرحلة التى يسميها علماء النفس بمرحلة (التمرينات النطقية) ،تكثر فى نطقه الأصوات الساكنة (١) .

---

(١) سنتكلم عن هذا الموضوع بتفصيل فى الفصل الثانى من هذا الباب .

وقد أشرنا فيما سبق الى أن كثيرا من العلماء يرى أن المراحل التى يجتازها الطفل فى مظهر ما من مظاهر حياته تمثل المراحل التى اجتازها النوع الانسانى فى هذا المظهر (١) .

وأما فيما يتعلق بلغات الأمم البدائية فقد لوحظ فى كثير منها أن الأصوات المبهمة وأصوات المد تفوق كثيرا الأصوات الساكنة فى كميتها وأهميتها فى الدلالة (٢) . وقد تقدم أن هذه الأمم — لبعدها عن تيارات الحضارة وبقائها بمعزل عن أسباب النهضات الاجتماعية — تمثل الى حد كبير الأساليب الانسانية فى عهودها الأولى (٣) .

وليس من بين هذه الأدلة ما يمكن عده برهانا قاطعا على صحة هذه النظرية . بل ان معظم المحدثين من علماء اللغة يقطعون بفسادها . وحجتهم فى ذلك أنه لا يوجد من بين اللغات الانسانية المعروفة — سواء فى ذلك اللغات الحية والميتة ، الراقية والساذجة — لغة خالية من أصوات اللين أو من الأصوات الساكنة ؛ وأنه من المتعذر تصور لغة انسانية عارية عن أحد هذين النوعين . هذا الى أن ظهور الأصوات ذات المقاطع (الأصوات الساكنة) فى لغة الانسان لم يكن ليتوقف على ارتقاء فى لغته أو على تطور صوتى أو على مراحل يجتازها فى هذا السبيل كما يزعم أصحاب هذه النظرية . لأن الأصوات ذات المقاطع توجد عند كثير من فصائل الحيوانات نفسها ؛ كما سبقت الاشارة الى ذلك (٤) .

وبعضهم نظر الى الموضوع من ناحية مفردات اللغة ودلالة بعضها

---

(١) انظر أول صفحة ١٠٦ وتعليقها الاول .

(٢) ففى لغات القيجيين والهوتنتوت ولغات بعض قبائل من السكان الأصليين لأمريكا الشمالية تكثر الأصوات المبهمة المشبهة لأصوات الحيوان ومظاهر الطبيعة . وفى لغات السياميين والصينيين مثلا نرى أن معظم ظواهر الدلالة تتصل بحروف المد . فكلمة «ها» â مثلا معناها البحث فى لغة السياميين ، فاذا مدت الفها قليلا وفتح الفم فى نطقها أصبح معناها الوباء ، واذا مدت قليلا بدون فتح الفم أصبح معناها خمسة
.V. Ribot. op. cit., p. 78

(٣) انظر صفحة ١٠٦ .

(٤) انظر صفحة ٩٤ وتوابعها .

على معان جزئية وبعضها الآخر على معان كلية ، وحاول أن يبين أى القسمين كان أسبق ظهورا من الآخر .

وقد اختلف هؤلاء فيما بينهم وانقسموا الى فريقين :

الفريق الأول ــ وعلى رأسه مكس مولر ــ يرى أن اللغة الانسانية قد بدأت بألفاظ دالة على معان كلية ، ثم انشعبت عن هذه الألفاظ الكلمات الدالة على المعانى الجزئية . ــ ودليلهم على هذا أن الأصول المشتركة التى ترجع اليها المفردات فى جميع اللغات الهندية ــ الأوروبية والتى تمثل فى نظرهم اللغة الانسانية فى أقدم عصورها ، تدل على معان كلية كما سبقت الاشارة الى ذلك (١) :

وقد ناقشنا هذه النظرية فيما تقدم فتبين فسادها ، وظهر أن هذه الأصوات لا تمثل اللغة الانسانية فى عهودها الأولى ، وأنها بقايا من لغة راقية لم تصل اليها الأمم الانسانية الا بعد أن اجتازت فى حياتها اللغوية مراحل طويلة ، وأن بعض الباحثين يذهب الى أبعد من هذا فيقرر أننا بصدد أصول نظرية لم تكن يوما ما لغة كلام (٢) .

وبعضهم يبحث فى هذا التطور من ناحية ثالثة قريبة من بعض الوجوه من الناحية السابقة ، فيتساءل عن المراحل التى ظهر فيها كل من الاسم والصفة والفعل والحرف فى الكلام الانسانى . وأشهر نظرية بهذا الصدد هى نظرية العلامة ريبو Ribot التى تقرر أن الصفة هى أول ما ظهر فى اللغة الانسانية ، ثم تلتها أسماء المعانى وأسماء الذوات ، ثم ظهرت الأفعال (وبظهور الأفعال دخلت اللغة الانسانية فى أهم مرحلة من مراحل رقيها ، فلا يخفى أهمية الأفعال فى الحديث وكثرة وظائفها فى الدلالة) ، ثم اختتمت مراحل الارتقاء بظهور الحروف (٣) .

---

(١) انظر صفحة ١٠٠ .

(٢) انظر صفحتى ١٠٢ ، ١٠٣ .

(٣) انظر Ribot, op. cit., pp. 88-96

وقد اعتمد فى تأييد نظريته هذه على أدلة كثيرة بعضها يرجع الى لغة الطفل ولغات الأمم البدائية ، وبعضها يرجع الى بحوث ايتيمولوجية (دراسة أصول الكلمات) أو نفسية . فمن ذلك أن الأصول الهندية الأوروبية التى كشفها « مكس مولر » يتألف معظمها من كلمات دالة على الصفات ، وفى هذا دليل على أن الصفات كانت أسبق الكلمات ظهورا فى اللغة الانسانية ، وأن معظم أسماء المعانى وأسماء الذوات مشتقة فى كثير من اللغات من كلمات دالة على صفات ، وفى هذا دليل على أن الأسماء لم تظهر فى اللغة الانسانية الا بعد ظهور الصفات ، وأن معظم الأفعال فى اللغات الهندية الأوروبية مأخوذة من كلمات دالة على صفات أو أسماء مضاف اليها بعض أصوات من ضمائر ، وفى هذا دليل على أن الأفعال قد ظهرت بعد ظهور الصفات والأسماء ، وأن كثيرا من لغات الأمم البدائية مجردة من الحروف (١)، وأن لغة الطفل لا تظهر فيها الحروف الا فى آخر مرحلة من مراحلها ، ففى المرحلة الأولى ينطق الطفل بأجزاء الجملة عارية عن الحروف وعن علامات الربط (٢) ، وفى خلو اللغات البدائية ولغة الطفل فى مراحلها الأولى من الكلمات الدالة على الحروف دليل على أنها كانت آخر ماظهر فى اللغات الانسانية .

وليس من بين هذه الأدلة ما ينهض برهانا قاطعا على صحة هذه النظرية ، بل انها ظاهرة الخطأ فى بعض نواحيها ، وخاصة اذ تقرر أن الصفات كانت أسبق ظهورا فى اللغة الانسانية من أسماء الذوات . ففى هذه الناحية توجه اليها المآخذ نفسها التى وجهناها الى نظرية مكس مولر (٣) .

---

(١) سيأتى الكلام عن ذلك فى اللغات غير المتصرفة (انظر صفحتى ١١٧ ، ١١٨) .

(٢) سيأتى الكلام على ذلك بتفصيل فى الفصل الثانى من هذا الباب .

(٣) انظر صفحتى ١٠٢ ، ١٠٣ .

وبعضهم يبحث فى هذا التطور من ناحية رابعة تتعلق بقواعد الصرف والتنظيم (المورفولوجيا والسنتكس (١)) .

وأشهر نظرية بهذا الصدد هى النظرية التى قال بها العلامة شليجل Schlegel وتابعه فيها جمهرة كبيرة من علماء اللغة . وهى تقسم اللغات الانسانية فى هذه الناحية الى ثلاثة أقسام :

(القسم الأول) اللغات المتصرفة Flexionnelles, ou à Flexion أو التحليلية Analytiques . — ويمتاز هذا القسم من ناحية (المورفولوجيا) بأن كلماته تتغير معانيها بتغير أبنيتها ، ومن ناحية «السنتكس» *بأن أجزاء الجملة يتصل بعضها ببعض بروابط مستقلة* (٢) تدل على مختلف العلاقات . — وذلك كاللغة العربية . فان كلماتها تتغير معانيها بتغير بنيتها : فتقول عِلْم للدلالة على المصدر، وعَلِم للدلالة على الفعل فى الماضى ، وعَلَّم للدلالة على تعدى الفعل ، واعلمْ للدلالة على الأمر ، والعلوم للدلالة على جمع العلم ، والمعلوم للدلالة على ما وقع عليه العلم ، والعلامة للدلالة على وسيلة العلم ... وهلم جرا . هذا من ناحية الصرف . وأما من ناحية التنظيم فان عناصر جملها يتصل بعضها ببعض عن طريق روابط مستقلة تشير الى مختلف العلاقات: فتقول مثلا ذهبَ محمد وعلى من المنزل الى الجامعة . فتأتى بواو قصيرة ونون زائدتين بعد دال محمد للدلالة على أنه أحدث الحدث ، وتأتى بالواو العاطفة بين محمد وعلى للدلالة على عطف عنصر من عناصر الجملة على آخر ، وبمن للدلالة على الابتداء ، وبالى للدلالة على الانتهاء . — وما قيل فى اللغة العربية يقال مثله فى بقية اللغات السامية وفى اللغات الهندية — الأوروبية .

---

(١) انظر صفحات ٨ — ١٠ .

(٢) نقصد باستقلال الروابط زيادتها عن أصوات الكلمة . فالواو القصيرة (الضمة) والنون الساكنة الملحقتان بكلمة «محمد» فى جاء محمد (محمدن) تعتبران من الروابط المستقلة . وهما تشيران فى هذا التركيب الى أن مدلول محمد هو الذى أحدث الحدث .

وسميت هذه الطائفة من اللغات « بالمتصرفة » لتغير أبنيتها بتغير المعانى ، و « بالتحليلية » لما تتخذه حيال الجملة من تحليل أجـزائها وربطها بعضها ببعض بروابط تدل على العلاقات .

(القسم الثانى) اللغات «اللصقية» أو «الوصلية» Agglutinantes, ou, Agglomérrantes, ou, Synthétiques ــ ويمتاز هذا القسم من ناحيتى المورفولوجيا والسنتكس بأن تغير معنى الأصل وعلاقته بمـا عداه من أجزاء الجملة يشار اليهما بحروف تلصق به . وتوضع هـذه الحروف أحيانا قبل الأصل فتسمى « سابقة Préfixes » ، وأحيانا بعده فتسمى « لاحقة Suffixes » (١) . وبعض هذه الحروف ليس له دلالة مستقلة ، ولكن معظمها كان فى الأصل كلمات ذات دلالة ثم فقدت معانيها وأصبحت لا تستخدم الا مساعدة للدلالة على تغير معنى الأصل الذى تلصق به أو للاشارة الى علاقته بما عداه من أجزاء الجملة . ومن أشهر لغات هذه الفصيلة اللغة اليابانية واللغة التركية وبعض لغـات الأمم البـدائية كلغـة الأيروكويين Iroquois (٢) والبنتويين Bantous (٣) .

وسميت هذه اللغات «باللصقية» أو «الوصلية» للطريقة التى تتبعها

---

(١) يختلف هـذا الأسلوب باختـلاف اللغـات . فبعض اللغـات اللصقية تستخدم الحروف «السابقة» كاللغة البنتويه ، وبعضها يستخدم الحروف « اللاحقة » كالتركية . فمنزل فى التركية مثلا يقال له او Ew ، فاذا أردت أن تقول خارج المنزل ألصقت بآخره دالا مكسورة ونونا للدلالة على المجاوزة فتقول اودن Ewden ، واذا أردت جمعه الصقت بآخره لاما مكسورة وراء فتقول أولر Ewler ، واذا أردت أن تقـول خارج المنازل ألصقت بالجمع الدال والنون الدالتين على المجاوزة فتقول أولردن Ewlerden

وقد تجتمع الطريقتان فى لغة واحدة فتستخدم احيانا الحروف السابقة وأحيانا الحروف اللاحقة .

(٢) عشائر من الهنود الحمر (السكان الأصليين لامريكا الشمالية) . وقد يلحق بالأصل الواحد فى لغتهم عدد كبير من هذه الحروف للدلالة على كثير من العلاقات والمعانى، فتصبح الكلمة الواحدة كثيرة الاصوات كبيرة المدلول . فقد روى العلامة ريبو أنه توجد فى لغتهم كلمة واحدة تدل على ما يأتى : « اطلب نقودا من هؤلاء الذين جاءوا ليشتروا منى الأقمشـة » . ويكثر كذلك هذا النوع من الكلمات الطويلة بلغة الاسكيمو
V. Ribot, op. cit., 89

(٣) يطلق هذا الاسم على سكان القسم الجنوبى بافريقيا الاستوائية (ما عدا قبيلتى الهوتانتوت والبوشيمان Hottentots, Bochimans) وترجع لغاتهم الى فصيلة واحدة على الرغم من اختلاف أصولهم الشعبية .

حيال الأصل اذ تلصق به حروفا زائدة عن حروفه لتوضيح المعنى المقصود منه أو للاشارة الى علاقته بما عداه من أجزاء الجملة .

(القسم الثالث) اللغات «غير المتصرفة» Mono-syllabiques أو « العازلة » Isolantes . — ويمتاز هذا القسم من ناحية (المورفولوجيا) ، بأن كلماته غير قابلة للتصرف لا عن طريق تغيير البنية ولا عن طريق لصق حروف بالأصل ، فكل كلمة تلازم صورة واحدة وتدل على معنى ثابت لا يتغير . ويمتاز من ناحية « السنتكس » بعدم وجود روابط بين أجزاء الجملة للدلالة على وظيفة كل منها وعلاقته بما عداه ، بل توضع هذه الأجزاء بعضها بجانب بعض ؛ وتستفاد وظائفها وعلاقاتها من ترتيبها أو من سياق الكلام . ويدخل فى هذا القسم اللغة الصينية وكثير من لغات الأمم البدائية .

وسميت هذه اللغات « بغير المتصرفة » لأن كلماتها لا تتصرف ولا يتغير معناها ، و «بالعازلة» لأنها تعزل أجزاء الجملة بعضها عن بعض ولا تصرح بما يربطها من علاقات .

ويرى أصحاب هذه النظرية أن اللغة الانسانية فى مبدأ نشأتها كانت من النوع الثالث (اللغات غير المتصرفة) ؛ ثم ارتقت الى النوع الثانى (اللغات اللصقية) ، ولم تصل الى حالة النوع الأول (اللغات المتصرفة) الا فى آخر مرحلة قطعتها فى هذا السبيل . — غير أن بعض اللغات الانسانية قد وقفت فى نموها فلم تتجاوز المرحلة الأولى كاللغة الصينية ، أو لم تتجاوز المرحلة الثانية كاليابانية والتركية .

ويستدل على صحة هذه النظرية بأدلة مستمدة من لغة الطفل ولغات الأمم البدائية على النحو الذى تقدم شرحه فى النظريات السابقة .

ولكن ليس من بين أدلتها ما ينهض برهانا قاطعا على صحتها . بل قامت أدلة كثيرة على خطئها . فمن ذلك أن الأساليب الثلاثة التى تعرض

لها (التصرف واللصق والعزل) توجد مجتمعة فى كل لغة انسانية ، وأنه من المتعذر أن نعثر على لغة عارية عن أسلوب منها .

فاللغة العربية ، كما يوجد بها مظاهر من أسلوب التصرف والتحليل كما تقدم ، يوجد بها مظاهر كثيرة من الأسلوبين الآخرين . فهى تسير على طريقة اللصق بالحروف «اللاحقة» و «السابقة» فى حالات كثيرة كجمع المذكر السالم وجمع المؤنث السالم والتعدى بالهمزة (قائم ، قائمون — زينب زينبات — قام على ، وأقام على الصلاة) ... وهلم جرا . وتسير كذلك على طريقة العزل فى كثير من التراكيب : فبعض الجمل الاسمية والجمل الفعلية لا ترتبط عناصرها بعضها ببعض بأى رابطة ملفوظ ، وانما تفهم العلاقة بينها من ترتيبها أو من السياق مثل « ضرب موسى عيسى » ، وجميع الجمل على هذا النحو فى اللغات العامية المنشعبة عن العربية ، فقد تجردت جميعها من علامات الاعراب الدالة على وظائف الكلمات وعلاقة أجزاء الجملة بعضها ببعض .

وكذلك جميع اللغات الهندية — الأوربية . فالانجليزية والفرنسية مثلا تسيران أحيانا على طريقة التصريف والتحليل .

Je vois, je voyais, je vis, nous voyons, la vue. — vous voyez que la Linguistique est une science sociale.

I see, I saw, I have seen, to see, the sight, — you see that the Science of Languages is a social one.

وتسيران أحيانا على طريقة اللصق :

J'ajoute, J'ajouterai — tigre, tigresse
I care, I cared — careful, carefulness

وتسيران أحيانا على طريقة العزل :

Tom beats Dick — Pierre bat Paul

(ففى هذه الجملة لا يميز الفاعل من المفعول الا مجرد ترتيبه) .

ومثل هذا يقال فى جميع اللغات الانسانية . — فلسنا اذن بصدد فصائل لغوية متميزة ، بل بصدد أساليب مستخدمة فى جميع اللغات .

الفصل الثانى
نشأة اللغة عند الطفل

- ١ -

أنواع الأصوات فى الطفولة وأساس كل منها

يرجع أهم ما يلفظه الطفل من أصوات الى الأنواع الآتية :

١ ــ « الأصوات الوجدانية » أو « أصوات التعبير الطبيعى عن الانفعالات » . وهى الأصوات الفطرية التى تصدر من الطفل فى أثناء تلبسه بحالة انفعالية ، كالأصوات التى تصدر منه فى حالات الخوف والألم والجوع والفرح والغضب والسرور والدهشة، كالبكاء والضحك ومختلف أنواع الصراخ الوجدانى .

وهذا النوع فطرى عند الطفل ، يصدر منه بشكل غير ارادى وبدون سابق تجربة ولا تعليم ولا تقليد (١) ، وتثيره الحالات الجسمية والنفسية أليمها وسارها . وهذه الاثارة قائمة على روابط طبيعية تربط أعضاء الصوت بالحالات الجسمية والنفسية بطريقة تجعل هذه الأعضاء تتحرك بشكل آلى وتلفظ أصواتا معينة عند وجود حالة من هذه الحالات. فالطفل اذ يلفظ هذه الأصوات تحت تأثير هذه الحالة الجسمية أو النفسية أشبه شىء بساعة الحائط اذ تدق أجراسها بصوت آلى حينما تصل مشيراتها (عقاربها) الى نقط خاصة ، وتختلف دقاتها نوعا وكمية باختلاف هذه النقط .

---

(١) ليس أدل على أن هذا النوع فطرى وعلى عدم توقفه على المحاكاة انه يظهر حتى عند الطفل الذى يولد أصم .

ويتألف هذا النوع من أصوات مبهمة (تشبه أصوات الحيـوان وأصوات مظاهر الطبيعة) وأصوات لين (وهى التى نرمز اليها بحروف المد) مختلطة أحيانا ببعض أصوات ذات مقاطع (وهى التى نرمز اليها بالحروف الساكنة) .

وقد حاول العلامة شترن Stern ، على ضوء ما قام به فى هذا الصدد من ملاحظات وتجارب أن يعين نوع الصوت الذى يظهر فى كل حالة من الحالات الانفعالية المشار اليها ، فانتهى بحثه الى نتائج كثـيرة، منها أن حروف اللين مكررة تعبر عن السرور والحزن ، وأن الميم والنون تعبران عن كل ما له علاقة بالأمور الداخلية (الجوع الرغبة ... الخ) . وأن الباء والدال والتاء تعبر عن كل ما له علاقة بالعالم الخارجى . — غير أن التحقق من صحة هذه النتائج يحتاج الى استقراء كبير يتعذر اجراؤه . هذا الى أن كل ما يقال بهذا الشأن تقريبى ، لأن الأصـوات التى نحن بصدد الكلام عليها يتألف معظمها ، كما سبقت الاشارة الى ذلك ، من أصوات مبهمة يصعب تحديد ما يشبهها من أصوات اللغة .

هذا ، ويصحب انفعالات الطفل كذلك طائفة من المظاهر الجسمية المرئية كصفرة الوجه وحمرته ووقوف شعر الرأس وضيق الحـدقة واتساعها وفتح الفم وانقباض عضلات الوجه وانبساطها وتفتح الأسارير وانكماشها ... وهلم جرا . وهذه المظاهر قائمة على الأسس الطبيعية نفسها القائمة عليها الأصوات الوجدانية وتصدر دائما مصـاحبة لهذه الأصوات . فهى فطرية غريزية تصدر من الطفل بدون سابق تجـربة ولا تعليم ويثيرها بطريقة آلية ما يتلبس به الطفل من انفعال .

٢ — « الأصوات الوجدانية الارادية » . — وهى أصوات النوع السابق حينما يستعملها الطفل استعمالا اراديا . وذلك أن الأصـوات الوجدانية الفطرية التى تقدمت الاشارة اليها يدرك المحيطون بالطفـل مصادرها ومثيراتها فيعملون على وقفها بتحقيق ما يعوز الطفل وقضاء ما يحتاج اليه . ومن تكرار سلوكهم هذا ، يدرك الطفل أن هـذه الأصوات من شأنها أن ترغم الكبار على تحقيق رغباته ، فيلفظها أحيانا

بشكل ارادى قاصدا بها التعبير عن حالة قائمة به أو عن مطلب من مطالبه . فتراه مثلا يتعمد البكاء أو الصراخ أو يتسادى فيهما بشكل ادارى حتى تحمله مربيته أو ترضعه أو تبعد عنه هنة لايريدها ... وهلم جرا . — وتسمى حينئذ هذه الأصوات « الأصوات الوجدانية الارادية » .

وما يتخذه حيال الأصوات يتخذه أحيانا حيال الحركات الجسمية المعبرة عن الانفعالات . فقد يقوم ببعض هذه الحركات بشكل ارادى قاصدا بها التعبير عما يساوره من انفعال أو يبغى تحقيقه من رغبة . فقد يتعمد مثلا تقطيب وجهه أو تحريك يديه حركات عنيفة للتعبير بشكل ارادى عن غضبه ، وقد يتعمد قبض عضلات الوجه للتعبير عن كراهيته لشيء أو اشمئزازه منه ... وهلم جرا .

وهو فى الحالين (حالة الصوت الارادى وحالة الحركات الادارية) يحاكى نفسه فى حالتها الفطرية ، فيمثل بشكل ارادى ما يصدر عنه عادة بشكل آلى فطرى .

٣ — « أصوات الاثارة السمعية » . — وهى أصوات فطرية غير تقليدية تصدر من الطفل فى شهوره الأولى حينما يسمع بعض الأصوات . ففى هذه المرحلة نرى أن سماع الطفل لبعض الأصوات (وبخاصة الأصوات المرتفعة) يثير أعضاء صوته ويجعلها تلفظ بشكل آلى أصواتا غير تقليدية (أى لا تحاكى الأصوات المسموعة) شبيهة بأصواته الوجدانية التى أشرنا اليها فيما سبق . — ويحدث هذا عند سماعه أحد المحيطين به يناغيه أو يتحدث بصوت مرتفع ، أو عند سماعه صوت حيوان أو آلة موسيقية ... وهلم جرا .

ويظهر هذا النوع من الأصوات لدى الطفل فى سن مبكرة . فقد لاحظ الأستاذ « جويوم Guillaume » أن « بول » ولما يتجاوز الشهر الثانى ، تصدر منه هذه الأصوات عندما تكلمه أمه أو يكلمه هو بعبارات طويلة ، وأنه عندما بلغ الشهر الثالث كان صوت « البيانو » يثير

أعضاء نطقه فتلفظ أصواتا مبهمة لا تحاكى فى شىء النغم الموسيقى الذى يسمعه ، وان بنته « لويز » وسنها شهران ونصف ، كانت الأصوات التى تلفظها فى أثناء مناغاته لها أشبه شىء باجابات على حديثه ، فكانت تلفظ هذه الأصوات كلما توقف هو عن الحديث أو انتهت عبارة من عباراته ، وأن حالتهما كانت شبيهة بحالة شخصين يتحدثان محادثة منظمة . — وقد لاحظت هذه الظاهرة نفسها على ابنتى عفاف فى سن مبكرة . ففى اليوم الثانى من شهرها الثالث (٢٧/٣/٣٤) أثارت مناغاتى لها أعضاء نطقها فأخذت تلفظ أصواتا مبهمة مصحوبة بالابتسام وحركات الأطراف .

ومن هذا النوع من الأصوات ما يسمونه «العدوى الصوتية» التى تبدو عند الأطفال اذا ضمهم مكان واحد، والتى تلازمهم فى معظم مراحل طفولتهم : يصوت الوليد منهم فيثير صوته أصوات زملائه ، ويبكى فيبكى لبكائه الآخرون (١) .

ويتألف هذا النوع ، كما يتألف النوعان السابقان ، من أصوات مبهمة (تشبه أصوات الحيوان ومظاهر الطبيعة) وأصوات لين (وهى التى نرمز اليها بحروف المد) مختلطة أحيانا ببعض أصوات ذات مقاطع (وهى التى نرمز اليها بالحروف الساكنة) .

وقد ثبت أن هذه الأصوات ليست ارادية ولا تقليدية ، بل فطرية آلية تصدر بدون تدخل ارادة الطفل ولا تتجه الى محاكاة أمر ما . وهى قائمة على أسس طبيعية شبيهة بالأسس القائمة عليها الأصوات الوجدانية . فكما أن تلبس الطفل بحالة انفعالية يثير أعضاء صوته ، فتتحرك بشكل آلى وتلفظ الأصوات الوجدانية السابق ذكرها ، كذلك سماع الطفل فى هذه المرحلة لبعض الأصوات ، فانه يثير أعضاء نقطه فتتحرك بشكل آلى وتلفظ الأصوات التى نحن بصدد الكلام عنها . فكلا

---

(١) وقد لاحظ الاستاذ بلانتون أن هذه العدوى الصوتية لا تظهر قبل نهاية الشهر الأول .

النوعين فطرى آلى قائم على روابط طبيعية . وكل ما بينهما من فرق ينحصر فى أن الأول مؤسس على روابط طبيعية تربط أعضاء الصوت بحالات الجسم والنفس بطريقة تجعل هذه الأعضاء تتحرك بشكل آلى وتلفظ أصواتا خاصة عند وجود حالة من هذه الحالات ، على حين أن الثانى قائم على روابط طبيعية تربط جهاز السمع بجهاز الصوت بطريقة تجعل أعضاء الجهاز الثانى تتحرك بشكل آلى وتلفظ أصواتا مبهمة عند وصول أصوات الى الجهاز الأول.

٤ — «أصوات التمرينات النطقية» Exercices vocaux أو «اللعب اللفظى » Jeu vocal أو « اللغط » Babillage .

يظهر لدى الطفل حوالى الشهر الخامس ميل فطرى الى اللعب بالأصوات وتمرين أعضاء النطق . فيقضى فترات طويلة من وقته فى اخراج أصوات مركبة متنوعة عارية عن الدلالة وعن قصد التعبير. وقد سمى الباحثون هذا النوع من الأصوات بالتمرينات النطقية أو اللعب اللفظى أو اللغط (١) .

وينتظم هذا النوع جميع الأصوات المدية والمقطعية (حروف اللين والحروف الساكنة) التى يمكن أن تلفظها أعضاء النطق الانسانى. ولذلك كثيرا ما نجد من بينها أصواتا غريبة عن اللغة التى ينطق بها آباء الطفل . فكثيرا ما يرد فيما يلفظه أطفالنا المصريون من هذا النوع أصوات لا وجود لها فى لغتنا ، كالأصوات التى يرمز اليها فى الفرنسية بهذه الحروف V, p, eu .

وقد لاحظ الأساتذة رونجات وميرينجير وجوتمان Ronjat, Meringer, Gutzman أن من بين الأصوات التى يلفظها أطفال الأوروبيين فى هذه المرحلة أصواتا لا يوجد لها نظير الا فى لغات

(١) قد يظهر هذا النوع من الأصوات عند بعض الأطفال قبل الشهر الخامس ، فقد لاحظته عند ابنتى عفاف فى أوائل الشهر الثالث (ابتدأ ظهوره لديها يوم ٢٧ — ٣ — ٣٤) ، وظهر عند ابنى اقدام فى أوائل الرابع (ابتدأ ظهوره لديه يوم ٧ — ١٢ — ٤٠ ، وقد ولد يوم ٢٧ أغسطس سنة ١٩٤٠) .

الصين ، أو اليـــابان ، أو فى رطانات زنوج أفريقيا ، أو فى لهجات السكان الأصليين لأمريكا وأستراليا . ومن لم يظهر فســاد ما ذهب اليه فونت وبريير ومور Wundt, Preyer, Moor اذ زعموا أن أصوات هذه المرحلة تختلف باختلاف الشعوب ، وأن أطفال كل أمة لا يلفظون فى أثنائها الا الأصوات الخاصة بلغة بلادهم ، أى التى سيستخدمونها فى المرحلة التالية ، فكأنهم بذلك يدربون أعضاء نطقهم على ماستواجهه فى المستقبل من مشكلات لغوية خاصة بأمتهم .

ويلاحظ أن الطفل فى هذه المرحلة يولع بتكرار الصوت الــذى يلفظه من هذا النوع عدة مرات : با بابا ـــ تا تا تا أتيتا ... الخ . ويرجع هذا الى أسباب كثيرة . منها أن النشاط الحركى يتجه دائما الى الأشكال المتماثلة والأوضاع المتشابهة . ومنها أن وقف الحركة فجـــأة يتطلب مجهودا أكبر من المجهود الذى يتطلبه استمرارها ، فالطفل بتــكراره هذا يميل بفطرته الى أخف المجهودين (والى هــذا يرجع السبب فى حدوث هذه الظاهرة نفسها عند الكبار أحيانا وخاصة حينما يسرعون فى كلامهم) . ومنها أن الطفل عندما يلفظ صوتا ما يحدث لديه هــذا الصوت احساسا سمعيا يرتاح اليه ويتلذذ بوقعه ، فيكرر الصــــوت ليتكرر احساسه هذا ، كما أن احساسه صوت طبلة دقها بيده أو صوت هنة رماها يدعوه الى تكرار الدق والرمى ليتكرر الصــوت نفســه . وهذا مظهر من المظاهر التى أطلق عليها العلامة بلدوين « تقليد الطفل لنفسه» أو «التفاعل الدائرى عند الطفل». وتبقى هذه العادة عند الطفل فى أوائل المرحلة التالية كما سنذكر ذلك فى موطنه (١) .

ولا يرمى الطفل من وراء هذه الأصوات الى محاكاة أو تعبير ، وانما تدفعه اليها غرائزه دفعا كما تدفعه الى سائر ألعابه ، ويجد لذة كبيرة فى مجرد لفظها كما يجد لذة فى القيام بألعابه الأخرى .

---

(١) انظر المرحلة الثالثة فى الفقرة الثالثة من هذا الفصل .

ويظهر أن الغرض الذى ترمى اليه الطبيعة من دفع الطفل الى هذا النوع من الألعاب هو تدريب أعضاء نطقه على القيام بوظائفها العـامة واعداده اعدادا تاما للمرحلة التالية ، وهى المرحلة التى يأخذ فيها اللغة عن طريق محاكاته لما يسمعه من المحيطين به [1] .

غير أنه يظهر كذلك أن بعض الأصوات التى يلفظها الطفل فى أواخر هذه المرحلة والتى تبدو من نوع « التمرينات النطقية » هى فى الحقيقة أصوات تقليدية يحاول بها الطفل أن يحاكى ما يسمعه من كلمات فيلفظها لفظا خاطئا بعيدا كل البعد عن الأصل، أو يحاول بها محاكاة النبرات العامة التى تتألف منها الصورة الموسيقية لبعض ما يسمعه من عبارات. ولا أدل على ذلك مما لاحظه الأستاذ جرامون Gramont الفرنسى . فقد اختار لابنه مربية ايطالية ظلت ملازمة له حتى قبيل انتهاء هذه المرحلة ، وبعد شهر تقريبا من انقطاعها عنه، دخل الطفل فى مرحلة التقليد اللغوى، فلاحظ والده حينئذ أنه يلفظ الكلمات الفرنسية بلكنة ايطالية ، وأن هذه العادة لم يتخلص منها الا بعد أمد طويل . وهذا يدل على أن بعض الأصوات التى كان يلفظها فى مرحلة « التمرينات النطقية » اذ كانت مربيته الايطالية تناغيه بلهجتها ، كان يحاول بها تقليد النبـرات العامة لحديثها ، وأن هذه المحاولات قد مكنت أسلوب الصوت الايطـالى من لسانه ، وظهرت آثار ذلك فى حديثه فيما بعد .

٥ ــ الأصوات التى يحاكى بها الطفل أصــوات الأشـياء ، والحيوانات (هزيز الريح ، حفيف الشجر ، خرير الماء ، جعجعة الرحى، صرير الباب ، درداب الطبل ، طنطنة الأوتار ، دقات الساعة ، نفـير السيارة ، صهيل الفرس . نهيق الحمار ، خوار البقر ، ثغاء الغنم ، نباح الكلب ، مواء الهر ، صياح الديك ، هديل الحمـام ، نعيـق الغـراب ... وهلم جرا) .

---

(١) انظر تفصيل هذا بكتابنا « عوامل التربية » صفحات ١٨٥ ــ ١٨٧ . والغرض الذى أشرنا اليه وهو الاعداد للحياة المستقبلة ليس مقصورا على الألعاب اللفظية بل مشتركا فى جميع الألعاب الانسانية . (انظر المرجع السـابق صـفحات ١٢٩ ــ ١٣٢ ،

وتعتمد هذه الأصوات على استعداد فطرى عند الطفل ، وهو غريزة المحاكاة . ولكنها ، مع ذلك ، تصدر بشكل ارادى ، ويرمى الطفل من ورائها الى غايات معينة . فهو يرمى أحيانا ، الى مجرد التلذذ بالمحاكاة ، أو اثبات قدرته على التقليد ، وأحيانا الى التعبير عن أمور تتصل بالشيء أو الحيوان الذى يحاكى صوته ، كأن يحاكى صوت الكلب المتعبير عن رغبته فى رؤيته أو عن قدومه ... وما الى ذلك . وهو يحاكى أحيانا هذه الأصوات المبهمة فى صورتها الطبيعية ، وأحيانا يحاكيها بوضعها فى أصوات ذات مقاطع ، فيعبر عن صوت الدجاجة مثلا بكلمة «كاك» وعن صوت الكلب بكلمة «هو» ... وهلم جرا .

٦ - الأصوات المركبة ذات المقاطع والدلالات الوضعية التى تتألف منها الكلمات وتتكون منها اللغة .

وهذا النوع من الأصوات يأخذه الطفل عن المحيطين به بطريق التقليد ، ويندفع اليه تحت تأثير ميله الفطرى الى المحاكاة . ولكنه ، مع ذلك ، ارادى فى تكونه وفى استخدامه . أما فيما يتعلق بتكونه ، فهو لا يصدر من الطفل بشكل آلى كما تصدر أصواته الوجدانية مثلا ، بل يبذل فى اصداره واصلاح خطئه وتكملة نقصه وجعله مطابقا للصوت الذى يحاكيه ... مجهودا اراديا ، ويشرف على جميع هذه الأمور اشرافا مقصودا . وأما فيما يتعلق باستخدامه ، فان الطفل يلفظه مريدا به التعبير عن المعانى والحقائق التى يدل عليها . وذلك أن هذه الطائفة من الأصوات لا تنتقل الى الطفل مجردة ، بل تنتقل اليه حاملة معها معانيها . فهو يدرك ما تدل عليه من سياق أعمال المتكلمين بها ، ومن الحركات اليدوية والجسمية التى تصحبها ، ومن الاشارة الحسية الى مدلولاتها ... وهلم جرا . فيحاكيها متصورا معانيها تصورا كاملا أو ناقصا تبعا لمبلغ الدقة فى ملاحظته . وكلما اكتسب لفظا منها عن هذا الطريق احتفظ به الى حين الحاجة اليه ، فليلفظه كلما أراد التعبير عن مدلوله (١) .

---

(١) هناك نظريات أخرى كثيرة فى الأساس القائم عليه هذا النوع من الأصوات . وسنعرض لها فى الفقرة السادسة من هذا الفصل .

- ٢ -

أنواع التعبير فى الطفولة

عرضنا فى الفقرة السابقة لجميع أنواع التعبير فى الطفولة ما عدا واحدا لم تدع الى الكلام عنه مناسبة ما فى الموضوع السابق ، وهو التعبير الارادى عن المعانى عن طريق الاشارات اليدوية والجسمية . والى هذا النوع من التعبير يلجأ الطفل فى جميع مراحل طفولته ، فيستخدمه أحيانا مستقلا عن غيره (كأن يمد يده ويفتح كفه للتعبير عن رغبته فى الحصول على شىء ما ، أو يمد يده نحو شخص ويقبض أصابعه ويبسطها للتعبير عن رغبته في مجيئه بجانبه ، أو يقبض أصابعه ويقربها من شفتيه محاكيا حركة الشرب للتعبير عن حاجته الى الماء ، أو يهوى بيده بحركة عنيفة للتعبير عن الضرب ... وهلم جرا) ، وأحيانا يستخدمه مع الكلام لتكملة ما ينقص حديثه ويعوزه من دلالة أو لتوكيد المعانى وتمثيل الحقائق وزيادة التوضيح .

وباضافة هذا النوع الى الأنواع التى عرضنا لها فى الفقرة السابقة يتبين أن مظاهر التعبير فى الطفولة ترجع الى سبعة أقسام :

١ ـ التعبير الطبيعى عن الانفعال عن طريق الأصوات ؛

٢ ـ التعبير الطبيعى عن الانفعال عن طريق الحركات الجسمية ؛

٣ ـ التعبير الارادى عن الانفعال عن طريق محاكاة النوع الأول ؛

٤ ـ التعبير الارادى عن الانفعال عن طريق محاكاة النوع الثانى؛

٥ ـ التعبير عن المعانى عن طريق محاكاة أصوات الحيوان ومظاهر الطبيعية ؛

٦ ـ التعبير عن المعانى عن طريق اللغة (الجمل والكلمات) ؛

٧ ـ التعبير عن المعانى عن طريق الاشارات اليدوية والجسمية.

ومجمل هذا أن التعبير فى الطفولة لا يخرج عن طائفتين : تعبير عن الانفعالات ، وتعبير عن المعانى .

أما التعبير عن الانفعالات فيكون أحيانا طبيعيا وأحيانا اراديا يحاكى فيه التعبير الطبيعى ، وكلاهما يكون عن طريق الصوت أو عن طريق الحركة . فهذه أربعة .

أما التعبير عن المعانى فلا يكون الا اراديا : ويحدث أحيانا عن طريق الاشارة اليدوية أو الجسمية ، وأحيانا عن طريق محاكاة أصوات الحيوانات والأشياء ، وأحيانا عن طريق اللغة . وهذه ثلاثة أنواع .

- ٣ -

المراحل التى يجتازها الطفل فى أصواته وتعبيراته

يجتاز الطفل فى هذه السبيل أربع مراحل تمتاز كل منها بمميزات خاصة فى أصواته وتعبيراته .

المرحلة الأولى
من الولادة الى الشهر الخامس

وفى هذه المرحلة لا يظهر من أنواع الأصوات الستة السابق ذكرها الا الأنواع الثلاثة الأولى : «الأصوات الوجدانية» ، و «الأصوات الوجدانية الارادية» ، و «أصوات الاثارة السمعية»(١) .

أما تعبيرات الطفل فى هذه المرحلة فتنتظم جميع أنواع التعبير السابق ذكرها(٢) ما عدا النوعين الخامس والسادس (التعبير عن المعانى عن طريق اللغة ، والتعبير عن المعانى عن طريق محاكاة أصوات الحيوان والأشياء) .

فيبدو لديه فى هذه المرحلة التعبير الطبيعى عن الانفعال فى

(١) انظر صفحات ١١٩ - ١٢٢ .
(٢) انظر صفحتى ١٢٧ ، ١٢٨ .

مظهريه الصوتى والحركى (البكاء ، الصراخ ، الضحك ، الابتسام ، انقباض الأسارير وانبساطها ، احمرار الوجه ، اصفراره ، ارتعاش الجسم ، وقوف شعر الرأس ... وهلم جرا) . وتختلف هذه التعبيرات فى موعد ظهورها . فأول ما يظهر من أنواعها الصوتية الأصوات الدالة على الألم الجسمى وعلى الجوع .. وما الى ذلك ، ثم تظهر بعد ذلك (فى أواخر الشهر الثانى تقريبا) الأصوات المعبرة عن الألم النفسى كأصوات الحزن والاخفاق وضيق الصدر ... ، أما الأصوات المعبرة عن الحالات السارة جسميها ونفسيها كالفرح والطمأنينة والارتواء والشبع فلا تبدو الا فى منتصف هذه المرحلة أو فى أواخرها . وتسير التعبيرات الحركية فى مواقيت ظهورها على سنن قريب من التعبيرات الصوتية .

وتبدو لدى الطفل كذلك فى هذه المرحلة مظاهر « التعبير الوجدانى الارادى » ، فكثيرا ما يتعمد الصبى فى شهوره الأولى محاكاة تعبيره الطبيعى ليقف المحيطين به على حالة وجدانية متلبس بها ، أو ليحملهم على تحقيق رغبة من رغباته (يتعمد مثلا الصراخ أو البكاء ليقضى له مطلب ما) .

ويبدو لديه كذلك فى أواخر هذه المرحلة بعض مظاهر من التعبير عن المعانى عن طريق الاشارة . فكثيرا ما يلجأ الى الاشارات اليدوية والجسمية للتعبير عما يهمه التعبير عنه ، كأن يمد يده ويضم أصابع كفه للاشارة الى شخص بالدنو منه ، وكأن يدفع شخصا بيده للتعبير عن رغبته فى أن يبعد عنه ... وهلم جرا .

المرحلة الثانية
من الشهر الخامس الى أواخر
السنة الأولى

وتمتاز هذه المرحلة عن المرحلة السابقة من الناحية الصوتية بظهور نوع جديد من الأصوات وهى أصوات « التمرينات النطقية » أو « اللعب اللفظى » أو «اللغط» التى تكلمنا فيما سبق عن طبيعتها

ووظائفها وأسسها (١) . ويتألف معظمها فى المبدأ من أصوات لينة (حروف مد) ثم تكثر فيها فيما بعد ذلك الأصوات ذات المقاطع (الحروف الساكنة) . وقد تظهر لديه فى هذه المرحلة بعض أصوات يحاول بها محاكاة ما يسمعه فى صورة ما كما تقدم بيان ذلك (٢) .

وأما فيما يتعلق بأنواع التعبير ، فلا يظهر منها لدى الطفل فى هذه المرحلة أى نوع جديد . ولكن ترقى لديه الأنواع القديمة التى تكلمنا عليها فى المرحلة السابقة، وبخاصة الارادى منها ، فتكثر محاكاته الارادية لوسائل التعبير الفطرى وتتهذب طرق تعبيره بالاشارة ، ويتسع نطاقه ، وتضبط دلالاته .

وفى هذه المرحلة ، بل من قبل هذه المرحلة ، يختزن الطفل فى ذاكرته كثيرا من الكلمات والجمل التى ينطق بها المحيطون به ويفهم مدلولها بدون أن يستطيع محاكاتها . ويساعده على فهمها سياق أعمال المتكلمين وما يصدر عنهم فى أثناء النطق بها من حركات يدوية وجسمية واشارات الى ما تدل عليه . فاذا كلف الطفل فى هذه المرحلة أمرا ما (اقفل الباب ، هات الكوب ، ضع لعبتك فى العربة ... الخ) أو طلب اليه الاشارة الى أحد أعضائه أو أعضاء غيره أو الى هنة ما (أين انفك، أذنك ، أبوك ، أمك ، عمك ، سريرك ، لعبتك ...) أدى ما كلفه وأشار الى ما يطلب اليه تعيينه من أعضاء وأشياء فى صورة تدل دلالة قاطعة على فهمه لما سمع .

وقد ذكر الاستاذ بريير Preyer أن النطق الواضح بالكلام لم يبدأ عند ابنه الا فى الشهر الثامن عشر ، مع أنه ، منذ الشهور الأخيرة من السنة الأولى ، كان يفهم معظم ما يقال له وما يسمعه .

---

(١) انظر صفحات ١٢٣ ـ ١٢٥ . وقد يظهر هذا النوع من الأصوات عند بعض الأطفال قبل الشهر الخامس كما سبقت الاشارة الى ذلك فى التعليق الأول ص ١٢٣ .

(٢) انظر صفحة ١٢٥ .

وذكر الأستاذ جويوم أن ابنته « لويز » كانت تفهم معنى كلمة « بابا » منذ الشهر الثالث ، مع أنها لم تستطع النطق بها الا فى الشهر السابع ، وأن ابنه بول كان فى شهره الرابع يفهم معانى الكلمات الآتية : « بابا » ، « بول » (اسمه) ، « ثدى » ، وفى شهره الخامس كان يفهم كذلك معانى كلمتى « ماما » و « أخيه الأكبر » ، مع أنه فى هذه المرحلة ما كان يستطيع النطق بأية كلمة من هذه الكلمات ، وأن نطاق الفهم عند ولديه هذين قد اتسع اتساعا كبيرا فى الشهور الأولى من مرحلة « التمرينات النطقية » ، فكان الولد منهما يلوح بيده تلويح الوداع عندما يقال له Adieu (مع السلامة) كما يلوح الكبار بأيديهم عندما يسمعون هذه الصيغة من مودعيهم ، ويحاول أن يلبى ما يطلب اليه أداؤه بالقدر الذى تسمح به قواه الجسمية وقدرته على الحركة عندما يطلب اليه أن يرقص أو يجلس أو يقف أو يجىء ... وهلم جرا ، ويلبى تلبية صحيحة ما يؤمر به اذا طلب اليه تقبيل أحد أبويه أو الأخذ بلحية والده أو شد شعر رأسه ، ويشير الى الشخص أو الهنة التى يطلب اليه الاشارة اليها اذا قيل له : أين أبوك أو ريموند (أخوه) أو الهرة أو الدجاجة أو الثدى أو المدفأة أو السرير ... وما الى ذلك ، مع أنهما فى هذه المرحلة ما كانا ليستطيعا النطق بأية كلمة ولا عبارة من هذه الكلمات والعبارات .

وقد لاحظت على ابنتى عفاف ، وهى فى أوائل شهرها السادس ، أنها كانت تفهم معنى كلمة « بوبول » (اسم كنا نطلقه على هرة بالمنزل) ، فكانت كلما ذكر أمامها هذا الاسم صوبت نظرها نحو الأرض وأدارته فى نواح كثيرة لتبحث عنها ، فان عثرت عليها حدقت فيها وتابعت حركاتها بنظرها ، مع أنها فى هذا الدور ما كانت لتستطيع النطق بكلمة ما .

هذا وفهم الطفل للكلمات والجمل يظهر على صورة تدريجية . وأول كلمات يفهم مدلولها هى الكلمات الدالة على أكثر الأشخاص

ملازمةله وأحبهم اليه (بابا ، ماما ، ددة ... الخ) وعلى الأمور الضرورية له (أمبو = الماء ، مم = الطعام ...) وعلى الأشياء التى تستأثر بانتباهه لغرابتها مثلا ، فقد كانت كلمة طيارة من الفوج الأول من الكلمات التى لاحظت أن ابنى اقداما يفهم مدلولها (ظهر فهمه لمدلولها فى أوائل شهره العاشر) . فقد كنا نجلس به فى حديقة المنزل ، فتحلق بعض الطائرات فوق رؤسنا محدثة دويا مزعجا ، فاستأثر هذا بقسط كبير من انتباهه وتمكن معنى الكلمة فى ذهنه ، فكنا اذا سألناه فى وقت لا طائرة فيه فوق رؤوسنا : « فين الطيارة يا ميمى » = « أين الطائرة يا اقدام » رفع بصره الى السماء كمن يبحث عنها .

المرحلة الثالثة
مرحلة التقليد اللغوى

تبدأ هذه المرحلة عند العاديين من الأطفال فى أواخر السنة الأولى أو أوائل الثانية ، وتنتهى فى الخامسة أو السادسة أو السابعة . وأما غير العاديين من الناحية اللغوية فقد لا تبدأ لديهم الا فى أواخر الثانية أو أوائل الثالثة ، ويتأخر تبعا لذلك موعد انتهائها . وعند بعض الشواذ من الأطفال لا تبدأ الا فى سن متأخرة جدا ، كما سنذكر لك فيما بعد. وقد تبدأ فى حالات نادرة فى سن مبكرة جدا . فقد سجل سكوبن Scupin بعض شواهد لها حدثت فى الشهر الثانى ، ولاحظ مثلها جويوم وشترن فى الشهر الثالث ، وداروين فى الشهر الرابع . ولكن ظهورها فى مثل هذه السن نادر جدا ، والشواهد التى تذكر من هذا القبيل غير موثوق بصحتها كل الوثوق ويمكن تأويلها على وجه آخر .

وفى هذه المرحلة يظهر النوعان الخامس والسادس من أنواع الأصوات السابق ذكرها (محاكاة أصوات الحيوان ومظاهر الطبيعة بقصد التعبير عن مصادرها أو عن أمور تتصل بها، ومحاكاة الكلمات بقصد التعبير عن مدلولاتها) .

وبظهور هذين النوعين من الأصوات يظهر نوعان جديدان فى تعبير الطفل : التعبير عن المعانى عن طريق محاكاة الأصوات الحيوانية وأصوات الأشياء ، والتعبير عن المعانى عن طريق محاكاة الأصوات اللغوية (أى عن طريق اللغة) .

وتسير المحاكاة اللغوية فى هذه المرحلة على أساليب خاصة بعضها يتعلق بالأصوات وبعضها يتعلق بالدلالة . وسنتكلم على كل منهما على حدة :

(أولا) الأساليب المتعلقة بالأصوات ، ومن أهمها ما يلى :

١ - أن الطفل يحاكى فى مبدأ الأمر الكلمات التى يسمعها محاكاة خاطئة ، ولا يزال يصلح من فاسد نطقه شيئا فشيئا ، مستعينا بالتكرار ومعتمدا على مجهوده الارادى ومستفيدا من تجاربه ، حتى تستقيم له اللغة .

ومظاهر أخطائه فى هذه الناحية كثيرة من أهمها ما يلى :

(أ) أنه يغير الأصوات فيحل محل الصوت الأصلى صوتا آخر قريبا منه فى المخرج أو بعيدا عنه (ويغلب أن يكون قريبا منه) ، فينطق مثلا الكاف تاء (تتاب = كتاب ، الستينة = السكينة ... الخ)، والشين سينا (سعر = شعر ... الخ)، والفاء باء (بيبى = فيفى ... الخ)، والعين أو الخاء همزة (نئناءة = نعناعة ، نأم = نعم ، أد = خد) ، واللام نونا (نمنة = نملة) ... وهلم جرا . وقد ينال هذا التغيير معظم حروف الكلمة ، فلا يكاد يبقى فيها شىء من أصواتها الأصلية (ساساته = شوكولاته) (١) .

ويظل هذا النوع من الخطأ ملازما الطفل حتى أواخر هذه المرحلة ، فقد لازم ابنتى عفاف حتى أواخر سنتها الخامسة ، فظلت فى أثناء هذه السنة تجد بعض الصعوبة فى النطق بالشين وتميل الى قلبها

---

(١) كل هذه الكلمات مأخوذة من لغة ابنتى عفاف فى هذا الدور ، وفيفى هو الاسم الذى كنا نناديها به فى المنزل .

سينا (وكان هذا آخر مظهر لديها من مظاهر الخطأ الذى نحن بصدده). وقد بقيت مظاهر كثيرة منه فى لغة أولادى اقدام وحزم ونائل ووفاء الى أواخر السنة السادسة ، وبقى بعض مظاهره ، وهو قلب الراء لاما، فى لغة أبنى اخلاص حتى أواخر السنة العاشرة .

غير أن نوع الحروف التى ينالها التغيير وكميتها ... كل ذلك يختلف باختلاف السن .

(ب) أنه يحرف أصوات الكلمة عن مواضعها ، فيجعل اللاحق منها سابقا والسابق لاحقا .

ويلازمه هذا النوع من الخطأ مدة طويلة . فلم تتحرر منه ابنتى عفاف الا فى أواسط السنة الرابعة ، ففى الشهر الخامس من سنها الرابعة كانت لا تزال تقول « امسو » بدل اسمو (اسمه) ، « وجمزه » بدل جزمة (حذاء) ، و « أحبسو » بدل أحسبو (أحسبه) ... وهلم جرا . ولم يتحرر منه ابنى اقدام الا بعد أن أتم سنته الرابعة ، وكان من مظاهره لديه (امسو) بدل اسمه ، (وجمزة) بدل جزمة ، و (حمز) بدل حزم (اسم أخته الصغيرة) .

(حـ) لا ينطق بجميع أصوات الكلمة ، بل يكتفى بلفظ بعضها (تت = تحت ، دى = منديل ... الخ) .

وترجع هذه الأخطاء الصوتية جميعها الى ضعف أعضاء النطق عند الطفل فى مبدأ هذه المرحلة ، وضعف ادراكه السمعى وذاكراته السمعية ، وقلة المرانة ، وتأثر عناصر الكلمة بعضها ببعض ... وهلم جرا.

وكلما تقدمت به السن واشتدت أعضاء صوته ودقت حاسة سمعه وقويت ذاكرته حسن نطقه وقلت أخطاؤه . ويعينه فى هذا السبيل ما يبذله المحيطون به من جهود لاصلاح نطقه ، اذ يكررون له الكلمة عدة مرات ، أو ينطقونها على مهل متميزة الحروف ، أو ينطقونها بصوت مرتفع ... وما الى ذلك .

والى الأخطاء السابقة وما اليها يرجع السبب فى صعوبة فهم حديثه على غير المحيطين به . وقد خيل الى بعض الباحثين أن الطفل يخترع اختراعا بعض كلمات فى مبدأ هذا الدور . والحق أن الطفل لا يأتى بجديد من عنده ، وأن الكلمات التى يظن أنها من اختراعه يرجع جميعها الى كلمات تقليدية : فبعضها محاكاة محرفة كثرت فيها الأخطاء السابق ذكرها حتى بعدت عن أصلها بعدا كبيرا ؛ وبعضها محاكاة صحيحة لكلمات يتعمد بعض الملازمين للطفل أن ينطقوا بها نطقا محرفا يتفق مع طريقة نطقه ، فهذه الكلمات الأخيرة هى من اختراع الكبار لا من اختراع الطفل .

٢ - يولع الطفل فى مبدأ هذه المرحلة بما كان مولعا به فى المرحلة السابقة من تكرار المقاطع والكلمات عدة مرات (با با با با با = بابا أى الوالد ، ما ما ما ما = ماما أى الأم ... وهكذا معظم الكلمات) . وهذا راجع الى أسباب كثيرة . منها أن الطفل يحاول بذلك أن يثبت الكلمة فى ذاكرته ويمكن لها من أعضاء نطقه حتى يسهل عليه حفظها والنطق بها فيما بعد عند الحاجة اليها . ومنها أن النشاط الحركى يتجه دائما الى الأشكال المتماثلة والأوضاع المتشابهة . ومنها أن وقف الحركة فجأة يتطلب مجهودا أكبر من المجهود الذى يتطلبه استمرارها ، فالطفل بتكراره هذا يميل بفطرته الى أخف المجهودين (والى هذا يرجع السبب فى حدوث هذه الظاهرة نفسها عند الكبار أحيانا ، وخاصة حينما يسرعون فى كلامهم) . ومنها أن الطفل المبتدىء فى الكلام عندما يلفظ كلمة ما ، يحدث لديه صوتها احساسا سمعيا يرتاح اليه ويتلذذ بوقعه ، فيكرر الصوت ليتكرر احساسه هذا ، كما أن احساسه صوت طبلة دقها بيده أو صوت هنة رماها يدعوه الى تكرار الدق والرمى ليتكرر الصوت نفسه فيتكرر احساسه به ؛ وهذا مظهر من المظاهر التى أطلق عليها العلامة بلدوين « تقليد الطفل لنفسه » أو « التفاعل الدائرى عند الطفل » .

٣ - وفى مبدأ هذه المرحلة يضع الطفل ، فى معظم الكلمات

التى يقلدها ، الأصوات نفسها التى كان يغلب عليه تكرارها فى مرحلة « التمرينات النطقية » . فاذا كان فى تمريناته النطقية يغلب عليه تكرار مقطع « با » مثلا ، فانه يضعه فى معظم الكلمات التى يحاول محاكاتها فى فاتحة تقليده اللغوى . فيقول مثلا : « باد » (قاصدا « أحمد ») و « باب » (قاصدا « كتاب ») و « باية » (قاصدا « طاقية ») و « باسى » (قاصدا « كرسى ») و « باويت » (قاصدا «بسكويت») ... وهلم جرا . وهذا مظهر من مظاهر ما يسميه علماء النفس « مقاومة القديم للجديد » أو « آثار العادات اللغوية » ، ويبدو فى صورة أشد وضوحا عند الكبار اذ يتعلمون لغة أجنبية أو يحاكون ألفاظها ، فيستبدلون بما تشتمل عليه هذه اللغة من أصوات لا عهد لهم بها أصواتا شبيهة بها من أصوات لغتهم .

٤ — وفى مبدأ هذه المرحلة تكثر فى لغة الطفل أصوات اللين (حروف المد) وتقل الأصوات ذات المقاطع (الحروف الساكنة) ، فيحذف بعض الأصوات الساكنة من الكلمة ، ويقحم عليها أصواتا غريبة عنها (كابا = كلب ، باتى = برنيطة أو قبعة .. الخ .) .

٥ — وفى أوائل هذه المرحلة (فى أواخر السنة الثانية تقريبا) يظهر لدى الطفل ما يصح أن أسميه « بالمحاكاة الموسيقية للعبارات » : فيحاكى الطفل أحيانا بعض العبارات التى يسمعها مجرد محاكاة موسيقية ، بأن يلفظ أصواتا مبهمة تمثل فى توقيعها الموسيقى أصوات العبارة التى يريد محاكاتها بدون أن تشتمل على كلماتها ، كما تحول قطعة شعرية الى قطعة موسيقية . وقد لاحظت هذا على أولادى عفاف واقدام وحزم ونائل ووفاء واخلاص . ولم أعثر على أحد قد لاحظه من قبلى على ما أعلم .

٦ — وفى مبدأ هذه المرحلة يسير الطفل ببطء كبير فى محاكاته ، فقد تمضى أشهر بدون أن يستطيع النطق بأكثر من بضع كلمات ، مع أنه يكون فاهما لمعظم ما يسمعه وما يقال له كما سبقت الاشارة الى

الاشارة الى ذلك (١) . ثم تنحل عقدة لسانه مرة واحدة ، وحينئذ يسير في هذه السبيل بخطى حثيثة لدرجة يصعب معها على من يلاحظه أن يحصي ما يدخل فى متن لغته كل يوم من كلمات جديدة . فمن مبدأ هذه المرحلة الى أوائل الشهر الرابع من السنة الثانية لم تكن ابنتي عفاف لتستطيع النطق الا بكلمة واحدة هى « بابا » ، ثم زاد متن لغتها كلمتين أخريين هما : «بو» = أمبو (أى طلب الشرب) ، «وكانى» = ثانى (تطلب بذلك تكرار الشيء مرة ثانية) . وفى أوائل الشهر الخامس من السنة الثانية زاد متن لغتها . كلمة رابعة وهى « ماما » . وفى أوائل السادس زاد كلمتين وهما « كاكا » (كانت تطلقها على الدجاجة والحمامة سواء أكانتا حيتين أم مطهوتين) و « نأ » = لأ (علامة النفى) . وفى أواخر التاسع زاد كلمتين وهما « نِنَّا » (أى النوم) و « اث » = ارش (أى قرش) . وفى أواخر العاشر زاد ثلاث كلمات وهى « أننـاه = الله » (ما أحسن هذا) و « توتو » (أى الكلب) و « نمنه » = نملة . ومن أواخر الحادى عشر من السنة نفسها (السنة الثانية) انحلت عقدة لسانها وأصبح من الصعب متابعتها واحصاء ما يجد فى متن لغتها من كلمات . — وفى أواخر الشهر الحادى عشر لم يكن ابنى اقدام ليستطيع النطق الا بكلمة واحدة وهى « بو » = امبو = المـاء أو الشرب . ثم زاد متن لغته كلمة ثانية وهو « بابا » ، ثم كلمة ثالثة وهى « تاته » بمعنى المشى (كنا نكرر له هذه الكلمة فى أثناءتدريبه على المشى) ، ثم كلمة رابعة فى الشهر الثانى من سنته الثانية وهى « ماما » ، ثم كلمتين أخريين فى الشهر السادس من سنته الثانية وهما « مم » = الطعام أو الأكل و « كخ » (الشيء الرديء الذى لا يصح لمسه أو العمل القبيح الذى لا يصح الاتيان به)، وفى أوائل السنة الثالثة كان متن لغته يتألف من نحو خمس عشرة كلمة

(١) انظر صفحات ١٣٠ — ١٣٢ . وقد ذكر العلامة شترن أن أحد أبنائه ، وسنه خمسة عشر شهرا ، كان عدد الكلمات التى يفهمها ثلاثة أضعاف الكلمات التى يستطيع النطق بها ، وانه لما بلغ العشرين شهرا ما كان يستطاع حصر الكلمات التى يفهمها ، على حين أن الكلمات التى كان ينطق بها حينئذ كانت محدودة .

فقط . ثم انحلت عقدة لسانه مرة واحدة فأخذت لغته تزيد كل يوم كلمات كثيرة .

وكذلك كان شأن ابنتى حزم . ففى الشهر الخامس من سنتها الثانية (مارس سنة ١٩٤٣) كان متن لغتها يتألف من احدى عشرة كلمة فقط . وقد ظهرت لديها على الترتيب التالى : « تاتا » أى المشى، « بابا » أى الوالد ، «مم » أى الأكل ، « ماما » أى الوالدة ، « نينا » نينة أى جدتها ، « ددا » أى الحذاء الذى تلبسه وهى تمشى (كانت تسمى المشى نفسه تاتا) ، « نن » أى النوم ، « أدا » أى فيفى (وهى أختها عفاف) ، «دد» أى تحت (وكانت تقولها عندما تطلب نزولها الى الدور الأسفل من المنزل أو الى حديقته) ، « أما » أى أحمد الخادم ، « أوم » (كانت تلفظها هكذا ôme) وتعنى بها قم ، وتقولها عندما تطلب الى أحد أن يقوم لغرض ما تريده ، ويفهم هذا الغرض من سياق الحال (١) . وفى أوائل سنتها الثالثة انحلت عقدة لسانها وأخذت لغتها تزيد كل يوم كلمات كثيرة .

وقد سار ابنى نائل وابنتى وفاء وابنى اخلاص على الوتيرة نفسها التى سار عليها اخوتهم مع اختلاف يسير فى المفردات التى كان يتألف منها متن لغتهم فى كل مرحلة من المراحل .

وفى أواسط هذه المرحلة وأواخرها تصل قوة التقليد اللغوى عند الطفل ، فى مهارتها ودقتها ونشاطها وغزارة محصولها وأهميتها وسيطرتها على النفس ، الى أقصى ما يمكن أن تبلغه قوة انسانية .

ففى هذا الدور لا يدع الطفل أى كلمة أو جملة جديدة يسمعها أو يطلب اليه محاكاتها بدون أن يحاكيها ، وان عاقه طول جملة عن تكرارها جميعها ، حاكى ما يعلق بذهنه من كلماتها وبخاصة آخر كلمات فيها .

---

(١) من الغريب أن ظهرت لديها فى هذا الدور المبكر هذه الكلمة التى تدل على فعل الأمر ، وفى معظم كلماتها السابقة كانت تقلد أخاها اقداما فى لغته وفى مخارج حروفه .

ولا يقتصر على تقليد الكلمات والجمل التى يريده المحيطون به على محاكاتها ، بل يحاكى كذلك من تلقاء نفســه كثيرا من الكلمــات التى ترد فى محادثات الكبار على مسمع منه حتى الكلمات الدقيقة منها . فقد كنت أتحدث مرة مع أسرة فرنســية فى موضوع علمى على مسمع من طفلة صغيرة لهذه الأسرة ما كانت تتجاوز اذ ذاك الخامسة من عمرها ، فلاحظنا بعد حديثنا هذا أن الطفلة تستخدم فى عبــاراتها بعض كلمات من المصطلحات العلمية التى كنا نســتخدمها والتى يندر استخدامها فى الحديث العــادى .

ويحرص الطفل كل الحرص على ما يحصــل عليه من مفردات وعبارات ، وكثيرا ما يبلغ به هذا الحــرص أن يكرر هــذه المفردات والعبارات فى خلوته ويؤلف من شتاتها أغانى وجملا عارية عن الدلالة ولكنها كبيرة الأثر فى تثبيتها فى ذهنه .

ولا تظهر مهــارة الطفل التقليدية فى هذا الدور فى محــاكاة الكلمات والجمل فحســب ، بل تظهر كذلك فى محاكاة الأســاليب الصوتية التى يلقى بها الكبار الجمل الاخبارية والاستفهامية والطلبية والتعجبية والزجرية ... وهلم جرا ، وفى محاكاة الحركات الجسمية واليدوية التى تصحب حديثهم .

ولمهارة الطفل فى التقليد اللغوى فى أثناء هذه المرحلة ولشدة ميله اليه ، يستطيع أن يتعلم بسرعة وسهولة عن طريق المحاكاة أية لغة أجنبية اذا أتيحت له فرصة الاختلاط بالمتكلمين بها ، بل يستطيع أن يتعلم بهذه الوسيلة أكثر من لغة أجنبية واحدة . فالأطفال المصريون مثلا الذين يبعث بهم آباؤهم الى المدارس الأجنبية فى هذا الدور يأخذون عن طريق المحاكاة عن معلميهم ومعلماتهم اللغة التى يتكلمون بها ، ولا يلبثون بعد أمد قصير أن يجيدوا هذه اللغة لدرجة لا يستطيع معها أكبر خبير فى اللغات أن يميزهم من أهلها . والطفل اذا ولد من أبوين مختلفى اللغات أخذ عن كل منهما لغته فيصبح ثنائى اللغة Bilingue . واذا أتيح للطفل بصفة دائمة فى هــذا الدور سماع أكثر من لغتــين

أخذها جميعها عن طريق المحاكاة بدون أن يشعر أنه يتعلم ، ووصل في اجادة كل منها الى الدرجة نفسها التي يبلغها في لغته الأصلية ، فينشأ متعدد اللغات Polyglotte . — ومن أجل هذا تختار بعض الأسرات الموسرة لأولادها في هذا الدور مربيات مختلفات اللغات حتى تنتقل اليهم بالمحاكاة جميع لغاتهن .

ومن الطريف أن الطفل الذي تنتقل اليه عدة لغات عن هذا الطريق يتجه من تلقاء نفسه الى محادثة كل شخص من المختلطين به باللغة التي أخذها عنه أو التي يعرف أنها لغته بدون أن يشعر أنه يتكلم عدة لغات . فقد روى الأستاذ جويوم أن طفلا أبوه ألماني وأمه فرنسية قد أخذ الألمانية عن أبيه والفرنسية عن أمه ، وكان اذا طلب اليه أبوه بالألمانية تبليغ أمر لأمه بلغها ذلك بالفرنسية بدون أن يشعر أنه يترجم الى لغة أخرى الكلام الذي كلفه أبوه تبليغه .

وفي هذا يختلف الكبار عن الصغار اختلافا كبيرا . فمهما بذل الكبار في تعلم لغة أجنبية من جهود ومهما طالت مدة اقامتهم بين أهلها فلن يصلوا في اجادتها من الناحية الصوتية الى الدرجة التي يصل اليها الصغار في هذا الدور . والسبب في هذا راجع الى أن الطفل يلبي في محاكاته داعي غريزته ، ويسلك بهذا الصدد طريقا محببا اليه ، ويسير على أسلوب يتفق مع ألعابه ، فيسهل عليه بذل المجهود ويؤتي مجهوده أكله . على حين أن الكبير يتعلم اللغة الأجنبية لغاية خارجة عنها . فيصعب عليه بذل المجهود في هذا السبيل . هذا الى أن الكبار قد رسخت لديهم عادات كلامية خاصة وتشكلت أعضاء نطقهم بالشكل الذي يلائمها ، فيصبح من الصعب عليهم مع هذا اكتساب عادات صوتية جديدة مخالفة لعاداتهم الأولى . وليس الأمر كذلك عند الطفل ، فأعضاء نطقه في هذا الدور تكون مرنة قابلة التشكل بمختلف الأشكال .

وهذا مظهر من مظاهر ما يسميه علماء النفس « مقاومة القديم

للجديد » أو « آثار العادات اللغوية » التى سبق أن أشرنا اليها (١) ، والتى تظهر آثارها حتى عند الطيور . فقد لاحظ « لودانتاك » أن صغار الطيور المغنية اذا نشأت مع فصيلة أخرى غير فصيلتها قلدتها فى غنائها ، وأنها اذا بقيت مع هذه الفصيلة حتى كبرت ورسخت عندها هذه العادة الغنائية صعب عليها بعدئذ تقليد صوت فصيلتها نفسه .

ولمهارة الطفل فى التقليد اللغوى فى هذه المرحلة ، تسرى اليه فى أمد قصير لهجة المقاطعة التى ينتقل اليها أهله . فقد ذكر الأستاذ « شافر Schaffer » أنه قضى شهرين من أجازته الصيفية بفرنكونيا ، فلاحظ أن ابنه الذى كان يبلغ حينئذ سنتين وثلاثة أشهر ، قد سرت اليه لهجة هذه البلدة ، فأخذ ينطق الكلمات الألمانية وفق لهجتهم فى نطقها ، وأن هذا الأسلوب قد لازمه بضعة أشهر بعد رجوعه الى بلده . — وذكر الأستاذ « جويوم » أنه قضى مرة اجازته بشرقى فرنسا ، فلاحظ أن أولاده ، الذين كانوا يزيدون فى سنهم عن ابن شافر ، ينطقون حرف الراء الفرنسى R كما ينطق به أهل هذه المقاطعة وكما ينطق بالراء فى اللغة العربية (وهذا يخالف طريقة النطق فى منطقة باريس وما اليها ، فأهل هذه المنطقة يلفظونه بين الراء والغين) . — وقد قضيت أنا مرة اجازتى مع أسرة باريسية بقرية من قرى فرنسا تسمى سان كورنتان Saint Corentin متاخمة لمقاطعة نورمانديا ، فأدهشنى كثيرا أن طفلة صغيرة من هذه الأسرة ، كانت حينئذ فى الخامسة من عمرها ، قد سرت اليها ، بعد بضعة أسابيع من اقامتنا ، لهجة هذه القرية ، مع أن اختلاطنا بأهلها كان قليلا . فأصبح أسلوب حديثها وتركيبها للجمل ونطقها بالكلمات مطابقا لأسلوب حديثهم وتركيبهم ونطقهم . وظهر هذا لديها حتى فى مخارج الأصوات نفسها وطريقة النطق ببعض حروف المد . فقد استحال مثلا صوت المد الفرنسى oi (وا) فى لسانها الى صوت واو ممدودة بالألف الممالة Wai كما كان شأنه فى لسان

---

(١) انظر أول صفحة ١٣٦ .

أهل هذه القرية (فكلمة Poire مثلا كانت تنطقها Pwair ، وكذلك كل الكلمات المشتملة على صوت oi) . وعبثا حاولنا اصلاح ما أصاب نطقها من لحن وتحريف ، فانها لما شعرت بامتعاضنا من طريقتها وسخريتنا بها كانت تجتهد فى أثناء كلامها معنا أن تكون باريسية اللهجة ، فاذا خلت الى أطفال هذه القرية أو كبارهم عادت الى طريقتها . وبقيت آثار هذه اللهجة فى حديثها بضعة أسابيع بعد عودتنا الى باريس .

٨ — ولا يقتصر نشاط الطفل التقليدى فى هذه المرحلة على الأصوات اللغوية ، بل يمتد كذلك الى ما عداها من الأصوات كأصوات الحيوان والطيور ومظاهر الطبيعة والأصوات الشاذة وأصوات المصابين بعاهات فى النطق والأصوات التى تحدثها الأفعال كأصوات الضرب والقرع والسقوط وما الى ذلك . وهم فى هذه الناحية كذلك أمهر كثيرا من الكبار . فقد لاحظ العامة تين Tain أن الأطفال فى هذه المرحلة أدق وأمهر من الكبار فى محاكاة أصوات الحيوان فى صورتها الطبيعية . وذكر العلامة جوتمان أنه كان يتدرب على « فن التكلم الجوفى Ventriloquie » (وهو معالجة النطق فى صورة تشعر السامع أن الكلام صادر من بطن المتكلم أو من شخص آخر غيره . وقد مهر فيه كثير من المشعوذين الذين يحاولون ايهام الناس أن الجن تلابسهم وتنطق من جوفهم) فأدهشه أن ابنه الصغير، الذى لم يتجاوز حينئذ الثانية من عمره ، قد سبقه كثيرا فى هذا المضمار لمجرد سماعه لمحاولات أبيه .

هذا ، ويبدو أن اتجاه الطفل لمحاكاة أصوات الحيوان ومظاهر الطبيعة والأصوات التى تحدثها الأفعال يظهر قبل اتجاهه الى محاكاة الكلمات . فقد كان فى استطاعة ابنتى عفاف فى الشهر الثالث من سنتها الثانية (٩/٤/٤٥) أ نتحاكى صوت طائفة كبيرة من الحيوان ، مع أنها حينئذ لم تكن لتستطيع النطق الا بكلمة واحدة وهى « بابا » . وقد كان فى استطاعة ابنى اقدام فى الشهر الثانى من سنته الثانية أن

يحاكى أصوات كثير من الحيوانات والأشياء للاشارة اليها (« ڤو » = الطيارة أو السيارة ، « آآ° » = الدجاجة ، « أ أ° آ » = الضرب ... الخ) مع أنه فى هــذه المرحلة ما كان يســتطيع النطق الا بأربع كلمــات .

ويسلك الطفل فى تقليده لهذا النوع طريقتين : احداهما أن يلفظه فى صورته الطبيعية أى فى أصوات مبهمة ، وفى هذه الطريقة على الأخص تظهر مهارة الطفل ؛ وثانيتهما أن يمثله فى أصوات ذات مقاطع وأصوات مد (« ماء » لثغاء الخروف ، « كاك » لصــوت الدجاجة « هو هو » لنباح الكلب ... وهلم جرا) .

(ثانيا) ومن أهم الظواهر المتعلقة بالدلالة فى هذه المرحلة الأمور الآتيــة :

١ — على الرغم من أن فهم الطفل لمعانى الكلمات يبدو لديه فى المرحلة السابقة لمرحلة التقليد كما تقدمت الاشارة الى ذلك (١) ، فان درجة فهمه تظل مدة طويلة ضعيفة وغير دقيقة . — ويبدو هذا فى مظاهر كثيرة من أهمها ما يلى :

(أ) أنه فى أوائل هذه المرحلة يستخدم الكلمات القليــلة التى يستطيع النطق بها استخداما واسعا يدل على عدم دقته فى فهم مدلولاتها فيحمل كلا منها من المعانى أكثر مما يحتمله ، ويعبر بها عن جميــع ما يرتبط بمعناها الأصلى برابطة ما . وقد يتجاوز هذا كله فيعبر بها عن أمور لا صلة لها مطلقا بمعناها الأصلى . فيطلق مثلا «الكاكا» على الدجاجة، والاناء الذى تقدم فيه ، والطاهى الذى يعدها ، وغرفة الطهو التى تعد فيها ، والسكين الذى تذبح به ، والقفص الذى تحبس فيه ، والبيضة التى تبيضها ... وقد يتجاوز هذا كله فيطلقها على شىء أجنبى عنها كالمكتب مثلا لأدنى ملابسه فى ذهنه أو لاضطراب معناها لديه . — وقد لاحظت أن ابنتى عفاف فى أوائل سنتها الثالثة تطلق كلمة « نِنَّا » على النوم وما يشتق منه ، وعلى جميع الأمور التى تشبهه أو تمت اليه بصلة .

(١) انظر صفحتى ١٣٠ — ١٣٢ .

فكانت تطلقها على السرير ، وعلى الاختفاء فتقول « الكاكانا » قاصدة التعبير عن اختفاء الدجاجة عن الأنظار ، وعلى البعد والابعاد فتقول « مامانا » معبرة عن رغبتها فى أن تبعد أمها عن مجلسنا ، وعلى حفظ الشيء بعد الفراغ من استخدامه فتقول « فوطة ننا » أى ان المشوش (الفوطة) قد انتهت الحاجة اليه وحفظ فى المكان المعتاد حفظه فيه . وكانت تطلق لفظ امة = عمة (أى عمامة) على الشخص الذى يلبسها.

وهذا التوسع فى الاستعمال لاترجع أسبابه دائما الى ضعف الفهم وعدم الدقة فى ادراك المدلولات ، بل ترجع أحيانا الى ضآلة محصول الطفل فى الكلمات فى ذلك العهد وحاجته الى التعبير على أى وجه ، وترجع أحيانا الى الأمرين مجتمعين .

(ب) أنه فى أوائل هذه المرحلة يطلق اسم الجنس على غير أفراده لأدنى مشابهة . فقد لاحظت أن ابنتى عفاف كانت الى أواخر السنة الثانية تطلق « كاكا » (ومعناها الأصلى فى لغتها الدجاجة) على الدجاج والحمام والأوز والبط ... وما اليها ، وكلمة « ماء » (ومعناها الأصلى فى لغتها الخروف) على الخروف والحمار .. وما اليهما ، و « ماما » على جميع السيدات ، و « بابا » على جميع الرجال ... وهلم جرا .

وكلما تقدمت سن الطفل وكثر محصوله اللغوى ، يدق فهمه وتتحدد معانى الكلمات فى ذهنه ، فتتخلص من المدلولات الأجنبية التى كانت عالقة بها ، وتتميز لديه الأجناس بعضها عن بعض ، فيطلق على أفراد كل منها اسمها الخاص بها .

٢ ـ وفى أوائل هذه المرحلة تبدو لغة الطفل عارية عن الصرف والاشتقاق ، فكل كلمة من كلماته تلازم شكلا واحدا ، وتدل فى شكلها هذا على جميع ما يشتق منها ويتصل بها . ومع تقدم الطفل فى هذه المرحلة يدرك العلاقة بين تغير بنية الكلمة وتغير معناها أو زمنها، فتظهر حينئذ عناصر الصرف والاشتقاق فى لغته .

٣ ـ وفى مبدأ ظهور هذه العناصر يميل الطفل الى القياس والسير على وتيرة واحدة حيال جميع الكلمات . فتراه مثلا يتبع طريقة واحدة فى التأنيث ، فيقول خروف وخروفة وحصان وحصانة وأحمر وأحمرة وأبيض وأبيضة وأصفر وأصفرة ، كما يقول قط وقطة وكبير وكبيرة . وقد ظل ابنى اخلاص ينطق بالصفات الدالة على اللون على هذه الطريقة حتى أوائل سنته السادسة .

٤ ـ يفتتح الطفل هذه المرحلة بالنطق بكلمات مفردة قاصدا بها التعبير عما نعبر عنه بالجمل : فيقول مثلا « باب » قاصدا افتح الباب؛ و « شباك » قاصدا اقفل الشباك ؛ و« عصا » قاصدا اضرب القط بالعصا ... وهلم جرا ، ويفهم غرضه من السياق والظروف المحيطة به والاشارات اليدوية والجسمية التى تصحب كلامه .

ويختار لطفل عادة للتعبير عن الجملة الكلمة التى يجيد النطق بها أو الكلمة التى تسبق غيرها الى لسانه ، ولو لم تكن ذات أهمية فى المعنى الذى يريد تقريره . فمن ذلك أن ابنتى عفاف وسنها ثمانية عشر شهرا وبضعة أيام (٣٥/٨/٢) كانت تسير القهقرى ، فعثرت فى اناء كان يوضع فيه اللبن لهرتها وأولادها الصغار ، وكاد يختل توازنها ؛ ولما تبين لها السبب فى عثرتها قالت « بو » (بو = أمبو = الشرب) ، أى ان السبب فى ذلك هو الاناء الذى تشرب فيه الهرة وصغارها لبنها .

ثم ترتقى لغة الطفل بهذا الصدد فتصبح ثنائية الكلمات (عفاف فى أوائل السنة الثالثة : « ماء مم » أى الخروف يأكل ، « ماما نتا » أى يجب أن تغادر ماما هذا المكان ...) . وبعد ذلك بقليل تصبح لغته ثلاثية الكلمات (عفاف فى الشهر الرابع من السنة الثالثة : « ماما أوه انا » = ماما ألم هنا ، مشيرة الى رقبة والدتها ، أى أن برقبة أمها ألما أو مرضا) .

أما تركيب الجمل تركيبا كاملا فلا يصل اليه الطفل الا فى أواخر هذه المرحلة .

٥ ــ وفى مبدأ ظهور الجمل فى لغة الطفل تبدو عارية عن الروابط والحروف ، ويبـــدو تركيبها ساذجا ، وتبدو كلماتها بدون تنسـيق ولا ترتيب ، فيوضع بعضها بجانب بعض كيفما اتفق . ومن نماذج هذا ما قالته ابنتى عفاف فى ٣٠/٧/٣٦ : « أنا نونو » (صغيرة) دده (هكذا ــ وقوست ظهرها لتمثل الحالة التى كانت عليها وهى صغيرة) ماما دز (بز ، ثدى) ساه (شاى) » ، أى حينما كنت صغيرة على هذه الصورة كانت والدتى ترضعنى الشاى فى الثدى الصناعى .

وقد يرتب الطفل أحيانا كلمات جملته بشكل يتفق مع ما لكل منها من أهمية فى نظره ، فيبدأ بأكبرها أهمية ويتدرج حتى ينتهى بأقلها شأنا . فيقول مثلا : « عصايا بابا ضرب محمد » قاصدا أن أباه ضرب محمدا بالعصا . فيقدم « العصا » لأنها أكبر عناصر الجملة أهمية فى نظره ، فانتباهه قد تعلق بها أكثر من تعلقه بما عداها ، ولأن بيـــان آلة الضرب هو أهم ما يرمى اليه من جملته ، ثم يتبعها بالكلمة الدالة على الشخص الذى اتصل بها اتصالا مباشرا وقام بتحريكها ، وهو « بابا » ، ثم يأتى بالكلمة الدالة على أثر تحريك أبيه للعصا وهى « ضرب » ، ويختم جملته بكلمة « محمد » الذى لم يقم بعمل ايجابى فى الحــادث الذى يريد الطفل التعبير عنه .

٦ ــ وفى قسم كبير من هذه المرحلة يتأثر الطفل فى مفــردات لغته وتراكيبها وقواعدها بأكثر الأفراد مخـــالطة له وأحبهم اليه كأمه ومربيته وأخيه الأكبر وأخته الكبيرة ، فتغلب فى لغته مظاهر التقليد لهؤلاء ، حتى انها لاتكاد تختلف فى معظم هذه المرحلة عن لغتهم . وعن هذا الطريق ينتقل الى لغة الطفل ويعلق بها بعض أخطاء فى المفردات والقواعد والأساليب ، حتى الأخطاء التى تكون ناشـئة عن خلل فى أعضاء النطق للشخص الذى تغلب عليه محاكاته ، وتظل هذه الأخطاء ملازمة للطفل أمدا طويلا . ومن غريب ما لاحظته بهذا الصدد أن ابنتى

« حزم » كانت تعبر عن نفسها بصيغة المذكر ، فتقول مثلا : « أنا نازل، أنا طالع ، أنا خارج ... الخ » بدلا من « أنا نازلة ، أنا طالعة ، أنا خارجة ... الخ » . وهى فى ذلك كانت تحاكى أخاها « اقداما » فى تعبيره عن نفسه . ومع أننا لم نأل جهدا فى اصلاح طريقتها هذه وابداء السخرية بها ، فقد ظلت عالقة بلسانها الى مابعد الخامسة من عمرها . وقد ظل ابنى نائل حتى أوائل السادسة من عمره يعبر عن نفسه فى بعض الأحوال بصيغة المؤنث ، فيقول مثلا : « أنا عارفة ، أنا عايزة » ، بدلا من « أنا عارف ، أنا عايز (أريد) » . ولكنه فى ذلك ، على ما يظهر لى ، لا يقلد احدى أخواته ، وانما يقلد والدته فى تعبيرها عن نفسها لشدة ملازمته لها .

٧ — وأول كلمات تبدو عند معظم الأطفال هى أسماء الذوات ، وتظهر بعدها بعدها الأفعال (١) . ثم الصفات (٢) . ثم الضمائر (ولعدم وجود الضمائر فى لغة الطفل فى مبدأ هذه المرحلة نراه يعبر عن نفسه

---

(١) لاحظت أن أول نوع من الافعال ظهر فى لغة ابنتى عفاف كان فعل الامر . ففى أوائل السنة الثالثة (ابتداء من ٣٦/٣/٤) نطقت بفعل « تعانى » = تعال (أمر بالمجىء) و « استنى » (أمر بالانتظار) ، وكانت تستعمل هذين الفعلين مسندين للمذكر دائما ولو كان المخاطب مؤنثا ، و «أدى» = خدى (أمر بالأخذ) و «آتى» = هاتى (أمر بالاعطاء) وكانت تستعملهما مسندين للمؤنث دائما ولو كان المخاطب مذكرا . — ولم يظهر المضارع والماضى فى لغتها الا فى مرحلة لاحقة لهذه المرحلة . ومثل هذا لاحظته على أولادى اقدام وحزم ونائل ووفاء واخلاص . وقد ظهر فعل من أفعال الأمر وهو «أوم = قم» عند ابنتى حزم فى سن مبكرة (فى الشهر الخامس من سنتها الثانية) كما سبقت الاشارة الى ذلك بصفة ١٣٨ وتعليقها .

(٢) قد تظهر الصفات عند بعض الأطفال فى مرحلة سابقة لمرحلة ظهور الأفعال ، بل لاحظ العلامة بريير Preyer أن أول كلمة نطق بها ابنه كانت صفة . — والذى لاحظته على ابنتى عفاف أن الصفات والافعال قد ظهرا لديها فى وقت واحد ، ولكنهما ظهرا متأخرين عن أسماء الذوات . ففى الوقت الذى كانت تنطق فيه بأفعال الأمر التى تقدمت الاشارة اليها فى التعليق السابق كانت تنطق ببعض صفات : فمن ذلك « دح » بمعنى جميل (٣٦/٣/٤) و «أحمح» بمعنى أحمر (وكانت تستعمله فى صيغة المذكر دائما ولو كان الموصوف مؤنثا) و «بيده» أى بيضاء (وكانت تستعملها فى صيغة المؤنث دائما ولو كان الموصوف مذكرا) وقد ظهرا لديها فى ٣٦/٧/١١ . ومثل هذا لاحظته على أولادى اقدام وحزم ونائل ووفاء واخلاص .

باسمه العلم فيقول مثلا « فيفى مم » أى فيفى تريد أن تأكل (١)) ، ولا تظهر الحروف وما يشبهها من الظروف وأسماء الشرط الا فى منتصف هذه المرحلة أو أواخرها (٢) . ولذلك تظهر جمل الطفل فى المبدأ عارية عن الروابط والحروف كما سبقت الاشارة الى ذلك (٣) .

والسبب فى هذا راجع الى أن الطفل يسير فى ارتقائه اللغوى وفقا لارتقاء فهمه ، فدرجة نموه الفكرى فى مبدأ هذه المرحلة لا تتيح له أكثر من فهم الكلمات الدالة على أمور حسية يمكن أن يشار اليها ، ولذلك اقتصر متن لغته فى هذا الدور على أسماء الذوات ، فاذا نما تفكيره أمكنه أن يدرك مدلولات الكلمات المعبرة عن أمور معنوية ، وحينئذ تظهر فى لغته الأفعال (الدالة على الحدث والزمان) والصفات (الدالة على معنى كلى تتلبس به الذوات بشكل عارض) وما اليهما . ولما كانت الحروف والروابط أدق أنواع الكلمات مدلولا ، لم يتح له فهمها الا فى أواسط هذه المرحلة أو أواخرها ، فتأخر ظهورها تبعا لذلك .

---

(١) غير أنى لاحظت على ابنتى عفاف أن ضمير المتكلم المنفصل «أنا» قد ظهر فى لغتها يوم ٢٩/١/٣٦ أى قبيل ظهور الصفات والأفعال . ولاحظت كذلك أنها تستخدمه استخداما صحيحا فلا تعامله معاملة الأعلام كما يفعل بعض الأطفال فى هذه المرحلة بل تستعمله حينما تريد الاشارة الى نفسها .

(٢) لم تظهر الحروف وما اليها فى صورة واضحة عند ابنتى عفاف الا فى أوائل الشهر الرابع من سنتها الثالثة . ففى ١١/٥/٣٦ ظهرت «انا» بكسر الهمزة بمعنى هنا (ماما أوه انا = ماما تشكو ألما هنا مشيرة الى رقبتها) . وفى ١١/٧/٣٦ ظهر فى لغتها «بتيد» بمعنى بعيد و «ايه ده» أى ماهذا ، و «ياء النداء» (ايه ده يا بابا = ماهذا يا بابا» .

أما قبل هذا العهد فما كان يوجد فى لغتها من هذه الفصيلة الا كلمتان ظهرتا مبكرتين قبل أوانهما : احداهما «نأ» بنون مفتوحة فهمزة ساكنة ، بمعنى لا (أداة النفى . — وقد ظهرت فى الشهر التاسع من سنتها الثانية) ، وثانيتهما «نام» بنون مفتوحة فهمزة مفتوحة فميم . بمعنى نعم (أداة الايجاب . وقد ظهرت يوم ٢٠/١٢/٣٥) . — ومن غريب ما لاحظته على ابنتى عفاف بهذا الصدد أن واو العطف مع كثرة تكرارها فى الكلام ومع فهمها لمدلولها قد تأخر ظهورها كثيرا فى لغتها ، فقد طلب اليها يوم ٢٦/٧/٣٦ أن تقول للخادمة : «انت كخ وعبيطة» فقالت لها : «انت كخ أنت أبيطة» فكررت الضمير بدلا من واو العطف ، ومن الواضح أن تكرارها للضمير دليل على فهمها لمدلول واو العطف .

(٣) انظر صفحة ١٤٦ رقم ٥ .

وقد قسم العلامة شترن Stern هذا الطريق الى ثلاث مراحل، سمى أولها « مرحلة المادة » Stade de la substance وهى المرحلة التى تظهر فيها أسماء الذوات ، وسمى ثانيتها « مرحلة العمل » Stade de l'action وهى المرحلة التى تظهر فيها الأفعال ، وسمى الثالثة « مرحلة العلاقات » Stade des relations وهى المرحلة التى تظهر فيها الحروف والروابط (١) .

٨ – يكثر فى لغة الطفل فى أوائل هذه المرحلة الكلمات المأخوذة عن أصوات الحيوان والأشياء والتى يقصد بها التعبير عن مصادرها أو عن أمور تتصل بها (ماء للخروف ، كاكا للدجاجة ، أأ للضرب ، مم للأكل ... وهلم جرا) . وقد ثبت أن بعض هذه الكلمات يصل اليها الطفل بنفسه بدون تلقين الكبار .

٩ – يعتمد الطفل فى معظم هذه المرحلة اعتمادا كبيرا على لغة الاشارة ، فيمزجها بلغته الصوتية لتحديد مدلولها وتوضيح مبهمها وتكملة نقصها وتمثيل حقائقها (٢) . وقد يستخدمها وحدها فى التعبير عما يود التعبير عنه . ويكثر هذا لديه قبل ظهور اللغة ، أى قبل دخوله مرحلة التقليد ، وفى أوائل هذه المرحلة . ففى أوائل السنة الثانية كانت ابنتى عفاف تقتصر فى التعبير عن كثير من حاجاتها على الاشارة اليدوية والجسمية . فمن ذلك أنها فى تعبيرها عن الفيل كانت تقبض أصابعها ما عدا السبابة وتضع كفها بهذا الشكل تحت شفتيها وتحرك السبابة كما يحركها المصلى فى تشهده ممثلة بذلك خرطوم الفيل وحركته. وكانت تستخدم هذه الحركات كلما طلبت الذهاب الى حديقة الحيوان، أو سئلت عما رأته بها ، أو طلب اليها بيان ما تمثله صورة فيل .. وهلم جرا .

(١) V. Delacroix : Langage et Pensée 304, 305

(٢) من أوضح النماذج بهذا الصدد ما صدر عن ابنتى عفاف (يوم ٣٦/٣/١٣) اذ أشرت فى كتاب فرنسى الى صوره غزال يرعى الكلأ وطلبت اليها أن تذكر ما تمثله هذه الصوره فقالت : « ماء مم » (أى حيوان يأكل) ، وعززت هذا بأن مثلت هيئة حيوان وحركت فكيها وشفتيها كما تحركها فى أثناء الأكل . انظر مثالا آخر بصفحة ١٤٦ رقم ٥ .

وقد تبلغ لغة الاشارة عند بعض الأطفال شأوا كبيرا ، فيستطيعون التعبير بها عن معان دقيقة وقصص طويلة . فقد أردت مرة فى أواخر السنة الثانية لابنتى عفاف (٢٢ — ١١ — ٣٥) أن أشغلها عن اللعب فى سريرها لتتفرغ للنوم ، فأخذت أقص عليها بالألفاظ التى تفهمها وبالحركات قصة طويلة تتعلق بأسد كان يأكل قطعة لحم فسقط عليه غراب وضربه بمنقاره واختطف منه قطعة اللحم وطار بها حتى نزل على شجرة وأخذ يأكلها . فاستأثرت هذه القصة بانتباهها . وكانت كلما فرغتُ من مرحلة من مراحلها تشير الىّ اشارة الفاهم المتتبع لحديثى قائلة : « ايه ، ايه » . وبعد أن فرغت من القصة أخذت أسألها عنها كما يفعل المدرس عقب درس محادثة ، فطفقت تمثل بحركات يديها وفمها أعمال الأسد وهو يتناول غذاءه ، ثم حركات الغراب اذ ضرب الأسد بمنقاره واختطف منه قطعة اللحم ، واذ طار بها الى الشجرة ... الخ ، غير مستخدمة فى ذلك الا بضع ألفاظ ، ككلمة (أ ا°) التى كانت تعبر بها عن الضرب ، وكلمة « مم » التى كانت تعبر عن الأكل .

المرحلة الرابعة
مرحلة الاستقرار اللغوى

وهى المرحلة الأخيرة فى هذا السبيل ، وتبدأ من سن السادسة أو السابعة أو الثامنة تبعا لاختلاف الأفراد . وبدخول الطفل فى هذه المرحلة تستقر لغته وتتمكن من لسانه أساليبها الصوتية ، وترسخ لديه طائفة كبيرة من العادات الكلامية الملائمة لطبيعتها الخاصة .

ومن أجل ذلك يشعر الطفل فى هذه المرحلة بصعوبة كبيرة فى تعلم اللغات الأجنبية . وتبدو هذه الصعوبة أوضح ما يكون فى النطق بالكلمات المشتملة على أصوات لا نظير لها فى أصوات لغته . فالطفل المصرى مثلا يجد فى هذه المرحلة صعوبة كبيرة فى النطق بالكلمات الافرنجية المشتملة على مثل هذه الحروف: v, p, j, u. eu... etc

هذا ، ولا ينتهى الأمر بلغة الطفل فى هذه المرحلة الى أن تكون

مطابقة كل المطابقة للغة الجيل الذى أخذها عنه ، بل تستقر لديه فى صورة تختلف بعض الاختلاف عن لغة آبائه . ويرجع هذا الاختلاف الى أسباب كثيرة سنعرض لها فى الفصول الثلاثة الأخيرة من هذا الكتاب .

- ٤ -

عوامل كسب الطفل للغة

يتوقف التقليد اللغوى عند الطفل على عوامل كثيرة من أهمها ما يلى :

١ - وضوح الاحساسات السمعية وتمييزها بعضها عن بعض :

يولد الطفل أصم ، ويمتد صممه هذا حتى اليوم الرابع أو الخامس ، وحينئذ تبدو لديه أمارات السمع . غير أن احساساته السمعية تظل مبهمة ابهاما كبيرا ويظل عاجزا عن تحديد مصادرها حتى أواخر الشهر الرابع ، ثم ترتقى ارتقاء بطيئا حتى أوائل السنة الثانية ، ثم تدخل فى دور النضج الذى يستغرق أمدا غير قصير .

فبالموازنة بين هذه المراحل والمراحل التى تسير فيها لغة الطفل ، والتى سبق الكلام عنها فى الفقرة السابقة ، يتبين أن ظاهرة التقليد اللغوى تتبع فى رقيها ظاهرة الاحساس السمعى .

أما السبب فى ذلك فلا يحتاج الى بيان . فالطفل فى تقليده يحاكى ما يصل اليه عن طريق السمع . فمن البديهى أن تتوقف هذه المحاكاة على وجود قدرة السمع لديه وأن تتأثر فى ارتقائها بما ينال هذه الحاسة من دقة وتهذيب .

ولذلك نرى أن من يولد أصم ينشأ أبكم ولو كانت أعضاء نطقه سليمة .

٢ ــ الحافظة والذاكرة السمعيتان . ــ ونعنى بذلك القدرة على حفظ الأصوات المسموعة وعلى تذكرها واستعادتها عند الحاجة اليها .

ولا تبدو هذه القدرة عند الطفل الا بعد بضعة أسابيع بعد ولادته (١) ، وتظل ضعيفة حتى أواخر الشهر الرابع ، ثم ترتقى ارتقاء بطيئا حتى أوائل السنة الثانية ، وحينئذ تبدأ مرحلة نضجها .

فهذا العامل يقطع فى طريق نموه المراحل نفسها التى يقطعها العامل الأول ، وتصحبهما فى سيرهما ظاهرة التقليد اللغوى : تظهر بظهورهما ، وتنمو بنموهما .

أما وجه توقف التقليد اللغوى على هذه الظاهرة فلا يقل وضوحا عن توقفه على الظاهرة الأولى ؛ وذلك أن الكلمة التى يحاكيها الطفل لا تصبح جزءا من لغته الا اذا استطاع حفظها واستعادتها عند الحاجة الى التعبير عما تدل عليه .

٣ ــ فهم الطفل لمعانى الكلمات . ــ على الرغم من أن فهم الطفل لمعانى الكلمات يسبق قدرته على النطق بها كما سبقت الاشارة الى ذلك ، فان هذا الفهم شرط ضرورى للتقليد اللغوى وعامل أساسى من عوامل نموه . وقد عرضنا فى الفقرة السابقة لأمور كثيرة تدل على توقف التقليد اللغوى على هذا العامل ، وتثبت أن كل ارتقاء فى تفكير الطفل ودرجة فهمه يتبعه ارتقاء فى تقليده ونمو فى محصوله اللغوى ، وتبين وجوه العلاقة بين الأمرين (٢) . ولا أدل على هذا التوقف وهذا التلازم من أن الطفل الذى يولد مصابا بجنون يحول بينه وبين فهم معانى الكلمات ينشأ أبكم ولو كانت أعضاء سمعه ونطقه سليمة .

فالعوامل الثلاثة السابقة مرتبطة بعضها ببعض ارتباطا وثيقا ،

---

(١) تظهر متأخرة عن موعد ظهور « الذاكرة البصرية » (ذكر الأشياء المنظورة) .

(٢) انظر مميزات الدلالة فى هذا الدور بصفحات ١٤٣ ــ ١٥٠ وخاصة من آخر ص ١٤٧ الى ١٤٩ .

والتقليد فى اللغة متوقف عليها مجتمعة فى نشأته وفى تطوره . فعدم ظهوره قبل الشهر الخامس يرجع سببه الى عدم وجودها قبل هذه السن ، وضعفه فى مرحلة « التمرينات النطقية » يرجع سببه الى ضعفها فى هذه المرحلة ، وقوته فى المرحلة التالية (مرحلة التقليد اللغوى) مدين بها الطفل لقوتها فى هذا الدور .

غير أنه قد يحدث عند بعض الأطفال أن يتخلف التقليد عن هذه العوامل الثلاثة . فقد لوحظ أن بعض الأطفال يفهمون فى سن مبكرة معظم ما يقال لهم (وفى هذا دليل على توافر العوامل الثلاثة توافرا كاملا) ؛ ومع ذلك لا تظهر لديهم بوادر المحاكاة اللغوية الا فى السنة الثالثة أو الرابعة أو الخامسة . ولوحظ كذلك أن بعض الأطفال يتقدمون كثيرا فى السن ولا يتكلمون الا بمعالجة واستخدام وسائل غير طبيعية مع سلامة أعضاء نطقهم وسمعهم وقواهم الفكرية ، ومع أن سلوكهم فى مرحلة بكمهم هذه يدل على فهمهم لما يوجه اليهم أو يقال حولهم من حديث ، ولوحظ أن هذا التأخر اللغوى يتبعه غالبا تأخر فى المشى عند الطفل .

ويرجع فى الغالب سبب هاتين الظاهرتين معا (تأخر الكلام وتأخر المشى) الى خمول محلى فى أعضاء النطق والحركة ، أو كسل طبيعى عام ، أو تراخى الطفل وقلة نشاطه وضعف رغبته فى الاشتراك فى الحياة الاجتماعية .

ولهذا يجدر أن نضيف الى هذه العوامل الثلاثة عاملا رابعا ، وهو نشاط الطفل الحيوى وقوة عزمه وارادته ورغبته فى الاشتراك فى حلبة الحياة .

— ٥ —

أثر النظر فى التقليد اللغوى

ترى طائفة من الباحثين — على رأسها الأستاذ Onufrowicz أن لحاسة النظر دخلا كبيرا فى التقليد اللغوى ، وأن رؤية الطفل لشفتى المتكلم وحركتهما ، وعمله على محاكاة هذه الحركة ، واخراجه الصوت الذى يتلاءم معها، كل ذلك يساعده على اجادة عملية التقليد ويذللها له، وأن هذه الرؤية لا تقل أثرا بهذا الصدد عن العوامل الثلاثة التى ذكرناها فى الفصل السابق .

وأهم الأدلة التى يقدمها هؤلاء على صحة نظريتهم ترجع الى ما يلى :

١ — أن الطفل فى مبدأ هذه المرحلة لايستطيع محاكاة صوت يصدر من متكلم غير مواجه له . وهذا دليل على توقف التقليد اللغوى، فى مراحله الأولى على الأقل ، على رؤية شفتى المتكلم وملاحظة حركاتهما .

٢ — أن الأطفال فى مرحلة « التمرينات النطقية [1] » وهى المرحلة السابقة لمرحلة التقليد اللغوى ، يوجهون اهتماما كبيرا الى ملاحظة شفتى المتكلم وملاحظة حركاتهما ويحركون شفاههم، فى صورة يحاولون بها محاكاة ما رأوه بدون أن يلفظوا صوتا ما . وهذا يدل على أن محاكاة الطفل للآثار المرئية للصوت تسبق تقليده للصوت نفسه ، وتمرنه على هذا التقليد ، وتهيىء له عنصرا هاما من عناصره .

٣ — أن أول كلمات يقلدها الطفل هى الكلمات التى تكثر فيها الحروف الشفوية ، وهى الحروف التى تخرج من الشفتين ويقتضى نطقها

---

(١) انظر آخر ص ١٢٩ وتوابعها .

تحركهما حركات ظاهرة مرئية تصل الى الطفل عن طريق حاسة البصر : «بابا» «ماما» ... الخ . وهذا دليل على أهمية النظر فى التقليد اللغوى، وخاصة فى المراحل الأولى لهذا التقليد .

٤ ــ أن الطفل الأكمة (الذى يولد أعمى) يقضى فى كسب اللغة عن طريق التقليد مدة أطول من المدة التى يقضيها فى العادة طفل بصير أو طفل طرأت عليه هذه العاهة بعد أن قطع قسما من مرحلة التقليد اللغوى . فللنظر اذن دخل فى سير هذا التقليد وتخفيف أعبائه وتيسير عناصره .

٥ ــ أن الأطفال الذين يولدون صما يمكن تعليمهم النطق عن طريق محاكاتهم للحركة المرئية التى تتحرك بها أفواه المتكلمين وشفاههم. فللنظر اذن أهمية كبيرة فى عملية التقليد اللغوى ، حتى انها قد تتم أحيانا بمساعدة النظر وحده وتستغنى استغناء تاما عن السمع .

وقبل أن نعرض لقيمة هذه الأدلة ، يجدر بنا أن نبين أن النظرية نفسها قائمة على أساس غير سليم .

وذلك أن عملية التقليد اللغوى يتوقف نجاحها على مبلغ مطابقتها للأصل الذى تحاكيه ، وأن هذه المطابقة لا يصل اليها الطفل لأول وهلة، بل تقتضيه معالجة صوته والعمل بالتدريج على اصلاح ما عسى أن يكون قد وقع فيه من أخطاء ، كما تقدم بيان ذلك (١) . ويتاح للطفل هذا الاصلاح بفضل احساسه للصوت الذى يلفظه والموازنة بينه وبين الصوت الذى سمعه أو بينه وبين ما يذكره عن هذا الصوت . ولو كان الطفل يعتمد فى تقليده اللغوى على محاكاة ما يراه من حركات الشفتين كما تقول هذه النظرية ، لما استطاع سبيلا الى هذا الاصلاح . لأنه لا يمكنه أن يرى كيف تتحرك شفتاه هو ، فلا يستطيع أن يعرف ان

---

(١) انظر صفحتى ١٣٣ ــ ١٣٥ .

كانت حركاتهما قد جاءت مطابقة للحركات التى رآها أم غير مطابقة لها ولا يستطيع تبعا لذلك أن يحدد مواطن الخطأ تحديدا دقيقا ولا أن يصل الى مطابقة صحيحة .

هذا الى أن معظم الأصوات اللغوية تعتمد فى مخارجها على حركات غير مرئية تؤديها أعضاء غير ظاهرة كحركات الجوف والحلق والحنك واللسان . فليس فى اللغة العربية مثلا الا أربعة أصوات شفوية (الفاء والباء والميم والواو) ، بينما تشتمل على أربعة وعشرين صوتا من الأنواع الأخرى . فلو كان للنظر دخل ما فى التقليد اللغوى لتعذر على الطفل أو صعب عليه محاكاة قسم كبير من أصوات لغته ، أو لكانت محاكاته للأصوات الشفوية أدق من محاكاته لما عداها . وكلتا هاتين النتيجتين لا تتفق مع الواقع فى شىء .

وأما الأدلة التى يعتمد عليها أصحاب هذه النظرية والتى سبق تلخيص أهمها ، فبعضها يتضمن حقائق غير مسلم بها أو غير صحيحة ، وبعضها لايدل دلالة قاطعة على ما يذهبون اليه ، وبعضها يظهر من تحليله أنه دليل عليهم لا لهم :

١ ـــ فأما ادعاؤهم أن الطفل فى أول مرحلة التقليد اللغوى لا يستطيع محاكاة صوت يصدر من متكلم غير مواجه له ، فلا يتفق مع الواقع فى شىء . اذا الحقيقة أن الطفل فى فاتحة هذه المرحلة كثيرا ما يحاكى أصواتا وكلمات لا يرى مصدرها أو يبعد مصدرها عنه بحيث لا يستطيع أن يرى حركات فمه وشفتيه ، ولا تقل محاكاته اياها فى جودتها عن محاكاته لما يصدر عن شخص مواجه له .

٢ ـــ وأما ما يوجهه الطفل فى مرحلة « التمرينات النطقية » من اهتمام بملاحظة شفتى المتكلم ، فليس ذلك ناشئا عن رغبته فى تقليد حركاتهما كما يزعم أصحاب هذه النظرية ، وانما ينشأ عن رغبته فى الوقوف على مصدر الصوت . وهذه الرغبة فطرية قائمة على غريزة الاستطلاع عند الطفل ، وتبدو حيال جميع الأصوات سواء فى ذلك

أصوات الأناسي والحيوانات والأشياء ، وتظهر أماراتها لديه من الشهر الرابع أي في المرحلة نفسها التي تبدأ فيهـا « التمرينات النطقية » .

هذا الى أن الطفل في هذه المرحلة يميل الى التحـديق في كل ما يتحرك أمامه ، ويتبعه بنظره مادام متحركا ، لا لرغبته في تقليد حركته بل لمجرد رغبته في رؤية الحركة وتتبعها . وهذا ضرب مما يسميه علماء النفس « ألعاب الحواس » عند الطفل (١) . وهو قائم كذلك على غريزة حب الاستطلاع . فملاحظة الطفل لشفتي المتكلم في أثنـاء تحريكهما لا تختلف في الباعث عليها عن ملاحظته لأية هنة تتحرك أمامه .

٣ ــ وأما ما يعمله الأطفال أحيانا ، عقب ملاحظتهم لشفتي المتكلم ، من تحريك لشفاههم في صورة يحاولون بها تقليد ما رأوه بـدون أن يلفظوا صوتا ما ، فقد دلت الملاحظات على أن هذه الظاهرة لاتبدو لديهم الا حوالي الشهر السابع ، أي في مرحلة « التقليد اللغوي » نفسها أو قبلها بأمد يسير . فالتفسير المعقول اذن لهذه الظاهرة هو أن الطفـل في هذه المرحلة المبكرة نوعا ما يحاول محاكاة الأصوات الجهرية التي يسمعها بأن يلفظها في أصوات خفية غير مسموعة ، ومحـاولته هـذه هي التي تجعل شفتيه تتحركان حركات مطابقة لحركات شفتي المتكلم أو مشبهة لها . فلسنا اذن بصدد محاكاة مقصودة لحركات الشفتين ، بل بصدد محاولة لمحاكاة الصوت المسموع محـاكاة خفية تصحبها حتما حركات الشفتين في صورة غير مقصودة بالذات .

٤ ــ وأما زعمهم أن أول كلمات يقلدها الطفل هي الكلمات التي تكثر فيها الحروف الشفوية (وهي الحروف التي تخرج من الشـفتين ويقتضي نطقها تحركهما حركات ظاهرة مرئية تصل عن طريق حاسـة النظر) فزعم غير صحيح . فقد دلت المشاهدات على أن الفوج الأول من كلمات الطفل يتألف من أصوات متنوعة المخارج والصفات (٢) .

٥ ــ وأما ما يظهر لدى الطفل الأكمه من ضعف في التقليد اللغوي

---

(١) انظر كتابنا « اللعب والعمل » ص ٣٧ .

(٢) انظر صفحتي ١٣٧ ، ١٣٨ .

وطول فى المدة التى يقضيها فى كسب لغته بالقياس الى الطفل البصير، فلا يرجع سببه الى عدم رؤية الحركات التى تبدو على شفتى المتكلم كما يدعى أصحاب النظرية التى نحن بصددها ، وانما يرجع الى صعوبة فهمه لمعانى ما يسمعه من كلمات . وذلك أن من وسائل هذا الفهم ما لا يتاح الانتفاع به الا للبصير ، كاشارة المتكلم فى أثناء النطق بالكلمة الى الشىء الذى تدل عليه ، والحركات اليدوية والجسمية التى تصحب الكلام عادة وتساعد على فهم ما يقصد اليه المتكلمون . وقد تقدم أن فهم معانى الكلمات عامل هام من عوامل التقليد اللغوى (١) . فعدم تمكن الطفل الأكمه من الانتفاع بطائفة من وسائل هذا الفهم ، هو الذى يسبب ضعفه فى هذا الصدد ويؤدى الى تأخره عن البصير .

٦ — وأما تعليم النطق للأطفال الذين يولدون صما عن طريق أخذهم بمحاكاة الحركات المرئية التى تتحرك بها أفواه المتكلمين وشفاههم فلا ينهض دليلا على صحة هذه النظرية لأسباب كثيرة :

منها أن تعلمهم النطق عن هذا الطريق لايتاح الا بتربية مقصودة فى مدارس خاصة ، وبمعالجة طويلة شاقة ، واستخدام وسائل صناعية كثيرة . فلو ترك الطفل الأصم منذ الولادة وشأنه لنشأ أبكم ، ولو لم يكن به أى عطب فى أعضاء نطقه (٢) . وفى هذا دليل على أن الطفل بطبعه لا يعتمد على نظره فى التقليد اللغوى ، ولا يحاول الانتفاع به الا اذا أخذ بذلك أخذا ، ووجه اليه توجيها مقصودا ، ودرب عليه بوسائل صناعية ومعالجة طويلة . وغنى عن البيان أن فى هذا دليلا على أصحاب هذه النظرية لا دليلا لهم .

ومنها أن تعليم الأصم الكلام عن هذا الطريق لا يمكن الشروع فيه قبل سن الثامنة أو التاسعة ، أى بعد انتهاء مرحلة « التقليد اللغوى » ، أما قبل ذلك فكل مجهود يبذل فى هذا السبيل يذهب

(١) انظر صفحات ١٤٧ — ١٤٩ ، ١٥٢ .

(٢) وكذلك الطفل الذى يصاب بالصمم قبل أن يبلغ الرابعة ، أى قبل أن يقارب مرحلة الاستقرار اللغوى .

أدراج الرياح . وفى هذا دليل على أن الطفل لا يتجه مطلقا ، فى أثناء مرحلة التقليد اللغوى ، الى الانتفاع بنظره فى المحاكاة اللفظية ، حتى انه ليتعذر حمله على هذا الانتفاع مهما بذلنا معه من مجهود . وفى هذا أقطع دليل على فساد النظرية التى نحن بصددها .

ومنها أن طائفة كبيرة من الأصوات اللغوية تعتمد فى مخارجها على حركات غير مرئية تؤديها أعضاء غير ظاهرة كحركات الجوف والحلق والحنك واللسان . ولذلك لا يعتمد معلمو الصم على الاحساسات البصرية وحدها ، بل يلجئون كذلك الى وسائل أخرى كثيرة ، فيحاولون مثلا أن يحس تلاميذهم كمية الهواء الخارجة من فم المتكلم ، أو يطلبون اليهم أن يضعوا أيديهم على حلقومه أو صدره أو طرف أنفه أو قمة رأسه ... حتى يتاح لهم عن طريق حواس أخرى غير النظر ، الذى ظهر عدم كفايته فى هذا السبيل ، ادراك الذبذبات الخاصة التى يحدثها كل حرف فى أثناء لفظه والتى تساعد على تمييزه والنطق به . وحتى الحروف الشفوية نفسها لا يمكن للصم محاكاتها بمجرد نظرهم لما تؤديه فى أثناء النطق بها شفاه أساتذتهم من حركات . وذلك لأن الانسان لا يستطيع أن يرى كيف تتحرك شفته هو، فلايمكنه أن يعرف ان كانت حركتها قد جاءت مطابقة للحركات التى يحاول تقليدها أم غير مطابقة لها ، ولا أن يحدد مواطن الخطأ تحديدا دقيقا ، فيتعذر عليه الوصول الى مطابقة صحيحة . ولذلك يلجأ معلمو الصم الى وضع مرآة أمام تلاميذهم ليتمكنوا من رؤية الحركات التى تؤديها شفاههم ، ومن اصلاح ما عسى أن يكون بها من أخطاء بالقياس الى الأصل الذى يأخذونهم بمحاكاته .

ومنها أن تعليم الصم الكلام لا يكلل بنجاح ما الا مع النابهين الذين يمتازون بفرط النشاط وحدة الذكاء وصفاء الذهن وشدة الانتباه وقوة الارادة ، وتحفزهم الى ذلك رغبة ملحة فى الكلام . وحتى هؤلاء أنفسهم ينتهى تعليمهم بنتائج ضئيلة ، ويخرجون بلغة ناقصة مشوهة . أما من عدا هؤلاء فلا يؤتى تعليمهم هذا أية ثمرة يعتد بها ،

ولا يمكن المعلمين ، مهما بذلوا من جهد ، أن يحولوا بينهم وبين لغة الاشارة المحببة الى طائفتهم .

ومنها أن النتائج التى تتحقق فى تعليم الصم الكلام يرجع قسط كبير من الفضل فى تحققها الى ما يسمونه « الأنقاض السمعية » ، وهى احساسات سمعية ضئيلة توجد لدى عدد كبير ممن يظن أن صممهم كامل . وقد تبين لمعلمى الصم أهمية هذه « الأنقاض » فوجهوا معظم جهودهم الى استغلالها والانتفاع بها فى تعليم الصم الكلام .

- ٦ -

أساس التقليد اللغوى عند الطفل

يتبين مما ذكرناه فى الفصول السابقة أن التقليد اللغوى فى الطفولة يعتمد على ميل فطرى مزود به الطفل ، وأن أعمال المحاكاة التى يتجه اليها الطفل بدافع من هذا الميل تنبعث عن قصد وارادة ، وتشرف قواه الفكرية على أدائها ، وتنظيمها ، واصلاح فاسدها ، وجعلها مطابقة للأصل ، وفهم مدلولها ، وحفظها ، واستخدامها فيما وضعت له (١) . فأعمال التقليد اللغوى عند الطفل لا تختلف فى أساسها عن ألعابه الراقية ، كألعاب الاستطلاع والحل والتركيب والتصوير والمقاتلة والصيد والألعاب العائلية والاجتماعية والصناعية والزراعية ... وهلم جرا (٢) . فكلاهما يعتمد على ميل فطرى مزود به الطفل ويتجه اليه بدافع من هذا الميل ، ولكن كليهما كذلك ينبعث عن قصد وارادة وتشرف قوى الفكر على أدائه وتنظيم عناصره .

غير أن طائفة من الباحثين على رأسها العلامة لودانتك La Dantec قد ذهبت فى هذا الصدد مذهبا آخر ، فزعمت أن التقليد اللغوى عند الطفل عملية آلية مجردة عن القصد والارادة وعمل الفكر ، ولا تعتمد الا على أمور جسمية خالصة .

---

(١) انظر صفحات ١٣٣ — ١٤٩ .

(٢) انظر هذه الألعاب فى كتابنا اللعب والعمل صفحات ٣٨ — ٤٨ .

وذلك أنهم يرون أن هناك رابطة طبيعية تربط أعضاء السمع عند الطفل فى هذه المرحلة بأعضاء نطقه فى صورة تجعل الأعضاء الأخيرة تلفظ بشكل منعكس الأصوات نفسها التى تحسها الأعضاء الأولى . فالطفل يردد ما يسمعه بعملية آلية لا دخل فيها لارادة ولاقصد ولا تفكير ، وبحركات تنبعث من تلقاء نفسها عند حدوث ما يثيرها كما تنبعث الأعمال المنعكسة .

وقد أوغل لودانتك فى هذا السبيل حتى زعم أن أعضاء النطق وأعضاء السمع يؤلفان عند الطفل فى هذه المرحلة جهازا واحدا ترسل ناحية منه ما تستقبله الناحية الأخرى . فهما أشبه شىء بجهاز المذياع (الراديو) الذى ينبعث من بعض أجزائه ما تلتقطه أجزاؤه الأخرى من أصوات . وطبيعة تركيبهما عند الطفل فى هذه المرحلة مطابقة كل المطابقة — كما يقول لو دانتك نفسه — لطبيعة تركيبهما عند الببغاء وما اليها من الطيور (١) —

ومن ثم يرى لودانتك أن أصوات التقليد اللغوى عند الطفل لا تختلف فى أساسها عن أصوات « التعبير الطبيعى عن الانفعال » التى تكلمنا عليها فى أول هذا الباب (٢) . كلاهما فى نظره فطرى آلى بحت لا دخل فيه لارادة ولا قصد ولا تفكير ، وكلاهما ينبعث عن مثير خاص وعن مجرد وجود هذا المثير . فأصوات التعبير الطبيعى عن الانفعال يثيرها مجرد تلبس الجسم أو النفس بحالة انفعالية ما ، وأصوات التقليد اللغوى يثيرها مجرد التلبس بادراك سمعى خاص . وكلاهما قائم على روابط طبيعية فطرية : فأولهما قائم على روابط طبيعية تربط أعضاء النطق بحالات الانفعال فى صورة تجعل تلك الأعضاء تتحرك من تلقاء نفسها وتلفظ أصواتا خاصة كلما وجدت حالة من هذه

---

(١) انظر الأساس الذى تعتمد عليه المحاكاة عند هذه الفصيلة فى آخر ص ٩٤ وأول ص ٩٥ .

(٢) انظر صفحتى ١١٩ ، ١٢٠ .

الحالات ، وثانيهما قائم على روابط طبيعية تربط أعضاء السمع بأعضاء النطق فى صورة تجعل الأعضاء الأخيرة تردد من تلقاء نفسها ما يصل من أصوات لغوية الى الأعضاء الأولى .

هذا ، وبحسبنا فى الدلالة على فساد هذه النظرية أن نواجهها ببعض ماذكرنا فيما سبق من حقائق :

فقد ظهر لنا فيما سبق أن الطفل لا يردد الكلمة عند سماعه اياها كما تردد الببغاء ما تسمعه من أصوات ، بل يرددها فاهما معناها فهما كاملا أو ناقصا من سياق الحديث وملابسات الأحوال (١) . وبعد أن يتم له حفظها وتستقر فى متن لغته يلفظها وحده كلما أراد التعبير عما تدل عليه . وغنى عن البيان أن ظاهرة هذا شأنها ليست من الأعمال الآلية أو المنعكسة فى شىء ، اذ لا يمكن أن يتم مثلها بدون تدخل الارادة والتفكير .

وقد ظهر لنا فيما سبق أن الطفل لا يكتسب فى هذه المرحلة عن طريق المحاكاة مفردات لغته فحسب ، وانما يكتسب كذلك قواعدها المتعلقة بربط عناصر الجملة ، وترتيب أجزائها ، وتنظيم العبارات ، وتصريف المشتقات ، ومراعاة أزمنة الأفعال واسنادها للضمائر والأسماء الظاهرة ، والتذكير والتأنيث والافراد والجمع ... وهلم جرا (٢) . ومن الواضح أن كسب الطفل لقواعد اللغة يقتضى عمليات فكرية وارادية دقيقة ، ولا يمكن أن يتم شىء منه عن طريق آلى أو منعكس .

وقد ظهر لنا كذلك أن أول كلمات تبدو عند معظم الأطفال هى أسماء الذوات ، وتظهر بعدها الأفعال ، ثم الصفات ، ثم الضمائر ، ثم الحروف والروابط ، وأن السبب فى هذا يرجع الى أن الطفل يسير فى ارتقائه اللغوى وفقا لارتقاء فهمه . فدرجة نموه الفكرى فى مبدأ هذه المرحلة لا تتيح له أكثر من فهم الكلمات الدالة على أمور حسية

---

(١) انظر صفحات ١٤٣ - ١٤٩ .

(٢) انظر صفحات ١٤٤ - ١٤٩ .

يمكن أن يشار اليها . ولذلك اقتصر متن لغته فى هذا الدور على أسماء الذوات . فاذا نما تفكيره أمكنه أن يدرك مدلولات الكلمات المعبرة عن أمور معنوية ، وحينئذ تظهر فى لغته الأفعال (الدالة على الحدث والزمان) والصفات (الدالة على معنى تتلبس به الذوات بشكل عارض) وما اليهما . ولما كانت الحروف والروابط أدق أنواع الكلمات مدلولا لم يتم له فهمها الا فى أواسط هذه المرحلة أو أواخرها ، فتأخر ظهورها تبعا لذلك (١) . وفى هذا أقطع دليل على تدخل التفكير والفهم فى عملية التقليد اللغوى وعلى فساد ما يذهب اليه لودانتك . اذ لو كانت هذه العملية آلية أو منعكسة قائمة على مجرد الارتباط بين جهازى النطق والسمع كما يزعم لودانتك لردد الطفل جميع ما يصل الى سمعه من مفردات ، ولظهرت جميع أنواع الكلمة فى لغة الطفل مرة واحدة .

وقد ظهر لنا كذلك أن الطفل الذى يولد مصابا بجنون يحول بينه وبين فهم معانى الكلمات ينشأ أبكم ولو كانت أعضاء سمعه ونطقه سليمة (٢) . ولو كانت عملية التقليد آلية أو منعكسة على الوجه الذى يزعمه لودانتك لما حال الجنون دون تحققها ، اذ الجنون لا يحول دون تحقق هذا النوع من الأعمال .

وقد ظهر لنا كذلك أن الطفل فى مبدأ هذه المرحلة يلفظ الكلمات التى يحاكيها لفظا خاطئا بعيدا كل البعد عن الأصل الذى يحاكيه ، وأنه لا ينفك يصلح من فاسد نطقه شيئا فشيئا حتى يستقيم له الكلام (٣) . ولا شك أن ظاهرة هذا شأنها فى التطور تقتضى تدخل الارادة والتفكير ، ولا يعقل أن تكون قائمة على الأساس الآلى الذى يزعمه لودانتك .

وقد ظهر لنا كذلك أن الطفل الذى يسوده الخمول ، وتعوزه قوة العزم والارادة ، وتضعف رغبته فى الاشتراك فى حلبة الحياة ، يتأخر

---

(١) انظر من آخر ص ١٤٧ الى ١٤٩ .

(٢) انظر صفحة ١٥٢ .

(٣) انظر صفحات ١٢٣ — ١٤٦ .

كثيرا فى التقليد اللغوى وفى كسب لغته عن الأطفـال العاديين (١) . ولو كانت عملية التقليد عملية آلية أو منعكسة على الوجه الذى يراه لودانتك ما حال هذا الخمول دون تحققها ، ولظهرت كلما وجد مثيرها السمعى بدون توقف على عزم ولا ارادة ولا نشاط حيوى .

— ٧ —

مبلغ تمثيل الطفل فى ارتقائه اللغوى لنشأة اللغة الانسانية وتطورها

يذهب كثير من العلماء الى أن المراحل التى يجتازها الطفل فى أى فرع من فروع حياته تمثل المراحل التى اجتازها النوع الانسانى فى هذا الفرع L'ontogenèse reproduit la phylogenèse . ويطلق على هذه النظرية اسم نظرية التلخيص أو نظرية هيكل Haeckel (٢) .

وعلى هـذه النظرية اعتمد كثير من علماء اللغة فى تأييد آرائهم بصدد نشأة اللغة الانسانية وتطورها .

وقـد تكلمنا بتفصـيل فى البـاب الأول عن أهم هـذه الآراء وناقشناها (٣) : فحسبنا هنا أن نشير اليها مبينين وجه اعتمادها عـلى الظواهر المتعلقة بتطور اللغة عند الطفل .

١ — تقدم أن معظم العلماء يذهبون الى أن اللغة الانسانية قد نشأت من أنواع التعبير الطبيعى ، وأن الانسان قد افتتح هذا السبيل بمحاكاة أصواته الطبيعية (أصوات التعبير الطبيعى عن الانفعـال) وأصوات الحيوان والأشياء (٤) .

---

(١) انظر ص ١٥٣ .

(٢) يرجع الفضل فى نشرها وتكملتها الى هيكيل الألمانى ولذلك نسبت اليه ، وإن كان قد قال بها من قبله العلامة Serres.
V, Traité de Psychologie, par Dumas et collaborateurs, p. 32

(٣) انظر صفحات ١٠٣ — ١٠٦ ، ١١٠ — ١١٨ .

(٤) انظر صفحات ١٠٣ — ١٠٦ .

ومن أهم الأدلة التى يعتمدون عليها فى تأييد هـذه النظرية أن الطريق الذى ترسـمه لنشأة اللغة الانسـانية يتفق مع الطريق الذى يسلكه الطفل فى تعبيره .

فقد ظهر مما تقدم أن أول ما يظهر من أنواع التعبير المقصـود عند الطفل محاكاة التعبير عن الانفعال ، ثم تظهر بعده محاكاة أصوات الحيوان والأشياء للدلالة على مصادرها أو على أمور تتعلق بها . ثم تظهر بعدهما محاكاة الكلمات (١) .

٢ ـ تقدم أن معظم علماء اللغة يذهبون الى أن الكلام الانسانى كان يعتمد فى المبدأ اعتمادا كبيرا على الاشارات اليدوية والجسمية التى كانت تصحبه فتكمل ناقصه وتوضح مدلوله وتمثل حقائقه ، ثم أخذ يستغنى شيئا فشيئا عن هذا المساعد حتى كاد يستقل بالتعبير (٢).

ومن أهم الأدلة التى يعتمدون عليها فى تأييد هذه النظرية أن المراحل التى ترسمها تتفق مع المراحل التى تسير فيها لغة الطفل ، فقد ظهر مما تقدم أن الطفل ، فى مبدأ مرحلته الكلامية ، يعتمد اعتمادا كبيرا على لغة الاشـارات فيمزجها بلغته الصـوتية لتحديد مدلولاتها وتوضيح مبهمها وتكلمة نقصها وتمثيل حقائها (٣) .

٣ ـ تقدم أن بعض العلماء يذهبون الى أن اللغة الانسانية اجتازت فيما يتعلق بتطور أصواتها ، ثلاث مراحل : « مرحلة الصراخ » التى كانت فيها أصوات اللغة شبيهة بأصوات الحيوان والأشـياء ومظاهر الطبيعية ؛ ثم « مرحلة المـد » وفيها ظهرت أصـوات اللين فى اللغـة الانسانية ؛ ثم « مرحلة المقاطع » وفيها ظهرت الأصوات الساكنة (٤) .

ومن أهم الأدلة التى يعتمدون عليها فى تأييد هذه النظرية أن

---

(١) انظر صفحات ١٢٩ ، ١٣٢ وآخر ص ١٤٢ وأول ص ١٤٣ .

(٢) انظر صفحة ١٠٤ ، ١٠٥ .

(٣) انظر صفحتى ١٤٩ ، ١٥٠ .

(٤) انظر صفحتى ١١١ ، ١١٢ .

المراحل التى تذهب اليها بصدد التطور الصوتى فى اللغة الانسانية تتفق مع المراحل التى يجتازها الطفل فى هذه السبيل . فقد ظهر مما تقدم أن أول أصوات تظهر لدى الطفل هى الأصوات المبهمة ، ثم تتلوها أصوات اللين ، وأن الأصوات ذات المقاطع لا تكثر فى لغته الا فى « مرحلة التمرينات النطقية » (١) .

٤ ـ تقدم أن معظم العلماء يذهبون الى أن اللغة الانسانية قد بدأت بألفاظ دالة على معان جزئية ، وأن الألفاظ الدالة على المعانى الكلية لم تظهر الا بعد ارتقاء اللغة ونهضة التفكير الانسانى (٢) .

ومن أهم الأدلة التى يعتمدون فى تأييد نظريتهم أنها تتفق مع مراحل التطور اللغوى عند الطفل . فقد تبين مما تقدم أن أول كلمات تظهر عند الطفل هى أسماء الذوات الحسية ، ثم تظهر بعدها الكلمات الدالة على معان كلية (٣) .

٥ ـ تقدم أن بعض علماء اللغة يذهبون الى أن الصفة هى أول ما ظهر فى الكلام الانسانى ، ثم ظهرت أسماء الذوات ثم الأفعال ، واختتمت مراحل الارتقاء بظهور الحروف (٤) .

ومما يعتمد عليه هؤلاء العلماء فى تأييد نظريتهم موضوع التطور اللغوى عند الطفل . غير أن هذا التطور لا يؤيدهم فيما يتعلق بأسبقية الصفات على أسماء الذوات ، فقد ظهر مما تقدم أن أسماء الذوات هى أول ما يظهر فى لغة الطفل ثم تتلوها الأفعال والصفات (٥) .

ولذلك يعتمدون فى هذه النقطة على أمور تتعلق بأصول الكلمات

---

(١) انظر ص ١٢٩ ، وما تحيل عليه ، وانظر كذلك الخاصة الرابعة من خواص الأصوات اللغوية للطفل فى مرحلة التقليد بصفحة ١٣٦ .

(٢) انظر آخر ص ١١٢ وأول ١١٣ وما تحيل عليه التعليقات .

(٣) انظر آخر صفحة ١٤٧ ـ ١٤٩ .

(٤) انظر آخر صفحة ١١٣ وصفحة ١١٤ .

(٥) انظر آخر صفحة ١٤٧ ـ ١٤٩ .

فى اللغات الهنـدية ـ الأوربية كما سبقت الاشـارة الى ذلك (١) . ويرون من جهة أخرى أن أسـبقية الأسماء على الصفات فى الطفولة ليست عامة عند جميع الأطفال ، بل ان بعضهم ليفتتح نطقه بكلمات دالة على صفات ، ولا تظهر لديه الأسماء الا فيما بعد . وفى ذلك يقول العـلامة بريير Preyer : « ليس صحيحا ما يذهب اليه كثير من الباحثين من أن ظهور الأسماء سابق لظهور الصفات عند جميع الأطفال. فقد لاحظت أن أول كلمة لفظها ابنى (وكانت سنه اذا ذاك ثلاثة وعشرين شهرا) كانت صفة ، فقد قالHess = chaud أى ساخن (للتعبير عن أن لبنه ساخن لا يستطيع شربه) ، ثم ظهرت لديه الأسماء بعد ذلك . وقد لاحظ العـلامة تين Taine وآخرون بعض ظواهر من هـذا القبيل (٢) .

٦ ـ تقدم أن العلامة شليجيل وأعضاء مدرسته يذهبون الى أن اللغات الانسانية الأولى كانت « عازلة » أى لا تتصرف فيها الكلمات ولا ترتبط فيها عناصر الجملة بعضها ببعض بروابط ملفوظة (٣) .

ومن الأدلة التى يعتمدون عليها فى تأييد نظريتهم تطور اللغة عند الطفل . فقد ظهر مما تقدم أن لغة الطفل تبدو فى أوائل مرحلة التقليد عارية من الصرف والاشتقاق والتنظيم وربط عنـاصر الجملة بعضها ببعض (٤) .

---

(١) انظر صفحة ١١٤ .

(٢) V. Ridot, op. cit., 84, 85

(٣) انظر صفحات ١١٥ ـ ١١٨ .

(٤) انظر صفحة ١٤٦ .

الباب الثانى

حيـــاة اللغـــة

يرجع أهم ما يعتور اللغة فى حياتها الى الأمور الآتية : تفرعها الى لهجات ولغات ؛ ونشأة فصائل وشعب لغوية من جراء هذا التفرع ؛ وصراع اللغة مع لغة أو لغات أخرى ؛ وتطور اللغة العام ؛ وتطورها من ناحية الأصوات ؛ وتطورها من ناحية الدلالة .

وسنعقد لكل موضوع من هذه الموضـــوعات الستة فصلا على حـــدة .

الفصل الأول

تفرع اللغة إلى لهجات ولغات[1]

- ١ -

انتشار اللغة وأسبابه

تختلف اللغات الانسانية فى مبلغ انتشارها اختلافا كبيرا . فمنها ما تتاح لها فرص مواتية ، فتنتشر فى مناطق واسعة من الأرض ، ويتكلم بها عدد كبير من الأمم الانسانية ، كما حدث للاتينية والعربية فى العصور القديمة والوسطى ، وللانجليزية والاسبانية والبرتغالية والفرنسية والألمانية والتركية فى العصور الحديثة . ومنها ما تسد أمامه المسالك ، فيقضى عليه أن يظل حبيسا فى منطقة ضيقة من الأرض وفئة قليلة من الناس ، كما حدث للأينو (٢) والبسكية (٣) واللتونية (٤) . ومنها ما يكون حاله وسطا بين هذا وذاك فلا تتسع مناطقه كل السعة ولا تضيق كل الضيق ، كما هو شأن الحبشية والفارسية .

هذا ولانتشار اللغة أسباب كثيرة يرجع أهمها الى ما يلى :

---

(١) يطلق على هذا المبحث أو على بعض نواحية اسم الدياليكتولوجيا Dialectologie وقد تقدم الكلام على موضوعه وأهميته ومبلغ عناية العلماء به فى صفحات ٧ ، ٦١ ، ٦٢ .

(٢) يتكلم بها سكان جزر هوكادو وسخالين وشكوتان (انظر الفصل الثانى من هذا الباب ، الفصيلة الثالثة ، رقم ٣) .

(٣) يتكلم بها الباسكيون الذين يقطنون جبال البرانس الغربية فى العدوتين الفرنسية والأسبانية (انظر رقم ١٢ من الفصيلة المشار اليها فى آخر التعليق السابق) .

(٤) يتكلم بها سكان ليتونيا أو لاتفيا الذين يبلغ عددهم نحو مليونين (انظر الفصل الثانى من هذا الباب ، الفصيلة الاولى رقم ٨) .

١ — أن تشتبك اللغة فى صراع مع لغة أو لغات أخرى ، وتقضى نواميس الصراع اللغوى التى سنتكلم عليها فى الفصل الثالث من هذا الباب ، أن يكتب لها النصر ، فتحتل مناطق اللغة أو اللغات المقهورة ، فيتسع بذلك مدى انتشارها ، وتدخل أمم جديدة فى عداد الناطقين بها : كما حدث للاتينية فى العصور القديمة اذ تغلبت على اللغات الأصلية لايطاليا واسبانيا والبرتغال وبلاد الجول Le Gaule (فرنسا وما اليها) والألب الوسطى والاليريا Illyrie (١) ، فأصبحت لغة الحديث والكتابة فى منطقة واسعة فى القسم الجنوبى الغربى من أوروبا ، بعد أن كانت قديما مقصورة على منطقة ضيقة وسط ايطاليا ، هى منطقة اللاتيوم Latium ؛ وكما حدث للغة العربية اذ تغلبت على كثير من اللغات السامية الأخرى وعلى اللغات القبطية ، والبربرية ، والكوشتية ، حتى بلغ الآن عدد الناطقين بها نحو مائة مليون ينتمون الى نحو خمس عشرة أمة ، بعد أن كانوا قديما لا يتجاوزون بضعة آلاف يقطنون منطقة ضيقة فى الجنوب الغربى من بلاد العرب ؛ وكما حدث للألمانية اذ طغت على مساحة واسعة من المناطق المجاورة لها بأوربا الوسطى بألمانيا ، وسويسرا ، وتشيكوسلوفاكيا ، وبولونيا ، والنمسا ... الخ ، وقضت على لهجاتها الأولى ، فأصبحت الآن لغة الحديث والكتابة لنحو ١٠٠ مليون من سكان أوربا ، بعد أن كانت قديما مقصورة على بعض المقاطعات الألمانية ؛ وكما حدث للفرنسية اذ انتشرت فى قسم من سويسرا وبلجيكا ، وللايطالية اذ انتشرت فى قسم من سويسرا (٢) .

٢ — أن ينتشر أفراد شعب ما — على أثر هجرة أو استعمار — فى مناطق جديدة بعيدة عن أوطانهم الأولى ، وتتكون من سلالتهم بهذه المناطق أمة أو أمم متميزة كثيرة السكان ، فيتسع بذلك مدى انتشار لغتهم ، وتتعدد الجماعات الناطقة بها ويكثر أفرادها . والأمثلة على ذلك كثيرة فى العصور الحديثة . فقد نجم عن استعمار الانجليز

---

(١) هذا هو الاسم القديم لالبانيا . — هذا ولم تتغلب اللاتينية الا على بعض أطراف من البلاد الألبانية ، أذ لا تزال ألبانيا محتفظة بلغتها ومميزاتها .

(٢) انظر الفصل الثالث من هذا الباب .

السكسون لأمريكا الشمالية واستراليا ونيوزيلندا وجنوب افريقيا (١) أن انتشرت الانجليزية فى هذه المناطق الشاسعة ، فبلغ عدد الناطقين بها نحو ثلثمائة مليون موزعين على مختلف قارات الأرض ، بعد أن كانت قديما محصـــورة فى منطقة ضـــيقة من الجزر البريطانية . ونجم عن الاستعمار الاسبانى فى الدنيا الجديدة أن أصبحت الاسبانية لغة بلاد المكسيك وجزر الفلبين وجميع دول أمريكا الوسطى وأمريكا الجنوبية(٢) ما عدا البرازيل ، فبلغ عـــدد الناطقين بها نحو مائة وخمسين مليونا ينتمون الى نحو خمس عشرة أمة ، بعد أن كانت محصورة فى منطقة ضيقة فى الجنوب الغربى من أوربا . ونجم عن الاستعمار البرتغالى فى الدنيا الجديدة وافريقيا والأوقيانوســية أن أصبحت البرتغالية لغــة سكان البرازيل بأمريكا الجنــوبية ، وسكان المســتعمرات البرتغالية بافريقيا وجزر المحيط الهندى ، فبلغ عدد الناطقين بها نحو مائة مليون ينتمون الى عدة أمم ، بعد أن كانت محصورة فى منطقة ضيقة من بلاد البرتغال نفسها . وقد نجم عن هجرة الفرنسيين الى قسم من كندا أن أصبحت الفرنسية لغة لهذا القسم .

٣ ـ أن يتاح لجماعة ما أسباب مواتية للنمو الطبيعى فى أوطانها الأصلية نفســها ، فيأخذ عدد أفرادها وطوائفها فى الزيادة المطردة ،

---

(١) يتكلم كذلك فى جنوب أفريقيا بلغة تســـمى الأفريكانية ، وهى منحدرة من الهولندية التى كان يتكلم بها الهولنديون (وقد كانوا أول من أقام فى مستعمرة الكاب) ومن اللغة الفرنسية التى كان يتحدث بها المهاجرون « الهوجنوت » الذين قدموا فيما بعد الى الكاب . وتعد الأفريكانية احدى اللغتين الرسميتين فى الاتحاد . أما الثانية فهى اللغة الانجليزية . ويتخاطب بالأفريكانية معظم أهل جنوب أفريقيا بطلاقة . ويتكلم كذلك بعض قبائل من السكان الأصليين لجنوب أفريقيا اللغة البنطوية (انظر رقم ٢٨ من الفصيلة الثالثة فى الفصل الثانى من هذا الباب) .

(٢) يتكلم كذلك فى بعض جمهوريات أمريكا الجنوبية بلهجات منحدرة من لغات السكان الأصليين . ويبدو هذا على الأخص فى بارجواى فان ٩٥٪ من أهلها لا يزالون الى الآن يتكلمون لغة « جارانى » وهى لهجة شعوب جارانى احدى شعوب السكان الأصليين لهذه القارة ، على الرغم من أن اللغة الرسمية هناك هى الأسبانية . وقد أقامت شعوب جارانى قبل قدوم الأوربيين امبراطورية كبيرة اسمها (توبى جارانى) فى المنطقة التى تضم الآن بارجواى والبرازيل وأجزاء من الأرجنتين . (انظر فى ذلك تحقيقا منشورا بجريدة الاهرام عدد ٦٠/٤/١٩) .

وتنشط حركة العمران فى بلادها ، فتكثر فيها المدن والقرى ، وتتعدد الأقاليم والمناطق ، فيتسع تبعا لذلك نطاق لغتها ومدى انتشارها ، كما حدث لليابانية والفرنسية والايطالية . فبفضل هذا العامل بلغ عدد الناطقين باليابانية ما يزيد على ٧٠ مليونا (١) ، وبفضله كذلك مع مساعدة العاملين السابقين ، بلغ عدد الناطقين بالفرنسية نحو ٧٠ مليونا (٢) ، وبالايطالية نحو ٤٥ مليونا (٣) ، وبفضل هذا العامل مع مساعدة العامل الثانى من العوامل السابقة بلغ عدد الناطقين بالتركية نحو سبعين مليونا (٤) .

— ٢ —

تفرع اللغة الى لهجات ولغات نتيجة لازمة لسعة انتشارها

متى انتشرت اللغة فى مناطق واسعة من الأرض تحت تأثير عامل أو أكثر من العوامل السابق ذكرها ، وتكلم بها جماعات كثيرة العدد وطوائف مختلفة من الناس ، استحال عليها الاحتفاظ بوحدتها الأولى أمدا طويلا . فلا تلبث أن تنشعب الى لهجات ، وتسلك كل لهجة من هذه اللهجات فى سبيل تطورها منهجا يختلف عن منهج غيرها . ولا تنفك مسافة الخلف تتسع بينها وبين أخواتها حتى تصبح لغة متميزة مستقلة

---

(١) يدل آخر تعداد رسمى قبل الحرب الأخيرة على أن عدد الشعب اليابانى بلغ ٣٠٨ ، ١١٤ ، ٧٣ ، أما عدد سكان الامبراطورية اليابانية فكان يبلغ ١٠١ ، ١٢٦ ، ١٠٥ .

(٢) منهم بفرنسا نحو ٤٥ مليونا والباقى ببلجيكا وسويسرا وكندا والمستعمرات الفرنسية .

(٣) معظمهم بايطاليا نفسها والباقى بسويسرا والمستعمرات الايطالية .

(٤) نحو عشرين مليونا فى تركيا . وخمسة وثلاثين مليونا فى التركستان الشرقية والغربية . وستة ملايين فى أذربيجان ، وثلاثة ملايين قبائل التركمان وأربك Orbak فى أفغانستان ، ومليونين فى قزن ، ومليون ونصف فى ايدل ـ أورال ، ومائتى ألف قبيلة قاشقاى بايران وثمانين ألفا فى القرم . ـ فمنطقة اللغة التركية تمتد من جبال الطاى الى الأناضول . ـ وجميع أجزاء هذه المنطقة جمهوريات شيوعية ماعدا تركيا والقسم الجنوبى من أذربيجان وهو تابع لايران وقبيلة قاشقاى فى ايران وقبائل التركمان وأربك فى أفغانستان .

غير مفهومة الا لأهلها . وبذلك يتولد عن اللغة الأولى فصيلة أو شعبة من اللغات يختلف أفرادها بعضها عن بعض فى كثير من الوجوه ، ولكنها تظل مع ذلك متفقة فى وجوه أخرى ، اذ يترك الأصل الأول فى كل منها آثارا تنطق بما بينها من صلات قرابة ولحمة نسب لغوى . وكثيرا ما يبقى الأصل الأول مدة مالغة أدب وكتابة بين الشعوب الناطقة باللغات المتفرعة منه ، ولكنه لا يلبث أن يتنحى عن ذلك بعد أن يكتمل نمـو هذه اللغات .

ولهذا القانون خضعت اللغات الانســانية من مبدأ نشأتها الى العصر الحاضر .

فاللغة « الهندية ــ الأوربية » الأولى قد انشــعبت فى ضحى الانسانية الى مجموعات كثيرة ، وكل مجموعة منها تفرعت الى عدة طوائف ، وكل طائفة منها انقسمت الى شعب ، وكل شعبة الى لغات ... وهكذا دواليك (١) . ومثل هذا حدث للغة « السامية ــ الحامية » الأولى (٢) ولجميع الفصائل اللغوية الأخرى (٣) .

وقد شهدت عصورنا التاريخية نفسها كثيرا من آثار هذا القانون . فاللغة اللاتينية ، وهى احدى لغات الفرع الايطالى المنشعب من الهندية ــ الأوربية ، قد أخذت هى نفسها ، فى أواخر العصور القديمة وفى العصور الوسطى ، تنشعب الى عدد كبير من اللهجات ، وأخذت كل لهجة من هذه اللهجات تسلك فى سبيل تطورها منهجا يختلف عن منهج أخواتها حتى انفصلت عنها انفصالا تاما ، وأصبحت لغة متميزة مستقلة غير مفهومة الا لأهلها . وقد بقيت اللاتينية مدة مالغة أدب وكتابة بين الشعوب الناطقة باللغات المتفرعة منها (الفرنسية ، الايطالية ، الاسبانية ، والبرتغالية ، لغة رومانيا ...) ، ولكنها لم تلبث أن تنحت عن ذلك بعد أن اكتمل نمو هذه اللغات .

---

(١) انظر الفصيلة الأولى فى الفصل الثانى من هذا الباب .

(٢) النظر الفصيلة الثانية فى الفصل الثانى من هذا الباب .

(٣) انظر الفصيلة الثالثة فى الفصل الثانى من هذا الباب .

والعصر الحاضر نفسه يشهد كثيرا من آثار هذا القانون . فلانتشار اللغة الاسبانية فى مناطق واسعة من الأرض ، ولاختلاف الطوائف المتكلمة بها ، أخذت تفقد وحدتها ، فانشعبت عنها فى أمريكا الجنوبية لهجات كثيرة تختلف كل منها عن الاسبانية الأصلية اختلافا غير يسير فى كلماتها وأصواتها ، بل ان بعض هذه اللهجات أخذ يختلف عن الاسبانية الأصلية فى القواعد نفسها (١) . ومثل هذا حدث بين البرتغالية فى البرتغال والبرتغالية فى البرازيل ، فقد وصل الخلاف بينهما الى القواعد نفسها بل الى شكل الرسم كذلك (٢) . وهذا هو ما يحدث الآن للانجليزية والألمانية . فقد أخذت انجليزية الولايات المتحدة بأمريكا تختلف عن انجليزية الجزر البريطانية فى كثير من المفردات وأساليب النطق (٣) . وأخذت ألمانية سويسرا تبتعد عن أصلها ويزداد تأثرها بجارتها الفرنسية حتى توشك أن تكون لهجة متميزة عن ألمانية الألمان. وقد اتسعت مسافة الخلف بين اللهجات المنشعبة عن العربية حتى أصبح بعضها شبيه غريب عن بعض: فلهجة العراق ولهجات شمال أفريقيا فى العصر الحاضر مثلا يجد المصرى بعض الصعوبة فى فهمها. غير أنه قد خفف

---

(١) وقد ألف بعض العلماء كتبا مستقلة فى قواعد بعض هذه اللهجات ككتاب الأستاذ لنز Lenze فى قواعد لهجة شيلى .

(٢) جاء بجريدة الأهرام فى عددها الصادر يوم ١٩٤٤/٣/٢٩ بصدد اتفاق هجائى لغوى بين البرتغال والبرازيل ما يلى : « تلقت وزارة الخارجية من معالى محمود فخرى باشا وزير مصر المفوض فى أسبانيا والبرتغال تقريرا عن اتفاق هجائى لغوى عقد أخيرا بين الحكومتين البرتغالية والبرازيلية الغرض الأساسى منه تنظيم اللغة البرتغالية وتنقيحها، وذلك بتوحيد شكلها الهجائى ونطق كلماتها ... وكان الوصول الى وضع هذا الاتفاق بفضل مساعى كبار الكتاب فى البلدين . وهذا أول اتفاق من نوعه يعزز الفكرة التى ترمى الى توحيد الشعوب التى تتكلم لغة واحدة . وختم الوزير المفوض تقريره بالاعراب عن أمنية هى أن تعمل البلاد العربية على تنظيم لغتنا وتوحيد اصطلاحاتها وتعميم نطقها الصحيح بين مختلف الشعوب الناطقة بالضاد » .

(٣) حتى ان الانجليز ليسخرون من اللهجة الأمريكية ، كما يسخر الأمريكان من لهجة الانجليز ، ولا يكتم كل منهم سخريته هذه حتى فى أحرج الاوقات وأدعاها الى نسيان الفروق . يدل على ذلك ماجاء فى نشرة وزعتها القيادة الأمريكية على قواتها الموجودة فى بريطانيا فى أثناء الحرب الأخيرة اذ تقول مخاطبة أفراد هذه القوات : « ولا تسخر باللهجة البريطانية لأن لهجتك قد تكون مثار سخرهم ولكنهم أكثر أدبا من أن يظهروا لك ذلك » (جريدة الأهرام عدد ١٣ — ٧ — ١٩٤٢) .

من أثر هذا الانقسام اللغوى بقاء العربية الأولى بين هذه الشعوب لغة أدب وكتابة ودين .

والعامل الرئيسى فى تفرع اللغة الى لهجات ولغات هو سعة انتشارها . غير أن هذا العامل لا يؤدى الى ذلك بشكل مباشر ، بل يتيح الفرص لظهور عوامل أخرى تؤدى الى هذه النتيجة . وباستقراء هذه العوامل فى الماضى والحاضر يظهر أن أهمها يرجع الى الطوائف الآتية :

١ ـ عوامل اجتماعية سياسية تتعلق باستقلال المناطق التى انتشرت فيها اللغة بعضها عن بعض وضعف السلطان المركزى الذى كان يجمعها ويوثق ما بينها من علاقات . وذلك أن اتساع الدولة ، وكثرة المناطق التابعة لها ، واختلاف الشعوب الخاضعة لنفوذها ... كل ذلك يؤدى غالبا الى ضعف سلطانها المركزى ، وتفككها من الناحية السياسية ، وانقسامها الى دويلات أو دول مستقل بعضها عن بعض . ـ وغنى عن البيان أن انفصام الوحدة السياسية يؤدى الى انفصام الوحدة الفكرية واللغوية .

٢ ـ عوامل اجتماعية نفسية أدبية تتمثل فيما بين سكان المناطق المختلفة من فروق النظم الاجتماعية والعرف والتقاليد والعادات ومبلغ الثقافة ومناحى التفكير والوجدان . ـ فمن الواضح أن الاختلاف فى هذه الأمور يتردد صداه فى أداة التعبير .

٣ ـ عوامل جغرافية تتمثل فيما بين سكان المناطق المختلفة من فروق فى الجو وطبيعة البلاد وبيئتها وشكلها وموقعها ... وما الى ذلك ، وفيما يفصل كل منطقة عن غيرها من جبال وأنهار وبحار وبحيرات ... وهلم جرا . ـ فلا يخفى أن هذه الفروق والفواصل الطبيعية تؤدى ، عاجلا أو آجلا ، الى فروق وفواصل فى اللغات .

٤ ـ عوامل شعبية تتمثل فيما بين سكان المناطق المختلفة من

فروق فى الأجناس والفصائل الانسانية التى ينتمون اليها والأصول التى انحدروا منها . — فمن الواضح أن لهذه الفروق آثارا بليغة فى تفرع اللغة الواحدة الى لهجات ولغات .

٥ — عوامل جسمية فيزيولوجية تتمثل فيما بين سكان المناطق المختلفة من فروق فى التكوين الطبيعى لأعضاء النطق (١) . — فمن المحال ، مع فروق كهذه ، أن تظل اللغة محتفظة بوحدتها الأولى أمدا طويلا .

فانقسام المتكلمين باللغة الواحدة تحت تأثير هذه العوامل الى جماعات متميزة ، واختلاف هذه الجماعات بعضها عن بعض فى شئونها السياسية والاجتماعية ، وفى خواصها الشعبية والجسمية والنفسية ، وفيما يحيط بها من ظروف طبيعية وجغرافية ، كل ذلك وما اليه يوجه اللغة عند كل جماعة منها وجهة تختلف عن وجهتها عند غيرها ، ويرسم لتطورها فى النواحى الصوتية والدلالية وغيرها منهجا يختلف عن منهج أخواتها ، فتتعدد مناهج التطور اللغوى حسب تعدد الجماعات ، ولا تنفك مسافة الخلف تتسع بين اللهجات الناشئة عن هذا التعدد ، حتى تصبح كل لهجة منها لغة متميزة مستقلة غير مفهومة الا لأهلها .

ويبدأ الخلاف بين هذه اللهجات من ناحيتين : احداهما الناحية المتعلقة بالصوت ، فتختلف الأصوات (الحروف) التى تتألف منها الكلمة الواحدة ، وتختلف طريقة النطق بها تبعا لاختلاف اللهجات ؛ والأخرى الناحية المتعلقة بدلالة المفردات ، فتختلف معانى بعض الكلمات باختلاف الجماعات الناطقة بها .

أما القواعد La Grammaire سواء فى ذلك مايتعلق منها بالبنية

---

(١) ترجع هذه الفروق الى عوامل كثيرة منها العاملان الجغرافى والشعبى المشار اليهما آنفا تحت رقمى ٣ ، ٤ .

(المورفولوجيا) (١) أو ما يتعلق بالتنظيم (السنتكس) (٢) ، فلا ينالها فى المبدأ كثير من التغيير : واليك مثلا اللهجات العامية التى انشعبت عن العربية بالعراق والشام والحجاز واليمن وبلاد المغرب ومصر والسودان ، فانه لا يوجد بينها الا فروق ضئيلة فى نظام تكوين الجملة وتغيير البنية وقواعد الاشتقاق والجمع والتأنيث والوصف والنسب والتصغير ... وما الى ذلك ، على حين أن مسافة الخلف بينها فى الناحيتين الصوتية والدلالية قد بلغت حدا جعل بعضها شبه غريب على بعض كما سبقت الاشارة الى ذلك (٣) .

ولكن هذه الوحدة فى القواعد لا تقوى على مقاومة عوامل التفريق الا لأجل معلوم ، ثم تهن قواها وتستسلم لهذه العوامل فيصيبها منها ما أصاب الصوت والدلالة من قبل . وحينئذ تقوى وجوه الخلاف بين اللهجات ، وتبدأ مرحلة تحولها الى لغات مستقلة ، ولا تنفك تذهب حثيثا فى هذا الطريق حتى تبلغ غايته .

غير أنه يبقى بها ، على الرغم من هذا كله ، وجوه شبه قريبة أو بعيدة فى أصول المفردات وبعض مظاهر القواعد العامة . واليك مثلا طوائف اللغات الهندية — الأوربية ، فعلى الرغم من استحكام ما بينها من حلقات الخلاف ، فان الأصل الأول قد ترك فى كل منها آثارا تنطق بما بينها من صلات قرابة وتشهد بتفرعها عن أرومة واحدة .

ومن هذا يتبين أن اللغة لا تموت حتف أنفها . فما لم تصرعها لغة أخرى على الوجوه التى سيأتى شرحها فى الفصل الثالث ، لايتطرق اليها الفناء . وخلودها هذا يبدو فى أحد مظهرين : فأحيانا تحتفظ بوحدتها ، وذلك اذا ظلت حبيسة على منطقة ضيقة وفئة قليلة ، وأحيانا

---

(١) انظر ص ٨ رقم ب .

(٢) انظر ص ٩ رقم ج .

(٣) انظر آخر ١٧٤ وأول ١٧٥ .

تتشعب الى لهجات ولغات ، ولذلك اذا انتشرت فى مساحات شاسعة من الأرض وتكلم بها طوائف مختلفات من الناس .

ومن ثم يظهر كذلك خطأ من يحاولون علاج تعدد اللغات بانشاء لغة عالمية (اسبرانتو Espéranto) يتحدث بها الناس من مختلف الأمم والعصور . وذلك أن هذه اللغة الصناعية على فرض امكان اختراعها والزام الناس باستخدامها (١) ، لا تلبث بعد تداولها على الألسنة أن تخضع لجميع القوانين التى تخضع لها اللغات الطبيعية والتى خضعت لها أول لغة تكلم بها الانسان : فمادام أفراد الأمم الناطقة بها مختلفين فى أصولهم الشعبية . وفى التكوين الطبيعى لجسومهم وأعضاء نطقهم، وفى الظروف الجغرافية والطبيعية والاجتماعية المحيطة بهم ، وفى قواهم الادراكية والوجدانية . وما دامت سنة الطبيعة تقتضى أن يختلف كل جيل عن الجيل السابق له فى كل هذه الأمور ، فلا بد أن تختلف هذه اللغة الصناعية فى كلماتها وأصواتها ودلالاتها وقواعدها ... باختلاف العصور ، وباختلاف الشعوب الناطقة بها ، وتنقسم الى لهجات تختلف كل واحدة منها عما عداها ، وتتفرع منها لهجات عامية ، وتتسع الهوة بين لهجاتها قليلا قليلا حتى تنفصل كل لهجة منها عما عداها انفصالا تاما وتصبح غير مفهومة الا لأهلها ، شأنها فى ذلك شأن غيرها من اللغات . وهكذا لا يمضى زمن قصير أو طويل حتى تتولد من هذا العلاج المشكلة نفسها التى يحاولون القضاء عليها : « ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ، ولا يزالون مختلفين ، الا من رحم ربك ، ولذلك خلقهم ... » ، « ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم ، ان فى ذلك لآيات للعالمين (٢) » .

---

(١) هذه الأمنية ، وان كانت ممكنة نظريا ، يحول دون تحقيقها عمليا صعوبات جمة .

(٢) بكسر اللام على رواية حفص عن عاصم . أى العارفين المتأملين .

- ٣ -

اللهجات المحلية وصراعها بعضها مع بعض(١)

يترتب على القانون السابق أن تختلف اللهجات فى الأمة الواحدة تبعا لاختلاف أقاليمها وما يحيط بكل اقليم منها من ظروف وما يمتاز به أهله من خصائص . وقد جرت عادة علماء اللغة أن يطلقوا على هذا النوع من اللهجات اسم اللهجات المحلية Dialectes Locaux . وتختلف هذه اللهجات بعضها عن بعض اختلافا كبيرا فى المساحة التى يشغلها كل منها : فمنها ما يشغل مقاطعة كاملة من مقاطعات الدولة ؛ ومنها ماتضيق منطقته فلا تشمل الا بضع قرى متقاربة ؛ ومنها مايكون وسطا بين هذا وذاك . وكثيرا ما تختلف هذه المناطق اللغوية فى حدودها عن المناطق المصطلح عليها فى التقسيم الادارى والسياسى . فقد تقسم القرى التى تتألف منها منطقة لغوية واحدة بين محافظتين أو أكثر ، وقد يجتمع فى محافظة واحدة أو مركز واحد عدد كبير من المناطق اللغوية . ولدينا نحن المصريين على ذلك شواهد كثيرة فى مختلف أقاليم الصعيد والوجه البحرى .

وتعمل كل لهجة من اللهجات المحلية على الاحتفاظ بشخصيتها وكيانها ، فلا تدخر وسعا فى محاربة عوامل الابتداع والتغيير فى داخل منطقتها ، ولا تألو جهدا فى درء ما يوجه اليها من خارجها من هجمات.

أما محاربة عوامل الابتداع فى داخل منطقتها فتتم بفضل العلاقات الوثيقة التى تربط الناطقين بها بعضهم ببعض وتربطهم ببيئتهم ومجتمعهم. وذلك أنه بقوة هذه العلاقات يقوى الضمير الجمعى ، وتتأكد سيطرة النظم الاجتماعية ، ويعظم نفوذها ، ويشتد بطشها بالمعتدين . فكل محاولة فردية للخروج على النظام اللغوى تلقى فى مجتمع قوى كهذا

(١) عرضنا هنا لموضوع الصراع بين لهجات اللغة الواحدة لعلاقته الوثيقة بموضوع هذا الفصل وهو التفرع . أما الصراع بين اللغات المختلفة فهو مستقل عن موضوع التفرع. ولذلك سنعقد له فصلا على حدة (انظر الفصل الثالث) .

مقاومة عنيفة تكفل القضاء عليها فى مهدها . وبذلك تتقى اللهجة ماعسى أن يوجه اليهـا فى داخل منطقتها من محـاولات الابتداع وعوامل التغيير .

وأما حمايتها من اللهجات المجاورة لها فيرجع الفضل فيهـا الى ضعف الصـلات التى تربط أهلها بمجاوريهم ، وقلة فرص احتكاكهم بهم ، وما يبدونه فى العادة من نزوع الى العزلة والاستقلال . — ويظهر هذا على الأخص فى البيئات الزراعية التى تقل فيها وسائل المواصلات ، وتضعف حركة انتقال الأفراد ، ويكاد سكان كل منطقة يعيشون فى معزل عن سكان المناطق الأخرى . — حقا ان تزوج بعض الرجال فى هذه البيئات الى نساء من غير مناطقهم، وهجرة بعض الأفراد من بلادهم الى البلاد المجاورة لها ، كل ذلك وما اليه يجلب الى البلد عناصر أجنبية عنه . ولكن قلة عدد من يفد من الأجانب عن هذه الطرق وما شاكلها ، وانتماءهم فى الأصل الى مناطق لغوية مختلفة ، ودخولهم البلد فرادى وفى أزمنة متباعدة ، وعدم وجود رابطة تربطهم بعضهم ببعض ، واقامة كل منهم بين مجموعة من الناس تختلف لهجة أفرادها عن لهجته، ومايبديه أهل المنطقة حيال لهجاتهم من سخرية وازدراء ، وصعوبة فهم حديثهم أحيانا ... كل ذلك وما اليه لا يحول دون تأثر لهجة البلد بلهجاتهم فحسب ، بل من شأنه كذلك أن يحملهم على محاكاة لسان المنطقة التى يقيمون فيها . — وأما البيئات التجارية والصناعية والساحلية التى يكثر فى العادة احتكاك أهلها بغيرهم ، فيرجع الفضل فى حماية لهجاتها الى قلة عدد الأجانب بالنسبة الى سكانها الأصليين ، وانتمائهم الى مناطق لغوية مختلفة ، وعدم وجود رابطة تربطهم بعضهم ببعض ، وقصر مدة اقامتهم ، لأن معظمهم يفد الى البلد فى شئون لا تقتضيه الا اقامة ساعات أو أيام .

غير أنه قد يتاح أحيانا للهجة محلية فرص للاحتكاك الدائم بلهجة أخرى من أخواتها . وحينئذ تشتبك اللهجتان فى صراع أهلى لايختلف

كثيرا فى مظاهره وطرقه عن الصراع الذى ينشب بين لغتين مختلفتين والذى سنعالجه فى الفصل الثالث .

وينتهى هذا الصراع الى احدى نتيجتين : فأحيانا لا تكاد احدى اللهجتين تؤثر فى الأخرى ، وذلك اذا تساوى أهل المنطقتين فى الثقافة والقوة والنفوذ ، وأحيانا تتأثر احداهما بالأخرى ، وذلك اذ كانت أقل منها فى مظهر من المظاهر السابقة .

وتختلف درجة التأثر باختلاف الأحوال . فأحيانا يكون يسيرا لا ينال الا بعض مظاهر ، وأحيانا يكون عميقا ينتهى بالقضاء على اللهجة المغلوبة .

فيكون يسيرا اذا لم تكن الفوارق كبيرة بين أهل المنطقتين فى الثقافة والنفوذ والسلطان . ويبدو هذا فى تأثر لهجة القرية بلهجة المدينة التى تجاورها أو يكون بها مقر المحافظة أو المركز ، أو فى تأثرها بلهجة البلد الذى يتخذ مقرا لنقطة البوليس أو للعمدية أو التى يقام فيها السوق الأسبوعى ... وهلم جرا . ففى هذه الحالات وما اليها يقف التأثر عند حد اقتباس الكلمات والتراكيب وطرق استخدام المفردات فى معانيها الحقيقية والمجازية ... وما الى ذلك . أما الأساليب الصوتية وطريقة النطق بالحروف والكلمات فتظل بمنجاة من التأثر والتحريف . ومن ثم نرى أن القرى المحيطة بقاعدة محافظة من محافظات مصر قد تقتبس عن هذه القاعدة كثيرا من ألفاظها وتراكيبها ومدلولات مفرداتها .. ولكن لهجتها تظل سليمة فيما يتعلق بالأصوات وطريقة النطق بالكلمات . فالقرى المصرية التى تقلب فى لهجتها القاف العربية جيما غير معطشة (جلنا = قلنا) قد تجاور مدينة تختلف عنها فى هذا الأسلوب الصوتى (بأن تقلب فيها مثلا القاف العربية همزة: ألنا = قلنا)، فتقتبس عنها كثيرا من مفرداتها وتراكيبها ودلالاتها وأساليبها ؛ ولكن تظل طريقتها الصوتية حيال القاف العربية بمأمن من التأثر بطريقة المدينة ، اللهم الا فى الكلمات التى تقتبسها منها .

واذا كانت الفوارق كبيرة بين أهل المنطقتين فى ناحية من النواحى السابق ذكرها ، فان التأثر يكون عميقا لدرجة تصل أحيانا الى القضاء على اللهجة المغلوبة . ويحدث هذا فى حالتين :

• (الحالة الأولى) أن تكون احدى المنطقتين خاضعة لسلطان المنطقة الأخرى . ففى هذه الحالة يكتب النصر للهجة المنطقة ذات السلطان ، على شريطة أن لا تقل عن المنطقة الأخرى حضارة وثقافة وآدابا . والأمثلة على ذلك كثيرة فى التاريخ القديم والحديث . فلهجة باريس ، حيث مقر الحكومة والسلطان ، قد قضت على كثير من لهجات المقاطعات الفرنسية التى خضعت لنفوذ باريس ، وكذلك فعلت لهجة لندن مع عدد كبير من اللهجات الانجليزية الأخرى ، ولهجة مدريد مع اللهجات الاسبانية ، ولهجة روما فى العصور القديمة مع أخواتها الايطالية ، ولهجة قريش قبيل الاسلام مع اللهجات العربية الأخرى ... وهلم جرا (١) .

(الحالة الثانية) أن تفوق احدى المنطقتين الأخرى فى ثقافتها وحضارتها وآداب لغتها . وفى هذه الحالة يكتب النصر للهجتها وان لم يكن لها سلطان سياسى على المنطقة الأخرى . ولذلك أخذت اللهجة السكسونية بألمانيا تطارد اللهجات الألمانية الأخرى منذ القرن السادس عشر الميلادى، أى قبل أن تتكون الدولة الألمانية الحديثة وقبل أن تظهر غلبة برلين (٢) ، وأخذت التوسكانية **Toscan** بايطاليا تقهر اللهجات الايطالية الأخرى منذ القرن الرابع عشر الميلادى ، أى قبل أن

---

(١) سنضرب بعض هذه الأمثلة فى الفصل الثالث بصدد صراع اللغات بعضها مع بعض . وذلك لأنها تصلح أمثلة للأمرين معا فاللغات العربية مثلا يصح اعتبار كل منها لغة مستقلة ، ويصح النظر اليها على أنها لهجات قد انشعبت عن لغة واحدة . وكذلك لهجة روما قديما مع اللهجات الايطالية ... وهلم جرا .

(٢) على أن برلين لم تكن مهد السكسونية ، بل انتقلت اليها كما انتقلت الى غيرها .

تتكون الدولة الايطالية الحديثة وقبل أن يظهر سلطان روما (١) ، وذلك بفضل ما كان لكل من السكسونية والتوسكانية من انتاج أدبى لايذكر بجانبه انتاج أخواتها التى اشتبكت معها فى هذا الصراع .

وفى كلتا الحالتين السابقتين يختلف الصراع فى مدته وعنفه تبعا لمبلغ قرب اللهجتين احداهما من الأخرى ومبلغ ثقافة المنطقة المغلوبة . فيطول أمده ويشتد عنفه كلما كثرت وجوه الخلف بين اللهجتين أو قلت ثقافة الناطقين باللهجة المقهورة . فلهجة مدريد لم تقو بعد على التغلب على كثير من اللهجات الاسبانية الأخرى ، ولا تزال الى الآن تلقى مقاومة عنيفة من جانبها ؛ وذلك لتفشى الجهل والأمية بين الناطقين بهذه اللهجات . ولهذا السبب نفسه لم يتم بعد للهجة القاهرة التغلب على لهجات المناطق المصرية المجاورة لها . — وفى القسم الفرنسى اللهجة من سويسرا لا تزال اللهجات المحلية تقاوم الفرنسية الفصحى فى المناطق الكاثوليكية (فاليه ، فريبورج ... Valais, Fribourg.) ، على حين أنه قد تم انقراض هـذه اللهجات أو كاد فى المنـاطق البروتستانتية (نيوشاتل ، جنيف ...) ؛ وذلك لأن المناطق البروتستانتية من هذا القسم أرقى ثقافة وعلما من المناطق الكاثوليكية وأقدم منها عهدا بالمدارس . ولسان باريس قد تغلب بسهولة على اللهجات التى كانت منتشرة فى اقليمى السين واللوار ، وذلك لقلة وجوه الخلف بينه وبينها ؛ على حين أنه لم يقو بعد على التغلب على لهجات جنوب فرنسا ولا يزال يلقى بها مقاومة عنيفة ، وذلك لكثرة الفروق التى تفصلها عنه .

هذا ، ويسير تغلب لهجة على أخرى على السنن نفسه الذى يسير عليه تغلب اللغات المختلفة بعضها على بعض والذى سنتكلم عليه فى الفصل الثالث . ففى المرحلة الأولى تقذف اللهجة الغالبة اللهجة الأخرى بطائفة كبيرة من مفرداتها ؛ فتوهن بذلك متنها الأصلى وتجرده من كثير من مقوماته . ولكن اللهجة المغلوبة تظل طوال هذه المرحلة محتفظة

---

(١) على أن روما لم تكن مهد الايطالية الحديثة ، بل انتقلت اليها كما انتقلت الى غيرها .

بمخارج حروفها وأساليبها فى نطق الكلمات ، فينطق أهل اللهجة المغلوبة بألفاظهم الأصلية وما انتقل اليهم من ألفاظ دخيلة طبقا لأسلوبهم الصوتى ومخارج حروفهم . حتى انهم ليستبدلون فى الكلمات الدخيلة بالحروف التى لايوجد لها نظير لديهم حروفا قريبة منها من حروف لهجتهم . — وفى المرحلة التالية تتسرب الى اللهجة المغلوبة أصوات اللهجة الغالبة ومخارج حروفها وأساليبها فى نطق الكلمات ، فينطق أهل اللهجة المغلوبة بألفاظهم الأصيلة وماانتقل اليهم من ألفاظ دخيلة من المخارج نفسها وبالطريقة نفسها التى يسير عليها النطق فى اللهجة الغالبة ، فيزداد بذلك انحلال اللهجة المغلوبة ويؤذن نجمها بالأفول . ولكنها تظل طوال هذه المرحلة مستبسلة فى الدفاع عن قواعدها الصرفية والتنظيمية (المورفولوجيا والسنتكس) وفى مقاومة قواعد اللهجة الغالبة ، ان كانت تختلف عنها فى القواعد ، (١) فيركب أهلها جملهم ويصرفون كلماتهم وفق أساليبهم الأولى . — وفى المرحلة الأخيرة تضعف هذه المقاومة شيئا فشيئا ، فتأخذ قواعد اللهجة الغالبة فى الاستيلاء على الألسنة حتى يتم لها الظفر ، فيتم بذلك الاجهاز على اللهجة المغلوبة . غير أنها كثيرا ما تترك فى ألسنة أهلها بعض آثار من قواعدها القديمة . فكثير من سكان جنوب فرنسا لا يزالون يؤلفون عباراتهم فى صورة تختلف عن قواعد الفرنسية الفصحى ، ولكنها تتفق مع قواعد لهجتهم المندثرة .

— ٤ —
نشأة لغة الدولة أو لغة الكتابة

واللهجة التى يتاح لها التغلب فى أمة ما على بقية أخواتها ، أو على معظمها ، تصبح عاجلا أو آجلا « لغة الدولة » أو ما يطلق عليه اسم « اللغة القومية » أو « اللغة الفصحى » أو « لغة الكتابة » . فتعلم

---

(١) لا يكون الاختلاف فى العادة كبيرا فى القواعد بين اللهجات المنشعبة عن لغة واحدة قبل أن يستقل بعضها عن بعض وتصبح لغات منفصلة كما سبقت الاشارة الى ذلك فى آخر ص ١٧٦ وأول ١٧٧ .

وحدها فى مدارس الدولة ، ويجرى بها تدريس المواد المختلفة فى معاهدها، وتؤلف بها الكتب والصحف والمجلات، وتصدر بها المكاتبات الرسمية وغيرها ، وتستخدم فى مختلف مناحى الوعظ والخطابة ، وتلقى بها الأوامر ويجرى بها التخاطب فى الجيش ... هلم جرا (١) .

فقد ترتب على تغلب لهجة باريس على معظم أخواتها أن أصبحت « لغة الدولة » بفرنسا ، وعليها وحدها يطلق الآن اسم اللغة الفرنسية . وهذا هو ما حدث عقب تغلب لهجة لندن بانجلترا ومدريد بأسبانيا واللهجة السكسونية بألمانيا والتوسكانية بايطاليا ، فقد أصبحت هذه اللهجات هى اللغات الرسمية ، وعليها وحدها يطلق الآن اسم اللغات الانجليزية والاسبانية والألمانية والايطالية .

وتسلك لغات الكتابة فى تطورها طريقا خاصا تختلف عن الطريق التى تسلكها لغات المحادثة ، كما سيظهر ذلك فى الفقرة التالية وفى الفصل الرابع . ولذلك نرى أن لغة الكتابة ، مع اتفاقها فى المبدأ مع لهجة المحادثة الغالبة ، لا تلبث فيما بعد أن تختلف عنها فى كثير من الشئون . ولا تنفك مسافة الخلف تتسع بينهما حتى تستقل كل منهما عن الأخرى . فلغة الكتابة بفرنسا تختلف الآن عن لهجة المحادثة الباريسية اختلافا غير يسير ، وكذلك الشأن فى انجلترا ، فقد بعدت اللهجة الدارجة لأهل لندن بعدا كبيرا عن اللغة الفصحى ، حتى ان بعض العلماء قد ألف فيها معجمات خاصة (٢) .

---

(١) قد لا يكون للأمة أية لغة قومية مستقلة ، كما هو شأن النمسا . فان لغتها هى الألمانية . وقد يكون للدولة أكثر من لغة رسمية واحدة ، كما هو شأن سويسرا . فان بها ثلاث لغات رسمية : الألمانية والفرنسية والايطالية . — وقد تكون اللغة الرسمية ولغة الكتابة فى الأمة هى اللغة القديمة التى انشعبت منها لهجتها ، كما كان شأن اللاتينية بفرنسا وايطاليا واسبانيا والبرتغال ورومانيا ، وكما هو شأن اللغة العربية الآن بمصر والسودان وبلاد العرب وشمال أفريقيا .

(٢) من هؤلاء العلامة بارتروج أستاذ اللغات الانجليزية ، فقد أخرج منذ سنوات معجما للغة الانجليزية العامية بحث فيه بحثا علميا اللغة الدارجة لأهل لندن (انظر جريدة المصرى الصادرة فى ١٩٥٠/٥/٢١) .

- ٥ -

اختلاف مناحى الفصحى باختلاف فنون القول

لغة الآداب وخصائصها وأنواعها ، الشعر والنثر
وظيفتا اللغة : الدلالة والايحاء

كما تنشعب لغة المحادثة الى لهجات مختلفة تبعا لاختلاف الأقاليم وما يحيط بكل اقليم من ظروف وما يمتاز به من خصائص ، تنشعب كذلك لغة الكتابة أو اللغة الفصحى الى شعب مختلفة تبعا لاختلاف فنون القول التى تستخدم فيها ، وما يمتاز به كل فن منها : الشعر ، النثر الأدبى ، الخطابة ، القصة ، الرسالة ، التاريخ ، القانون ، تدوين العلوم ... الخ . وذلك أن كل فن من هذه الفنون يختلف عما عداه فى طبيعته وأغراضه البيانية ، ومناهج الاستدلال فيه ، ومقدار صلته بكل من الناحيتين الوجدانية والادراكية ، ومدى اقبال الجمهور عليه وأثره فى نفسه وتلاؤمه مع اتجاهاته وحاجاته ، ومبلغ نشاط المشتغلين به وما يخترعونه فيه من اصطلاحات ويدخلونه من أساليب ويقتبسونه عن اللغات الأجنبية من مفردات وأفكار ... وهلم جرا .

وغنى عن البيان أن الاختلاف فى هذه الأمور وما اليها يؤدى حتما الى اختلاف كل فن من الفنون السابق ذكرها عما عداه فى مفرداته وأساليبه ومعانيه وأفكاره وطريقة علاجه للحقائق ... وما الى ذلك . وقد تتسع مسافة الخلف بين هذه الفنون فتصبح لغة كل منها أشبه شىء بلغة مستقلة . وهذا هو المشاهد الآن فى كثير من اللغات الراقية . فبمجرد سماع عبارة من اللغة العربية أو الانجليزية أو الفرنسية أو غيرها من اللغات الراقية يستطاع بسهولة معرفة الفن الذى تتصل به . فعلى ضوء مفرداتها وأسلوبها ونظمها وتراكيبها وطريقة ابانتها عن الحقائق ... يستطاع بسهولة الحكم ان كانت شعرا أم خطابة أم كتابة رسائل أم مقالا صحفيا أم بحثا علميا ... وهلم جرا .

ومن أهم شعب اللغة الفصحى ما يسمونه لغة الأدب (Langue Littéraire) ، وهى التى تستخدم فى الأدب شعره ونثره .
وتمتاز هذه الشعبة عن أخواتها بأن مايتخذه غيرها وسيلة تتخذه هى غاية، أو توجه اليه على الأقل أكبر قسط من العناية . ففى جميع الشعب الأخرى (لغة العلوم ، لغة الفلسفة ، لغة التاريخ ...) يتخذ الكلام مجرد وسيلة للتعبير عن الحقائق . أما فى هذه الشعبة فيتخذ البيان نفسه غرضا فى ذاته ويوجه الى تجويده أكبر قسط من المجهود . فأهم ما يقام له وزن فى لغة الأدب هو جمال القول ، ورقة الأسلوب ، وحسن البيان ، ورصانة اللفظ ، وفصاحة الكلام ، وبلاغة التعبير ... وهلم جرا .

وتنقسم لغة الآداب نفسها الى فنون كثيرة أهمها الشعر وملحقاته، والنثر الأدبى ، والخطابة ، والقصة . ويختلف كل فن من هذه الفنون عن اخوته فى طبيعته ، وموضوعاته ، ومواطن استخدامه ، ومقدار صلته بالوجدان والادراك ، ومبلغ نشاط المشتغلين به ، وما يناله من تطور وتجديد ، وما يرمى اليه من أغراض ... الخ . وقد ترتب على ذلك أن كان لكل فن منها خصائصه اللغوية ومميزاته فى النظم والوزن ، والتأليف الموسيقى ، وجرس الألفاظ ، وتركيب الجمل ، وطريقة الاستدلال ، وشرح الحقائق ، ومنحى الأسلوب .

وأهم ما يمتاز به الشعر عن غيره أنه يتجه أولا وبالذات الى مخاطبة الوجدان والعواطف لا الادراك والتفكير ، وأن غرضه الأساسى هو الايحاء بالحقائق والاحساسات لاشرح المسائل وتقريبها الى الأذهان. ولذلك يظهر فيه تعمد الغموض والميل الى الابهام ، ويسيطر على أساليبه الخيال ، ويكثر فى عباراته التشبيه واستخدام الكلمات والعبارات فى غير ما وضعت له عن طريق الكناية والمجاز ، ويبدو فيه النفور من تحليل الحقائق وكراهة التعمق فى الشرح والاستدلال . أما نظم العبارات فى أوزان خاصة فهو مجرد شرط شكلى فى الشعر : فان جنح كلام منظوم الى الشرح والاستدلال والتعمق فى توضيح الحقائق ، وتغلبت فيه وجهة الدلالة على وجهة الايحاء ، فانه يصبح

مجرد نظم ولا يعد شعرا على الرغم من أوزانه وقوافيه ، كما هو الشأن فيما اشتهرت تسميته فى اللغة العربية باسم « المتون » .

- ٦ -

اختلاف اللهجات فى البلد الواحد باختلاف طبقات الناس وفئاتهم

« **اللهجات الاجتماعية** » Dialectes Sociaux

تنشعب أحيانا لغة المحادثة فى البلد الواحد أو المنطقة الواحدة الى لهجات مختلفة تبعا لاختلاف طبقات الناس وفئاتهم : فيكون ثم مثلا لهجة للطبقة الأريستوقراطية ، وأخرى للجنود ، وثالثة للبحارة ، ورابعة للرياضيين ، وخامسة للبرادين ، وسادسة للنجارين ... وهلم جرا . ويطلق المحدثون من علماء اللغة على هذا النوع من اللهجات اسم « اللهجات الاجتماعية » Dialectes Sociaux تمييزا لها عن «اللهجات المحلية» Dialectes Locaux التى كانت موضع حديثنا فى الفقرة الثالثة من هذا الفصل (١) .

ويؤدى الى نشأة هذه اللهجات ما يوجد بين طبقات الناس وفئاتهم من فروق فى الثقافة والتربية ، ومناحى التفكير والوجدان ، ومستوى المعيشة ، وحياة الأسرة ، والبيئة الاجتماعية ، والتقاليد والعادات ، وما تزاوله كل طبقة من أعمال وتضطلع به من وظائف ، والآثار العميقة التى تتركها كل وظيفة ومهنة فى عقلية المشتغلين بها ، وحاجة أفراد كل طبقة الى دقة التعبير وسرعته وانشاء مصطلحات خاصة بصدد الأمور التى يكثر ورودها فى حياتهم وتستأثر بقسط كبير من انتباههم ، وما يلجئون اليه من استخدام مفردات فى غير ما وضعت له أو قصرها على بعض مدلولاتها للتعبير عن أمور تتصل بصناعاتهم وأعمالهم .. وهلم جرا . فمن الواضح أن هذه الفوارق وما اليها من شأنها أن توجه اللهجة

---

(١) يرجع الفضل فى هاتين التسميتين الى العلامة بول باسى Paul Passy .

فى كل طبقة وجهــة تختلف عن وجهتها عند غيرها . فلا تلبث اللهجة العامة أن تنشعب الى لهجات تختلف كل منها عن أخواتها فى المفــردات وأساليب التعبير وتكوين الجمل ودلالة الألفاظ ... وما الى ذلك . وقد تذهب بعض اللهجات الاجتماعية بعيدا فى هذا لطريق ، فيشتد انحرافها عن الأصل الذى انشعبت منه ، وتتسع مسافة الخلف بينها وبين أخواتها، حتى تكاد تصبح لغة متميزة مستقلة غير مفهومة الا لأهلها ، كما هــو شأن اللهجات الفرنسية المستخدمة بين طبقات اللصوص والمجــرمين وبعض طبقات العمــال .

ويزداد فى العادة انحراف اللهجة الاجتماعية عن أخواتها كلمــا كثرت الفوارق بين الطبقة الناطقة بها وبقية الطبقات ، أو كانت حيــاة أهلها قائمة على مبدأ العزلة عن المجتمع أو على أساس الخروج عــلى نظمه وقوانينه . ولذلك كانت فى فرنسا لهجــات الطبقات الدنيا من العمال ، واللهجات السرية لجماعات المتصوفين والرهبــان ، ولهجات المجرمين واللصوص ومن اليهم ، من أكثر اللهجات انحرافا عن الأصل الذى انشعبت منه ، وبعدا عن المستوى العام لبقية اللهجات الاجتماعية الفرنسية . وكذلك الشأن فى انجلترا ، حتى لقد ألف فى لهجات المجرمين من الانجليز معجمات خاصة (١) .

ولا تظل اللهجات الاجتماعية جامدة على حالة واحدة ، بل تسير فى السبيل الارتقائى نفسه الذى تســير فيه اللهجات المحلية ، فيتســع نطاقها باتساع شئون الناطقين بها ومبلغ نشاطهم ، واحتكاكهم بالأجانب وبأهل الطبقات الأخرى من مواطنيهم ، وما يخترعونه من مصــطلحات ويتواضعون عليه من عبارات ويقتبســونه من اللغات الأجنبيــة من

(١) أخرج أريك بارتروج ، أستاذ اللغة الانجليزية ، معجما للغة المجرمين من الانجليز قضى فى وضعه خمس سنوات . ويقع المعجم فى ثمانمائة صفحة احتوت على جميع المصطلحات التى يستعملها اللصوص وقطاع الطريق والمجرمون الانجليز من القرن السادس عشر حتى العصر الحاضر ، وقد استعان بارتروج فى اخراج مؤلفه بالبحث فى ملفات القضايا الجنائية من عام ١٧٢٩ حتى أواخر النصف الاول من القرن الحالى ، كما استعان بكثيرين من قسس السجون وتردد على أمكنة اجتماعات المجرمين (انظر جريدة المصرى الصادرة فى ١٩٥٠/٥/٢١) .

مفردات وأفكار ، وتختلف أساليبها وطرق تراكيبها باختلاف العصور وتطور الظروف الاجتماعية المحيطة بالطبقات الناطقة بها . فلهجات العمال والمجرمين بفرنسا تختلف بعد الحرب العظمى الأولى اختلافا بينا عما كانت عليه قبل ذلك ، وتختلف فى القرن العشرين اختلافا كبيرا عما كانت عليه مثلا فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر . ولا أدل على ذلك من أن معظم القطع التى كتبها بتلك اللهجات فى القرن الخامس عشر الشاعر الفرنسى فرانسوا فيلون François Villon (١) لم يستطع بعد فى العصر الحاضر حل جميع رموزها وفهم جميع مدلولاتها .

وتؤثر اللهجات الاجتماعية فى لغة المحادثة العادية تأثيرا كبيرا ، فتستعير منها هذه اللغة كثيرا من التراكيب والمفردات ،وبخاصة المفردات التى خصص مدلولها العام واصطلح على اطلاقها على أمور خاصة تتعلق بفن أو حرفة وما الى ذلك . فلغة المحادثة العادية بباريس فى العصر الحاضر قد دخل فيها عن هذا الطريق كثير من مفردات اللهجات الاجتماعية وبخاصة لهجات العمال والمجرمين . وكذلك الشأن فى اللغة الانجليزية (٢) .

ولا تتميز فى العادة اللهجات الاجتماعية بعضها عن بعض تميزا واضحا الا فى المدن الكبيرة حيث يتكاثف السكان ، ويزدحم الناس، وتنشط الحركة الاقتصادية، وتتنوع الوظائف ، وتتعدد المهن ، ويشتد النزاع بين الطبقات ، كنيويورك ولندن وباريس فى العصر الحاضر ، وكبغداد فى العصر العباسى .

---

(١) شاعر فرنسى ولد بباريس سنة ١٤٣١ وتوفى سنة ١٤٨٩ . وقد عاش وسط اللصوص والمجرمين ، واتهم أكثر من مرة بالسرقة والقتل . ومن أشهر مؤلفاته « العهد الصغير » و « العهد الكبير » Petit Testament ; Grand Testament

(٢) أثبت الاستاذ بارتروج فى معجمه المشار اليه فى التعليق المدون فى الصفحة السابقة أن كثيرا من الاصطلاحات الحديثة فى اللغة الانجليزية التى يظن الانجليز أنها مأخوذة من اللغة الامريكية العامية ، مشتقة فى الأصل من لغة المجرمين الانجليز أو من اللغة الايرلندية القديمة . (انظر جريدة المصرى الصادرة فى ٢١/٥/١٩٥٠) .

وأهم أنواع اللهجات الاجتماعية ما يسمونه «باللهجات الحرفية» وهى اللهجات التى يتكلم بها فيما بينهم أهل الحرف المختلفة كالبرادين والنجارين والنقاشين والصيادين والبحارة .. وهلم جرا . وتتميز اللهجات الحرفية بعضها من بعض تميزا كبيرا فى المناطق التى يسود فيها « نظام الطوائف » Régime des Castes حيث تختص كل طبقة بحرفة أو وظيفة خاصة تكون وقفا على أفرادها لايجوز لهم ولا لأعقابهم من بعدهم الاشتغال بغيرها ، كما لا يجوز لغيرهم الاشتغال بها : كما هو الحال فى كثير من بلاد الهند . على حين أنه فى الأمم الحديثة التى قضى فيها على نظام الطوائف فأصبحت الحرف حظا مشاعا بين جميع أفراد السكان يزاول كل منهم المهنة التى تروقه ، وينتقل اذا شاء من مهنة الى أخرى، وأصبحت الطبقات الاجتماعية غير واضحة الحدود ولا موصدة الأبواب على غير أهلها ؛ فى هذه الأمم تتداخل اللهجات الحرفية بعضها فى بعض ويتأثر بعضها ببعض ، وتقل بينها الفروق ، وتضعف المميزات (١) .

هذا ، وقد خيل الى بعض علماء « الاتنوجرافيا » أن اللهجـات

---

(١) للهجات الاجتماعية مظاهر كثيرة فى مصر فى العصر الحاضر نفسه . ومن أوضح مظاهرها لغة الصيادين وأبناء البحار . فهى تختلف اختلافا كبيرا عن اللغة العادية فى كثير من مفرداتها وتراكيبها . ومن بين مفرداتها ما هو من أصل عربى وان اختلف مدلوله أحيانا عن مدلوله فى الفصحى . ومن ذلك « ينصلح » بمعنى يهلك ، و «القرية» وهى خشبة الشراع الأكبر ، و «البومة» وهى الخشبة المربوط فيها القلع ، و «الغليتى» وهو الجو الناعس الحنون ، و «المريس» وهو الريح من الجنوب ، و «اللبش» وهو الريح من الجنوب الشرقى ، و «القلفطة» وهى عملية رتق السفينة بالشحم وحبال الكتان ، و «الشاغول» و «العويل» و «الابليس» و «الفاية» وهى أسماء لحبال مختلفة يربط بها الشراع ، و «ضرب بلطة» بضم الباء أى حاد عن الجادة فانحرف نحو اليمين أو الشمال مع الريح أو ليغير اتجاه السفينة . — ومن بين مفرداتها ماهو غير عربى الأصل . ومن ذلك «الارطمون» (من أصل فرنسى ومعناها شراع صغير) ، و «البانكا» (من أصل ايطالى وهو مقعد المجدفين) ، و «الهلب» (من أصل انجليزى ومعناها المرساة) ، و «الشابورة» (من أصل ألمانى وهى خشبة فى مقدمة السفينة) ، و «السكارج» (من أصل فارسى وهى حلقات الدفة) ، و «البروة» (من أصل أسبانى وهى صدر السفينة) . — انظر فى ذلك مقالا **تحت عنوان : «لغة الغموض والألغاز التى يتفاهم بها الصيادون» نشره فى جريدة المصرى** الصادرة فى ١٩٥٠/٢/٢٥ لأستاذ ابراهيم محمد الفحام . وكثير من الكلمات السابقة قد قمت أنا بتسجيله من لغة البحارة من أهل رشيد .

الاجتماعية لا تنشأ من تلقاء نفسها ، بل تخلق خلقا ، وتبتدع بالتواضع والاتفاق بين أفرادالطبقة الواحدة، وترتجل ألفاظها ومصطلحاتها ارتجالا. وقد تابعهم فى هذا الرأى بعض القدامى من علماء اللغة، ولذلك لم تنل هذه اللهجات كبير حظ من عنايتهم .

وليس لهذه النظرية أى سند عقلى أو تاريخى . بل ان ما تقرره ليتعارض مع النواميس العامة التى تسير عليها النظم الاجتماعية . فعهدنا بهذه النظم أنها لا ترتجل ارتجالا ولا تخلق خلقا ، بل تتكون بالتدريج من تلقاء نفسها . هذا الى أن معظم هذه اللهجات منتشرة بين طبقات فقيرة جاهلة منحطة المدارك ضعيفة التفكير لا يتاح لمثلها أن تنشىء انشاء لغة كاملة المفردات متميزة القواعد ، بل لايتاح لها مجرد التفكير فى مثل هذا المشروع الخطير: طبقات المتسولين واللصوص والحدادين والصيادين ... وهلم جرا .

والحق أن « اللهجات الاجتماعية » لا تختلف فى نشـــأتها عن « اللهجات المحلية » التى تكلسنا عليها فى الفقرة الثالثة من هذا الفصل: كلا النوعين ينشعب عن اللغة الأصلية ويستمد منها أصول مفرداته ووجهة أساليبه وتراكيبه وقواعده ؛ وكلاهما تلقائى النشأة ينبعث عن مقتضيات الحياة الاجتماعية وشئون البيئة . وكل ما بينهما من فرق أن السبب الرئيسى لنشأة « اللهجات المحلية » يرجع الى اختلاف الأقاليم وما يحيط بكل أقليم من ظروف ويمتاز به أهله من خصائص ؛ على حين أن السبب الرئيسى فى نشأة « اللهجات الاجتماعية » يرجع الى اختلاف طبقات الناس فى الاقليم الواحد وما يكتنف كل طبقــة منها من شئون وما يفصلها بعضها عن بعض من مميزات فى شتى مظاهر الحياة .

غير أننا قد نعثر أحيانا فى بعض اللهجات الاجتماعية على مفردات لا أصل لها مطلقا فى لغة البلد ولا فى اللغات الأجنبية . ومفردات كهذه يغلب على الظن أنها قد اخترعت فى الأصـــل اختراعا من بعض الأفراد وانتشرت عن طريق التقليد . ولكن هذه الظاهرة تكاد تكون مقصورة

على لهجات الطبقات الراقية ولا تبدو الا فى عدد قليل من الكلمات . أما معظم المفردات فترجع أصولها الى كلمات منحدرة من لغة البلد أو مقتبسة من بعض لغات أجنبية . غير أن الغالب أن ينالها ، مع تقادم الزمن ، كثير من التحريف والتغيير ، فتبعد بعدا كبيرا عن الأصل الذى أخذت منه . وقد تصل فى انحرافها هذا الى درجة يخيل معها للباحث السطحى أنها ابتدعت بالتواضع والارتجال . — ولعل هذا هو ما حدا بعض العلماء على الظن بأن اللهجات الاجتماعية ناشئة عن تأليف واختراع (١) .

— ٧ —

اختلاف لهجة الرجال عن لهجة النساء

قد يحدث فى بعض الشعوب التى يقل فيها اختلاط الرجال بالنساء أو يكون فيها كلا الجنسيين بمعزل عن الجنس الآخر ، تحت تأثير نظم دينية أو تقاليد اجتماعية ، أن تختلف لهجة الرجال عن لهجة النساء اختلافا يسيرا أو كبيرا .

وتكثر مظاهر هذا الاختلاف اللغوى كلما استحكمت حلقات الانفصال بين الجنسين ، حتى انه لينشأ أحيانا من جراء ذلك لكل منهما لهجة تختلف اختلافا بينا عن لهجة الآخر أو تشتمل لهجة كل منهما على مفردات وجمل كثيرة لا تستخدم فى اللهجة الأخرى . وقد لوحظ ذلك فى بعض الشعوب البدائية على الأخص (٢) .

ويخف هذا الاختلاف اللغوى كلما خفت قيود الاختلاط بين

(١) يرجع الفضل فى دراسة اللهجات الاجتماعية الى طائفة من علماء اللغة وعلماء الاجتماع . ومن أشهر من عنى بدراستها من علماء الاجتماع العلامة فان جينيب V.Van Gennep : Essai d'une théori des Langues Spéciales (Revu des Etudes Ethnographiques et Sociologiques, juin-juillet 1908).

(٢) V. Durkheim, «La Prohibition de l'Inceste» dans l'Année Sociologique , T. I,p.49.

الجنسين ، فتقتصر مظاهره على بعض فروق يسيرة فى الأصــــوات والمفردات والجمل والأساليب ، كما هو مشاهد فى كثير من المنــاطق المصرية الريفية .

وليست هذه اللهجات فى الواقع الا نوعا من أنواع « اللهجــات الاجتماعية » التى تقدم الكلام عنها فى الفقرة السابقة ، فمعظم ماقلناه هناك ، فى نشأة اللهجات الاجتماعية وعواملها وتطــورها ... وما الى ذلك ، يصدق على هذا النــوع .

الفصل الثانى

فصائل اللغات

وخواص كل فصيلة منها وما بينها من صلات

- ١ -

أشهر الآراء فى فصائل اللغات

حاول كثير من علماء اللغة أن يرجع اللغات الانسانية — بعد أن تم تفرعها تحت تأثير العوامل السابق ذكرها فى الفصل السابق — الى فصائل عامة . وقد اختلفت وجهات نظرهم بهذا الصدد اختلافا كبيرا .

فبعضهم نظرالى الموضوع من ناحية التطور والارتقاء ، فقسم اللغات الانسانية الى ثلاث فصائل تختلف أفراد كل منها عما عداها فى درجة رقيها ، وتمثل كل منها مرحلة خاصة من المراحل التى اجتازها الكلام الانسانى فى سبيل تطوره .

وأشهر نظرية بهذا الصدد هى نظرية شليجيل التى تقسم اللغات من هذه الناحية الى ثلاث فصائل : « اللغات غير المتصرفة أو العازلة » (وتشمل الصينية والسامية والبرمانية والتبتية ... الخ) ؛ و «اللغات اللصقية أو الوصلية » (وتشمل التركية والمنغولية والمنشورية واليابانية ولغات الباسك ... الخ) ؛ و « اللغات المتصرفة أو التحليلية » (وتشمل الفارسية والهندية واللاتينية والاغريقية والجرمانية والعربية والعبرية... الخ) .

وقد شرحنا فى الباب الأول هذه النظرية وناقشناها ، فظهر لنا فسادها من عدة وجوه ، وتبين أن الأساليب الثلاثة التى تقسم على أساسها اللغات الانسانية الى فصائل (العزل واللصق والتصرف) ، توجد مجتمعة فى كل لغة انسانية ، فلا نكاد نعثر على لغة عارية عن أسلوب منها (١) .

وبعضهم قطع النظر عن موضوع التطور والارتقاء ، وقسم اللغات الانسانية الى فصائل يجمع أفراد كل فصيلة منها صلات قرابة لغوية فتتفق فى أصول الكلمات وقواعد البنية وتركيب الجمل ... وما الى ذلك ويتكون من الأمم الناطقة بها مجموعة انسانية متميزة ، ترجع الى أصول شعبية واحدة أو متقاربة وتؤلف بينها طائفة من الروابط الجغرافية والتاريخية والاجتماعية .

وأشهر نظرية قسمت اللغات على هذه الأسس هى نظرية مكس مولر Max Müler التى ترجع جميع اللغات الانسانية الى ثلاث فصائل: الفصيلة الهندية ــ الأوربية ؛ والفصيلة السامية ــ الحامية ؛ والفصيلة الطورانية (٢) . ــ وسنتكلم على كل فصيلة منها على حدة فيما يلى :

---

(١) انظر صفحات ١١٥ ــ ١١٨ .

(٢) فطن كثير من العلماء قبل مكس مولر الى صلات القرابة التى تربط اللغات الهندية والآرية والأوربية بعضها ببعض ، والى الصفات التى يشترك فيها أفراد الفصيلة الحامية ــ السامية ، كما تقدمت الاشارة الى ذلك فى فقرة «تاريخ البحوث اللغوية» وكما أشرنا اليه فى كتابنا «فقه اللغة» (انظر صفحتى ٧ ، ٨ الطبعة السابعة) . ولكن يرجع الفضل الى مكس مولر فى تكملة هذه البحوث ونشرها ، وفى دراسة الفصيلة الهندية الاوروبية على الأخص دراسة عميقة مستوعبة ، وفى اضافة فصيلة ثالثة الى الفصيلتين السابقتين، وهى فصيلة اللغات الطورانية (وقد اتفق معه فى جعل هذه اللغات فصيلة ثالثة العلامة الألمان بونسن Bunesn فى كتابة Outlines of the Philosophy of Universal history الذى ظهر فى نفس العصر الذى ظهر فيه بحث مكس مولر بهذا الصدد Letter on the Classification of the Turanian Languages) . ولهذا نسب الى مكس مولر تقسيم اللغات إلى هذه الفصائل الثلاث.

— ٢ —

الفصيلة الأولى : الهندية الاوربية
Langues Indo-Européennes

تشمل هذه الفصيلة ثمان طوائف من اللغات ، وهى :

١ — « اللغات الهندية — الايرانية » أو « اللغات الآرية » وتشمل شـــعبتين :

احداهما شعبة اللغات الهندية (السنســـكريتية Sanskrit البراكريتية Prakrit ، اللغات الهندية الحديثة Langues Néo-Indoues ... الخ) .

والأخرى شعبة اللغات الايرانية (الفارسية القديمة Vieux perse ، والأفستية والزند أفستية Avestique et Zend—Avestique وهى لغة الأسفار المقدسة المسماة الأفستا (الأبستاق) وشروحها المسماة الزند — أفستا، والبهلوية Péhlvi ، والفارسية الحديثة Néo-Persan ، والكردية kurde' ، والأسيتية Ossète ، وهى لغة الأسيتيين Ossètes وهم سكان القوقاز الأوسط ، والأفغانية أو البشتو ... وهلم جرا) .

ولكثرة وجوه الشبه بين هاتين الشعبتين عدهما علماء اللغـــة طائفة واحدة سموها طائفة « اللغات الهندية — الايرانية » أو طائفة « اللغـــات الآرية » .

وكان القدامى من علماء اللغة يتوسعون فى كلمة «اللغات الآرية» فيطلقونها على جميع طوائف الفصيلة الهندية — الأوروبية ، لأن معظم المتكلمين بهذه الفصيلة من اللغات ينتمون الى الجنس الآرى . ولكن المحدثين منهم آثروا العدول عن هذا الاستعمال اتقاء للخلط واللبس ، فأصبحوا لا يطلقون كلمة « اللغات الآرية » الا على الطائفة التى نحن بصدد الكلام عليها (١) .

---

(١) V. Les Langues du Monde , P. 28

٢ — « اللغات الأرمنية » Langues Arméniennes

٣ — «اللغات الاغريقية» (وتشمل اللغات اليـونانية القديمة . وأشهر هذه اللغات : اليونية — الأتيكية ، والدورية . وتشمل كذلك اللغات اليونانية التى تكونت فى القرون السابقة للميلاد وقامت علـى أنقاض اللغات اليونانية القديمة ، واشتهرت عند علماء اللغـة باسم « اليونانية الحديثة » . وتشمل كذلك اللغـات اليونانية فى العصر الحـاضر) .

٤ — الألبـانية .

٥ — « اللغات الايطالية » (وتشـمل الأسكية Osque ، والأمبرية — السمنية Ombrien-Samnite واللاتينية ، واللغات الرومانية Langues Romanes وهى المتفرعة من اللاتينية كالفرنسية والبرتغالية والايطالية والأسبانية ولغة رومانيا ... الخ) .

٦ — « اللغات السلتية » أو « الكلتية » Langues Celtiques (التى كانت لغات شعوب السلت أو الكلت Les Celtes . وقد طغت عليها الآن اللغات الفرنسية والانجليزية والاسبانية ، ولكن بقى بعض أشكال منها فى كثير من اللهجات المحلية بايرلندا وويلز ومنطقةالبريتون Bretagne بغرب فرنسا) .

٧ — « اللغات الجرمانية » Langues Germaniques وتشمل ثلاث شعب :

أولاها شعبة اللغات الجرمانية الشرقية وهى اللغـة الجـوتية Gothique (وهى لغة قبائل الجوث Goths وهو شعب قـديم كان يسكن جرمانيا الشرقية) .

وثانيتها شعبة اللغات الجرمانية الشمالية ، وهى لغـات أيسلندا والدانيمرك والسويد والنرويج .

وثالثها شعبة اللغات الجرمانية الغربية ، وتشـمل الانجليزية —

السكسونية ، والانجليزية الحديثة ، والهولاندية ، واللغات الفلامندية (لغة مقاطعة الفلاندر ببلجيكا . ويتألف من هذه اللغة مع اللغة الهولندية فرع لغوى واحد يسمى فرع اللغات النثر لاندية) ، واللغات الألمانية ... الخ .

٨ - « اللغات البلطيقية السلافية » وتشمل شعبتين :

احداهما شعبة اللغات البلطيقية : وهى الليتوانية Lituanienne (لغة ليتوانيا Lituanie) والليتونية Lette (لغة ليتونيا Lettonie أو لاتفيا Latvia) والبروسية القديمة .

والأخرى شعبة اللغات السلاقية أو الصقلية : وهى السلاقية القديمة ، والروسية ، والبولونية ، والتشيكية ، والسربية - الكرواتية والبلغارية الحديثة (١) .

ومن هذا يظهر أن اللغات الهندية - الأوربية هى أكثر اللغات الانسانية انتشارا ، اذ يتكلم بها الآن جميع سكان أوربا والأمريكتين وأستراليا وجنوب أفريقيا ما عدا بعض جماعات قليلة بأوروبا تتكلم البسكية أو الفينية أو المجرية أو التركية .. وما الى ذلك ، وما عدا السكان الأصليين للأمريكتين وأستراليا وجنوب أفريقيا الذين انقرض معظمهم ولم يبق منهم الآن الا عدد يسير آخذ فى الانقراض ، ويتكلم بها كذلك قسم كبير من سكان آسيا (الهند ، فارس ، أفغانستان ، الكردستان ، القوقاز الأوسط ، أرمينيا ... الخ) .

والشعوب الناطقة بهذه الفصيلة هى أرقى الشعوب حضارة فى العصر الحاضر ، وأعظمها نشاطا ، وأكبرها شأنا ، وأكثرها انتاجا فى مختلف فروع الحياة ، وأجلها أثرا فى الحضارة الانسانية الحديثة .

ويرجع الفضل فى انتشار هذه الفصيلة الى عوامل كثيرة أهمها

---

(١) أما البلغارية القديمة قبل أن يتغلب عليها اللسان الصقلبى فهى من فصيلة اللغات الفينوانية كما سيأتى بيان ذلك فى الفصيلة الثالثة .

الغزو والاستعمار . فعلى أثر غزو الآريين للهند انتشرت لغاتهم فى هذه البلاد وقضت على لغات السكان الأصليين (لم يبق من هذه اللغات الا آثار ضئيلة سنعرض لها فى أثناء كلامنا فى الفصيلة الثالثة) ، وعلى أثر استعمار الأوربيين للأمريكتين واستراليا وجنوب أفريقيا انتقلت الى هذه المناطق اللغات الانجليزية والأسبانية والفرنسية والبرتغالية .

أما الموطن الأول لهذه الفصيلة فلا نكاد نعرف شيئا يقينيا عنه ، وقد ذهب العلماء بصدده مذاهب كثيرة تعتمد فى معظم نواحيها على الحدس والتخمين وفى نواح أخرى على حجج ضعيفة لا يطمئن الى مثلها التحقيق العلمى : فمن قائل انها نشأت بأوربا الشرقية بالمناطق الروسية ، ومن قائل أنها نشأت بمناطق بحر البلطيق .

وتمتاز هذه الفصيلة بكثرةشعبها واتساع هوة الخلاف بين أفرادها. فقد انقسمت الى الطوائف الثمان السابق ذكرها ، وانقسمت كل طائفة من هذه الطوائف الى شعب ، وكل شعبة الى عدد كبير من اللغات، وسلكت كل لغة من هذه اللغات فى ارتقائها سبيلا يختلف عن سبيل غيرها ، فكثرت وجوه الخلاف بينها ، وتضاءلت وجوه الشبه ، حتى ان بعضها ليبدو غريبا عن بعض ، ولا تظهر صلة قرابته به الا بعد تأمل عميق .

ويرجع السبب فى هذا الى عوامل كثيرة أهمها اختلاف البيئات التى انتشرت فيها هذه الفصيلة واختلاف الشئون الاجتماعية التى اكتنفت الناطقين بكل شعبه منها .

وقد ترتب كذلك على هذه العوامل أن اختلفت كل لغة منها عما عداها فى درجة رقيها ومبلغ بعدها عن أصولها الأولى . فمنها ما يزال جامدا على خصائصه القديمة، ومنها ما قطع فى زمن يسير مرحلة واسعة فى طريق الارتقاء ، ومنها ما سار فى هذه السبيل بخطى متئدة بطيئة. فانتشار الشعبة الايرانية مثلا فى مناطق عريقة فى الحضارة ، وتأثرها باللغات التى كانت سائدة فى هذه المناطق ... كل ذلك وما اليه قد ذلل

لها وسائل الارتقاء ، فسارت فى هذه السبيل بخطى حثيثة ، حتى وصلت فى أوائل القرن الأول الميلادى الى شأو لم تبلغ مثله اللغات الأوروبية الا حوالى القرن العاشر . على حين أن انتشار اللغة الليتوانية مثلا فى منطقة زراعية ضيقة تغلب على أهلها صفة المحافظة على القديم ، وبقاء هذه المنطقة بمعزل عن تيارات الحضارة وعن المؤثرات الخارجية ... كل أولئك قد عاق تقدم هذه اللغة ، فظلت محتفظة بكثير من الأشكال الأولى لفصيلتها .

وسنتكلم بتفصيل على هذه الأمور وما يتصل بها فى الفصول التالية من الكتاب (١)

- ٣ -

الفصيلة الثانية : الحامية ـ السامية

Langues Chamito-Sémitiques

وتشمل هذه الفصيلة مجموعتين من اللغات : احداهما مجموعة اللغات السامية ، وثانيتهما مجموعة اللغات الحامية .

أما مجموعة اللغات السامية ، فتنتظم طائفتين :

١ ـ اللغات السامية الشمالية . وتشمل اللغات الأكادية Accadien أو الآشورية البابلية Assyro-Babyloniennes (٢) ، واللغات الكنعانية (العبرية والفينيقية) (٣) ، واللغات الآرامية (٤) .

٢ ـ اللغات السامية الجنوبية وتشمل العربية (٥) واليمنية

---

(١) انظر الفصل الرابع والفصول التالية له .

(٢) انظر تفصيل القول فى اللغات الأكاديمية فى الفصل الأول من كتابنا «فقه اللغة» .

(٣) انظر تفصيل القول فى اللغات الكنعانية فى الفصل الثانى من كتابنا «فقه اللغة» .

(٤) انظر تفصيل القول فى اللغات الآرامية فى الفصل الثالث من كتابنا «فقه اللغة» .

(٥) انظر تفصيل القول فى اللغة العربية فى الفصل السادس من كتابنا «فقه اللغة» .

القديمة (١) واللغات الحبشية السامية (٢) .

وأما مجموعة اللغات الحامية . فتنتظم ثلاث طوائف :

١ ـــ اللغات المصرية . وتشمل المصرية القديمة والقبطية .

٢ ـــ اللغات الليبية أو البربرية ، وهى لغات السكان الأصليين لشمال أفريقيا (ليبيا، وتونس ، والجزائر ، والمغرب ، والصحراء ، والجزر المتاخمة لها) فتشمل اللغات القبيلية Kabyles والشاوية Chaouia (اللغات القديمة لسكان الجزائر) والتماشكية Tamachek (وهى اللغات القديمة لقبائل التوارج Touareg وهى قبائل رحالة بصحراء المغرب) ، واللغات الشلحية أو لغات الشلحا ، أو لغات أهل الشلوح chellouh (لغات السكان الأصليين لجنوب المغرب) ولغات زناجة Zénaga واللغات الجونشية Guanche (لغات السكان الأصليين لجزر قناريا Canaries بالمحيط الأطلانطيقى ، فى الشمال الغربى من الصحراء الكبرى) ... وهلم جرا .

٣ ـــ اللغات الكوشيتية Couchitiques (٣) وهى لغات السكان الأصليين للقسم الشرقى من أفريقيا المحصور بين درجة العرض الرابعة جنوب خط الاستواء وحدود مصر (ما عدا المناطق الحبشية الناطقة بلغات سامية والتى تقدم ذكرها فى المجموعة الأولى وما عدا بعض المناطق السودانية وما اليها التى سيأتى ذكر لغاتها فى الفصيلة الثالثة)، فتشمل اللغات الصومالية ، ولغات الجالا ، والبدجا ، ودنقلة ، والأجاو والأفار أو الساهو ، والسيداما ... الخ Somali, Galla, Bedja, Dankali, Agaw, Afar, ou Saho Sidama. . .etc. ويتكلم باللغات الكوشية كذلك نحو ثلث سكان الحبشة .

---

(١) انظر تفصيل القول فى اللغة اليمنية القديمة فى الفصل الرابع من كتابنا «فقه اللغة» .

(٢) انظر تفصيل القول فى اللغة الحبشية السامية فى الفصل الخامس من كتابنا «فقه اللغة» .

(٣) نسبة الى كوش Cuch وهو أحد أولاد حام (انظر سفر التكوين ، الاصحاح العاشر ، الفقرة السادسة وتوابعها) .

ومن هذا يظهر أن المنطقة التى تشغلها الفصيلة الحامية ـ السامية أصغر كثيرا من المنطقة التى تشغلها الفصيلة الهندية الأوروبية . فبينما الفصيلة الهندية الأوروبية تشغل أوروبا والأمريكتين وأستراليا وجنوب أفريقيا وقسما كبيرا من آسيا ، اذ الفصيلة الحامية ـ السامية لا تشغل الا بلاد العرب وشمال أفريقيا وجزءا من شرقيها (الى درجة عرض ٤ جنوب خط الاستواء) . فمنطقتها لا تتجاوز عشرين مليون كيلو مترا مربعا ، بها قسم كبير صحراوى (ببلاد العرب وشمال افريقيا) ، وعدد الناطقين بها لا يتجاوز مائة وخمسين مليونا ، أى نحو عشر سكان أوروبا وحدها . ولكنها تمتاز عن الفصيلة الهندية الأوروبية بأن منطقتها متماسكة الأجزاء لا يتخللها أى عنصر أجنبى .

ويتألف من الناطقين بها مجموعة شديدة التجانس تتلاقى شعوبها فى أصول واحدة قريبة ، وتتفق فى أساليب الحياة ونوع الحضارة والنظم الاجتماعية .

ويجمع بين اللغات السامية (المجموعة الأولى من هذه الفصيلة) كثير من الصفات المشتركة المتعلقة بأصول الكلمات والأصوات ومخارج الحروف وقواعد الصرف والتنظيم ... وما الى ذلك . ـ وقد قويت وجوه الشبه بين بعض أفردها حتى ليحسبها الباحث مجرد لهجات للغة واحدة (١) .

أما مجموعة اللغات الحامية (المجموعة الثانية من هذه الفصيلة) فلا يوجد بين طوائفها الثلاث (المصرية ، والبربرية ، والكوشيتية) من وجوه الشبه والقرابة اللغوية أكثر مما يوجد بين كل طائفة منهاومجموعة اللغات السامية . فاعتبارها مجموعة متميزة هو مجرد اصطلاح لا يتفق فى شىء مع حقائق الأمور .

ولذلك عدل بعض المحدثين عن تقسيم هذه الفصيلة الى مجموعتين،

(١) انظر تفصيل هذا الموضوع فى كتابنا «فقه اللغة» وخاصة فى مقدمته .

وآثر جعلها من بادىء الأمر أربع مجموعات : الســامية ، والمصرية ، والبربرية ، والكوشيتية (١) .

وتختلف هذه المجموعات الأربع بعضها عن بعض اختلافا غير يسير فى كثير من الظواهر ؛ ولكن بينها ، على الرغم من ذلك ، من وجــوه الشبه والقرابة اللغوية ما يسمح بجعلها فصيلة واحدة مقابلة للفصيلة الهندية الأوربية .

هذا ، وقد تغلبت مجموعة اللغات السامية على المجموعات الثلاث الأخرى واحتلت كثيرا من مناطقها . فاللغات القبطية والبربرية قدانهزمت أمام اللغةالعربية، ولم يبق من لبربريةالآن الافلول ضئيلة (٢). وكذلك كانت نهاية الكوشيتية فى صراعها مع اللغات السامية : فقد احتلت اللغات السامية معظم مناطقها ، ولم يبق الآن من اللغات الكوشيتية الا بعض لهجــات قليلة فى بلاد الصومال والحبشـــة وفى المنــاطق المتاخمة لها.

وقد اشتبكت اللغات السامية نفسها فى صراع بعضها مع بعض. وأول صراع حدث بينها كان صراع الآرامية مع اللغات الأكادية والكنعانية. فقد اشتبكت فى صراع مع الأكادية أولا وقضت عليها فى أوائل القرن الرابع ق.م ، ثم صرعت العبرية فى أواخر الرابع ق.م ، وتغلبت عــلى الفينيقية بآسيا فى القرن الأول ق.م. والصراع الثانى كان صراع العربية مع أخواتها . فقد اشتبكت فى صراع مع اللغات اليمنية القديمةوقضت عليها قبيل الاسلام . ولم يفلت من هذا المصير الا بعض مناطق متطرفة نائية ساعد انعــزالها وانزواؤها على نجــاتها ، فظلت محتفظة بلهجتها القديمة حتى العصر الحاضر . ثم اقتحمت العربية على الآرامية معاقلها فى

---

(١) وهذا هو ما سار عليه مارسل كوهين Marcel Cohen انظر : Les Langues du Monde, pp.81-153,en Part. 83.

(٢) لاتزال البربرية الى الوقت الحاضر لغة حديث بين كثير من القبائل المغربية فى المغرب والجزائر وتونس وفى بعض الواحات التابعة لليبيا وغيرها . ومن هذه الواحات واحة «اوجلة» الواقعة عند حدود برقة من الجنوب ، فان اهلها من البربر ولا يزالون يتكلمون البربرية الى اليوم .

الشرق والغرب وانتزعتها منها معقلا معقلاحتى تم لها القضاء عليها حوالى القرن الثامن الميلادى . ولم يفلت من هذا المصير الا بعض منـــاطق منعزلة لاتزال تتكلم اللهجة الآرامية الى العصر الحاضر (١) . وامتد أثر العربية الى الأمم الآرية والطورانية التى اعتنقت الدين الاســـلامى (الفرس،الهنود،الأتراك،الأندونيسيين ...الخ) فاحتلت لديها مكانة مقدسة سامية ، وتركت آثارا عميقة فى كثير من لغاتها ، فاتسعت بذلك مناطق نفوذها حتى بلغ عدد الناطقين بها والمتأثرين بسلطانها نحــو ستمائة مليون من سكان المعمورة (٢) .

---

(١) انظر تفصيل هذه الموضوعات جميعها فى كتابنا «فقه اللغة» .

(٢) يبلغ عدد المسلمين فى العالم حوالى ٥٣٠ مليونا ، وتبلغ نسبتهم الى مجموعة سكان العالم (البالغ عددهم الآن زهاء ٣٥٠٠ مليون) نحو ١٥ ٪ . ومنهم بأفريقيا نحو ٨٥ مليونا (نحو ٤٠٪ من مجموع سكانها) ، وفى آسيا نحو ٤٢٥ مليونا (نحو ٢٧٪ من مجموع سكانها) ، وفى أوروبا نحو ٢٢ مليونا (نحو ٢٪ من مجموع سكانها) ، وفى الأمريكتين جاليات اسلامية يبلغ عـددها زهاء ثلاثة ملايين (واحد وكســور فى المائة من مجموع سكانها) .

هذا ويبلغ سكان العالم الآن (أواخر عام ١٩٧٢) زهاء ٣٥٠٠ مليون . يعيش نحو ٥٧٪ منهم فى آسـيا ، و ٢١٪ منهم فى أوروبا والاتحـاد الســوفييتى ، و ١٤٪ فى الأمريكتين ، و ٢ ٪ منهم فى أفريقيا .

ويتزايد سكان العالم بمقدار ٦٥ مليون سنويا فى المرحلة الحاضرة ، وهذه النسبة هى أكبر من نسبة تزايدهم فى أية مرحلة أخرى من مراحل تاريخ الانسان . واذا استمرت الزيادة بهذه النسبة فسيصل عددهم الى نحو ٤ مليار نسمة قبيل عام ١٩٨٠ ، وسيصل الى ضعفى عددهم الحالى (أى نحو ٧٠٠٠ مليون) بعد نحو خمسين سنة .

ويعيش نحو ثلثى سكان العالم فى عشر دول . وهى بحسب ترتيبها فى عدد السكان : الصين الشعبية (نحو ٨٥٠ مليون أى نحو ٢٥ ٪ من سكان العالم كله) . فالهند (نحو ٤٧٥ مليون) ، فالاتحاد السوفييتى (نحو ٢٣٥ مليون) ، فالولايات المتحدة (نحو ٢٠٠ مليون) ، فاندونسيا (نحو ١٠٥ مليون) ، فباكستان بما فيها بنغال الشرقية (نحو ١٠٤ مليون) ، فاليابان (نحو ١٠٠ مليون) ، فالبرازيل (نحو ٨٠ مليون) ، فالمانيا الغربية (نحو ٥٨ مليون) فبريطانيا (نحو ٥٥ مليون) .

وأكثر مناطق العالم فى نمو عدد السكان أمريكا الوسطى ومن بينها منطقة الكاريبى، اذ تصل هذه الزيادة الى نحو ٢٫٩ ٪ سنويا منذ عام ١٩٥٨ ، وتليها أمريكا الجنوبية، وتليها الدول النامية التى تكون مستويات المعيشة فيها منخفضة .

(انظر تقارير الأمم المتحدة ومكتب تعداد السكان عن السنين ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٥ وانظر جريدة الأهرام فى ٦٤/٨/٥ و ٦٤/١٢/٥) .

— ٤ —

الفصيلة الثانية : اللغات الطورانية

Langues Touraniennes

أطلق مكس مولر وبونسن Bunsen [١] اسم « اللغات الطورانية » على طائفة من اللغات الآسيوية والأوربية التى لاتدخل تحت فصيلة من الفصيلتين السابقتين ، كالتركية والتركمانية والمغولية والمنشورية والفينية وهلم جرا ، وتابعهما فى ذلك كثير ممن جاء بعدهما .

فاللغات الطورانية ليست اذن فصيلة بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة، أى مجموعة ترجع الى أصول واحدة ويجمع بين أفرادها صلات تشابه وقرابة . بل هى أمشاج من لغات لا يؤلف بينها الا صفة سلبية وهى عدم دخولها فى احدى الفصيلتين السابقتين . — هذا الى أن القائلين بها لم يدخلوا تحتها جميع اللغات الانسانية الخارجة عن الفصيلتين المذكورتين ، بل قصروها على طائفة منها وهى بعض اللغات الأسيوية والأوروبية .

فهذا قسم غير قائم على أساس وغير شامل لما بقى من لغات العالم .

ولذلك عدل المحدثون من علماء اللغة عن استعمال كلمة « اللغات الطورانية [٢] » ، وعمدوا الى ما بقى من اللغات الانسانية خارجا عن الفصيلتين السابقتين فقسموه الى فصائل يجمع بين أفراد كل فصيلة منها صلات تشابه وقرابة لغوية ، فتتفق فى أصول الكلمات وقواعد البنية وتركيب الجمل ، ويتكون من الأمم الناطقة بها مجموعة انسانية متميزة

---

(١) انظر التعليق الثانى بصفحة ١٩٦ .

(٢) ذهب هذا المذهب من القدامى أنفسهم العلامة رينان . فعلى الرغم من موافقته مكس مولر (الذى كان معاصرا له) فى كثير من آرائه ، فانه قد رفض الأخذ بنظريته بصدد اللغات الطورانية ، ووجه اليها نقدا لاذعا فى كتابه أصول اللغة

V. Renan :L'Origine du Langage, pp. 40 et suiv.

ترجع الى أصول شعبية واحدة أو متقاربة ويؤلف بينها طائفة من الروابط الجغرافية والتاريخية والاجتماعية .

وأحدث نظرية بهذا الصدد هى النظرية التى ذهبت اليها « جمعية علم اللغة بباريس » Société de Linguistique de Paris فى موسوعتها « لغات العالم » Les Langues du Monde اذ قسمت ، على الأسس السابق ذكرها ، جميع اللغات الانسانية الخارجة عن الفصيلتين الحامية — السامية ، والهندية — الأوروبية الى تسع عشرة فصيلة وهى :

١ — فصيلة اللغات اليابانية .

٢ — « فصيلة اللغات الكورية Coréen » (لغات سكان شبه جزيرة كوريا التى كانت تابعة لليابان والواقعة بين اليابان والبحر الأصفر) .

٣ — لغة الأينو La Langue Ainou . ويتكلم بها الآن نحو ثلاثين ألفا من سكان جزيرة هوكادو Hokkado وجزيرة ساخالين Shakhaline وجزيرة شيكوتان Shikhotan (وكلها كانت تابعة لليابان، والجزيرتان الأخيرتان تابعتان الآن لروسيا ، وأما هوكادو فهى واحدة من جزر أربع تعد أكبر الجزر التى تتألف منها اليابان) (١) .

ولم تثبت صلة قرابة بين هذه اللغة وأية لغة من اللغات الحية ، ولذلك عدت فصيلة على حدتها .

٤ — فصيلة اللغات الصينية — التبتية : وتشمل اللغات الصينية الأصلية ولهجاتها ، والتبتية Tibétain والبرمانية Birman ، والسيامية Siamois (لغة سيام) .

---

(١) والثلاثة الأخر هى : «هوندو» أو «نيبون» وهى الجزيرة الأم ، وشيكوكو ، وكيوشو . — هذا وقد بدأ فى شهر نوفمبر سنة ١٩٧١ حفر أكبر نفق يصل جزيرة «هوكادو» بجزيرة «هوندو» ، أو «نيبون» الجزيرة الأم . وسينتهى العمل فى هذا المشروع سنة ١٩٧٧ . ويبلغ طول النفق ٥٤ كيلومترا منها نحو ٢٣ تحت الماء . وسيمر بهذا النفق خطوط السكك الحديدية التى سوف تقلل مدة وصول المسافرين بين الجزيرتين بمقدار ١٣ ساعة (انظر جريدة الاهرام عدد ٧١/١١/١٥) .

٥ — « فصيلة اللغات الأسترالية الأسيوية » (التى يتكلم بها القسم الأسيوى الجنوبى المنحدر الى أستراليا) ، وتطلق على ثلاث شعب : شعبة اللغات الأنامية (لغة سكان أنام من الهند الصينية) ؛ وشعبة اللغات الموندية Langues Mounda أو الكولارية kolariens (من أقدم لغات الهند ، بل من أقدم اللغات الانسانية جميعها ، ويتكلم بها الآن نحو مليون نسمة من الهنود ، ومنطقتها فى الجزء الجنوبى من الهند) ؛ وشعبة اللغات المونكهمريا Les Mon-khmer (ويدخل فيها المنية Le Mon والكهمرية Khmer أو الكمبدجية Cambodgien والتشامية Tcham . ويتكلم بهذه اللهجات بمنطقة أسام Assam . وما اليها) .

٦ — فصيلة اللغات الدراڤيدية Dravidienne (لغات بعض الشعوب التى كانت تقطن جنوب بلاد الهند قبل أن يهاجر اليها الآريون . وتشمل التامولية Tamoul والكانارية Kanarais وغيرهما) .

٧ ، ٨ — اللغات القوقازية (ولا يطلق هذا الاسم فى اصطلاح علماء اللغة على جميع اللغات القوقازية ، بل على مجموعة خاصة منها ، وهى اللغات القوقازية التى ليست سامية ، ولا هندية — أوربية ، ولا أورالية — ألتائية) ، وتشمل فصيلتين لم تثبت بعد صلات القرابة بينهما بشكل قاطع (١) (ولذلك عددناهما فصيلتين لا فصيلة واحدة) وهما : « فصيلة اللغات القوقازية الشمالية » (وتشمل السامورية Samourien والأرتسية Artsi والأديغية Adeghé .. وغيرها) ؛ « وفصيلة اللغات القوقازية الوسطى » (وتشمل الجيورجية Géorgien واللازية Laze ... وغيرها) .

٩ — فصيلة اللغات الأسيوية القديمة Langues propres de l'Asie antérieure ancienne . — يطلق هذا الاسم فى عرف علماء اللغة

---

(١) V. Langues du Monde, pp. 327 et suiv.

على لغات آسيوية قديمة غير سامية ولا هنــدية ـــ أو أوروبية ، كان يتكلم ببعضها فى مملكة ميزوبو تاميا Mésopotamie (مملكة قديمة كانت تقع بين دجلة والفرات) وببعضها فى آسيا الصغرى وفى المناطق المتصلة من حوض البحر الأبيض المتوسط وفى بعض أجزاء من ايطاليا (١) .

ومن أهم لغات هذه الفصيلة اللغة السومرية Sumérien ، وهى لغة غير سامية ولا هندية ـــ أوروبية ، كان يتكلم بهـا شعب مجهـول الأصل كان يسكن حوض الفرات الأدنى بقرب خليج فارس ، أى فى المنطقة التىاحتلتها فيما بعد الشعوبالسامية الآشورية والبابلية ونشرت فيها لغاتها الأكادية (شعبة من اللغات السامية ، وتسمى كذلك شـعبة اللغات الآشورية ـــ البابلية) (٢) .

ويرجع الفضل فى الوقوف على اللغة السومرية الى ما عثر عليـه أخيرا من آثارها مكتوبا بالخط المسمارى . وتتألف هذه الآثار منوثائق هامة بعضها أدبى ـــ لغوى (شعر ، قواعد ، بحوث لغوية .. الخ) ، وبعضها علمى (فلك ، طبيعة .. الخ) وبعضها اجتمـــاعى ـــ تاريخى (يعرض للشئون الاقتصادية والقضائية والسياسية والادارية والدينيـة والأسطورية والتاريخية ... وهلم جرا) .

١٠ ـــ فصيلة اللغات التركية والمغولية والمنشورية .

١١ ـــ فصيلة اللغـــات الفينية Finois والأجرية Ougriennes والسامويدية Samoyèdes (ويتكلم بهذه اللغات فى الحوض الأوسط

---

(١) انتقلت هذه اللهجات الى ايطاليا على أثر هجرة بعض الشعوب اليها من آسيا الصغرى . ـــ وأشهر اللغات الايطالية القديمة التى تعد من هذه الفصيلة هى اللغـة الأتروسكية Etrusque التى كان يتكلم بها الأتروسكيون Etrusques أو الرازينيون Rasennes (وهم سكان المنطقة المسماة قديما اتريريا Etrurie) .) .

(٢) انظر آخر صفحة ٢٠١ ، وانظر تفصيل الكلام فى اللغتين الأكادية والسومرية بالفصل الأول من كتابنا «فقه اللغة» .

لنهر الفولجا Volga) . — ويدخل فى الفينية اللغات الفنلندية (١) والأستونية والبلغارية القديمة (٢) وغيرها. — ويدخل فى الأجرية اللغات اللابونية Lapons (لا تزال لهذه اللغات بقايا فى السويد والنرويج وغيرهما) واللغات الهنغارية .. وغيرها . — وتنشعب الساموبدية الى الأستياكية Ostiak واليوراكية Yourak والتافجوية Tavgui وغيرها .

هذا ، وقد كان القدامى من علماء اللغة يجمعون معظم أفراد الفصيلة العاشرة والحادية عشرة تحت فصيلة واحدة كانوا يسمونها الأورالية — الألتائية Ouralo-Altaïque أو الطورانية . — ولكن ظهر للمحدثين فساد هذا المذهب وتبين لهم أن كلتا المجموعتين مستقلة عن الأخرى .

(١) كانت فنلندا منذ القرن الثالث عشر حتى عام ١٨٠٩ جزءا من السويد ، ومن ثم كانت لغتها الرسمية هى السويدية . ثم انتزعتها روسيا القيصرية بعد ذلك من السويد، فاصبحت لغتها الرسمية هى الروسية . وكما حاول السويديون من قبل محو اللغة الفنلندية كذلك بذل القياصرة الروس أقصى جهودهم لتحويل فنلندا الى مقاطعة روسية . فصدرت قوانين كثيرة تحرم تدريس اللغة الفنلندية فى مدارس فنلندا وتقضى باصدار جميع الكتب والصحف بالروسية .

وكما بذل الفنلنديون جهودهم للمحافظة على لغتهم منذ القرن الثالث عشر وحمايتها من طغيان السويد ، أخذوا بعد ذلك يواصلون جهودهم لصد غزو اللغة الروسية . وفى عام ١٨٦٣ تكلل كفاحهم بالنجاح عندما أصدر القيصر الروسى الكسندر الثانى اعترافا باللغة الفنلندية كلغة رسمية لأهالى فنلندا .

وعندما استقلت فنلندا عن روسيا فى عام ١٩١٧ كانت دعوة القومية الفنلندية قد بلغت ذروتها . فمضت البلاد بعد استقلالها تحارب كل أثر للغتين السويدية والروسية. وسرعان ما اختفت الروسية لعدم تأصلها فى البلاد ، ولأن استخدامها كلغة رسمية فى فنلندا لم يكد يتجاوز نصف قرن . ولكن السويدية التى كان لها جذور ممتدة الى أعماق الماضى ، والتى ظل استخدامها فى فنلندا كلغة رسمية زهاء ستة قرون ، بقيت لها آثار كثيرة فى اللغة الفلندية وفى ألسنة الفنلنديين وفى مكاتباتهم حتى الآن . بل لقد أصبحت اللغة السويدية لغة التخاطب لنحو ٣٠٠ ألف شخص من سكان فنلندا البالغ عددهم ٤ ملايين ونصف مليون .

ولكن الفنلنديين أدركوا أخيرا مزايا تعلم السويدية الى جانب لغتهم الأصلية ، حتى لايصبحوا فى عزلة عن السويد وسائر الدول الاسكنديناقية ، وأخذت سلطات هلسنكى الآن تشجع نظام تعليم اللغتين فى مدارسها .

(٢) قد انقرضت هذه اللغة وحل محلها لسان صقلبى كما سنذكر ذلك فى الفقرة الثانية من الفصل الثالث ، انظر على الأخص ص ٢٣١ .

١٢ — لغة الباسك Basque أو الأسكارا Euskara . ويتكلم بها الباسكيون ، وهو شعب يقطن منطقة جبال البرانس الغربية فى العدوتين الاسبانية والفرنسية ، بمناطق بيسكاى Biscaye والاقا Alava وجويبوزكوا Guipuzcoa ونافار Navare (باسبانيا) ، وبمناطق بيون Bayonne ومموليون Mauléon بفرنسا .

ويدل الاحصاء الذى عمله لويس — لوسيان بونابرت Louis-Lucien Bonaparte عام ١٨٧٣ أن عدد المتكلمين بهذه اللغة يبلغ ٦٦٠ ألفا فى أسبانيا ونحو ١٤٠ ألفا فى فرنسا . — ولكن ليس من شك فى أن منطقة اللغة الباسكية ، وبخاصة منطقتها الاسبانية ، كانت قديما أوسع كثيرا مما يرشد اليه هذا الاحصاء ، وقد ضاقت الآن من الناحية الجغرافية عما كانت عليه عام ١٨٧٣ لتغلب اللغتين الفرنسية والاسبانية على بعض أجزائها ، وخاصة فى اقليم نافار Navare ، وان كان عدد سكانها — وبخاصة سكان المنطقة الأسبانية — قد زاد كثيرا عما كان عليه سنة ١٨٧٣ (١) .

هذا . وقد هاجر الى أمريكا عقب كشفها بعض أسرات من الباسكيين فانتشرت لغتهم فى المناطق التى حلوا بها . ولا ينفك يتكلم بها الآن بضعة آلاف من أعقابهم ، وتصدر بها بعض صحفهم ومجلاتهم العامة .

١٣ — اللغات الهيبربورية Heperboréennes أو لغات أقصى

(١) وقد وصل عددهم فى أسبانيا سنة ١٩٧١ نحو مليون ونصف مليون . هذا «وتواجه حكومة الرئيس فرانكو عدة حركات للمعارضة داخل أسبانيا من أهمها حركة الباسك الانفصالية فى مقاطعات شمال شرق أسبانيا على ساحل خليج بيسكاى . وتضم هذه الحركة مئات من الفدائيين الذين قاموا بعدة عمليات تخريب خلال السنوات الماضية من أجل تحقيق مطالب شعب الباسك وهى الاستقلال الذاتى والاعتراف بلغته وتاريخه . — ومطالب الباسك الأسبانى بالاستقلال تمتد لمئات من السنين فى التاريخ الأسبانى الذى تعرضت خلاله للضغط والتشجيع مع تغير نظم الحكم . وكان آخر مرة حصلوا فيها على استقلالهم عام ١٩٣١ . ولكن الجنرال فرانكو جاء ليفرض عليهم سلطة الدولة ويمنع استخدام لغة الباسك والاعتراف بقومية خاصة بهم » (الاهرام ١١/٥/١٩٧٠) .

الشمال، وهى لغات سيبيريا وما اليها من أقاليم المنطقة المتجمدة الشمالية . — وتشمل هذه الفصيلة اللغة اليوكاجيرية Youkagir التى يتكلم بها فى القسم الغربى من هذه المنطقة ، والتشوكتشية Tchouktcho التى يتكلم بها نحو عشرة آلاف يقطنون سيبيريا شمالى نهر أنادير Anadyr ، والكورياكية Koryak التى يتكلم بها فى المنطقة المحصورة بين نهر أنادير وشبه جزيرة كمتشاتكا Kamtchatka والكمتشادالية Kamtchadal التى يتكلم بها نحو ألفين يقطنون شبه جزيرة كمتشاتكا وجزر كوريل Kouriles ، والجيلياكية Guiliak التى يتكلم بها فى شمال جزيرة ساخالين Sakhaline وفى الحوض الأدنى لنهر آمور Amour .

١٤ — اللغات الملايوية — البولينيزية Malayo-Polynésiennes ويتكلم بهذه الفصيلة فى طائفة كبيرة من جزر المحيطين الهندى والهادى تبدأ شرقا بجزيرة مدغشقر (٤٠ درجة طول شرقى باريس) وتنتهى غربا بجزيرة باك Paques (١١٠ درجة طول غربى باريس) ، وتمتد من درجة عرض ٥٠ جنوب خط الاستواء الى درجة عرض ٣٠ شمالية . فمنطقة هذه الفصيلة تشغل نحو ٢١٠ درجات طول وثمانين درجة عرض .

وتشمل هذه الفصيلة خمس شعب لغوية وهى :

شعبة اللغات لأندونيسية Indonésiennes ، وهى التى يتكلم بها بجزر أندونيسيا : جزر الفيليبين ، وسيليب ، وبرنيو ، وجاوة وسومطرة ، ومادورا ، ومدغشقر ... الخ .

وشعبة اللغات الميلانيزية Mélanesiennes ، وهى التى يتكلم بها فى جزر ميلانيزيا (جزر سليمان ، وسانت كروز ، وتوريس ، وهابريد الجديدة ، ولويالتى ، وفيدجى ... الخ)

وشعبة اللغات الميكرونيزية Micronésiennes ، وهى التى يتكلم بها فى جزر ميكرونيزيا (جزر جلبرت ، ومرشال ، وكارولين ، وماريان .. الخ) .

وشعبة اللغات البولينزية Polynésiennes وهى التى يتكلم بهـا فى جزر پولينزيا (جزر ساموا ، وكوك ، وتاهيتى أو جزر الشركة ، وپوموتى ، وتونجا ، ومنجـاريفا ، وباك ، وزيلندا الجـديدة ... الخ)

وشعبة لغاب الپاپو Langues Papoues ، وهى اللغات التى يتكلم بها فى غينا الجديدة Nouvelle Guinée والجزر المجاورة لها .

١٥ ـ لغات سكان أستراليا الأصليين .

١٦ ـ اللغات الأمريكية . ويتكلم بها سكان أمريكا الأصليون (الهنود الحمر ومن اليهم) . ـ وكان يبلغ عددهم حينما كشفت أمريكا حوالى ٤٠ مليونا (أى بنسبة ساكن واحد تقريبا فى كل كيلو متر مربع) ثم أخذ عددهم يتناقص شيئا فشيئا حتى هبط فى أوائل القرن العشرين الى حوالى ١٥٫٥ مليونا (أى بنسبة ساكن واحد فى كل ٢٫٥ كيلو متر مربع) ، منهم نحو نصف مليون فى الولايات المتحدة وجرونلاند، ونحو ٦٫٥ مليون فى المكسـيك وأمريكا الوسـطى (هونداراس وكوستاريسا ، وبنما ، ونيكاراجا ، وجواتيمالا ، وسلفادور) ، ونحو ٨٫٥ مليونا بأمريكا الجنوبية .

وقد كان لتخلخل السكان فى هذه المنطقة أثر كبير فى تعـدد لغاتها ، فقد بلغت حسب احصاء العلامة ريفيه Rivet (١) ، ١٢٣ شعبة : منها ٢٦ بأمريكا الشمالية ، و ٢٠ بأمريكا الوسـطى ، و ٧٧ بأمريكا الجنـوبية .

ومن أشهرها : بأمريكا الشمالية لغات الايروكويين Iroquois ، والألجنكويين Algonkins والاسكيمو Esquimaux ، والسيو Siou ، وبأمريكا الوسطى لغات الأموسجو Amosgo ، والكويكاتك Kuikatek واللنكا Lenka والمياه Maya والميسكيتو Miskito ، وبأمريكا

(١) V. Rivet, dans : Les Langues du Monde, pp. 597-713

الجنوبية لغات الألاكالوف Alakaluf ، والأروكان Aroukan والأراواك Arawak والأتاكاما Atakama والكاريب Karib والايتوناما Itonama .

هذا ، ولم تظهر بعد بشكل قاطع صلة قرابة لغوية أو صفة مشتركة تربط هذه الشعب بعضها ببعض . فالفصيلة التى نحن بصدد الكلام عنها هى الى الفصيلة الجغرافية أدنى منها الى الفصيلة اللغوية .

١٧ — لغات السودان وغانة (١) . — وهى لغات غير سامية ولا حامية تتكلم بها جماعات كثيرة من سكان السودان وخاصة السودان الجنوبى وسكان غانة . وقد قسمها العلامة موريس ديلافوس Maurice Delafosse الى ٤٣٥ لغة ترجع الى ست عشرة شعبة (٢) منها : الشعبة النيلية التشادية Nilo-tchadien (يتكلم بها فى المنطقة المحصورة بين أسوان شمالا وفاشودة جنوبا ، وتشتمل على ثلاثين لغة من أشهرها لغات النوبة ، والباريا ، والتوبو ، والميمى ، والكوناما .. الخ) ؛ وشعبة اللغات النيلية — الأبيسينية (يتكلم بها فى الحوض الأوسط للنيل الأزرق وفى حوض النيل الأبيض وبحر الجبل ، وتشتمل على خمس عشرة لغة من أشهرها لغات الشيلوك ، والدنكا ، والديور ، والجاميلا ، والدوكو .. الخ) ؛ وشعبة اللغات النيلية — الاستوائية (يتكلم بها فى جنوب المنطقة السابقة ، وتشتمل على ست وعشرين لغة من أشهرها لغات البارى ، واللاتوكا ، والليرى ، والكافيروندو ، والتاتور .. الخ) ؛ وشعبة لغات كردفان (يتكلم بها فى منطقة كردوفان ومنطقة جبال النوبة ، وتشتمل على عشر لغات منها لغات التالورى ، واللافوفا ، والتومتوم ، والكاندرما .. الخ) ؛ وشعبة اللغات النيلية — الكونغوية ، وشعبة اللغات الغينية — الغانية ... وهلم جرا .

---

(١) هى الجزء الغربى من أفريقيا المحصور بين سنغمبيا شمالا والكنغو جنوبا والواقع على سواحل خليج غانة .

(٢) V. Maurice Delafosse, dans : «Les Langues du Monde», pp. 465-561

١٨ ـ اللغات البنطوية Langues Bantou . ـ ويتكلم بها سكان القسم الجنوبى من أفريقيا فى منطقة واسعة على شكل مثلث ينطبق رأسه على رأس الرجاء الصالح ، ويمتد ضلعه الأيمن على الساحل الشرقى لأفريقيا حتى بلاد الصومال (١) وضلعه الأيسر على الساحل الغربى حتى مدينة دوالا Douala ببلاد الكمرون (٢) ، وتتجه قاعدته من بلاد الصومال الى المحيط الاطلانطيقى مارة شمال أوغندة والكنغو. وكل الشعوب التى تقطن هذا المثلث تتكلم البنطوية ما عدا قبائل الهوتنتوت والبوشيمان والنيجريين التى سيأتى ذكرها فى الفصيلة التاسعة عشرة ، وما عدا المتكلمين بالانجليزية وبالأفريكانية من سكان أفريقيا الجنوبية (٣) .

وتشتمل هذه الفصيلة على لغات كثيرة من أشهرها لغات السوتو Sotho ، والسواحلى Swahili ، والدوالا Douala ، والجندا Ganda والجالوا Galoa والتونجا Tonga ، والزولو Zoulou (وهى التى يتكلم بها قبائل الزولو) (٤) ، والهوسا Haoussa (ويتكلم بها قبائل الهوسا) .

هذا ، وقد كان العرب على اتصال بأهل زنجبار منذ عصور سحيقة ، ولذلك عنوا بدراسة لغتهم (المسماة السواحلية Swahili) ودونوها بحروف عربية ، وعن طريقهم وصلنا كثير من تفاصيل هذه

---

(١) الغاية هنا خارجة ، فلغات الصومال من الشعبة الكوشيتية (احدى شعب الفصيلة السامية الخامية) كما تقدم ، انظر آخر ص ٢٠٢ .

(٢) الغاية هنا داخلة ، فلغة دوالا من أهم لغات هذه الفصيلة .

(٣) انظر ص ١٧١ وتعليق رقم ١ .

(٤) ينحدر الزولو من قبيلة الكافر الأفريقية ، ولا يتجاوز عددهم فى الوقت الراهن ٢٤٥ الفا يسكنون بقرى الناتال . وتعد مدينة دربان (أنشئت سنة ١٨٢٤ وسميت باسم السير بنيامين دربان حاكم مستعمرة الكاب فى ذلك العهد) عاصمة بلادهم ، ويسكنها أكثر من ستين الفا منهم . وهم قوم أولو بأس وشدة وشجاعة نادرة فى القتال . ولم ينفكوا يقاتلون المستعمرين من البوير والهولنديين والانجليز ويدافعون عن استقلال بلادهم حتى غلبوا على أمرهم سنة ١٨٨٣ وضمت بريطانيا بلادهم رسميا الى ممتلكاتها فى أفريقيا . ـ (انظر ما نشره فى هذا الصدد الأستاذ منصور جاب الله فى جريدة الأهرام فى ١٩٤٩/١/٢٣ ـ وانظر كذلك Homburger, dans : Les Langues du Monde, p. 583.

اللهجة . أما اللغات الأخرى من هذه الفصيلة فقد عنى بدراستها كثير من أعضاء الارساليات الدينية فى هذه المنطقة، ودونوها بحروف لاتينية مع بعض علامات لتمييز الأصوات الخاصة بها (١) .

١٩ — لغات البوشيمان والهوتنتوت والنيجريين Boschimans, Hottentotes. Négrilles وهى من القبائل الأفريقية الجنوبية : تقطن أولاها الغابات الاستوائية والمناطق الصحراوية، ولا يتجاوز عدد أفرادها الآن خمسين ألفا ؛ وتقطن ثانيتها منطقة محصورة بين خط عرض ٢٤ جنوب خط الأستواء والحوض الأدنى لنهر الأورانج وبعض أجزاء من مستعمرة الكاب (٢)، ولا يتجاوز عددأفرادها الآن ربع مليون يتألف معظمهم من عشائر الناما Nama ؛ وتتألف ثالثتها من أقزام يقطنون الغابات الاستوائية .

هذا ، ولما كانت هذه الفصائل التسع عشرة ممثلة للقسم البدائى أو الذى وقف نموه من لغات بنى الانسان ، فأهميتها النسبية أقل كثيرا من أهمية الفصيلتين السابقتين (الهندية — الأوروبية ؛ والحامية — السامية) ؛ ولما كان المقام ، من جهة أخرى ، لا يتسع فى عجالة كهذه للكلام عنها وعن خصائص كل منا (٣) ؛ ولأن الباحثين ، من جهة ثالثة ، لم يصلوا بعد فى دراسة معظمها الى نتائج ذات بال ؛ لهذا كله آثرنا أن نقتصر على ماسبق ذكره بصددها ، ونقف الجزء الباقى من هذا الفصل على تكملة البحث فى الفصيلتين الهندية — الأوروبية والحامية — السامية .

---

(١) انظر فى هذه الفصيلة
Homburger, dans : Les Langues du Monde, pp. 561-591.

(٢) كانت عشائر الهوتنتوت تقطن قديما منطقة واسعة جنوب نهر زمبيزى ، ثم اخذت هذه المنطقة تضيق شيئا فشيئا تحت تأثير غارات البنطويين من الشمال والأوروبيين من الجنوب حتى انحصرت فى الحدود التى وصفناها .

(٣) حاولت جمعية اللغة بباريس Société de Linguistique de Paris تحت اشراف الأستاذين مييه Meillet ومارسل كوهن Marcel Cohen أن تعرض فى كتابها «لغات العالم» Les Langues du Monde بحثا موجزا فى هذه الفصائل التسع عشرة فاستغرق بحثها هذا نحو ستمائة صفحة من القطع الكبير (من ١٥٣ — ٧١٣) . وقد اشترك فى تحريره طائفة من أئمة الاخصائيين فى هذه اللغات .

— ٥ —

بعض ما تختلف فيه الفصيلتان السامية والهندية ـ الاوربية

تمتاز كل من هاتين الفصيلتين عن الأخـرى بخواص كثيرة من أهمها ما يلى (١) :

١ — تتألف أصول الكلمات ، فى اللغات السامية فى الغالب من ثلاثة أصوات ساكنة (أحرف ساكنة (٢)) مختلفة . ففى اللغة العـربية مثلا ترجع جميع الكلمات التى فيها معنى القتل ، الى أصل ثلاثى مؤلف من ثـلاث أصـوات سـاكنة مختلفـة هى ق° ت° ل° .

ولا يشذ عن هذه القاعدة الا بعض الحروف والضمائر وبعض أسماء الشرط والموصول وقليل من أسـماء الذوات (يد ، دم) ومن الأفعال (قال ، وعد ، تم ، رد (٣)) .

وهذه الأصول لا توجد مستقلة فى اللغات السامية . فالأصـل الدال على معنى القتل فى اللغة العربية مثلا وهو ق° ت° ل° لايوجد مستقلا فى هذه اللغة ، بل لا يمكن النطق به .

---

(١) وقف العلماء على هذا الموضوع مجلدات ضخمة ، من أحسنها وأقربها مأخذا فى اللغات الهندية ـ الأوروبية كتاب الأستاذ مييه Meillet : Introduction à l'étude comparative des Langues Indo-Européennes. ويقع فى نحو خمسمائة صفحة من القطع الكبير ، وفى اللغات السامية كتاب العلامة رينان Renan : Histoire des langues Sémitiques ويقع كذلك فى نحو خمسمائة صفحة من القطع الكبير . وقد عرضت جمعية علم اللغة بباريس للفصيلتين معا فى كتابها «لغات العالم» فى نحو مائة وخمسين صفحة (١ ـ ١٥٣) .

(٢) الحرف هو مايرمز الى الصوت فى الكتابة ، فاستعمال كلمة أصوات فى هذا المقام أدق من استعمال كلمة حروف ، ونريد بالساكنة ما يقابل اللينة .

(٣) انظر تفصيل هذا الموضوع فى مقدمة كتابنا «فقه اللغة» . هذا ، وأما الكلمات التى تبدو رباعية الأصول فى العبرية والعربية فهى متفرعة فى الحقيقة عن أصول ثلاثية (دحرج مثلا متفرعة عن درج أودحر ، على الرغم من أن علماء الصرف يعتبرون جميع أصواتها أصيلة) .

والأصوات التى يتألف منها أصل ما توجد مرتبة ، حسب ترتيبها فى هذا الأصل ، فى جميع الكلمات المشتملة على معناه العام . فالأصوات الثلاثة ق ت ل ، التى يتألف منها الأصل الدال على معنى القتل ، توجد مرتبة بالشكل السابق فى جميع الكلمات المشتملة على هذا المعنى : قتل قاتل، قتال ، قتيل .. الخ .

واشتمال الكلمة على أصوات أصل ما لايدل على أكثر من تضمنها للمعنى العام لهذا الأصل .

أما ما عدا المعنى العام فيشار اليه بأصوات مد طويلة (ألف ، ياء، واو ... الخ) أو قصيرة (فتحة ، كسرة ، ضمة) تلحق جميع أصوات الأصل أو بعضها . فنوع الكلمة (كونها اسما أو فعلا أو حرفا ، اسم فاعل أو اسم مفعول . متعدية أو لازمة ، مفردة أو مثنى أو جمعا .. الخ) وزمنها (حدث معناها فى الماضى أو يحدث فى الحال أو فى الاستقبال) ووظيفتها فى الجملة (كونها فاعلا أو مفعولا أو مضافا اليه أو حالا أو تمييزا .. الخ) ، كل ذلك وما اليه تدل عليه فى اللغات السامية أصوات مد طويلة أو قصيرة تلحق جميع أصوات الأصل أو بعضها . وأصوات المد الطويلة هى التى يرمز اليها فى الكتابة العربية بحروف اللين الثلاثة (الألف والياء والواو) . والقصيرة هى التى يرمز اليها بالفتحة والكسرة والضمة . فبضم القاف وكسر التاء وفتح اللام فى «قُتِلَ المجرم» مثلا تدل الكلمة على فعل قتل حدث فى زمن مضى ومسند للمفعول . وبمد القاف بالألف وكسر التاء وابقاء اللام ساكنة فى «قَاتِلْ الذى يقاتلك» ، تدل الكلمة على أمر المخاطب باجراء القتل فى صورة متبادلة مع غيره . وبفتح القاف ومد التاء بالياء وكسر اللام فى « هذا دم القتيل » ، تدل الكلمة على شخص وقع عليه القتل ومنسوب اليه (مضاف اليه) شىء آخر . وبفتح القاف وابقاء التاء ساكنة ومد اللام بالألف فى « هؤلاء قتلى الحرب » تدل الكلمة على عدة أفراد وقع عليهم القتل .. وهلم جرا .

وقد يصحب هذا أحيانا أصوات جديدة تسبق أصوات الأصل الثلاثة أو تتخللها أو تلحقها للدلالة على معان خاصة فى الكلمة . فبزيادة ميم محركة بالفتح قبل أصوات الأصل ونون ساكنة فى نهاية الكلمة مع ابقاء القاف ساكنة وفتح التاء واللام فى «أصاب مقتلا (مَقْتَلَنْ)» تدل الكلمة على عضو نكرة تؤدى اصابته الى القتل وقد وقع عليه القتل المعبر عنه فى الجملة . وبزيادة ياء مفتوحة قبل أصوات الأصل وتاء مفتوحة بعد القاف ونونَ مفتوحة فى آخر الكلمة ، مع ابقاء القاف ساكنة وكسر التاء ومد اللام بالواو فى « القوم يقتتلون » تدل الكلمة على فعل يحدث فى الحال أو فى الاستقبال فى صورة متبادلة بين طائفتين من الذكور الآدميين .

ومما تقدم يتضح أن للأصوات الساكنة (ونعنى بها ما عدا أصوات المد) فى اللغات السامية أهمية تزيد كثيرا على أهمية أصوات المد . فالمعنى الأساسى للكلمة يشار اليه غالبا بالأصوات الساكنة . أما أصوات المد فلا تعدو وظيفتها فى الغالب تحديد هذا المعنى العام وتوجيهه وجهات خاصة . هذا الى أن الأصوات الساكنة تنال فى اللغات السامية أكبر قسط من عناية المتكلم ، وهى لذلك أوضح فى الجرس من أصوات المد وأظهر منها فى السمع . وقد سرت أهمية الأصوات الساكنة فى الدلالة والنطق الى الرسم نفسه . فأهم ما يعنى الرسم السامى باظهاره هى الأصوات الساكنة . أما أصوات المد فيغفل بعضها اغفالا تاما ، ويشير الى بعضها بالشكل ، ويرسم بعضها رسما مضطربا غير دقيق . وهذا فى الرسم الحديث . أما الأشكال القديمة للرسم السامى فكانت تغفل جميع أصوات المد .

أما اللغات الهندية — الأوروبية فتختلف عن اللغات السامية — الحامية فيما يتعلق بأصول الكلمات من أربعة وجوه . أحدها أن أصول الكلمات الهندية — الأوروبية ليست متحدة فى عدد أصواتها كما هو شأن الأصول السامية ، بل تختلف فى ذلك اختلافا كبيرا ، فمنها الثنائى

ومنها الثلاثي ومنها الرباعي .. وهلم جرا . وثانيها أن أصول الكلمات الهندية الأوروبية ليست مؤلفة من أصوات ساكنة فحسب كما هو شأن الأصول السامية ، بل تختلط فيها الأصوات الساكنة باللينة . وثالثها أن أهمية الأصوات الساكنة لا تزيد فى اللغات الهندية ــ الأوروبية عن أهمية الأصوات اللينة لا فى الدلالة ولا فى النطق ولا فى الرسم كما هو الشأن فى اللغات السامية . ورابعها أن الأصل الدال على المعنى العام للكلمة هو نفسه بمنزلة كلمة مستقلة يمكن فصلها والنطق بها على حدة (١) . وقد يتحقق أحيانا هذا الفصل فى الواقع فيبقى الأصل فى الكلمة مجردا من كل عنصر آخر (٢) . على أنه فى حكم الثابت أن جميع أصول الكلمات الهندية الأوروبية كانت فى عصورها الأولى ــ حينما كانت اللغة غير متصرفة (٣) ــ تستخدم وحدها عارية من كل زيادة (٤) .

ويشير الأصل فى الكلمة الهندية ــ الأوروبية الى معناها العام . أما ما عدا ذلك فيشار اليه بالعلامات الآتية (٥) .

(أ) أصوات تلحق الأصل فتدل على نوع الكلمة (كونها اسما أو فعلا أو حرفا اسم فاعل أو مفعول .. الخ) وتسمى هذه الأصوات « باللاحقة » suffixe وأصل الكلمة مع لاحقتها يسميان مادة الكلمة Thème .

وقد يتصل بالأصل أكثر من لاحقة واحدة للدلالة على عدة معان فى الكلمة من هذا القبيل . وقد تعرو الكلمة من اللواحق ، ولكن تجردها منها يشير هو نفسه الى معنى خاص فيها .

---

(١) V. Renan : Langues Sémitiques, 455 et suiv. ; Meillet : Introduction... etc., 115-122.

(٢) Meillet, op. cit., 120

(٣) انظر معنى هذه الكلمة فى صفحة ١١٧ .

(٤) Meillet, op. cit., 119-120

(٥) انظر فى هذه المميزات وما يتصل بها Meillet, op. cit., 115-122

(ب) أصوات تأتى عقب اللاحقة فتختتم بها الكلمة لتعيين وظيفتها فى الجملة (كونها فاعلا أو مفعولا أو مضافا اليه الخ) وزمنها (ماضيا أو مضارعا .. الخ) ونوع اسنادها (كونها مسندة الى المتكلم أوالمخاطب أو الغائب .. الخ) ودلالتها على مذكر أو مؤنث ، مفرد أو مثنى أوجمع .. وهلم جرا . وتسمى هذه الأصوات «بالخاتمة» Désinence (١) .

ولا يلحق الأصل أكثر من خاتمة واحدة . وقد تتجرد الكلمة من «الخواتم» ، ولكن تجردها يشير هو نفسه الى معنى خاص فيها . فتجرد الفعل مثلا من الخاتمة يدل، فى بعض اللغات الهندية ــ الأوروبية (ومنها الانجليزية والفرنسية) على أمر مسند للمفرد المخاطب Aime, Love .

وقد تتجرد الكلمة من اللاحقة والخاتمة فيبقى الأصل عاريا من كل زيادة . ولكن تجرده هذا يدل هو نفسه على معنى خاص فيه .

(جـ) أصوات تسبق الأصل فتلصق بالكلمة فى مبدئها للدلالة على معان من نوع المعانى التى تدل عليها الأصوات اللاحقة السابق ذكرها : وتسمى هذه الأصوات « بالسابقة » Préfixe .

(د) أصوات لين طويلة أو قصيرة a, e, é, è, ê, i, o, ô, y, oi, ei, eau, au, ui... etc. تلحق جميع أصوات الأصل أو بعضها على نحو ماتقدم شرحه فى اللغات السامية .

(هـ) شكل النطق بمختلف أجزاء الكلمة . ففى بعض اللغات الهندية ــ الأوروبية يتغير معنى الكلمة بتغير طريقة النطق بأجزائها . ففى الانجليزية مثلا تتردد بعض الكلمات بين الاسمية والفعلية تبعا لطريقة النطق بها ، فاذا ضغط فى النطق على جزئها الأول كانت اسما . واذا ضغط على جزئها الأخير كانت فعلا :

The object of our book is...

I object against this theory...

(١) ليست كلمة «الخاتمة» بترجمة لكلمة Désinence ، بل هى كلمة من اصطلاحنا لتسهيل التسمية .

(و) موقع الكلمة فى الجملة . ففى بعض اللغات الهندية — الأوروبية لا يتميز الفاعل من المفعول الا بتقديمه فى الجملة Pierre bat Paul.

وتختلف اللغات الهندية — الأوروبية فى مبلغ استخدامها لهذه العلامات الست : فمن اللغات الهندية — الأوروبية ما يستخدم جميع هذه العلامات ، ومنها ما لايستخدم الا بعضها ، ومنها يستخدم بعضها بكثرة ولا يلجأ لبعضها الآخر الا نادرا . واليك مثلا العلامات التى سميناها « السابقة » (رقم ج) : فهى لاتوجد فى كثير من اللغات الهندية — الأوروبية القديمة ، على حين أنها تكثر فى الحديثة منها كالانجليزية والفرنسية وما اليهما Understand, Comprendre

٢ — لا تكاد توجد فى اللغات السامية كلمات تشتمل على أكثر من أصل واحد ، على حين أن هذا النوع يكثر فى اللغات الهندية — الأوروبية ، وبخاصة الحديث منها . وكل كلمة من هذا القبيل تدل على معنى مركب من معانى الأصول التى تشتمل عليها (١) .

٣ — ليس للفعل فى معظم اللغات السامية الا زمنان : فعل انتهى زمنه (ماض)؛ وفعل لم ينتهزمنه (مضارع للحال أوالاستقبال وأمر)؛ (٢) على حين أن له فى اللغات الهندية — الأوروبية أزمنة كثيرة لكل منها صيغة خاصة : الماضى القريب ؛ الماضى البعيد ؛ الماضى الكامل ؛ الماضى المتصل بالحاضر ؛ المستقبل .. الخ . وقد بلغت هذه الأزمنة فى اللغة

---

(١) توجد هذه الظاهرة فى اللغات السامية فى بعض كلمات قليلة معظمها حديث النشأة ، ومن ذلك ما يسمونه بالكلمات المنحوتة : تلاشى (أصبح لاشىء) ، حمدل (قال الحمد لله) ، بسمل (قال بسم الله) ، طلبق (قال أطال الله بقاءك) .. الخ . — انظر تفصيل هذا الموضوع بكتابنا «فقه اللغة» الطبعة السابعة ص ١٨٦ وتوابعها .

(٢) يستثنى من ذلك اللغات الأكادية فان للفعل فيها ثلاثة أزمنة أصيلة : زمنان يشار اليهما بأصوات تلحق أول الفعل ، وهما الزمن الماضى التام والزمن المضارع للاستقبال، وزمن ثالث يشار اليه بملحق فى آخر الفعل وهو الزمن المعبر عن الاستمرار (انظر الطبعة السابعة من كتابنا «فقه اللغة» ص ٢٩) .

الفرنسية أحد عشر فى الجمل الاخبارية وحدها indicatif

Je parle, je parlais, je parlai, j'ai parlé, j'eu parlé, j'avais parlé, j'ai eu parlé, j'avais eu parlé, je parlerai, j'aurai parlé, j'aurai eu parlé.

٤ — يحدث فى الغالب تأنيث الاسم والصفة فى اللغات السامية والحامية باضافة تاء الى المذكر . أما فى اللغات الهندية — الأوروبية فللتأنيث طرق أخرى كثـيرة ، منها تضعيف الحرف الأخـير للمذكر (Chat, te; gras, se)، ومنها استبدال حرف آخـر به (Loup, Ve; neuf, ve) ومنها استبدال عـدد من الأحرف الأخيرة فى المؤنث بعـدد من الأحرف الأخيرة فى المذكر (instituteur, trice, pécheur, cheresse) ومنها مـد الحرف الأخير فى المذكر (berger, ère; fermier, ière) ومنها زيادة بعض حروف على المـذكر (tigre, resse, comte, tesse) . — وقد يلتزم التذكير أو التأنيث لبعض الحيوانات والطيور فى الفصيلتين ، ويدل على الجنس الآخر علامات زائدة على الكلمة (مثلا الضبع والعقاب مؤنثان دائما فى اللغة العربية ؛ والذئب Wolf مذكر دائما فى الانجليزية ويقال للأنثى she wolf) . — وأما الفصائل الأخرى الخارجة عن الانسان والحيوان فالتذكير والتأنيث فيها مجرد اصطلاح . وكثيرا ما يختلف اصطلاح الفصيلتين اللغـويتين احداهما عن الأخرى (مثلا : الشمس فى اللغة العـربية مؤنثة وهى فى الفرنسية مذكر ، وعلى العكس من ذلك القمر) . وفى بعض اللغـات الهندية الأوروبية تختلف علامة التعريف تبعا لجنس ما يلحقها (مذكر أو مؤنث) وتبعا لعدده (فى الفرنسية مثلا Le, La, Les) وهذا لا يكاد يوجد له نظير فى اللغات السامية .

٥ — يميل الأسلوب كثيرا فى اللغات السامية — وخاصة الأسلوب الأدبى — الى استخدام الكلمات والعبارات فى غير ما وضعت له عن طريق الاسـتعارة والمجاز المرسل والكناية وما الى ذلك . أما أساليب اللغات الهندية — الأوروبية فيبدو فيها الحرص على استخدام الكلمات فى معناها الأصلى .

هذا وقد اعتمدنا فى التفرقة بين هاتين الفصيلتين على أمور تتصل بالقواعد لا بالمفردات . وذلك لأن ناحية القواعد هى من أهم ما تمتاز به الفصائل بعضها عن بعض . فمنها تتكون شخصية اللغات واليها ترجع مقوماتها . وهى التى تمثل المظهر الثابت المستقر فى اللغات : فهى لاتكاد تتغير، ومايحدث فيها أحيانا من تغير يجرى دائما ببطء وفى نطاق ضيق. وهى ، الى هذا كله ، لا تنتقل بطريق الاقتباس من لغة الى أخرى[1]. فتشابه لغتين فى القواعد يدل اذن على انتمائهما الى فصيلة واحدة واختلافهما فيها يدل على اختلاف فصيلتهما .

على حين أن المفردات تمثل المظهر المتقلب والناحية المتنقلة فى اللغات . فهى محاطة بعوامل كثيرة تحول دون ثباتها وتجعلها عرضة للتغير المطرد والتطور السريع ، وتذلل لها وسائل الانتقال من لغة الى لغة . فتشابه لغتين فى مفرداتهما لايدل على انتمائهما الى فصيلة واحدة . فقد تكونان من فصيلتين مختلفتين ويكون السبب فى هذا التشابه راجعا الى أن احداهما قد اقتبست مفرداتها عن الأخرى. واختلاف لغتين فى مفرداتهما لايدل على اختلاف فصيلتهما . فقد تكونان من فصيلة واحدة ويكون السبب فى هذا الاختلاف راجعا الى أن مفردات كل منهما قد سلكت فى تطورها طريقا يختلف عن الطريق الذى سلكته مفردات الأخرى لاختلافهما فى المؤثرات المحيطة بهما أو أن احداهما قد اقتبست مفرداتها من لغة ثالثة لا تربطها بها لحمة قرابة فبعدت فى هذه الناحية عن فصيلتها .

فاللغة السريانية مثلا تعد من فصيلة اللغات السامية ، مع أن قسما كبيرا من مفرداتها يتحد مع مفردات اللغة الاغريقية التى تعد من أفراد الهندية ــ الأوروبية . وذلك لأن قواعد الأولى قواعد سامية ، وقواعد

---

(١) سنعرض لهذا الموضوع بتفصيل فى الفصل الثانى وسنذكر فيه أن القواعد اذا انتقلت من لغة الى أخرى كان انتقالها ايذانا بزوال اللغة التى انتقلت اليها واندماجها فى اللغة التى انتقلت منها ، وأن هذا يحدث حينما تشتبك لغتان فى صراع ويكتب لاحداهما النصر .

الثانية هندية ــ أوروبية . وتشابههما فى المفردات نشأ عن مجرد اقتباس الأولى من الثانية لما كان يعوزها من كلمات . ــ واللغة التركية تتفق فى قسم كبير من مفرداتها مع الفارسية والعربية ، مع أن كل لغة من هذه اللغات الثلاث تعد من فصيلة خاصة : فالتركية من الفصيلة التترية ؛ والفارسية من الهندية ــ الأوروبية ؛ والعربية من السامية ؛ وذلك لاحتفاظ كل منها بقواعد فصيلتها . أما تشابهها فى المفردات فقد نشأ عن مجرد انتقال طائفة من كلمات اللغتين الثانية والثالثة الى اللغة الأولى عن طريق الاقتباس . وعلى هذا الأساس عدت الفارسية الحديثة من فصيلة اللغات الهندية ــ الأوروبية ، على الرغم من اتفاقها فى كثير من المفردات مع اللغة العربية التى تعد من الفصيلة السامية .

— ٦ —

وجوه الشبه بين الفصيلتين السامية والهندية ــ الاوربية

ترى طائفة من العلماء أن هاتين الفصيلتين ، مع اختلافهما فى القواعد ، تتفقان فى كثير من أصول الكلمات . ومن أشهر أفراد هذه الطائفة الأساتذة كلابرت وبوب وهمبلت واوالد وبنفى ولاسن وبوت وكيل وبونسن وليبسيوس وفورست وديليتزش (١) .

Klaproth, Bopp, Hunbodlt, Ewald, Benfey, Lassen, Pott, Keil, Bunseen,Lepsius, Furst, Delitzsch.

وقد أوغل كثيرا فى هذا السبيل الأستاذان فورست وديليتزش ، فلم يغادرا أصلا من أصول الفصيلة السامية الا كشفا عما يشبهه صوتا ودلالة من أصول الفصيلة الهندية ــ الأوروبية .

---

(١) من بين هؤلاء من كشف عن وجوه الشبه بين جميع أفراد الفصيلة الأولى وجميع أفراد الفصيلة الثانية ، ومنهم من كشف عن وجوه الشبه بين بعض لغات الفصيلة الأولى وبعض لغات الفصيلة الثانية ، كالعلامة ليبسيوس الذى كشف عما تتفق فيه أصول الكلمات السنسكريتية مع أصول الكلمات العبرية .

أما تعليل هذه الظاهرة فقد انقسم هؤلاء العلماء بصدده الى ثلاث فرق . ففريق يعللها بأن احدى الفصيلتين قد انشعبت عن الأخرى وظلت محتفظة بأصول مفرداتها ولكنها سلكت فى تكوين قواعدها وجهة تختلف عن وجهة أصلها ، فأخذت تبعد عنه فى هذه الناحية شيئا فشيئا حتى وصل الخلاف بينهما الى الحد الذى هما عليه الآن . وفريق يذهب الى أنهما قد تفرعتا عن لغة دثرت ولم يصلنا شىء من آثارها ، وأن هذه اللغة كانت متصرفة (١) ذات قواعد كاملة التكوين ، وأن قواعد كل فصيلة منهما قد سلكت فى تطورها طريقا يختلف عن طريق الأخرى، ولكن كلتيهما ظلت محتفظة بأصول مفردات اللغة التى انشعبتا عنها . وفريق ثالث يرى أن الشعب الذى تفرع عنه الساميون والآريون كان له فى الأصل لغة مشتركة ، وأن انقسامه الى هاتين الشعبتين قد حدث ولغته فى الدور الأول من أدوار تكونها اذ لم تكن قد تجاوزت بعد مرحلة اللغات العازلة (٢) العارية من القواعد ، وأن كل شعبة منهما ، تحت تأثير عقليتها الخاصة وما كان يكتنفها من شئون طبيعية واجتماعية، قد اتجهت فى تكملة لغتها وتكوين واعدها منحى يختلف عن المنحى الذى اتجهت اليه الشعبة الأخرى ، ولكن بقى فى مفردات كلتيهما كثير من آثار الأصل المشترك (٣) .

غير أن أساس النظرية نفسه ، وهو اتفاق الفصيلتين فى أصول المفردات اتفاقا يؤذن بانشعاب احداهما عن الأخرى أو انشعابهما عن أصل واحد قريب ، غير مسلم به من جمهرة المحققين من علماء اللغة .

---

(١) انظر معنى هذه الكلمة بصفحة ١١٥ .

(٢) انظر معنى هذه الكلمة فى صفحة ١١٧ .

(٣) نشر الشيخ محمد أحمد مظهر فى مجلة الديانات The Review of Religions التى تصدرها باللغة الانجليزية جماعة الأحمدية فى باكستان الغربية بحثا عنوانه : « اللغة العربية هى أم اللغات جميعا» . وقد بسط نظريته وأدلتها فى تسع مقالات نشرت فى هذه المجلة من فبراير الى أكتوبر ١٩٦٠ . ثم أخذ يستعرض أصول طائفة من اللغات الحية والميتة مبينا انشعابها من أصول اللغة العربية ، فطبق نظريته على اللغة السنسيكريتية فى عدد نوفمبر سنة ١٩٦٠ ، وعلى الانجليزية فى عدد ديسمبر ١٩٦٠ . وتقوم نظريته على الأساس نفسه الذى تقوم عليه النظريات التى نحن بصدد مناقشتها .

وذلك لأن القائلين بهذه النظرية لم يقدموا على صحتها دليلا يعتد به . فليس من بين وجوه الشبه التى كشفوا عنها بين هاتين الفصيلتين ماينهض دليلا قاطعا على صحة نظريتهم، بل ان كثيرا منها لينم على ضعفها وبطلانها. فمن ذلك مثلا ما اعتمد عليه بهذا الصدد الألمانيان فورست وديليتزش. فقد ذهبا الى أن أصول الكلمات السامية كانت قديما مؤلفة من حرفين اثنين ثم زيد فيما بعد على كل أصل منها حرف ثالث (١) . وعلى أساس هذا المذهب — الذى لا يؤيده أى دليل قاطع بل قامت أدلة قوية على بطلانه — تحايلا على التقريب بين الأصول السامية والأصول الهندية الأوروبية . فاختارا لكل أصل سامى كلمة هندية — أوروبية تقرب منه فى أصواتها ودلالتها ، وقررا تفرعهما من أصل واحد . ولاثبات ذلك يختاران حرفين تشترك فيهما الكلمتان ، ويقرران أن الأصل السامى كان يتألف قديما من هذين الحرفين وحدهما ثم زيد عليهما فيما بعد حرف ثالث ، وأن هذا الأصل الثنائى نفسه هو الذى جاءت منه الكلمة الهندية — الأوروبية . ولا يخفى ما فى هذه الطريقة الاستدلالية من تحكم وتخمين ومجافاة للروح العلمى ومناهج البحث الصحيح (٢) . — ومن ذلك أيضا ما ذهب اليه ديليتزش بصدد التشابه بين طائفة من مفردات اللغة العبرية من جهة وطائفة من مفردات اللغتين الاغريقية واللاتينية من جهة أخرى . فقد اتخذ من هذا التشابه دليلا على صحة النظرية التى نحن بصدد مناقشتها ، غافلا عن أن العبرية الحديثة قد اقتبست كثيرا من مفردات الاغريقية واللاتينية . ومن الغريب أن الكلمات

---

(١) قد قال بهذ امن قبلهما الأستاذ جيزينيوس Gesenius . ومن المتعصبين لهذا المذهب من المستشرقين فى العصر الحاضر الأب مرمرجى الدومنكى (انظر كتابة : «هل العربية منطقية ، أبحاث ثنائية السنية» وخاصة صفحات ١٤٥ — ١٥٠) . وقد قال بهذا المذهب نفسه كثير من الباحثين فى اللغتين العبرية والعربية وفى الساميات منهم فارس الشدياق فى كتابه : «سر الليال فى القلب والابدال» . وقد زعم الأب انستاس الكرملى أنه زعيم هذا المذهب . انظر تفصيل هذا كله فى كتاب الأب مرمرجى الدومنكى السابق ذكره صفحات ١٥٦ — ١٦٠ — وانظر فيما يتعلق بأصول الكلمات السامية وأصول الكلمات الهندية — الأوربية صفحات ٢١٧ — ٢٢٢ .

(٢) انظر فى الرد على هذه النظرية

Renan : Langues Sémitiques, p. 448 et suiv.

التى ذكرها للاستدلال على مذهبه هى ذاتها من أشهر ما اقتبسته العبرية الحديثة من هاتين اللغتين . — وآخرون من المؤيدين لهـــذه النظرية يعتمدون فى اثبات التشابه بين مفردات الفصيلتين السامية والهندية — الأوروبية على كلمات تكاد تتفق فى جميع اللغات لانحدارها من الأصل الأول الذى نشأت منه اللغة الانسانية ، وهو أصوات الحيوان ومظاهر الطبيعة والأصوات التى تحدثها الأفعال وأصوات التعبير الطبيعى عن الانفعالات وما الى ذلك . وغنى عن البيان أن كلمات هذا شأنها لاتدل على مايذهب اليه أصحاب هذه النظرية من انشعاب احدى الفصيلتين عن الأخرى أو انشعابهما عن أصل قريب . — وبعض المؤيدين لهـــذه النظرية يعتمد فى اثبات القرابة بين الفصيلتين على وجوه شبه بعيدة بين مفرداتهما أو على تقارب جاء عن طريق الصدفة والاتفاق . — وقصارى القول : لا نكاد نجد من بين الأدلة التى اعتمد عليها أصحاب هـــذه النظرية ما يستحق المناقشة ، فضلا عن أن ينهض حجة قاطعة على صحتها.

الفصل الثالث

صراع اللغات[1]

- ١ -

نظرة عامة فى عوامله وآثاره فى حياة اللغة

يحدث بين اللغات ما يحدث بين أفراد الكائنات الحية وجماعاتها من احتكاك وصراع وتنازع على البقاء وسعى وراء الغلب والسيطرة. وتختلف نتائج هذا الصراع باختلاف الأحوال . فتارة ترجح كفة أحد المتنازعين فيسارع الى القضاء على الآخر، مستخدما فى ذلك وسائل القسوة والعنف ، ويتعقب فلوله فلا يكاد يبقى على أثر من آثاره . وتارة ترجح كفة أحدهما كذلك ، ولكنه يمهل الآخر ، وينتقص بالتدريج من قوته ونفوذه ، ويعمل على خضد شوكته شيئا فشيئا حتى يتم له النصر . وأحيانا تتكافأ قواهما أو تكاد ، فتظل الحرب بينهما سجالا ، ويظل كل منهما فى أثنائها محتفظا بشخصيته ومميزاته .

وينشأ هذا الصراع عن عوامل كثيرة أهمها عاملان : أحدهما أن ينزح الى البلد عناصر أجنبية تنطق بلغة غير لغة أهله ؛ والآخر أن يتجاور شعبان مختلفا اللغة ، فيتبادلا المنافع ويتاح لأفرادهما فرص الاحتكاك المادى والثقافى .

وسنقف على دراسة كل عامل من هذين العاملين ونتائجه فقرة على حدتها .

---

(١) سنقتصر فى هذا الفصل على الصراع بين اللغات المستقلة . أما الصراع بين لهجات اللغة الواحدة فقد عرضنا له فى أثناء كلامنا على تفرع اللغات فى الفصل الأول من هذا الباب (انظر صفحات ١٧٩ - ١٨٤) ، وذلك لأن هذا النوع الأخير من الصراع يلازم التفرع ويسايره ويكمل عمله ، وذلك على عكس الصراع بين اللغات المنفصلة ، فانه مستقل عن التفرع .

— ٢ —

العامل الأول

نزوح عناصر أجنبية الى البلد

قد يحدث على أثر فتح أو استعمار أو حرب أو هجرة ... أن ينزح الى البلد عنصر اجنبى ينطق بلغة غير لغة أهله . فيشتبك اللغتان فى صراع ينتهى الى احدى نتيجتين : فأحيانا تنتصر لغة منهما على الأخرى فتصبح لغة جميع السكان قديمهم وحديثهم أصيلهم ودخيلهم ؛ وأحيانا لا تقوى واحدة منهما على الأخرى فتعيشان معا جنبا لجنب .

(أ) الحالات التى يحدث فيها تغلب احدى اللغتين

وتحدث النتيجة الأولى ، وهى أن تتغلب احدى اللغتين على الأخرى فتصبح لغة جميع السكان أصيلهم ودخيلهم ، فى حالتين :

(الحالة الأولى) أن يكون كلا الشعبين همجيا قليل الحضارة منحط الثقافة ، ويزيد عدد أفراد أحدهما عن عدد أفراد الآخر زيادة كبيرة . ففى هذه الحالة تتغلب لغة أكثرهما عددا سواء أكانت لغة الغالب أم المغلوب، لغة الأصيل أم الدخيل. وذلك أنه عند انعدام النوع يتحكم الكم فى مصير الأمور . — ولكن هذه النتيجة لا تحدث الا اذا كانت اللغتان المتصارعتان من شعبة لغوية واحدة أو شعبتين متقاربتين .

والأمثلة على ذلك كثيرة فى التاريخ . فمن ذلك أن الانجليز السكسونيين ، حينما نزحوا من أواسط أوربا الى انجلترا ، لم تلبث لغتهم أن تغلبت على اللغات السلتية التى كان يتكلم بها السكان الأصليون . وذلك لأن عدد من بقى من السلتيين بهذه الأقاليم لم يكن شيئا مذكورا بجانب عدد المغيرين ، وكلا الشعبين كان همجيا منحطا فى مستوى حضارته ومبلغ ثقافته ، وكلتا اللغتين تنتمى الى فصيلة اللغات الهندية الأوربية . — والنورمانديون Normands ، حينما أغاروا على انجلترا فى منتصف القرن التاسع الميلادى واحتلوا معظم

أقاليمها ، لم تلبث لغة الشعب المقهور أن تغلبت على لغتهم ، فأصبح جميع السكان ، أصيلهم ودخيلهم ، انجليزيهم ونورمانديهم ، يتكلمون الانجليزية السكسونية . وذلك لأن الانجليز المغلوبين كانوا أكثر عددا من النورمانديين الغالبين ، ولم يكن لأحد الشعبين اذ ذاك حضارة ولا ثقافة راقية ، وكلتا اللغتين من الفصيلة الهندية الأوربية .

وقد يحدث أحيانا فى هذه الحالة أن تتغلب لغة على أخرى من غير فصيلتها . ولكن هذه الظاهرة نادرة الحدوث ، ولا يتم التغلب فيها الا بصعوبة وبعد أمد طويل . واللغة التى تنشأ من هذا التغلب ينالها كثير من التحريف فى ألسنة المحدثين من الناطقين بها ، لشدة الاختلاف بينها وبين لغتهم الأصيلة فتبعد بعدا كبيرا عن صورتها الأولى . فالبلغاريون ، وهم من أصل فينوانى Finois ، حينما نزحوا الى البلقان وامتزجوا بشعوب الصقالبة (الشعوب السلافية Slaves) أخذت لغتهم تنهزم شيئا فشيئا أمام لغة هذه الشعوب حتى انقرضت وحل محلها لسان صقلبى . وذلك لأن عدد البلغاريين لم يكن شيئا مذكورا بجانب عدد الصقالبة المتزجين بهم ، وكلتا الفئتين كانت اذ ذاك همجية منحطة فى مستوى حضارتها ومبلغ ثقافتها . وقد حدث هذا التغلب مع اختلاف اللغتين فى الفصيلة ، فلغة البلغاريين الأصلية كانت من الفصيلة الفينية (١) ، على حين أن اللغات الصقلبية من الفصيلة الهندية الأوربية (٢) . ولكن هذا التغلب لم يتم الا بصعوبة وبعد أمد طويل وصراع عنيف خرجت منه اللغة الغالبة مشوهة محرفة عن مواضعها فى ألسنة المحدثين من الناطقين بها ، فبعدت بعدا كبيرا عن صورتها القديمة . فالبلغارية الحديثة هى أكثر اللهجات الصقلبية تحريفا وبعدا عن أصولها الأولى .

(الحالة الثانية) أن يكون الشعب الغالب أرقى من الشعب

---

(١) انظر ص ٢٠٩ (رقم ١١) و ٢١٠ .

(٢) انظر صفحة ١٩٩ رقم ٨ .

المغلوب فى حضارته وثقافته وآداب لغته ، وأشد منه بأسا وأوسع نفوذا . ففى هذه الحالة يكتب النصر للغته فتصبح لغة جميع السكان ، وان قل عدد أفراده عن أفراد الشعب المغلوب ، على شريطة أن تدوم غلبته وقوته مدة كافية ، وأن تقيم بصفة دائمة جالية يعتد بها من أفراده فى بلاد الشعب المغلوب ، وأن تمتزج بأفراد هذا الشعب ، وأن تكون اللغتان من شعبة لغوية واحدة أو من شعبتين متقاربتين .

والأمثلة على ذلك كثيرة فى التاريخ . فقد نجم عن فتوح الرومان فى وسط أوروبا وجنوبها وشرقها أن تغلبت لغتهم اللاتينية على اللغات الأصلية لايطاليا واسبانيا وبلاد الجول La Gaule (فرنسا وما اليها) والألب انوسطى Alpes Centrales والاليريا Illyrie ، مع أن الرومان المغيرين كانوا فى هذه البلاد أقلية بالنسبة لسكانها الأصليين . — وقد نجم عن غزو الآراميين للبلاد الناطقة بالأكادية والفينيقية والعبرية أن تغلبت لغتهم على هذه اللغات ، مع أن الآراميين المغيرين كانوا فى هذه البلاد أقلية بالنسبة لسكانها الأصليين (١) . — وقد نجم عن فتوح العرب فى آسيا وأفريقيا أن تغلبت لغتهم على كثير من اللغات السامية الأخرى وعلى اللغات القبطية والبربرية والكوشيتية (٢) ، فأصبحت اللغة العربية لغة الحديث والكتابة فى معظم مناطق شبه الجزيرة العربية وفى مصر وشمال أفريقيا وفى جزء كبير من قسمها الشرقى المتاخم لبلاد الحبشة ، مع أن الجالية العربية فى هذه البلاد كان عددها أقل كثيرا من عدد السكان الأصليين .

وفى كلتا الحالتين السابقتين لا يتم النصر غالبا لاحدى اللغتين الا بعد أمد طويل يصل أحيانا الى أربعة قرون ، وقد يمتد الى أكثر من ذلك . فالرومان قد أخضعوا **بلاد الجول** La Gaule (فرنسا وما اليها)

---

(١) انظر تفصيل ذلك فى الفصول الاول والثانى والثالث من كتابنا «فقه اللغة» .
(٢) انظر هذه اللغات بصفحات ٢٠٢ — ٢٠٥ .

فى القرن الأول الميلادى ، ولكن لم يتم النصر للغتهم اللاتينية على اللغة السلتية التى كان يتكلم بها أهل هذه البلاد الا حوالى القرن الرابع الميلادى . — ومع ما كان للعرب من قوة الشوكة ، ورقى اللغة ، واتساع الحضارة ، وحماية الدين ، وسطوة الغالب ، لم يتم النصر للغتهم على القبطية والبربرية الا بعد أمد طويل . على أن اللغة القبطية لاتزال مستخدمة فى كثير من الطقوس الدينية الأرثوذكسية (١) ، واللغات البربرية لاتزال الى الوقت الحاضر لغة محادثة لدى بعض العشائر فى المغرب والجزائر وتونس وليبيا (٢) .

وغنى عن البيان أن انتصارا لا يتم الا بعد أمد طويل وجهاد عنيف ، لا يخرج المنتصر من معاركه على الحالة نفسها التى كان عليها من قبل . فاللغة التى يتم لها الغلب لا تخرج سليمة من هذا الصراع . بل ان طول احتكاكها باللغة الأخرى يجعلها تتأثر بها فى كثير من مظاهرها وبخاصة فى مفرداتها .

ويختلف مبلغ هذا التأثر باختلاف الأحوال : فتكثر مظاهره كلما

---

(١) ظل انتشار اللغة العربية فى مصر بطيئا طوال القرن الهجرى الاول . وقبيل نهاية هذا القرن أى فى سنة ٨٧ هـ (٧٠٥ م) وفى ولاية عبد الله بن عبد الملك على مصر من قبل أخيه الوليد بن عبد الملك بن مروان أمر بالدواوين فنسخت بالعربية وكانت قبل ذلك تكتب بالقبطية (انظر الكندى ص ٥٨ ، ٥٩) . وجاء فى دائرة المعارف الاسلامية فى مادتى «ديوان» و «قبط» «ان الدواوين فى مصر كانت تكتب باليونانية لا القبطية» ، وهذا هو الاصح . — وظل التحول من الكتابة باليونانية فى الدواوين والتحدث بالقبطية الى الكتابة والتحدث بالعربية بالتدريج خلال القرون الثلاثة الاولى للهجرة ، حتى اذا كان القرن الرابع كانت غالبية الشعب المصرى يتكلمون العربية ولا يفهمون القبطية ، بدليل أن رجال الكنيسة أنفسهم اضطروا فى هذا القرن أن يلقوا مواعظهم فى الكنائس باللغة العربية . وليس معنى ذلك أن القبطية كانت قد انقرضت كل الانقراض فى هذا العصر . فالحقيقة أنها ظلت باقية فى السنة بعض المناطق مدة طويلة بعد ذلك ، بدليل ما يذكره المقريزى من أن المأمون كان ينتقل فى ريف مصر ومعه مترجم (دخل المأمون مصر سنة ٢١٧ هـ) وما يذكره المقدسى فى «أحسن التقاسيم» ، (ألفه حوالى سنة ٣٧٥ هـ) من أن بعض مسيحيى مصر كانوا يتحدثون بالقبطية (انظر فى هذا مقالا للاستاذ جمال الدين الشيال فى العدد ٣٣٤ بتاريخ ٢٢/٥/٤٥ من مجلة الثقافة) .

(٢) انظر التعليق الثانى بصفحة ٢٠٤ .

طال أمد احتكاك اللغتين وكان النزاع بينهما عنيفا والمقاومة قوية من جانب اللغة المقهورة ، وتقل مظاهره كلما قصرت مدة الصراع ، أو خفت وطأة النزاع ، أو كانت المقاومة ضعيفة من جانب اللغة المغلوبة . — فلطول الأمد الذى استغرقه الكفاح بين لغة الانجليز السكسون بانجلترا ولغة الفاتحين من الفرنسيين النورمانديين (الذين أغاروا على بلاد الانجليز فى القرن التاسع الميلادى واحتلوا معظم مناطق انجلترا كما سبقت الاشارة الى ذلك) ، ولشدة المقاومة التى أبدتها اللغة النورماندية المقهورة ، خرجت اللغة المنتصرة (الانجليزية) من هذا الصراع وقد فقدت أكثر من نصف مفرداتها الأصلية واستبدلت به كلمات من اللغة النورماندية المغلوبة ، واقتبست منها فضلا عن هذا مفردات أخرى جديدة . — على حين أن لغة بلاد الجول Le Gaule التى انتصرت عليها اللغة اللاتينية لم تترك فى اللغة الغالبة أكثر من عشرين كلمة (١) ، واللغات القبطية والبربرية المغلوبة لم تكد تترك أى أثر فى اللغة العربية الغالبة (٢) ، وذلك لأن الصراع فى هذين المثالين ، على

---

(١) على أن بعض هذه الكلمات كان قد انتقل الى اللاتينية قبل غزو الرومان لبلاد الجول .

(٢) تركت اللغات البربرية آثارا كثيرة فى اللهجات العامية المغربية ، وتركت اللغة القبطية فى اللهجات العامية المصرية آثارا كثيرة وخاصة فى المفردات . فمن ذلك «مم» بمعنى أكل مأخوذ من الكلمة المصرية القديمة «أونم» ، و «أمبو» مأخوذة من الكلمة القبطية «أمبمو» بمعنى أنا أشرب ، و «واوا» مصرية قديمة بمعنى ألم أو وجع ، و «الكخ» بمعنى القذارة ، و «تاتا» مصرية قديمة ومعناها «أمش» ، و «البعبع» أصلها «بوبو» وهو اسم عفريت مصرى قديم ، و «البخ» كلمة قبطية بمعنى شيطان ، وعندما يلعب أطفال الفلاحين المصريين بالكرة الشراب فانهم يقولون «سنو» و «كحكو» و «شكا» (والكلمة الاولى معناها اثنان ، والتى تليها معناها يتمنى ، والأخيرة معناها يضرب ، وكلها من المصرية القديمة)، و «الحمرأة» أى التردد وعدم الثبات ، والسماء «ترخ» أى تنزل المطر بغزارة ، «والمدمس» وأصلها «المتمس» بمعنى الفول المطبوخ فى الفرن ، و «البيصارة» وأصلها بيصورة وهى قبطية كذلك ، و «ياما» قبطية ومعناها كثير ، وكلمة «عنتيل» قبطية ومعناها قوى ، و «باش» الخبز أى تبلل وهى قبطية ، وعندما نغنى نقول «ياليل ياعين» أو «ياليلى ياعينى» والكلمة الاولى أصلها «ليلى» ومعناها بالقبطية الفرحة أو البهجة ، وكأننا نقول يافرحة عينى أو يا بهجة عينى ، ويقول المراكبية «ياللاهيليصا» ومعناها فى الأصل القبطى لقد سقطنا فى الوحل ، والليص معناها الوحل ، ونقول فلان «لايص» أى وقع فى الوحل ، وفى الاستغاثة نقول «جاى» وهى كلمة قبطية بمعنى أغيثونى ، وكلمة «شبرا» معناها الحقل ، ويقال =

طول أمده ، لم يكن عنيفا ولم تلق فى أثنائه اللغتان الغالبتان (اللاتينية فى المثال الأول والعربية فى المثال الثانى) مقاومة شديدة من جانب اللغات المقهورة (لغة الجول السلتية فى المثال الأول والقبطية والبربرية فى المثال الثانى) .

وتختلف كذلك النواحى التى يبدو فيها تأثر اللغة الغالبة باللغة المغلوبة تبعا لاختلاف الأحوال التى تكون عليها كلتا اللغتين فى أثناء اشتباكهما . ويبدو هذا التأثر بأوضح صورة فى النواحى التى تكون فيها اللغة المغلوبة متفوقة على اللغة الغالبة . ولذلك تألف معظم المفردات التى أخذتها الانجليزية (الغالبة) عن الفرنسية النورماندية (المغلوبة) من كلمات دالة على معان كلية وألفاظ تتصل بشئون المائدة والطهى والطعام . وذلك لأن النورماندية كانت غنيـة فى هاتين الطائفتين من المفردات ، على حين أن الانجليزية كانت فقيرة فيهما كل الفقر . فعمدت الى خصيهما المقهور واستلبته ما كان يعوزها قبل أن تجهز عليه . والى اقتباسها منه الألفاظ المتصلة بشئون المائدة والطهى وألوان الطعام يرجع السبب فى أسلوبها الغريب فى تسمية الحيوانات المأكولة اللحم . فكثير من هذه الحيوانات يطلق على كل منها فى الانجليزية اسمان: اسم جرمانى الأصل يطلق على الحيوان مادام حيا (sheep, calf, ox, pig) واسم آخر فرنسى الأصل يطلق عليه بعد ذبحه واعداده للغذاء (mutton, veal, beef, pork).

والألفاظ الأصيلة للغة الغالبة ينالها كثير من التحريف فى ألسنة المحدثين من الناطقين بها (المغلوبين لغويا) ، فتبعد بذلك فى أصواتها ودلالاتها وأساليب نطقها عن صورتها الأولى . ويبلغ بعدها هذا أقصى درجاته اذا كانت اللغة المقهورة من فصيلة أخرى غير فصيلة اللغة

= «شبرامنت» أى شبرا الغربية، و«شبراخيت» أى شبرا الشمالية ،وكلمة«ميت» التى تسبق أسماء البلاد معناها طريق بالقبطية ، وكلمة «مينا» التى تسبق أسماء البلاد معناها بالقبطية محطة ، ومعظم أسماء الادوات المنزلية ترجع الى أصول مصرية قديمة مثل الفوطة والفاس والماجور والمنشة والزباطة .. (انظر كتاب « آثار حضارة الفراعنة فى حياتنا » للاستاذ محرم كمال) .

الغالبة كما سبقت الاشارة الى ذلك (١) .

والألفاظ الدخيلة التى تقتبسها اللغة الغالبة من اللغة المغلوبة ينالها كذلك كثير من التحريف فى أصواتها ودلالاتها وطريقة نطقها ؛ فتبعد فى جميع هذه النواحى عن صورتها القديمة . ويظهر هذا بالموازنة بين الكلمات الانجليزية الآتية والكلمات الفرنسية التى اقتبست منها : Motton, veal, beef. — Mouton, veau, bœuf ، فان كل كلمة منها تختلف عن أصلها اختلافا غير يسير فى أصواتها ودلالتها وطريقة النطق بها ، حتى ان الفرنسى الذى لا يعرف الانجليزية لا يكاد يتبينها أو يدرك مدلولها اذا سمعها من انجليزى . وليست هذه الظاهرة مقصورة على الاقتباس الناشىء من الصراع بين لغتين كتب لاحداهما النصر ، بل هو ظاهرة عامة تتحقق فى جميع الحالات التى يحدث فيها انتقال مفرد من لغة الى أخرى .

وتقطع اللغة المغلوبة فى سبيل انقراضها مراحل كثيرة تمتاز كل مرحلة منها بمظهر خاص من مظاهر الانحلال وضعف المقاومة . ففى المرحلة الأولى تقذفها اللغة الغالبة بطائفة كبيرة من مفرداتها فتوهن بذلك متنها الأصلى وتجرده من كثير من مقوماته . ولكن اللغة المغلوبة تظل طوال هذه المرحلة محتفظة بقواعدها ومخارج حروفها وأساليبها فى نطق الكلمات ، فيؤلف أهلها عباراتهم ويصرفون مفرداتهم وفقا لقواعدهم التنظيمية والمورفولوجية (السنتكس والمورفولوجيا) ، وينطقون بألفاظهم الأصيلة وما انتقل اليهم من ألفاظ دخيلة طبقا لأسلوبهم الصوتى ومخارج حروفهم ، حتى انهم ليستبدلون فى الكلمات الدخيلة بالحروف التى لا يوجد لها نظير لديهم حروفا قريبة منها من حروف لغتهم . — وفى المرحلة التالية تتسرب الى اللغة المغلوبة أصوات اللغة الغالبة ومخارج حروفها وأساليبها فى نطق الكلمات . فينطق أهل اللغة المغلوبة بألفاظهم الأصيلة وما انتقل اليهم من ألفاظ

---

(١) انظر ما ورد بصفحة ٢٣١ بصدد البلغارية الحديثة .

دخيلة من المخارج نفسها وبالطريقة نفسها التى يسير عليها النطق فى اللغة الغالبة . فيزداد بذلك انحلال اللغة المغلوبة ويؤذن نجمها بالأفول. ولكنها تظل طوال هذه المرحلة مستبسلة فى الدفاع عن قواعدها الصرفية والتنظيمية (قواعد المورفولوجيا والسنتكس) وفى مقاومة قواعد اللغة الغالبة . فيركب أهمها جملهم ويصرفون كلماتهم وفق أساليبهم الأولى . وفى المرحلة الأخيرة تضعف هذه المقاومة شيئا فشيئا فتأخذ قواعد اللغة الغالبة فى الاستيلاء على الألسنة حتى يتم لها الظفر، فيتم بذلك الاجهاز على اللغة المغلوبة . فالقواعد فى اللغة المغلوبة أشبه شىء بالقلعة التى تحتمى بها فلول الجيش المنهزم وتقاتل عنها حتى آخر رمق ، والتى يتم بسقوطها استيلاء العدو على البلاد .

(ب) الحالات التى لا تقوى فيها احدى اللغتين على التغلب

وأما النتيجة الثانية وهى عدم تغلب احدى اللغتين على الأخرى وبقاؤهما معا جنبا لجنب فتحدث فيما عدا الحالتين المشار اليهما فى الفقرة السابقة .

والأمثلة على ذلك كثيرة فى تاريخ الأمم الغابرة وفى العصر الحاضر. فاللغة اللاتينية لم تقو على التغلب على اللغة الاغريقية، مع أن الأولى كانت لغة الشعب الغالب ؛ وذلك لأن الاغريق، مع خضوعهم للرومان، كانوا أعرق حضارة وأوسع ثقافة وأرقى لغة ؛ وقد سبق أن انهزام لغة الشعب المغلوب أمام لغة الشعب الغالب لا يحدث الا اذا كان الشعب الثانى أرقى من الشعب الأول فى جميع هذه الأمور (١) . ولهذه الأسباب نفسها لم تقو لغات الشعوب الجرمانية التى قوضت الامبراطورية الرومانية الغربية فى فاتحة العصور الوسطى على التغلب على اللغة اللاتينية فى البلاد التى قهرتها بمناطق الجول Le Gaule (فرنسا) وما اليها . ــ واللغة اللاتينية لم تقو على التغلب على لغات أهل بريطانيا العظمى ، على الرغم من فتح الرومان لبلادهم واحتلالهم

---

(١) انظر آخر صفحة ٢٣١ وصفحة ٢٣٢ .

اياها نحو مائة وخمسين سنة ، وعلى الرغم من أن الشعب الغالب كان أرقى كثيرا من الشعب المغلوب فى حضارته وثقافته ؛ وذلك لأن الجالية الرومانية فى الجزر البريطانية لم تكن شيئا مذكورا ولم تمتزج امتزاجا كافيا بأفراد الشعب المغلوب ؛ وقد تقدم أن الغلب اللغوى لا يتم فى مثل هذه الحالات الا اذا أقامت فى البلاد المقهورة جالية يعتد بها من أفراد الشعب الغالب وتم الامتزاج بينها وبين أفراد الشعب الآخر (١) .
واللغة العربية لم تقو على الانتصار على اللغة الفارسية ، على الرغم من فتح العرب لبلاد فارس وبقائها تحت سلطانهم أمدا طويلا ، وذلك لأن الشعب العربى لم يكن اذ ذاك أرقى حضارة من الشعب الفارسى ، ولقلة عدد الجالية العربية بفارس ، وضعف امتزاجها بالسكان ، ولانتماء اللغتين الى فصيلتين مختلفتين (فالعربية من الفصيلة السامية والفارسية من الفصيلة الهندية ــ الأوروبية) (٢) . ــ واللغة العربية لم تقو على الانتصار على اللغات الاسبانية على الرغم من فتح العرب للأندلس وبقائها تحت سلطانهم نحو سبعة قرون ، وذلك لانتماء العربية الى فصيلة غير فصيلة اللغات الأسبانية ولعدم امتزاج الشعوب القوطية بالشعب العربى . ــ واللغة التركية لم تقو على التغلب على لغة أية أمة من الأمم التى كانت خاضعة للامبراطورية العثمانية بأوربا وآسيا وأفريقيا ، على الرغم من بقاء هذه الأمم مدة طويلة تحت سلطان تركيا ، وذلك لاختلاف فصائل اللغات (فالتركية من الفصيلة الطورانية على حين أن لغات معظم الأمم التى كانت خاضعة لتركيا من الفصيلة السامية ــ الحامية أو الهندية ــ الأوروبية) ، ولأن الترك كانوا أقل حضارة وثقافة من معظم الشعوب التى كانت تابعة لهم ، ولقلة عدد جاليتهم فى بلاد هذه الشعوب ، ولضعف امتزاجها بالسكان . ولم تقو الانجليزية على التغلب على اللغات الهندية على الرغم من خضوع الهند لانجلترا

---

(١) انظر آخر صفحة ٢٣١ وأول صفحة ٢٣٢ .

(٢) تقدم أن انتماء اللغتين الى فصيلتين مختلفتين يحول غالبا دون انتصار احداهما عى الأخرى (انظر آخر صفحة ٢٣١ وأول صفحة ٢٣٢) .

أمداً طويلا ، وذلك لأن شعوب الهند أعرق حضارة من الانجليز ، ولقلة أفراد الجالية الانجليزية بهذه البلاد ، وعدم امتزاجها بالسكان (١) .

ولكن عدم تغلب احدى اللغتين لا يحول دون تأثر كل منهما بالأخرى . فقد تأثرت اللاتينية بالاغريقية فى أساليبها وآدابها واقتبست منها طائفة كبيرة من مفرداتها . وتأثرت الانجليزية بعض التأثر باللاتينية من قبل أن تتأثر تأثرا كبيرا بشعبة من شعبها وهى النورماندية . وقد تركت اللغة العربية آثارا قوية فى الاسبانية والبرتغالية ، وبخاصة فى المناطق التى كانت تسمى بالأندلس أو أندلوسيا Andalousie حيث دام سلطان العرب عدة قرون (٢) . والصراع بين العربية والفارسية ، وان لم ينته الى تغلب احداهما ، قد ترك فى كل منهما آثارا واضحة من الأخرى ، وبخاصة من ناحية المفردات . والصراع بين التركية ولغات الأمم التى كانت خاضعة للامبراطورية العثمانية ، وان لم ينته الى تغلب لغوى ، قد ترك فى التركية آثارا قوية من هذه اللغات وبخاصة من اللغة العربية ، وترك كذلك فى هذه اللغات آثارا ظاهرة من التركية (٣).

ح ـ الخلاصة

وقصارى القول : متى اجتمع لغتان فى بلد واحد لا مناص من تأثر كل منهما بالأخرى ، سواء تغلبت احداهما أم كتب لكلتيهما البقاء . غير أن هذا التأثر يختلف فى مبلغه ومنهجه ونواحى ظهوره ونتائجه

---

(١) ولكن أصبحت الانجليزية لغة ثقافة ولغة تفاهم مشترك بين سكان القارة الهندية المتعددة لغاتهم .

(٢) ويظهر أن الآثار التى تركتها العربية فى البرتغالية قد بلغت درجة كبيرة من الضخامة حتى ان بعض الباحثين أفرد مؤلفات خاصة للكلمات البرتغالية المأخوذة من العربية . ومن هؤلاء الاستاذ راجى باسيل فى ريو دى جانيرو بالبرازيل . فقد طبع أربع كراسات عنوانها « معجم الكلمات البرتغالية المأخوذة من العربية » وقدم هذه الكراسات الى جريدة الاهرام ، ونشرت ذلك جريدة الاهرام بعددها الصادر فى ١٩٤٤/٣/٢٩ .

(٣) قد بلغ هذا التأثر مبلغا كبيرا فى بعض هذه اللغات . فلغة العراق فى العصر الحاضر مثلا قد أخذت عن التركية كثيرا من المفردات وبعض الأصوات التى لا نظير لها فى العربية (كالصوت الذى ينطق به بين الشين والجيم المعطشة فى مثل عربنجى) وطائفة من القواعد الصرفية كقواعد النسب والنعت والاضافة فى مثل : عربنجى (سائق العربة)، خوش ولد (خوش كلمة فارسية الاصل معناها حسن) ، كتبخانة (دار الكتب) .. الخ .

فى الحـــالة الأولى عنه فى الحـــالة الثانية . فاذا كان الغلب قد كتب لاحداهما نراها تسـيغ كل ما تأخذة من الأخرى مهما كبرت كميته ، فيستحيل الى عناصر من نوع عناصرها ، بدون أن تدع له مجالا للتأثير فى بنيتها أو تغيير تكوينها الأصلى ، على حين أن المغلوبة لا تقوى على مقاومة ما تقذفها به الغالبة من مفردات وقواعد وأســاليب ولا تكاد تسيغ ما تتجرعه منها ، فيتخمها ويضعف بنيتها ، فتخور قواها وتفنى أنسجتها الأصلية شيئا فشيئا حتى تزول : كما كان شــأن الانجليزية الغالبة مع النورماندية المغلوبة . ـــ واذا كان البقاء قد كتب لكلتيهما تعمد كل منهما الى ما تأخذه من الأخرى فتســيغه وتفيض عليه من حيويتهـــا وتقـــاوم آثاره الهدامة ، فتبقى كل منهما متميزة الشخصية موفورة القوى سليمة البناء : كما كان شأن الفارسية مع العربية .

ـ ٣ ـ

العامل الثانى من عوامل
الصراع اللغوى

تجاور شـــعبين مختلفى اللغة

يتيح تجاور شعبين مختلفى اللغة فرصا كثيرة لاحتكاك لغتيهما ، فتشتبكان فى صراع ينتهى الى واحدة من النتيجتين نفســيهما اللتين ينتهى اليهما الصراع فى العامل الأول : فأحيانا تنتصر احدى اللغتين على الأخرى وتحتل مناطقها ، فتصبح لغة مشتركة بين الشعبين ، وأحيانا لا تقوى واحدة منهما على الأخرى فتعيشان معا جنبا لجنب .

أ ـ الحالات التى يحدث فيها تغلب احدى اللغتين

وتحدث النتيجة الأولى وهى تغلب احدى اللغتين على الأخرى فى حالتين :

(الحالة الأولى) اذا كانت نسبة النمو فى أحد الشــعبين كبيرة

لدرجة يتكاثف فيها ساكنوه ، وتضيق مساحته بهم ذرعا ، فيشتد ضغطه على حدود الشعب المجاور له ، وتكثر تبعا لذلك عوامل الاحتكاك والتنازع بين اللغتين . وفى هذه الحالة تتغلب لغة الشعب الكثيف السكان على لغة المناطق المجاورة له ، على شريطة ألا يقل عن أهلها فى حضارته وثقافته وآداب لغته ، ويتأكد انتصاره اذا كان أرقى من أهلها فى هذه الأمور .

والأمثلة على ذلك كثيرة فى التاريخ . وأكثرها دلالة بهذا الصدد ما كان من أمر اللغة الألمانية . فقد طغت على مساحة واسعة من المناطق المجاورة لألمانيا بأوربا الوسطى (بسويسرا وتشيكوسلوفاكيا وبولونيا والنمسا .. الخ) وقضت على لهجاتها الأولى (١) .

(الحالة الثانية) اذا تغلغل نفوذ أحد الشعبين فى الشعب المجاور. وفى هذه الحالة تتغلب لغة الشعب القوى النفوذ : على شريطة ألا يقل عن الآخر فى حضارته وثقافته وآداب لغته ، ويتأكد انتصاره اذا كان أرقى منه فى هذه الأمور .

والأمثلة على ذلك كثيرة فى مختلف مراحل التاريخ . فلغة شعوب الباسك قد أخذت تنهزم أمام اللغة الفرنسية فى المناطق التى تغلغل فيها نفوذ الفرنسيين وأمام اللغة الأسبانية فى المناطق التى تغلغل فيها نفوذ الاسبانيين ، حتى كادت تنقرض فى كلتيهما كما سبقت الاشارة الى ذلك (٢) . — واللهجات السلتية (٣) التى كان يتكلم بها معظم السكان بايرلندا وويلز واسكتلندا قد أخذت تنهزم أمام اللغة الانجليزية منذ أن تغلغل نفوذ انجلترا فى هذه البلاد حتى زالت من لغة الأدب والكتابة ، وكادت تنقرض انقراضا تاما من لغة الحديث . —

---

(١) ترجع بعض مظاهر هذا التغلب اللغوى الى الغارات التى شنها الجرمان قديما على هذه المناطق أى الى أمور تتصل بالعامل الاول لا بهذا العامل . فالتمثيل هنا مقصور على الحالات التى تم فيها تغلب اللغة المانية فى صورة سلمية تحت تأثير الجوار وتكاثف السكان .

(٢) انظر ص ٢١١ (رقم ١٢) .

(٣) انظر ١٩٨ (رقم ٦) .

وهكذا كان مصير اللهجة السلتية التى بقيت بمقاطعة البريتون Bretagne (١) (فى القسم الغربى من فرنسا على سواحل الاطلانطيق)، فقد أخذت تنهزم أمام اللغة الفرنسية منذ أن تغلغل نفوذ فرنسا فى هذه المقاطعة ، حتى لم يبق لها الا آثار ضئيلة فى لغة الحديث بين الأميين من الشيوخ (٢) . — واللغة الفرنسية قد تغلبت على لهجات المناطق المجاورة لها ببلجيكا وسويسرا ، فأصبحت الآن لغة الحديث والكتابة لجميع سكان « والونيا » Wallonie ببلجيكا ولنحو ٢٢ فى المائة من سكان سويسرا . — واللغة الايطالية قد تغلبت على لهجات المناطق المجاورة لها بسويسرا ، فأصبحت الآن لغة الحديث والكتابة لنحو ٣ر٥٪ من سكان هذه الجمهورية . واللغة العربية قد تغلبت فى العصور السابقة للاسلام على اللغة اليمنية بحكم الجوار وتغلغل نفوذ العرب فى البلاد اليمنية مع توافر الشروط الأخرى (٣) .

وعلى هذا الأساس نفسه تتغلب فى الدولة الواحدة لغة المقاطعة التى تكون بها العاصمة أو يكون لأهلها السلطان والنفوذ . فلوقوع عاصمة بلجيكا (بروكسل) فى مقاطعة « والونيا » ذات اللسان الفرنسى (٤) ولأن سكان هذه المقاطعة يتمتعون بقسط كبير من النفوذ

---

(١) انظر ص ١٩٨ (رقم ٦) .

(٢) ظلت هذه المقاطعة تتمتع بشىء من استقلالها الذاتى حتى عام ١٤٩١ ، (فى عهد شارل الثامن) . ومن ذلك العهد اعتبرت تابعة للتاج الفرنسى . ولكن لم يتم ضمها الى فرنسا الا عام ١٥٣٢ فى عهد فرنسوا الاول . — وقد انقرضت اللغة السلتية فى هذه المقاطعة انقراضا تاما من لغة الكتابة والادب . وانقرضت كذلك من لغة الحديث بين أبناء الجيل الحاضر . وكادت تنقرض من لغة الشيوخ أنفسهم . وقد زرت هذه المقاطعة وقضيت عدة أشهر متنقلا فى بلادها ، فلم أسمع هذه اللغة الا من عدد قليل من الشيوخ الاميين . وحتى هؤلاء أنفسهم لا يتكلمون لغتهم هذه الا فيما بينهم . أما مع غيرهم فيتكلمون الفرنسية . ولكن ينال كلماتها وتراكيبها وأساليبها فى ألسنتهم كثير من التحريف .

(٣) انظر تفصيل ذلك فى الفصلين الرابع والسادس من كتابنا «فقه اللغة» .

(٤) وهو القسم الجنوبى من بلجيكا ، وينحدر سكانه من أصول سلتية ولاتينية . على حين ان القسم الشمالى المسمى بالفلاندر Flandre ينحدر سكانه من أصل جرمانى ويتكلمون اللغة الفلامندية Flamande التى يتألف منها ومن اللهجات الهولندية فرع اللغات النئرلاندية Néerlandaises وهو أحد فروع اللغات الجرمانية الغربية (انظر آخر ص ١٩٨ رقم ٧ وأول ص ١٩٩) .

والسلطان فى هذه المملكة ، أخذت اللغة الفرنسية تتغلب على الفلامندية (لغة القسم الشمالى من بلجيكا المسمى «فلاندر» [١]) ، وتنتقصها من أطرافها . — ولوقوع عاصمة سويسرا (برن) فى القسم الناطق بالألمانية ، ولأن سكان هذا القسم يتمتعون بأكبر قسط من النفوذ والسلطان وتتألف منهم الأغلبية الساحقة (يتكلم الألمانية فى سويسرا نحو ٧٠٪ من أهلها) [٢] . أخذت اللغة الألمانية تطغى على ألسنة الناطقين بالفرنسية من السويسريين . — وقد أخذت لغة قريش قبيل الاسلام تتغلب على اللغات المضرية الأخرى ، لما كانت تتمتع به من سلطان أدبى ، ويستأثر به أهلها من نفوذ دينى وسياسى .

وفى كلتا الحالتين السابقتين لا يتم النصر غالبا لاحدى اللغتين الا بعد أمد طويل يبلغ أحيانا بضعة قرون [٣] . فالصراع بين الألمانية والفرنسية بسويسرا قد بدأ منذ عهد سحيق ، ومع ذلك لم يتم بعد للألمانية النصر النهائى . — والصراع بين اللغة الفرنسية واللسان السلتى الذى يتكلم به البريتونيون (سكان مقاطعة البريتون Bretagne قد نشب منذ عدة قرون ، ومع ذلك لايزال كثير من شيوخ البريتون فى العصر الحاضر يتكلمون بهذا اللسان [٤] . — ولا تزال اللهجة

---

(١) انظر التعليق السابق .

(٢) فلغات سويسرا موزعة بين سكانها على النحو الآتى : نحو ٧٢٪ يتكلم الألمانية ، ونحو ٢٣ ٪ يتكلم الفرنسية ، ونحو ٥ ٪ يتكلم الايطالية . وفضلا عن ذلك توجد فى سويسرا منطقة صغيرة يتكلم سكانها لغة خاصة تعرف باسم رومانش
Romanche, ou Roumanche, ou Rhéto Roman
ولكن المتكلمين بهذه اللهجة فى سويسرا لا يتجاوزون ١ ٪ من مجموع السكان . ويقطنون مقاطعتى جريزون Grison والتيرول Tyrol السويسرية . ويتكلم بهذه اللهجة كذلك فى التيرول النمساوية والايطالية (التيرول مقاطعة من مقاطعات الالب الشرقية مقسمة بين سويسرا والنمسا وايطاليا) . ويتكلم بها كذلك فى مقاطعة فيريئول Frioul (وكانت هذه المقاطعة تابعة للنمسا حتى سنة ١٩١٩ ثم ألحقت بايطاليا وتطالب يوغوسلافيا بقسم منها) . ولهجة الرومانش متشعبة من اللاتينية وقوية الشبه بها .

(٣) تزيد عادة المدة التى يظهر فيها أثر هذا العامل عن المدة التى يظهر فيها أثر العامل السابق والتى أشرنا اليها فى آخر ٢٣٢ وأول ٢٣٣ .

(٤) انظر أول ص ٢٤٢ وتعليقها الثانى .

السلتية لغة محادثة بين عامة الايرلنديين فى العصر الحاضر ، مع أن تغلب الانجليزية قد بدأ فى هذه البلاد منذ أواخر القرن الحادى عشر الميلادي . وقد أخذت لغة قريش تطغى على اللغات المضرية الأخرى منذ العصر الجاهلى ؛ ومع ذلك ظلت آثار هذه اللغات واضحة فى كثير من المواطن الى أواخر العصر العباسى .

وغنى عن البيان أن انتصارا لا يتم الا بعد أمد طويل لا يخرج المنتصر من معاركه على الحالة التى كان عليها من قبل . فاللغة التى يتم لها الغلب لا تخرج سليمة من هذا الصراع ، بل ان طول احتكاكها باللغة الأخرى يجعلها تتأثر بها فى بعض مظاهرها وبخاصة فى مفرداتها ، كما سبقت الاشارة الى ذلك فى العامل الأول (١) . غير أن تجرد العامل الذى نحن بصدد الكلام عنه من عنف النزاع وشدة المقاومة ، وحدوث نتائجه فى صورة سلمية متدرجة بطيئة ، كل ذلك يعمل على وقاية اللغة الغالبة ويخفف من تأثرها باللغة المغلوبة .

والألفاظ الأصيلة للغة الغالبة ينالها بعض التحريف فى ألسنة المحدثين من الناطقين بها (المغلوبين لغويا) ، فتختلف بعض الاختلاف فى أصواتها ودلالاتها وأساليب نطقها عن صورتها الأولى .

والكلمات الدخيلة التى تقتبسها اللغة الغالبة من اللغات المغلوبة ينالها كذلك بعض التحريف فى حروفها ومعانيها وأساليب نطقها ، فتبعد فى جميع هذه النواحى عن شكلها القديم .

وتقطع اللغة المغلوبة فى سبيل انقراضها المراحل نفسها التى أشرنا اليها فى العامل الأول : فينفذ الانحلال أولا الى مفرداتها ؛ ثم الى أصواتها ومخارج حروفها وأساليبها فى نطق الكلمات ؛ ويتم الاجهاز عليها بالقضاء على قواعدها (٢) .

---

(١) انظر صفحة ٢٣٣ وتوابعها .

(٢) انظر صفحتى ٢٣٦ ، ٢٣٧ .

ب ـ الحالات التى لا تقوى فيها احدى اللغتين على التغلب

أما النتيجة الثانية وهى عدم تغلب احدى اللغتين المتجاورتين على الأخرى وبقاؤهما معا جنبا لجنب فتحدث فيما عدا الحالتين المشار اليهما فى الفقرة السابقة .

ويدخل فى هذا الباب معظم العلاقات بين اللغات المتجاورة فى العصر الحاضر . فالجوار بين فرنسا وانجلترا وألمانيا واسبانيا والبرتغال لم يؤد الى تغلب لغة شعب منها على لغة شعب آخر ، لأن احتكاك لغاتها لا ينطبق على حالة من الحالتين اللتين يحدث فيهما التغلب بالمجاورة . ولهذا السبب نفسه لم يؤد الجوار بين الفارسية والعراقية والتركية والأفغانية الى تغلب لغة منها على لغة أخرى . وكذلك شأن الانجليزية فى الولايات المتحدة بأمريكا الشمالية مع الاسبانية المجاورة لها فى المكسيك ، وشأن البرتغالية التى يتكلم بها فى البرازيل مع الاسبانية التى يتكلم بها فى الجمهوريات المتاخمة للبرازيل بأمريكا الجنوبية (كولومبيا ، بيرو ، بوليفيا ، باراجواى ، أوراجواى ، الأرجنتين .. الخ) . وكذلك شأن الحبشية مع الصومالية .. وهلم جرا.

غير أن عدم تغلب احدى اللغتين لا يحول دون تأثر كل منهما بالأخرى . فالانجليزية الحديثة بانجلترا والفرنسية الحديثة بفرنسا تتقارضان المفردات منذ أن أتيح للشعبين المتجاورين فرص للاحتكاك وتبادل المنافع . ـ وكذلك تفعل الفرنسية بفرنسا مع الألمانية بألمانيا (١)، ومع أخواتها المجاورة لها فى الجنوب الشرقى والغربى بايطاليا واسبانيا والبرتغال . ـ وتجاور التركية والفارسية ، وان لم يؤد الى تغلب احداهما على الأخرى ، قد ترك فى التركية آثارا واضحة من الفارسية

---

(١) انتقل الى الالمانية الحديثة ، تحت تأثير جوارها لفرنسا ، كثير من المفردات الفرنسية ، لدرجة أزعجت أولى الامر وحملتهم على التدخل لصد هذا التيار واحلال مفردات ألمانية محل المفردات الفرنسية الدخيلة . ولكن قسطا كبيرا من جهودهم بهذا الصدد قد ذهب ادراج الرياح .

وبخاصة فى المفردات ، وترك فى الفارسية بعض آثار من التركية . ــ وتجاور الفارسية والعراقية فى العصر الحاضر ، وان لم ينته الى تغلب لغوى ، قد نقل الى كلتيهما كثيرا من آثار الأخرى فى المفردات والقواعد والأساليب . ومجاورة الجرمانية واللاتينية فى العصور القديمة ، وان لم ينته الى تغلب احداهما ، قد نقل الى أولاهما كثيرا من مفردات الثانية (١) وترك فى الثانية بعض آثار من الأولى (٢) .

حـ ــ الخلاصة

وقصارى القول : متى أتيح للغتين متجاورتين فرص للاحتكاك لامناص من تأثر كل منهما بالأخرى ، سواء أتغلبت احداهما أم كتب لكلتيهما البقاء . غير أن هذا التأثر يختلف فى الحالة الأولى عنه فى الحالة الثانية . فاذا كان الفناء قد حق على احداهما فانها لا تقوى على مقاومة ما تقذفها به الثانية من مفردات وقواعد وأساليب ولا تكاد تسيغ ما تتجرعه منها ، فيتخمها ويضعف بنيتها فتخور قواها وتفنى أنسجتها الأصلية شيئا فشيئا حتى تزول ؛ على حين أن الغالبة تسيغ كل ما تأخذه من الأخرى مهما كبرت كميته وعظم شأنه ، فيستحيل الى عناصر من نوع عناصرها ، فتزداد به قوة ونشاطا ، وبدون أن تدع له مجالا للتأثير فى بنيتها أو تغيير تكوينها الأصلى : كما كان شأن الانجليزية والفرنسية الغالبتين مع اللهجات السلتية المغلوبة بايرلندا وويلز ومقاطعة البريتون (٣) . ــ واذا كان البقاء قد كتب لكليتهما ، تعمد كل منهما الى ما تأخذه من الأخرى فتسيغه وتقاوم آثاره الهدامة،

---

(١) كثير من المفردات الألمانية تبدو جرمانية خالصة ، ولكن يظهر عند البحث انها مقتبسة فى الأصل من اللاتينية • فمن ذلك مثلا Schrebien = يكتب ؛ Lesene = يقرأ ؛ Katze = قط ؛ Pflanze = نبات ، فانها على الرغم من ظاهرها الجرمانى مأخوذة من الكلمات اللاتينية : scribere, legere, catta, planta

(٢) غير أن تأثر اللاتينية بالجرمانية كان فى حكم العدم قبل غارات الجرمان على الامبراطورية الرومانية الغربية فى فاتحة العصور الوسطى •

(٣) لم تترك المغلوبة فى هذه الأمثلة أثرا يذكر فى اللغتين الغالبتين •

فتبقى كل منهما متميزة الشخصية ، موفورة القوى ، سليمة البناء : كما كان شأن الفارسية مع التركية ؛ والفرنسية مع الايطالية والاسبانية والبرتغالية .

- ٤ -

عوامل أخرى للاحتكاك اللغوى

هذا ، وفيما عدا العاملين السابقين ، توجد عوامل أخرى كثيرة تتيح الفرص للاحتكاك بين اللغات ، لكنها أقل شأنا من هذين العاملين، وأضعف منهما أثرا ، اذ ليس منها ما ينجم عنه صراع جدى ، أو يؤدى الى نتائج ذات بال .

ومن أهم هذه العوامل ما يلى :

١ ــ اشتباك شعبين مختلفى اللغة أو شعوب مختلفة اللغات فى حرب طويلة الأمد . وذلك أن طول الاحتكاك بين الشعوب المتحاربة ينقل الى لغة كل شعب منها آثارا من لغات الشعوب الأخرى ، سواء فى ذلك لغات الحلفاء ولغات الأعداء . فاحتكاك الألمانية والفرنسية والانجليزية فى الحربين العالميتين الأخيرتين قد نقل الى كل لغة منها مفردات من اللغتين الأخريين . ــ « وحرب الثلاثين » التى نشبت بين حماة البروتستانتية وحماة الكاثوليكية ، وامتدت من سنة ١٦١٨ الى سنة ١٦٤٨ ، أتاحت فرصا كثيرة للاحتكاك بين الفرنسية والألمانية (١) ، فنقلت الى كل منهما بعض مفردات من الأخرى . ــ وحروب فرنسا مع ايطاليا قد نقلت الى الفرنسية كثيرا من الكلمات المتعلقة بشئون الحرب والفنون الجميلة وما الى ذلك من الأمور التى كانت اللغة الايطالية أوسع ثروة فيها من اللغة الفرنسية ، ونقلت كذلك الى الايطالية

(١) وذلك على الرغم من أن فرنسا لم تشترك اشتراكا صريحا الا فى المرحلة الأخيرة من هذه الحرب (من سنة ١٦٣٥ الى سنة ١٦٤٨) .

عددا غير يسير من الكلمات الفرنسية . - والحروب الصليبية قد نقلت الى كثير من اللغات الأوروبية ، وبخاصة الى اللغة الفرنسية ، كثيرا من مفردات اللغة العربية ، ونقلت كذلك الى بعض لهجات الأمم العربية بعض كلمات أوروبية .

٢ - توثق العلاقات التجارية بين شعبين مختلفى اللغة . وذلك أن منتجات كل شعب تحمل معها أسماءها الأصلية ، فلا تلبث أن تنتشر بين أفراد الشعب الآخر وتمتزج بمتن لغته ، وكثرة الاحتكاك التجارى بين أفراد الشعبين ينقل الى لغة كل منهما آثارا من اللغة الأخرى .

٣ - توثق العلاقات الثقافية بين شعبين مختلفى اللغة . فان ذلك ينقل الى لغة كل منهما ، وبخاصة الى لغة الكتابة ، آثارا كثيرة من الأخرى . وهذه الآثار لا تقف عند حد المفردات ، بل تتجاوزها أحيانا الى القواعد والأساليب . والأمثلة على ذلك كثيرة فى تاريخ الأمم الحاضرة والغابرة . فاللغة العربية فى العصر العباسى ، وبخاصة لغة الكتابة ، قد انتقل اليها عن هذا الطريق كثير من آثار اللغتين الفارسية واليونانية . ولغة الكتابة بمصر فى العصر الحاضر ، سواء فى ذلك لغة العلوم والآداب ولغة الصحافة ، قد انتقل اليها عن هذا الطريق كثير من آثار اللغات الأوروبية وبخاصة الانجليزية والفرنسية .

غير أن علاقة هذه العوامل وما اليها بتطور اللغة وارتقائها أشد كثيرا من علاقتها بالصراع بين اللغات . فهى تتيح الفرص لاقتباس بعضها من بعض وتبادلها المفردات والقواعد والأساليب ، بدون أن تحدث بينها صراعا جديا ، أو تحمل احداها على محاولة التغلب على الأخرى .

ولذلك آثرنا ارجاء الكلام على تفصيل هذه العوامل وآثارها الى الفصل التالى ، وخاصة اذ نعالج موضوع اقتباس اللغات بعضها من بعض .

الفصل الرابع

التطور اللغوى العام

تتأثر اللغة فى تطورها وارتقائها بعوامل كثيرة يرجع أهمها الى أربع طوائف :

(احداها) انتقال اللغة من السلف الى الخلف .

(وثانيتها) تأثر اللغة بلغةأو لغات أخرى .

(وثالثتها) عوامل اجتماعية ونفسية وجغرافية ، كحضارة الأمة ونظمها وعاداتها وتقاليدها وعقائدها ، وثقافتها واتجاهاتها الفكرية ومناحى وجدانها ونزوعها ، وبيئتها الجغرافية ... وما الى ذلك (١) .

(ورابعتها) عوامل أدبية مقصودة تتمثل فيما تنتجه قرائح الناطقين باللغة ، وما تبذله معاهد التعليم والمجامع اللغوية وما اليها فى حمايتها والارتقاء بها .. وهلم جرا .

وسنقف هذا الفصل على آثار هذه العوامل فى التطور اللغوى العام ، مرجئين الى الفصلين الخامس والسادس الكلام على آثارها فى تطور ناحية من ناحيتى اللغة على حدتها ، ونعنى بناحيتى اللغة الأصوات والدلالة .

---

(١) تشترك هذه العوامل جميعا فى أنها من مقومات الحياة الاجتماعية ، ولذلك جعلناها طائفة واحدة على الرغم من اختلافها فى نوعها .

- ١ -
انتقال اللغة من السلف الى الخلف
وأثره فى التطور اللغوى

على الرغم من أن الطفل يأخذ اللغة عن أبويه والمحيطين به ، فان لغة الخلف فى كل أمة تختلف عن لغة السلف فى كثير من المظاهر ، وبخاصة مظاهر الصوت .

ويرجع جزء يسير من نواحى هذا الاختلاف الى أمور خاصة مقصورة على بعض الأفراد : كالعيوب الصوتية التى يصاب بها بعض الناس ، وضعف السمع ، واختلاف أعضاء النطق ... وما الى ذلك . — وليس لمثل هذه الأمور شأن كبير فى تطور اللغة ، لأن آثارها مقصورة على أصحابها ، تبقى معهم وحدهم فى حياتهم وتختفى بموتهم .

أما معظم نواحى هذا الاختلاف وأكبرها أثرا فى تطور اللغة فترجع الى أمور عامة يشترك فيها جميع أفراد الطبقة الواحدة ويمتازون بها عن أفراد الطبقة السابقة لهم : كالتطور الطبيعى لأعضاء النطق فى الفصيلة الانسانية (لأن أعضاء النطق فى تطور طبيعى مطرد ، فتختلف فى كل طبقة عنها فى الطبقة السابقة لها) ؛ والتطور الطبيعى للظواهر النفسية (فالقوى العقلية بمختلف أنواعها فى تطور طبيعى مطرد فتختلف فى كل طبقة عنها فى الطبقة السابقة لها ، شأنها فى ذلك شأن أعضاء النطق ، ومن الواضح أن كل تطور يحدث فى هذه القوى ينبعث صداه فى اللغة) ؛ والأخطاء التى تنتشر بين الصغار فى طبقة ما ولا يفطن لها الكبار لدقتها وخفائها أو يهملون اصلاحها ولا يعنون بالقضاء عليها ؛ وكثرة استخدام الكبار فى جيل ما لبعض المفردات فى غير ما وضعت له عن طريق التوسع أو المجاز لدواع اجتماعية خاصة فتنتقل هذه المفردات الى الجيل اللاحق بمعانيها المجازية وحدها ؛ والنظم والتقاليد الخاصة التى يسير عليها المجتمع فى جيل ما فى تلقين الأطفال اللغة فى الأسرة وتعليمهم اياها فى المدارس . فالفروق اللغوية

الناشئة عن هذه الطائفة من العوامل يشترك فيها جميع أفراد الطبقة الواحدة ، وتمتاز بها لغتهم عن لغة الطبقة السابقة لهم .

ومن هذا يظهر أن ناحية هامة من نواحى التطور اللغوى ترجع الى عوامل جبرية ، لا اختيار للانسان فيها ، ولا يد له على وقف آثارها أو تغيير ما تؤدى اليه .

ومن هذا يظهر كذلك أنه ليس فى قدرة الأفراد أن يقفوا تطور لغة ، أو يجعلوها تجمد على وضع خاص . فمهما أجادوا فى وضع معجماتها وتحديد ألفاظها ومدلولاتها وضبط قواعدها وأصواتها ... ومهما أجهدوا أنفسهم فى اتقان تعليمها للأطفال قراءة وكتابة ونطقا وفى وضع طريقة ثابتة سليمة يسير عليها المعلمون بهذا الصدد ، ومهما بذلوا من قوة فى محاربة ما يطرأ عليها من لحن وخطأ وتحريف ، فانها لا تلبث أن تحطم هذه الاغلال ، وتفلت من هذه القيود ، وتسير فى السبيل التى تريدها على السير فيها سنن التطور والارتقاء الطبيعيين .

حقا انه يمكن أحيانا التحكم فى لغة الكتابة والجمود بها زمنا طويلا على أصولها القديمة أو ما يقرب منها . ولكن لغة الكتابة التى تجمد بهذا الشكل لا تمثل تمثيلا صحيحا حالة الحياة اللغوية فى الأمة ، وتتسع كثيرا مسافة الخلف بينها وبين لغة المحادثة ، لأن هذه اللغة الأخيرة فى تطور مطرد ، ولا تستطيع أية قوة الى تعويق تطورها سبيلا ، فلا تنفك تبعد عن لغة الكتابة الجامدة ، حتى تصبح كل منهما غريبة عن الأخرى أو بعيدة عنها ، ويصبح تعليم لغة الكتابة فى الأمة أشبه شىء بتعليم لغة أجنبية . وهذا هو ما كان عليه الحال بفرنسا وايطاليا ورومانيا وأسبانيا والبرتغال أيام أن كانت لغة الكتابة فيها هى اللاتينية ، وكانت لهجاتها المحلية مقصورة على شئون المحادثة ، وما عليه الحال الآن تقريبا فى مصر والسودان وبلاد العرب وشمال أفريقيا بصدد العلاقة بين لهجات المحادثة واللغة العربية الفصحى المتخذة لغة كتابة هذه البلاد .

على أن ظاهرة كهذه لا تكاد تبدو الا حيث تكون لغة المحادثة غير تامة التكون ولا كاملة النمو ، ولا تبقى الا ما بقيت لغة المحادثة على هذه الحال . فاذا ما بلغت هذه اللغة أشدها ، وتم تكونها ، واكتمل نموها ، واتسع متنها ، ووضحت دلالات مفرداتها ووجوه استخدامها، وتشعبت فيها فنون القول ، ودقت مناحي التعبير ، وقويت على تأدية حقائق الآداب والعلوم ، أخذت تطارد لغة الكتابة وتسلبها وظائفها وظيفة وظيفة حتى تجردها منها جميعا، فتصبح هى لغة الكتابة، وتقذف بلغة الكتابة القديمة فى زوايا اللغات الميتة . وهذا هو ما انتهى اليه أمر اللاتينية مع لغات المحادثة بفرنسا وإيطاليا ورومانيا واسبانيا والبرتغال .

فما أشبه لغة الكتابة الجامدة فى حالات كهذه بجبل ثلج ثابت على سطح البحر ، ولغات المحادثة المتطورة بالتيارات المائية التى تموج تحته . فمهما طال بقاء هذا الثلج ، فان مصيره الى التحطيم والذوبان، وحينئذ تطفو تلك التيارات الى سطح البحر ، وتعيد اليه ما كان مستورا تحت هذا الجبل الجامد من مظاهر النشاط والحياة .

— ٢ —

تأثر اللغة باللغات الأخرى
تبادل المفردات بين اللغات

تقدم أن أى احتكاك يحدث بين لغتين أو بين لهجتين — أيا كان سبب هذا الاحتكاك ، ومهما كانت درجته ، وكيفما كانت نتائجه الأخيرة — يؤدى لا محالة الى تأثر كل منهما بالأخرى (١) .

ولما كان من المتعذر أن تظل لغة بمأمن من الاحتكاك بلغة أخرى، لذلك كانت كل لغة من لغات العالم عرضة للتطور المطرد عن هذا الطريق .

---

(١) انظر صفحات ١٧٩ — ١٨٥ ، ٢٢٩ — ٢٤٨ .

وأهم ناحية يظهر فيها هذا التأثر هى الناحية المتعلقة بالمفردات كما سبقت الاشارة الى ذلك . ففى هذه الناحية على الأخص تنشط حركة التبادل بين اللغات ، ويكثر اقتباسها بعضها من بعض . وقد تذهب بعض اللغات بعيدا فى هذا السبيل ، فتقتبس معظم مفرداتها أو قسما كبيرا منها عن غيرها : كما فعلت التركية مع الفارسية والعربية ، والسريانية مع اليونانية ، والفارسية مع العربية .. وهلم جرا (١) .

وأما القواعد وأساليب الصوت فلا تنتقل فى الغالب من لغة الى أخرى الا بعد صراع طويل بين اللغتين ، ويكون انتقالها ايذانا بقرب زوال اللغة التى انتقلت اليها واندماجها فى اللغة التى انتقلت منها ، كما سبقت الاشارة الى ذلك (٢) .

ولهذا تخضع فى الغالب الكلمات المقتبسة للأساليب الصوتية فى اللغة التى اقتبستها ، فينالها كثير من التحريف فى أصواتها وطريقة نطقها ، وتبعد فى جميع هذه النواحى عن صورتها القديمة . فالكلمات التى أخذتها العربية مثلا عن الفارسية أو اليونانية قد صبغ معظمها بصبغة اللسان العربى حتى بعد كثيرا عن أصله . — ومن ثم نرى أن الكلمة الواحدة قد تنتقل من لغة الى عدة لغات فتتشكل فى كل لغة منها بالشكل الذى يتفق مع أساليبها الصوتية ومناهج نطقها ، حتى لتبدو فى كل لغة منها غريبة عن نظائرها فى اللغات الأخرى . فالكلمات العربية مثلا التى انتقلت الى اللغات الاوروبية قد تمثلت فى كل لغة منها بصورة تختلف اختلافا غير يسير عن صورتها فى غيرها .

وكثيرا ما ينال معنى الكلمة نفسه تغيير أو تحريف عند انتقالها من لغة الى لغة أو من لهجة الى أخرى : فقد يخصص معناها العام ويقصر على بعض ما يدل عليه ؛ وقد يعمم مدلولها الخاص ؛ وقد تستعمل فى غير ما وضعت له لعلاقة ما بين المعنيين ؛ وقد تنحط الى درجة وضيعة

---

(٢) انظر صفحتى ٢٢٤ ، ٢٢٥ .

(٣) انظر صفحات ١٨٣ ، ١٨٤ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، وآخر ٢٤٤ .

فى الاستعمال فتصبح من فحش الكلام وهجره ؛ وقد تسمو الى منزلة راقية فتعتبر من نبيل القول ومصطفاه (١) .

ويختلف مبلغ ما تأخذه لغة عن أخرى باختلاف العلاقات التى تربط الشعبين وما يتاح لهما من فرص للاحتكاك المادى والثقافى . فكلما قويت العلاقات التى تربط أحدهما بالآخر ، وكثرت فرص احتكاكهما ، نشطت بينهما حركة التبادل اللغوى . ولذلك تبلغ هذه الحركة أقصى شدتها حينما يسكن الشعبان منطقة واحدة أو منطقتين متجاورتين كما سبقت الاشارة الى ذلك فى الفصل الثالث (٢) — فالانجليزية قد أخذت عن النورماندية أكثر مما أخذته عن أية لغة أخرى ، لأن الغــزاة من النورمانديين قد استقر بهم المقام فى بلاد الانجليز المغلوبين نفسها (٣). واللاتينية قد اقتبست من الاغريقية أكثر مما اقتبسته من أية لغة أخرى، وذلك لتجاور منطقتيهما وشدة الامتزاج بين الشعبين الناطقين بهما (٤). ولهذا السبب نفسه بلغت حركة التبادل اللغوى أقصى شدتها بين العربية والفارسية والتركية (٥) . وما اقتبسته ألمانية سويسرا من اللغة الفرنسية لايذكر بجانبه ما اقتبسته منها ألمانية النمسا مثلا ؛ وذلك لأن القسم الألمانى اللغة فى سويسرا متاخم للقسم الفرنسى اللغة ولشدة الاحتكاك بين سكان القسمين ؛ على حين أن النمسا غير متاخمة لمنطقة فرنسية اللسان . وقد تسرب الى لغة رومانيا عدد كبير من مفردات الشعبتين الصقلبية والمجرية ؛ على حين أن أخواتها اللاتينية الأصل (الفرنسية والايطالية والأسبانية والبرتغالية) لم تكد تتأثر بهذين اللسانين، وذلك لأن رومانيا قد انعزلت عن أخواتها اللاتينية وأحاط بها من جميع جهاتها أمم صقلبية اللسان أو مجريته .

---

(١) انظر صفحة ٢٣٦ . وقد ضرب العلامة Dauzat فى كتابه « فلسفة اللغة » Philosophie du Langage أمثلة طريفة لهذه الظواهر ، أنظر آخر ص ٨٢ وصفحة ٨٣ من كتابه هذا .

(٢) انظر صفحات ٢٢٩ — ٢٤٧ .

(٣) انظر صفحات ٢٣٤ ، ٢٤٠ .

(٤) انظر صفحة ٢٣٩ .

(٥) انظر صفحتى ٢٣٩ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ .

والمفردات التى تقتبسها لغة ما عن غيرها من اللغات يتصل معظمها بأمور قد اختص بها أهل هذه اللغات أو برزوا فيها أو امتازوا باتناجها أو كثرة استخدامها .. وهلم جرا . فمعظم ما انتقل الى العربية من المفردات الفارسية واليونانية يتصل بنواح مادية أو فكرية امتاز بها الفرس واليونان وأخذها عنهم العرب (١) . — ويتألف معظم المفردات التى أخذتها الانجليزية عن النورماندية من كلمات دالة عن معان كلية وألفاظ تتصل بشئون المائدة والطهى والطعام؛ وذلك لأن النورمانديين كانوا يفوقون الانجليز كثيرا فى هاتين الناحيتين ، فغزرت مفرداتهما فى لغتهم ، بينما قل ورودها فى لغة الانجليز القديمة (٢) . وقد انتقل الى اليونانية ، ومنها الى اللاتينية ، كثير من الكلمات الفينيقية المتصلة بشئون الملاحة والبحرية ؛ وذلك لأن الفينيقيين قد سبقوا غيرهم من الشعوب فى هذا المضمار . وانتقل الى اللاتينية كثير من الكلمات الاغريقية المتعلقة بالمصطلحات الفلسفية والدينية ؛ وذلك لبراعة الاغريق فى ميدان الفلسفة ولأن الدين المسيحى قد انتشر بفضلهم فى شرق الامبراطورية الرومانية ووسطها . — وقد أخذت اللغات الجرمانية عن اللاتينية كثيرا من المفردات المتصلة بالقضاء والتشريع ونظم الاجتماع والسياسة .. وما اليها؛ وذلك لأن الرومان كانوا مبرزين فى جميع

---

(١) من أشهر المفردات التى انتقلت الى العربية من الفارسية : الكوز ، الأبريق ، الطست الخوان ، الطبق ، والسكرجة ، السمور – الخز ، الابريسم ، الديباج ، السندس – الياقوت ، الفيروج ، البلور – السميذ ، الكعك ، الفالوذج – الفلفل ، الكرويا ، القرفة ، الزنجبيل ، الخولنجان ، الدار صينى – النرجس ، البنفسج ، السوسن ، الياسمين ، الجلنار ، المسك ، العنبر ، الكافور ، الصندل ، القرنفل .. الخ .

ومن أشهر ما أخذته العربية من اليونانية أسماء بعض الآلات الرصد والجراحة وبعض مصطلحات الطب والفلسفة والمنطق والعلوم الطبيعية وغيرها ، وأخذت عنها كذلك أسماء بعض المعادن والوظائف والمنشآت المعمارية وغيرها وأدوات البناء والموازين والأمتعة .. الخ : كالقبرس (وهو أجود النحاس) ، والبطريق ، والقيطون (وهو البيت الشتوى) ، والقنطرة ، والفردوس (البستان) والقراميد (الآجر) والقسطاس (الميزان) ، والقنطار ، والبطاقة ، والسجنجل (المرآة) .. وهلم جرا .

انظر فى ذلك فقه اللغة للثعالبى ، الباب التاسع والعشرين ، وانظر كذلك المزهر للسيوطى الجزء الأول ، النوع التاسع عشر .

(٢) انظر صفحة ٢٣٥ .

هذه الشئون (١) . — ولهذا السبب نفسه انتقل الى الفرنسية كثير من الكلمات الجرمانية المتصلة بشئون الحرب ، ومنها كلمة الحرب نفسها La guerre (٢) ، وكثير من الكلمات الايطالية المتصلة بالموسيقى وآلاتها والفنون الجميلة ، وانتقل الى معظم اللغات الأوروبية وغيرها المفردات الانجليزية المتصلة بالألعاب الرياضية ، والمفردات الفرنسية المتعلقة بالأزياء وألوان الطعام .

ومن أجل ذلك تنتقل مع المنتجات الزراعية والصناعية أسماؤها فى لغة المناطق التى ظهرت فيها لأول مرة أو اشتهرت بانتاجها أو تصدر منها فى الغالب ، فتنتشر عن هذا الطريق فى لغات البلاد الأخرى . فكلمة « شاى » مثلا قد انتقلت الى معظم لغات العالم من لغة جزر ماليزيا Malaisie التى كانت المصدر الأول لهذه المادة («شاى» فى العربية «thé» فى الفرنسية tea فى الانجليزية .. الخ) . وكذلك كلمة الطباق ، فقد انتقلت الى معظم اللغات الانسانية من لغة السكان الأصليين لأمريكا حيث كشفت هذه المادة لأول مرة (« طباق » فى العربية tapac فى الفرنسية topacco فى الانجليزية .. الخ) . وعن هذا الطريق انتقل الى اللغات الأوروبية كثير من الكلمات العربية الدالة على منتجات زراعية أو صناعية : الليمون ، والموصلى (وهو نسيج خاص ينسب الى الموصل) ، والزعفران ، والشراب ، والسكر ، والكافور ، والقنوة (عسل قصب السكر المجمد) ، والقهوة ، والقطن والقرمزى ، والكمون ، والدمشقى (نسيج ينسب الى دمشق) :

فى الانجليزية Lemon, muslin, saffron, sherbet, syrup, sugar, camphor,candy, coffee, cotton, crimson, cumin, damask.

وفى الفرنسية Limon, mousseline, safran, sorbet, sirop, sucre, camphre, candi, café, cramoisi, cumin, damas.

---

(١) V. Duzat : Philosophie du Langage, 105

(٢) فهى مأخوذة من الكلمة الجرمانية القديمة Werra .

- ٣ -

أثر العوامل الاجتماعية والنفسية والجغرافية فى خصائص اللغة وتطورها ونقد نظرية دو سوسور De Saussure

تتأثر اللغة أيما تأثر بحضارة الأمة ، ونظمها وتقاليدها ، وعقائدها واتجاهاتها ودرجة ثقافتها ، ونظرها الى الحياة ، وأحوال بيئتها الجغرافية وشئونها الاجتماعية العامة .. وما الى ذلك . فكل تطور يحدث فى ناحية من هذه النواحى يتردد صداه فى أداة التعبير . ولذلك تعد اللغات أصدق سجل لتاريخ الشعوب . فبالوقوف على المراحل التى اجتازتها لغة ما ، وفى ضوء خصائصها فى كل مرحلة منها ، يمكن استخلاص الأدوار التى مر بها أهلها فى مختلف مظاهر حياتهم .

فكلما اتسعت حضارة الأمة ، وكثرت حاجاتها ومرافق حياتها، ورقى تفكيرها وتهذبت اتجاهاتها النفسية ، نهضت لغتها ، وسمت أساليبها ، وتعددت فيها فنون القول ، ودقت معانى مفرداتها القديمة، ودخلت فيها مفردات أخرى عن طريق الوضع والاشتقاق والاقتباس للتعبير عن المسميات والأفكار الجديدة وهلم جرا . واللغة العربية أصدق شاهد على ما نقول . فقد كان لانتقال العرب من همجية الجاهلية الى حضارة الاسلام ، ومن النطاق العربى الضيق الذى امتازت به حضارتهم فى عصر بنى أمية الى الأفق العالمى الواسع الذى تحولوا اليه فى عصر بنى العباس ، كان لهذين الانتقالين أجل أثر فى نهضة لغتهم ورقى أساليبها واتساعها لمختلف فنون الأدب وشتى مسائل العلوم .

وانتقال الأمة من البداوة الى الحضارة يهذب لغتها ، ويسمو بأساليبها ، ويوسع نطاقها ، ويزيل ما عسى أن يكون بها من خشونة، ويكسبها مرونة فى التعبير والدلالة . وان موازنة بين حالة اللغة العربية

فى عهد بداوة العرب قبل الاسلام وحالتها فى عهد حضارتهم الاسلامية، أو بين ما كانت عليه عند أهل البادية فى عصر ما وما كانت عليه فى الحضر فى العصر نفسه ، لأصدق برهان على ذلك . وان البدوى الذى لم يلهمه شيطانه فى مدحه للأمير أحسن من قوله :

أنت كالكلب فى حفاظك للعهـــد وكالتيس فى قراع الخطوب

قد استطاعت قريحته بعد أن هذبتها حضارة بغداد أن تجود بمثل قوله :

عيـــون المهـا بين الرصـــافة والجسر
جلبن الهـوى من حيث أدرى ولا أدرى

وما يحدث بين حضارة الأمة ولغتها من توافق وانسجام ، يحدث مثله بين لغتها ومظاهر بيئتها الجغرافية . فجميع خصائص الاقليم الطبيعية تنطبع فى لغة سكانها . ومن أجل ذلك نشأت فروق كبيرة فى مختلف مظاهر اللغة بين سكان المناطق الجبلية وسكان الصحراء وسكان الأودية وبين سكان المناطق الشمالية والوسطى والجنوبية ، ومن ثم كذلك نشأت فروق غير يسيرة بين الفصيلة اللغوية الواحدة بل بين لهجـات اللغـة الواحدة . ومن أجل ذلك أيضا غزرت فى كل لغة المفردات التى تدور حول مظاهر بيئتها الجغرافية ، ودقت دلالاتها، وانبثت فى شتى فنون القول . ومن أجل ذلك أيضا كان قسط كبير من مادة الخيال والتشبيه فى كل لغة مستمدا من مظاهر البيئة وما اختصت به طبيعة البلاد . ومن أجل ذلك أيضا تمثل فى أسلوب اللغة وفنونها الأدبية ما تختص به بيئتها الطبيعية من تلبد أو صفاء ، وقبح أو جمال ، وصخب أو هدوء، وتنوع أو اطراد ، وتقلب أو ثبات ، وما ينبعث عنها من رخاوة أو قوة، وخمول أو نشاط ، وخشونة أو نعيم . ولهذا كله يستطيع الباحث معرفة البيئة الأولى التى نشأت فيها لغة ما على ضوء مفردات هذه اللغـــة وغزارتها فى بعض النواحى وجدبها فى نواح أخرى ، وما تجنح اليـــه أساليبها ومادتها فى الخيال والتشبيه ، وخواص آدابها .. وما الى ذلك .

واليك مثلا لغات الفصيلة السامية : ففى كل لغة منها تتمثل حالة البيئة التى سكنها الناطقون بها. فالآرامية التى نشأت فى الشمال جافة الألفاظ ، قليلة المفردات ، ثقيلة التراكيب ، مضطربة القواعد ، لا تكاد تواتى الأساليب الشعرية الراقية . والعربية التى نشأت فى الجنوب أعذب اللغات السامية ألفاظا ، وأغناها مفردات ، وأدقها قواعد ، وأكثرها مرونة واتساعا لمختلف فنون القول . والعبرية التى نشأت فى منطقة متوسطة بين هاتين المنطقتين تمثل فى رقيها منزلة بين منزلتى الآرامية والعربية ، فقد فاقت الأولى ولكنها قصرت عن أن تدرك شأو الثانية . فألفاظها وأساليبها تتسع لكثير من مناحى القول ، ولكن العربية تفوقها فى مرونة التعبير ، والترف اللغوى ، وسعة الثروة فى المفردات . وقواعدها سهلة مضبوطة ، ولكنها لا تبلغ فى دقتها وتنوعها مبلغ قواعد اللغة العربية . وتظهر هذه الفروق حتى فى ناحية الأصوات . فالآرامية حوشية الأصوات ، صعبة النطق ، تلتقى فى كلماتها المقاطع المتنافرة والحروف الساكنة . والعربية عذبة الأصوات ، سهلة النطق ، خفيفة الوقع على السمع ، تقل فى كلماتها الحروف غير المتحركة (١) ، ولا يكاد يجتمع فى مفرداتها ولا فى تراكيبها مقاطع متنافرة، ولا يلتقى فى ألفاظها ساكنان. والعبرية وسط بين هذه وتلك . فهى لم تصل فى سهولة اللفظ الى درجة العربية ولا فى صعوبته الى درجة الآرامية ، يتخلل كلماتها حروف المد فى نطاق أوسع من الآرامية ، وبدرجة تذلل كثيرا من ظواهر الصعوبة فى النطق ، ولكن بدون أن تصل فى هذه الناحية الى الشأو الذى وصلت اليه لغة القرآن (٢) .

ولهذا السبب نفسه اختلفت اللهجات الاغريقية القديمة . فعلى الرغم من أن بلاد الاغريق كانت تشغل منطقة ضيقة ، فان الاختلاف اليسير الذى كان بين أجزاء هذه المنطقة فى طبيعتها الجغرافية قد

(١) تكثر فى الكلمات العربية أصوات المد الطويلة (الألف والياء والواو) والقصيرة (الفتحة والكسرة والضمة) حتى انه ليقل وجود حرف غير متبوع بواحد منها .

(٢) V. Renan, L'Origine du Langage, pp. 188-189

أحدث بين لهجات سكانها فروقا ذات بال . فاللهجة الدورية مثلا خشنة الألفاظ ، حوشية المخارج ، صعبة النطق ، ثقيلة الأصوات ؛ على حين أن اللهجة اليونية رخوة الكلمات ، سهلة النطق ، عذبة الأصوات ، يتخلل كلماتها كثير من حروف المد وأصوات اللين (١) .

ومظاهر النشاط الاقتصادى تطبع اللغة كذلك بطابع خاص فى مفرداتها ومعانيها وأساليبها وتراكيبها . ومن ثم اختلفت مظاهر اللغة فى الأمم والمناطق تبعا لاختلافها فى نوع الانتاج ، ونظم الاقتصاد ، وشئون الحياة المادية ، والمهنة السائدة (الزراعة ، الصناعة ، والتجارة الصيد ، رعى الأغنام .. الخ) . — وقد تؤثر هذه المظاهر فى أصوات اللغة نفسها . فقد يؤدى نوع العمل الذى يزاوله سكان منطقة ما الى تشكيل أعضاء نطقهم فى صورة خاصة تتأثر بها مخارج الحروف ونبرات الألفاظ ومناهج التطور الصوتى .

واللغة مرآة ينعكس فيها كذلك ما يسير عليه الناطقون بها فى شئونهم الاجتماعية العامة . فعقائد الأمة ، وتقاليدها ، وما تخضع له من مبادىء فى نواحى السياسة والتشريع والقضاء والأخلاق والتربية وحياة الأسرة ، وميلها الى الحرب أو جنوحها الى السلم ، وما تعتنقه من نظم بصدد الموسيقى والنحت والرسم والتصوير والعمارة وسائر أنواع الفنون الجميلة .. كل ذلك وما اليه يصبغ اللغة بصبغة خاصة فى جميع مظاهرها : فى الأصوات والمفردات والدلالة والقواعد والأساليب .. وهلم جرا (٢) ، واليك مثلا درجة القرابة التى تربط الفرد بكل من أسرة أبيه وأسرة أمه . فان الأمم التى تسير نظمها الاجتماعية على انزال هاتين الأسرتين منزلة واحدة تقريبا فى درجة قرابتهما للفرد تطلق لغتها

---

(١) Renan, op. cit., p. 190

(٢) من أحسن البحوث فى هذا الموضوع وما يتصل به ما كتبه العلامة « فانييه » فى المجلد الثانى من مجلة « التربية » سنة ١٩٠٧ صفحات ٤٣٤ — ٤٦٣ تحت عنوان : « روح الأمة وطباعها ممثلة فى لغتها » .

V. Vannier : «L'Esprit et les Maurs d'une nation d'après sa langue» — Revue Pédagogique 1907, T. 2, pp. 434-463.

كلمة واحدة على كل من العم والخال oncle, uncle والعمـة والخالة tante, aunt وابن العم أو العمة وابن الخال أو الخالة cousin وابنة العم أو العمة وابنة الخال أو الخالة cousine ؛ علـى حـين أن الأمم التى تفرق نظمها الاجتماعية بين هاتين الأسرتين فى درجة قرابتهما للفرد تختلف فى لغتها الكلمات الدالة على أفراد أسرة الأب عن الكلمات الدالة على أفراد أسرة الأم : العم ، الخال ، العمة ، الخالة ، ابن العم ، ابن العمة ، ابن الخال ، ابن الخالة ، بنت العم ، بنت العمة ، بنت الخال بنت الخالة (١) . — واليك مثلا آخر وهو مبلغ اتجاه الأمة الى مبادىء المساواة أو انحرافها نحو نظام الطبقات . فان ما تسـير عليه نظمها الاجتماعية بهذا الصدد يؤثر فى مختلف نواحى لغتها حتى فى ناحيـة القواعد . فمخاطبة المفرد بضمير الجمع تعظيما له (أرجو أن تتفضلوا ..) واجراء الخطاب فى صيغة الأخبار عن الغائب (يتفضل سيدى ..) ، كل ذلك وما اليه من أساليب التبجيل لايبدو فى اللغة الا حيث ينحـرف الناس عن مبادىء المساواة وتكثر الفوارق بين الطبقات . ولذلك يعـد تطور هذه الضمائر فى أمة ما أصدق سجل لتطور اتجاهاتها فى هـذه الشئون . فالصراع فى اللغة الفرنسية بين «tu» (أنت) و «Vous» (أنتم) فى مخاطبة المفرد ، يمثل أصدق تمثيل مراحل الصراع بين روح المساواة ونظام الطبقات فى الشعب الفرنسى . فقد كانت الغلبة للضـمير الأول فى العصور التى سادت فيها مبادىء المساواة وللضمير الثـانى فى العصور التى وهنت فيها هذه المبادىء . ومثل هذا يقال فى اللغـة العربية . فقد كان العرب فى جاهليتهم أكثر الشعوب ميـلا الى المساواة بين الأفراد . ولذلك ساد فى خطابهم ضمير المفرد ، ولم تبد فى لغتهم مظاهر المبالغة فى التبجيل . ولكنهم لم يلبثوا بعد اتسـاع ملكهم ، واحتكاكهم بالأمم الأخرى ، وانغماسهم فى الترف ومحاكاتهم لأبهـة الفرس وأساليبهم فى الحياة ، واتجاه خاصتهم وأغنيائهم الى الترفع عن الدهماء وطبقات المستضعفين ، لم يلبثوا بعد هذا أن انحـرفوا عن

---

(١) انظر كتابنا « الأسرة والمجتمع » الطبعة السادسة صفحة ٢٨ .

مبادئهم الأولى، فانحرفت معهم أساليب لغتهم، وساد فيها خطاب المفرد بضمير الجمع، واجراء الخطاب في صيغة الاخبار عن الغائب، ونفذت ليها ألفاظ « الحضرة » و « الجناب » وما الى ذلك . واختلاف الطبقات فى بعض الأمم ، وما يفصلها من فوارق فى مظاهر الحيـــاة الاجتماعية والاقتصادية ، كل ذلك يؤدى الى التمييز بينها فى المفردات التى تطلق على شئون كل طبقة منها . واليك مثلا المفردات التى تطلق على أنواع الدخل والأجور ، فان مبلغ الاختلاف بين هذه المفردات فى أمة ماليسجل مبلغ الاختلاف بين طبقات هذه الأمة فى مستوى الحياة ، وان الأصل اللغوى الذى يرجع اليه كل مفرد منها ليشير فى صورة ما الى عمـــل الطبقة التى يطلق على دخلها ، والى نشاطها الاقتصادى ، ومنزلتها فى سلم الطبقات . ففى اللغة الفرنسية مثلا يطلق لفظ خاص على كل من دخل المسكين ، والخادم ، وعامل اليومية ، والعامل الدائم ، والممثل ، والصحفى، والقسيس ، والجندى، والضابط، والموظف غير الحكومى، والموظف الحكومى ، وصاحب المهنة الحرة كالطبيب والمحامى والمالك الزراعى ومن اليهم ، والمساهم فى شركة ما ، والنائب البرلمانى وهـــلم جرا . وكل مفرد من هذه المفردات يشير أصله اللغوى فى صورة ما الى عمل الطبقة التى يطلق على دخلها ، والى نشاطها الاقتصادى ومقدرتها بالقياس لما عداها من الطبقات :

Les secours d'un indigent ; les gages d'un domestique ; la paye d'un journalier ; le salaire d'un ouvrier ; les feux d'un acteur ; les mensualités d'un journaliste ; le cusuel d'un curé ; le prêt d'un soldat ; le sold d'un officier ; les appointements d'un employé ; le traitement d'un fonctionnaire ; les honoraires d'un médecin ou d'un avocat ; les rentes d'un rentier ; les dividendes d'un actionnaire ; l'indemnité d'un parlementaire... etc.

وتتشكل اللغة كذلك بالشكل الذى يتفق مع اتجاهات الأمة العامة ومطامحها ونظرها الى الحياة . فاتجاه الانجليز مثلا الى الناحية العلمية قد صبغ لغتهم بصبغة مادية فى مفرداتها ، وتراكيبها ، حتى انه ليقـــال

فيها : « دفع زيارة أو تحية أو شكرا أو انتباها » ، و «كيف أستطيع أن أدفع لك مقابل جميلك» ، و «أنفق وقته فى كيت وكيت» ، و «تربح الساعة أو تخسر » ..

To pay visit, compliments, attention...; How can I pay you for all your good ? ! ; He spent his time in... ; The watch gains or loses

بدلا من « أدى زيارة » و « قدم تحية أو شكرا » و « أبدى اهتماما »، و « كيف أستطيع أن أجزيك مقابل جميلك » و « قضى وقته فى عمل ما » و « الساعة تقدم أو تؤخر » .

وما يكون عليه الأفراد من حشمة وأدب فى شئونهم ومعاملاتهم وعلاقاتهم بعضهم ببعض ينبعث كذلك صداه فى لغتهم ألفاظها وتراكيبها. فاللغة اللاتينية لا تستحيى أن تعبر عن العورات والأمور المستهجنة والأعمال الواجب سترها بعبارات مكشوفة ، ولا أن تسميها بأسمائها الصريحة . على حين أن اللغة العربية بعد الاسلام تتلمس أحسن الحيل ، وأدناها الى الحشمة والأدب فى التعبير عن هذه الشئون ، فتلجأ الى المجاز فى اللفظ وتستبدل الكناية بصريح القول : القبل ، الدبر ،قارب النساء ، لمس امرأته ، قضى حاجته .. الخ . ولقد كان لها بهذا الصدد فى ألفاظ القرآن الكريم وعباراته أسوة حسنة : « نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم » ، « واهجروهن فى المضاجع » ، « لامستم النساء » ، « وقد أفضى بعضكم الى بعض » ، « أحل لكم ليلة الصيام الرفث الى نسائكم » ، « فاعتزلوا النساء فى المحيض » ، « والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا» .. وما الى ذلك من كريم العبارات ونبيل الألفاظ . وما يبدو فى اللغة العربية بهذا الصدد يبدو مثله فى اللغات الأوروبية الحديثة وخاصة الشمالية منها. وأكثرها تحرجا فى هذه الناحية اللغة الانجليزية. فالبطن مثلا لا يعبر عنه فى لغة التخاطب الانجليزية باسمه الصريح، بل يطلق عليه فى الغالب the stomach (أى المعدة) (١) ، وسراويل الرجل

---

(١) تختصر هذه الكلمة عادة فى اللغة الدارجة فيقال tummy .

تطلق عليها أحيانا كلمة معناها الأصلى « ما لايمكن التعبير عنه » Inexpressible (١) ، وسراويل المرأة تطلق عليها كلمة معناها الأصلى « الجمع أو التركيب » Combination (٢) . وهلم جرا .

وخصائص الأمة العقلية ، ومميزاتها فى الادراك والوجدان والنزوع، ومدى ثقافتها، ومستوى تفكيرها ومنهجه ، وتفسيرها لظواهر الكون ، وفهمها لما وراء الطبيعة .. كل ذلك وما اليه ينبعث كذلك صداه فى لغتها (٣). ففى الأمم البدائية الضعيفةالتفكير المنحطة المدارك، تغزو الكلمات الدالة على المحسات والأمور الجزئية، وتنعدم أو تقل الألفاظ الدالة على المعانى الكلية ، وتخلو دلالة المفردات من الدقة والضبط ، فيكثر فيها الخلط واللبس والابهام ، وتعرو القواعد أو تكاد تعرو من ظواهر التصريف والاشتقاق وربط عناصر الجملة والعبارات بعضها ببعض ، ويضيق متن اللغة فلا يتسع لأكثر من ضروريات الحياة (٤) . ومن هذا القبيل الشعوب الصينية : فلغاتها بدائية ساذجة فى نواحى الألفاظ والدلالة والقواعد ، تكفى للتعبير عن ضروريات الحياة وشئون الصناعة اليدوية ، والأدب السهل ، والتأمل الضحل ، ولكنها لا تتسع لعلم ولا لفلسفة ولا لدين بالمعنى الصحيح لهذه الكلمات ، حتى انه لا يوجد فيها اسم للاله ، ويعبر فيها عن مسائل ما وراء الطبيعة بعبارات ملتوية مبهمة مضطربة الدلالة فى أذهان أهلها أنفسهم .

---

(١) يطلق عليها غالبا فى اللغة الدارجة كلمة « Pants » وهى اختصار كلمة « بنطالون » .

(٢) تطلق هذه الكلمة على لباس مؤلف من السراويل والقميص ، أما السراويل وحدها فيطلق عليها أحيانا كلمة Bloomer وهو اسم سيدة أمريكية Bloomer اخترعت طرازا منه فنسب اليها (وكان يحتوى على « جاكتة » وقميص وسراويل ، ثم قصر استعمال الكلمة فيما بعد على السراويل) ، وأحيانا كلمة Knickers وهى اختصار كلمة Knickerboker (وهذه الكلمة كانت فى الأصل اسما لشخصية روائية ألبسها المؤلف طرازا خاصا من السراويل ثم شاع استعمالها فيما بعد فى سراويل السيدات) .

(٣) V. Vannier, op. cit.

(٤) انظر صفحات ٨٣ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٦ .

وفى كثير من الأمم البدائية ينعكس فى اللغة من مظاهر الاضطراب والابهام ما تمتاز به عقليات الناطقين بها من سذاجة وقصور ، حتى انها لا تكاد وحدها تبين عن معنى واضح دقيق ، وحتى ان أهلها أنفسهم ليضطرون فى أثناء حديثهم الى الاستعانة بالحركات اليدوية والجسمية لتكملة ما ينقص تعبيرهم وما يعوزه من دلالة . فقد روى عن قبائل البوشيمان Bochimans (عشائر بدائية تسكن جنوب افريقيا (١)) أنهم اذا أرادوا المحادثة ليلا يضطرون الى اشعال النار ليتمكنوا من رؤية الاشارات اليدوية والجسمية التى تصحب كلامهم فتكمل ناقصة وتوضح مدلولاته . ويقرر علماء الاتنوجرافيا الذين عنوا بدراسة السكان الأصليين بأمريكا وأستراليا وأفريقيا أن عقليات هذه الشعوب لا تكاد تدرك المعانى الكلية فى كثير من مظاهرها ، وأن هذا القصور العقلى كان له صدى كبير فى لغاتهم ، فلا نكاد نجد فى كثير منها لفظا يدل على معنى كلى . ففى لغة الهنود الحمر مثلا يوجد لفظ للدلالة على شجرة البلوط الحمراء ، وآخر للدلالة على شجرة البلوط السوداء .. وهكذا ، ولكن لا يوجد أى لفظ للدلالة على شجرة البلوط ، ومن باب أولى لا يوجد أى لفظ للدلالة على الشجرة على العموم . وفى لغة الهورونيين Hurons (من السكان الأصليين لأمريكا الشمالية) يوجد لكل حالة من حالات الفعل المتعدى لفظ خاص بها ولكن لا يوجد للفعل نفسه لفظ يدل عليه . فيوجد لفظ التعبير عن الأكل فى حالة تعلقه بالخبز ، ولفظ آخر للتعبير عليه فى حالة تعلقه باللحم ، وثالث فى حالة تعلقه بالزبد ، ورابع فى حالة تعلقه بالموز ... وهكذا . ولكن لا يوجد فعل ولا مصدر للدلالة على الأكل على العموم أو الأكل فى زمن ما . ولغة السكان الأصليين لجزيرة تسمانيا Tasmanie (بقرب أستراليا) لا يوجد فى مفرداتها لفظ يدل على الصفة ، فاذا أرادوا وصف شىء لجئوا الى تشبيهه بآخر مشتمل على الصفة المقصودة ، فيقولون مثلا : « فلان كشجرة كذا » اذا أرادوا وصفه بالطول .

---

(١) انظر ص ٢١٦ .

وعلى العكس من ذلك الشعوب الهندية ــ الأوربية حيث ينشط التفكير ، ويعمق الادراك ، ويدق البحث ، وتتجه العقول الى التأمل الفلسفى ، وتميل الى تفسير ظواهر الكون والمجتمع الانسانى تفسيرا علميا يربطها بأسبابها وقوانينها العامة . ففى مثل هذه الشعوب تكثر فى اللغات الألفاظ الدالة على المعانى الكلية ، والتراكيب المعبرة عن الحقائق العامة ، وتغزر أزمنة الأفعال (١) ، وتطول الجمل ، وتتعدد أجزاؤها ، وتتنوع الروابط وتختلف دلالاتها ، فتتسع للتعبير عن دقيق الوجدان ، وعميق الادراك ، وحقائق الفلسفة والعلوم .

هذا وان ما تقدم ذكره فى هذه الفقرة وفى معظم الفقرات السابقة من هذا الكتاب ليدلنا أوضح دلالة على ما للمجتمع ونظمه وحضارته واتجاهاته من آثار بليغة فى نشأة اللغات (٢) وانتقالها من السلف الى الخلف (٣) وانشعابها الى لهجات ولغات (٤) وصراعها بعضها مع بعض(٥) وتطورها من جميع الوجوه (٦) .

وقد بالغ جماعة من العلماء فى تقدير هذه الآثار حتى كادوا ينكرون أن لغير الظواهر الاجتماعية أثرا فى شئون اللغة . ومن أشهر أفراد هذه الطائفة العلامة السويسرى فرديناند دوسوسور Ferdinand De Saussure (٧) .

---

(١) ليس للفعل فى معظم اللغات السامية الازمنان : فعل انتهى زمنه (ماض) ، وفعل لم ينته زمنه (أمر ومضارع للحال أو للاستقبال) ، على حين ان له فى اللغات الهندية ــ الاوربية أزمنة كثيرة لكل منها صيغة خاصة . وقد بلغت هذه الأمنة فى اللغة الفرنسية أحد عشر زمنا فى الجمل الاخبارية وحدها . ــ انظر آخر ص ٢٢٢ وأول ص ٢٢٣ .

(٢) انظر الفصل الأول من الباب الأول .

(٣) انظر الفصل الثانى من الباب الأول .

(٤) انظر الفصلين الأول والثانى من الباب الثانى .

(٥) انظر الفصل الثالث من الباب الثانى .

(٦) انظر ص ٢٤٩ ــ ٢٦٦ .

(٧) انظر آخر صفحة ٦٥ ــ ٦٨ . هذا ويفرق دوسو سور بين اللغة Langage والكلام Parole . ويعنى بالكلام تطبيق الفرد فى تفاهمه مع غيره للنظم اللغوية التى تواضع عليها مجتمعه . فهو عمل فردى فى جوهره . ولذلك يخضع أحيانا لمؤثرات غير =

ومذهبهم هذا يجانب جادة القصد من بعض الوجوه :

حقا أن اللغة ظاهرة اجتماعية تقتضيها حاجة الانسان الى التفاهم مع أبناء جنسه ، فلولا الحياة الاجتماعية ما كانت اللغات (١) .

وحقا أن أهم المؤثرات فى مختلف ظواهر اللغة ترجع الى أمور تتعلق بالحياة الاجتماعية ونظم العمران ، كما تدل على ذلك بحوثنا فى هذا الفصل وفى الفصول السابقة من هذا الكتاب .

ولكن من الافراط فى تقدير هذه العوامل أن ننسب اليهـا كل شيء وننكر ما لغيرها من أثر فى هذا السبيل . وان فى دراستنا السابقة نفسها لآيات على خطأ هذا المذهب . فقد رأينا أن قسطا غير يسير من ظواهر اللغة ترجع أسبابه الى عوامل جغرافية ، وقسما كبيرا منها ترجع أسبابه الى عوامل جسيمة فيزيولوجية أو نفسية فردية (٢) . وغنى عن البيان أن هذه العوامل وما اليها ليست من مظاهر الحياة الاجتماعية فى شيء . (٣) وسنرى فى الفصل الخامس أن أهم المؤثرات فى التطـور الصوتى خاصة ترجع الى عوامل من هذا القبيل (٤) .

= اجتماعية (المؤثرات الجسمية والنفسية .. وما الى ذلك) . أما اللغة فظاهرة اجتماعية تنشأ من طبيعة الاجتماع ويشرف عليها العقل الجمعى . ولذلك لا يكاد يكون لغير الظواهر الاجتماعية أثر ذو بال فى شئونها (انظر كتاب دوسوسور .
Cours de Linguistique Générale

(١) انظر آخر ص ٢٧ وص ٢٨ وآخر ٣٠ وأول ٣١ . ، والفصل الأول من الباب الاول من هذا الكتاب .

(٢) انظر مثلا ١٣٣ ــ ١٤٣ وآخر ١٧٥ وأول ١٧٦ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ .

(٣) لم نعد العوامل الأدبية المقصودة من بين هذه العوامل ، لأنها ــ وان كانت فردية من بعض النواحى ــ ترجع من بعض وجودها الى ظواهر اجتماعية (انظر الفقرة التالية وهى الرابعة من هذا الفصل) . هذا ، وقد حاول بعض المتعصبين لنظرية دوسور ان يرجع العوامل الجغرافية والجسمية والنفسية الى ظواهر اجتماعية ، فلم تخـل محـاولته هـــذه من تعسف ظاهر .

(٤) انظر كذلك فى الرد على نظرية دوسوسور Delacroix, Langage et pensée 47-62 وانظر تفصيل هذا الموضوع كله فى كتابى « اللغة والمجتمع » .

- ٤ -

العوامل الأدبية المقصودة
وأثرها في حياة اللغة وتطورها ، وخاصة في لغة الكتابة :
الرسم ، التجديد في اللغة ، البحوث اللغوية ، حركة التأليف والترجمة
وسائل تعليم اللغة

تشمل هذه الطائفة جميع ما يبذله الأفراد والهيئات من جهود مقصودة في سبيل حفظ اللغة ، وتعليمها ، وتوسيع نطاقها ، وتكملة نقصها ، وتهذيبها من نواحي المفردات والقواعد والأساليب ، وتدوين آثارها ، واستخدامها في الترجمة والتأليف الأدبي والعلمي .. وهلم جرا .

وتمتاز هذه الطائفة من العوامل عن الطوائف الثلاث السابقة بأنها أمور مقصودة ، تسيرها الارادة الانسانية ، على حين أن الطوائف السابقة تتمثل مظاهرها في أمور غير مقصودة تحدث من تلقاء نفسها ، وتبدو آثارها في صورة جبرية لا اختيار للانسان فيها ولا يد له على وقفها أو تغيير ما تؤدي اليه . وتمتاز عنها كذلك بأن هدفها الأصلي هو لغة الكتابة ، بينما تتجه معظم آثار الطوائف السابقة بشكل مباشر الى لغات المحادثة .

ولهذه الطائفة مظاهر كثيرة من أهمها : الرسم ، والتجديد في اللغة ، والبحوث اللغوية ، وحركة التأليف والترجمة ، ووسائل تعليم اللغة . وسنعقد لكل واحد من هذه الأمور الخمسة فقرة خاصة .

أولا ـ الرسم :

لم يتح الرسم الا لعدد قليل من اللغات الانسانية . أما معظمها فقد اعتمدت حياته على مجرد التناقل الشفوي . فالشرط الأساسي لحياة

اللغة هو التكلم بها لا رسمها : فكثيرا ما تعيش اللغة بدون أن يكون لها سند تحريرى ، ولكن من المستحيل أن تنشأ لغة أو تبقى بدون أن يكون لها مظهر صوتى . ويصدق هذا حتى على اللغات الصناعية نفسها كالاسـبرانتو Espéranto وما اليها . فمن المتعذر أن تتاح الحياة للغة من هذا النوع ما لم تتداولها الألسنة وتصبح أداة للكلام . ولذلك كان أول ما يتجه اليه المفكرون فى هذا النوع من اللغات هو وضع أصواته وأسلوب نطقه والبحث فى وسائل انتشار التحدث به .

وعلى الرغم من ذلك فللرسم فى حياة الغة ونهضتها آثار تجل عن الحصر . فبفضله تضبط اللغة ، وتدون آثارها ، ويسجل ما يصل اليه الذهن الانسانى ، وتنتشر المعارف ، وتنتقل الحقائق فى الزمان والمكان. وهو قوام اللغات الفصحى ولغات الكتابة ودعامة بقائها . وبفضله كذلك أمكننا الوقوف على كثير من اللغـات الميتة كالسنسكريتية والمصرية القديمة والاغريقية واللاتينية والقوطية . فلولا ما وصل الينا من الآثار المكتوبة بهذه اللغات ما عرفنا عنها شيئا ولضاعت منا مراحل كثيرة من مراحل التطور اللغوى .

وترجع أساليب الرسم التى استخدمت فى مختلف اللغات الى أسلوبين اثنين :

(أحدهما) أسلوب الرسم المعنوى Idéographie, Ecriture idéographique وهو الذى يضع لكل معنى صورة خطية خاصة . وقد استخدم هذا الأسلوب فى لغـات كثيرة منها السومرية والصينية (١) والمصرية القديمة (٢) . ولا نعلم على وجه اليقين أول أمة استخدمته ، ولكن يظهر من شواهد كثيرة أنه أقدم أساليب الرسم الانسانى .

---

(١) يرتكز الرسم الصينى على ٢١٤ رمزا أصليا (تسمى بالمفاتيح Clefs او الاصول Radicaux يعبر كل رمز منها عن معنى عام ، ويعين المقصود منه عدد الخطوط التى تضاف الى هذا الرمز ونوعها .

(٢) يسمى الرسم المصرى القديم الهيروغليفى Hiéroglyphe . وقد اجتاز هذا =

وترجع الصور الخطية التى تستخدم فى هذا الأسلوب الى نوعين: فأحيانا تكون صورا حقيقية للأشياء التى يراد التعبير عنها أو لأجزاء من هذه الأشياء ، كما يشير الرسم الهيروغليفى الى الشمس بدائرة فى وسطها نقطة ، والى القمر بقوس فى وسطه نتوء ، والى الزنبق بثلاث فروع من شجرته فى طرف كل منها ثلاث زنبقات، والى الصقربصورته واقفا وهلم جرا . وأحيانا تكون مجرد رموز مصطلح عليها للتعبير عن الأشياء والمعانى Symbolisme ، كما يشير الرسم الهيروغليفى الى الشهر بصورة هلال فى وسطه نجم ، والى اليوم بدائرة فى وسطها نقطة ، وكما يشير الرسم الصينى لمعنى « الانسانية » بخطين يتكون منهما شكل رقم ٨ .

ولهذا الأسلوب من الرسم عيوب كثيرة . فهو أسلوب بطىء يقتضى الكاتب اسرافا كبيرا فى الوقت والمجهود . ولكثرة صوره ورموزه تبعا لكثرة المعانى والأشياء ، يقتضى تعلمه وتعليمه جهودا شاقة وزمنا طويلا . ولذلك يقضى كثير من الصينيين زهرة شبابهم فى المدارس بدون أن يتموا تعلم الرسم الصينى . وهو لا يقوى على تأدية وظيفته الا فى صورة ناقصة مبتورة ، اذ من المستحيل ، مهما كثرت صوره وتعددت رموزه أن ينتظم جميع ما يخطر بالذهن الانسانى من معان وأفكار وجميع ما ينطق به اللسان من ألفاظ وعبارات . هذا الى أنه

= الرسم أربع مراحل. فقد كان فى المبدأ تصويرا للأشياء ، فيعبر عن الشمس مثلا بدائرة فى وسطها نقطة ، وعن القمر بقوس فى وسطه نتوء ... وهلم جرا . ثم دخل فيه بعد ذلك طريقة الرموز البسيطة والمركبة ، فيعبر مثلا عن اليوم بصورة الشمس (دائرة فى وسطها نقطة) ، وعن الشهر بصورة نجم تعلوها صورة هلال مستعرضة (قوس فى وسطه نتوء) . وفى المرحلة الثالثة دخلت فيه الطريقة الصوتية المقطعية ، فاستخدمت مثلا الصورة التى كان يعبر بها قديما عن الفم ، وهى صورة الشفتين ، للتعبير عن مقطع « را » . وفى المرحلة الأخيرة دخلت فيه الطريقة الهجائية ، فاستخدمت مثلا الصورة السابقة لا للتعبير عن مقطع « را » بل للتعبير عن صوت الراء الساكنة غير المتبوعة بحركة كما هو شأن الراء فى الحروف الهجائية العربية . والمظهران الأولان فقط (الصورى والرمزى) هما اللذان يعدان من النوع الذى نحن بصدد الكلام عنه ، أما المظهران الأخيران (المقطعى والهجائى) فمن النوع الثانى الذى سنتكلم عنه وهو الرسم الصوتى .

بمقتضاه لا يوجد للمعنى الواحد أكثر من صورة واحدة ، مع أنه فى معظم اللغات الانسانية ، كثيرا ما يوجد للمعنى الواحد عدة ألفاظ مترادفة ، فاستخدامه فى حالات كهذه يوقع فى اللبس ويؤدى الى الاضطراب .

(وثانيهما) أسلوب الرسم الصوتى — Ecriture Phonétique, ou Phonétisme الذى يضع لكل صوت صورة خاصة. وقد استخدم هذا الأسلوب من الرسم فى كثير من اللغات القديمة ، ويستخدم الآن فى معظم الشعوب المتمدينة .

وترجع الصور الخطية التى استخدمت فى هذا الرسم الى طائفتين: احداهما الصور المقطعية Syllabique وهى التى ترمز الى مقاطع كاملة، كما يرمز فى الهيروغليفى بشكل الشفتين الى مقطع «را» وفى المسمارى بصورة اليد الى مقطع «سو»؛ والأخرى الصور الهجائية Alphabétique وهى التى ترمز الى أصوات مفردة ، كما يرمز فى الرسم العربى بهذا الحرف : « ل » الى صوت اللام مجردة من جميع الحركات .

ويظهر أن قدماء المصريين كانوا أول من استخدم هذا الأسلوب بنوعيه (المقطعى والهجائى) منذ أكثر من ثلاثين قرنا قبل الميلاد . فمن بين صور الخط الهيروغليفى ما يرمز الى مقاطع صوتية (صورة الشفتين مثلا التى تعبر عن مقطع « را ») ، بل من بينها ما يرمز الى مجرد أصوات مفردات (صورة الشفتين مثلا التى أصبحت ترمز فيما بعد الى صوت الراء الساكنة غير المتبوعة بأية حركة ، كما هو شأن الراء فى الحروف الهجائية العربية) . غير أن قدماء المصريين لم يستخدموا هذا الأسلوب وحده بل مزجوه بالأسلوب الأول . فالرسم الهيروغليفى خليط من الرسم الصوتى والرسم المعنوى ، يستخدم بجانب الصور المقطعية والهجائية ، صورا حقيقية ورمزية (١) .

ومن الراجح أن الفينيقيين هم أول من استخدم الأسلوب الهجائى

---

(١) انظر التعليق الثانى بصفحة ٢٦٩ .

وحده . وقد اضطرهم الى ذلك نشاطهم التجارى وكثرة تنقلهم وتعدد علاقاتهم بمختلف الشعوب . فقد كانت هذه الشئون تقتضيهم فى جميع أعمالهم السرعة فى الحركة ، والاقتصاد فى المجهود ، وتحرى وجـوه الدقة. والأسلوب الهجائى هو أسرع أساليب الرسم ، وأيسرها، وأدناها الى الكمال . وليس من شك فى أنهم قد حاكوا فى أسلوبهم هذا ماكان يشتمل عليه الخط الهيروغليفى من صور هجائية . على أنه قد ثبت أنهم أخذوا أخذا عن هذا الخط نحو ثلاثة عشر حرفا من حروفهم .

وقد انتشرت حروف الهجاء الفينيقية فى معظم أنحاء العالم القديم واستخدمها كثير من شعوبه ، ومنها تفرعت بشكل مباشر أو غير مباشر جميع حروف الهجاء التى استخدمت فيما بعد فى مختلف اللغـات الانسـانية .

فمن الحروف الفينيقية اشتقت الحروف العبرية القديمة، ومن هذه اشتق الرسم العبرى الحديث (الحروف العبرية المربعة L'hébreu carré) الـذى اسـتخدم بعـد رجـوع بنى اسرائيل من نفى بابل وظل مستخدما الى الآن بدون أن يناله تغيير ذوبال .

ومن الحروف الفينيقية اشتق كذلك نوعان من الرسم قريبا الشبه بالعبرية الحديثة (الحروف العبرية المربعة) : أحدهما الخط التدمرى [١] (أو الپالميرينى Palmyrénien [٢])؛ والآخر الخط النبطى Nabatéen. ومن التدمرى اشتقت الحروف السريانية التى أخـذت منها الخطوط المغولية والمنشورية ؛ ومن الخط النبطى والخط السريانى اشـتقت حروف الهجاء العـربية .

ومن الرسم الفينيقى أخذ كذلك الرسم الآرامى . بل ان الرسم الآرامى فى أقـدم أشـكاله لا يكاد يختلف عن الرسـم الفينيقى .

---

(١) نسبة الى تدمر وهى مملكة قديمة كانت تشمل جزءا كبيرا من سوريا الحالية . ومعنى تدمر فى العبرية بلاد النخيل .

(٢) نسبة الى بالميرين Palmyrène وهو اسم فرنسى لبـلاد تدمر . ومعنـاه فى الفرنسية هو معنى تدمر فى العبرية أى بلاد النخيل .

وعن الحروف الآرامية أخذت الحروف الهندية الباكتريانية Indo-Bactriens (١) التى كانت مستخدمة فى شمال الهند، ومن هذه الحروف اشتقت جميع الحروف المستخدمة الآن فى مختلف لغات الهند وسيام Siam وكامبدج Cambodge (*بالهند الصينية*) وماليزيا Malaisie .

ومن الحروف الفينيقية اشتق كذلك الرسم الاغريقى ؛ ومن الرسم الاغريقى أخذت الحروف اللاتينية ؛ ومن الرسمين اللاتينى والاغريقى تفرعت جميع أنواع الرسم المستخدمة فى مختلف اللغات الأوروبية فى العصر الحاضر .

والأصل فى الرسم الهجائى أن يكون معبرا تعبيرا دقيقا عن أصوات الكلمة بدون زيادة ولا نقص ولا خلل فى الترتيب ، فيرسم فى موضع كل صوت من أصواتها الحرف الذى يرمز اليه ، ولا يوضع فيها حرف زائد لا يكون له مقابل صوتى . وقد حوفظ على هذا الأصل الى حد كبير فى بعض اللغات الانسانية ، وخاصة القديم منها . فرسم الكلمة فى السنسكريتية لايكاد يختلف فى شىء عن صوتها . (٢) ولكن معظم أنواع الرسم ، وخاصة الحديث منها ، لا تتوافر فيه هذه المطابقة . فكثيرا ما يرسم فى الكلمة حرف زائد أو حروف زائدة ليس لها مقابل صوتى فى النطق (مثلا «مائة» فى العربية ؛ «loup» فى الفرنسية ؛ «thumb» فى الانجليزية). وكثيرا ما تشتمل الكلمة على أصوات لا تمثلها حروف فى الرسم (مثلا : « هـــذا » فى العربية ، «Picture» فى الانجليزية) . ـــ وكثيرا ما يرسم فى الكلمة حرف أو أكثر

---

(١) نسبة الى باكتريان Bactriane وهى منطقة قديمة كان يسكنها الايرانيون وتشمل بعض مناطق تركستان وفارس .

(٢) وقد ساعد على ذلك أن الرسم السنسكريتى لم يكد يغادر صوتا من أصوات اللغة الا وضع له حرفا يرمز اليه . ولذلك كثرت حروف الهجاء فى هذا الرسم ، وقويت على التعبير عن مختلف الأصوات . فقد بلغت ٤٦ حرفا منها ٣٣ حرفا ساكنا و ١٣ حرفا لينا ، هذا الى ثلاث علامات للشكل .

للتعبير عن صوت غير الصوت الذى وضع له (مثـــلا : «dompter» فى الفرنسية، «of», «ocean», «enough» فى الانجليزية) . ـــ وكثيرا ما ينطق بالحرف الواحد أو بالمقطع الواحد بصور صوتية مختلفة تبعـــا لاختلاف الكلمات ، أو اختلاف أزمنتها ، أو اختلاف موقعه فيها أو اختلاف ما يسبقه أو يلحقه من حــــروف .. فيرقق فى بعض الكلمات ويفخم فى بعضها الآخر ، أو يمد فى بعضها ويقصر فى بعضها الآخر ، أو يضغط عليه فى بعضها ويرسل فى بعضها الآخر .. وهلم جرا (مثلا: اللام فى « والله » و « بالله » .

«Law, low» ; «I get a piece of lead, I lead (Present) some men» ; «I will read this book, I have just read this book» ; «The lines of demarkation that separate sciences..., this book contains separate sciences» ; «I object against this way, the object of our book is...».

وكثيرا ما تختلف الحروف فى كلمتين ويتحد النطق بها
A piece of bread ; In time of peace

ويرجع السبب فى هذه الظواهر وما اليها الى عوامل كثيرة من أهمها ثلاثة عوامل :

(أحدها) أن حروف الهجاء فى معظم أنواع الرسم لا تمثل جميع أصوات اللغة التى تكتب بها . فقد جرت العادة مثلا فى معظم أنواع الرسم ألا يوضع لكل صوت عام أكثر من حرف هجائى واحد ، مـــع أن الصوت العام كثيرا ما يندرج تحته أصوات مختلفة فى مخرجهـــا ونبرتها وقوتها ومدة النطـــق بها وما الى ذلك . فالصـــوت العام للام مثلا ليس له فى معظم أنواع الرسم الحديث الا حرف واحد (ل « L ») مع أن هذا الصوت يختلف نطقه باختلاف الكلمات والمواقع . فأحيانا ينطق به مرققا (Hole, Low بالله) وأحيانا مفخما (والله، law)، وتارة ينطق به مضغوطا عليه (أقسم بالله) وأخرى ينطق به مرسلا (نستعين بالله) .. وهلم جرا، ورسمه واحد فى جميع هذه الحالات. والصوت العام للألف اللينة ليس له فى العربية الا حرف واحد، مع أنه أحيانا ينطق به مستقيما، وأحيانا

ينطق به ممالا . والصوت العام للجيم ليس له فى العربية الا حرف واحد مع أنه فى بعض اللهجات ينطق به مجردا من التعطيش ، وفى بعضها ينطق به معطشا كل التعطيش ، وفى بعضها ينطق به بين هذا وذاك [١] .

(وثانيها) أن كثـــيرا من أنواع الرسم يقتصر على الرمز الى الأصوات الهامة فى الكلمة ويغفل ما عداها ، كأنواع الرسم السامى اذ تغفل الرمز الى أصوات المد الطويلة والقصـيرة معا أو الى القصـيرة وحدها [٢] .

(وثالثها) أن أصوات اللغة ــ كما سبقت الاشارة الى ذلك [٣] وكما سيأتى بيانه مفصلا [٤] ــ فى تطور مطرد وتغير دائم . فالأصوات التى تتألف منها كلمة ما لا تجمد على حالتها القديمة، بل تتغير بتغـير الأزمنة والمناطق ، وتتأثر بطائفة كبيرة من العوامل الطبيعية والاجتماعية واللغوية . فأحيانا يسقط منها بعض أصواتها القديمة، وأحيانا يضاف اليها أصوات جديدة، وتارة يستبدل ببعض أصواتها أصوات أخرى، وتارة تحرف أصواتها عن مواضعها فيختل ترتيبها القديم ..؛ وقد ينالها أكثر من تغير واحد من هذه التغيرات ؛ على حين أن الرسم لا يساير النطق فى هذا التطور ، بل يميل غالبا الى الجمود على حالته القـديمة أو ما يقرب منها ، فلا يدون الكلمة على الصـورة التى انتهت اليهـا أصواتها ، بل على الصورة التى كانت عليها من قبل . وهذا هـو منشأ الخلاف فى معظم اللغات الأوروبية الحديثة بين النطق الحالى لكثير من الكلمات وصورتها فى الرسم . فمعظم وجوه هذا الخلاف ترجع الى جمود الرسم وتمثيله لصور صوتية قديمة نالها مع الزمن كثير من التغير فى ألسنة الناطقين باللغة .

ومع ما للرسم من الفوائد الجليلة التى أشرنا اليها فى صدر هذه

---

(١) انظر صفحتى ٤١ ، ٤٢ .

(٢) انظر ص ٢١٩ .

(٣) انظر ص ٢٥٠ .

(٤) انظر الفصل الخامس من هذا الباب .

الفقرة (١) . فان عدم مطابقته للنطق يجعل له بعض آثار ضارة . فهو يعرض الناس للخطأ فى رسم الكلمات ، ويجعل تعلم القراءة والكتابة لأهل اللغة من الأمور الشاقة المرهقة ، ويطيل زمن الدراسة ، فيسبب اسرافا كبيرا فى الوقت والمجهود . وما يلاقيه أهل اللغة من صعوبات بهذا الصدد يلاقى أضعافه الأجانب الراغبون فى تعلمها . ومن الواضح أن هذا يعوق انتشارها فى الخارج ، ويضيق سبل الانتفاع بآدابها وعلومها ، فيصعب التفاهم بين الشعوب ، وتضعف بينها حركة التبادل العلمى والثقافى . هذا الى أن تمثيل الرسم لصور صوتية قديمة يعمل على رجع اللغة الى الوراء وردها الى أشكالها العتيقة . فكثيرا ما يتأثر الفرد فى نطقه للكلمة بشكلها الكتابى ، فلا يلفظها بالصورة التى انتهى اليها تطورها الصوتى ، بل ينطق بها وفق رسمها ، فتنحرف الى الوضع الذى كانت عليه فى العهود القديمة . وليس الأجانب وحدهم هم المعرضين لهذا الخطر ، بل انه كثيرا ما يصيب أهل اللغة أنفسهم . واليك مثلا الحرف المشدد فى اللغة الفرنسية فى Savamment, évidemment . الخ ، فقد كان ينطق به وفق رسمه فى العصور الأولى لهذه اللغة ، ثم انقرضت هذه الطريقة منذ عهد بعيد ، وأخذ الفرنسيون ينطقون به مخففا، كما ينطقون بحرف واحد (Savaman, évidaman) . ولكن منذ عهد قريب أخذت عادة النطق به مشددا تظهر فى ألسنة كثير منهم تحت تأثير صورته الخطية . فمن جراء الرسم نكصت اللغة على عقبيها فى هذه الناحية عدة قرون الى الوراء (٢) .

ومن أجل ذلك كان العمل على اصلاح الرسم وتضييق مسافة الخلف بينه وبين النطق موضع عناية كثير من الأمم فى مختلف العصور.

(١) انظر صفحة ٢٦٩ .

(٢) ومن ذلك أيضا الحروف الساكنة (غير اللينة) فى آخر الكلمات ، فقد حذفت فى النطق الفرنسى فى معظم المفردات منذ عهد بعيد . ولكن أخذ كثير من الفرنسيين فى العصر الحاضر ينطقون بعضها تحت تأثير صورتها الخطية : «but» (نطقها الصحيح bu) قد تحولت الآن فى ألسنة كثير من الفرنسيين الى bute . ؛ aoút (نطقها الصحيح ou) قد تحولت الآن فى ألسنة كثير من الفرنسيين الى oute .

فقد ظهر فى هذا السبيل بعض حركات اصلاحية عند اليونان والرومان فى العصور السابقة للميلاد . — وفى أواخر القرن التاسع عشر عالج الألمان أساليب رسمهم القديم وأصلحوا كثيرا من نواحيه. — ومثل هذا حدث من عهد قريب فى مملكة النرويج ثم فى جمهورية البرازيل (١). وقد بدت بهذا الصدد محاولات اصلاحية كثيرة فى البلاد الواطئة (هولاندا) وانجلترا والولايات المتحدة ؛ ولكن معظم هذه المحاولات لم يؤد الى نتائج ذات بال . — وأدخلت الأكاديمية الفرنسية ، يشد أزرها ويعاونها طائفة من ساسة فرنسا وعلمائها ، اصلاحات كثيرة على الرسم الفرنسى . وقد جانبت فى اصلاحاتها هذه مناهج الطفرة واتبعت سبيل التدرج البطىء . فكانت تدخل فى كل طبعة جديدة لمعجمها ، بجانب التنقيحات اللغوية والعلمية ، طائفة من الاصطلاحات الاملائية . وقد أقرت مجموعة هامة من القواعد الجديدة فى الرسم الفرنسى . هذا الى اصطلاحات للعلامة جريار Gréard التى تناولت كثيرا من نواحى الرسم ، وأقرتها الأكاديمية الفرنسية . وكانت كل مجموعة من هذه الاصطلاحات تلقى مقاومة عنيفة من جانب غلاة المحافظين . وعلى الرغم من ذلك فقد عم الأخذ بها ، وكان لها أكبر فضل فى تيسير الرسم الفرنسى وتضييق مدى الخلاف بينه وبين النطق الحديث . — والرسم العربى نفسه قد تناولته يد الاصلاح أكثر من مرة من قبل الاسلام ومن بعده. ومع ذلك لا يزال عدد كبير من المفكرين فى عصرنا الحاضر يأخذون عليه كثيرا من وجوه النقص والابهام ، وينادون باصلاحه من عدة نواح وخاصة رسم الهمزة والألف اللينة وابتداع طريقة لاحلال علامات ظاهرة ترسم فى صلب الكلمة محل الفتحة والكسرة والضمة حتى يتقى اللبس فى نطق الكلمات (عَلِمَ عُلِمَ ، عِلْمٌ ، عَلَمٌ ... الخ) . ولكن الرسم العربى ليس فى حاجة الى كثير من الاصلاح ، فهو من أكثر أنواع الرسم سهولة ودقة وضبطا فى القواعد ومطابقة للنطق (٢) .

---

(١) انظر ص ١١٤ وتعليقها الثانى .

(٢) انظر تفصيل هذا الموضوع بكتابنا « فقه اللغة » الطبعة السابعة صفحات ٢٥٨ — ٢٧١ .

هذا ، وعلى الرغم من المساوىء السابق ذكرها ، فان لجمود الرسم على حالته القديمة أو ما يقرب منها بعض فوائد جديرة بالتنويه . فهو يوحد شكل الكتابة فى مختلف العصور ، ويسهل تناقل اللغة ، ويمكن الناس فى كل عصر من الانتفاع بمؤلفات سلفهم وآثارهم . فلو كان الرسم يتغير تبعا لتغير أصوات الكلمات لأصبحت كتابة كل جيل غريبة على الأجيال اللاحقة له ، ولاحتاج الناس فى كل عصر الى تعلم طرق النطق والالمام بحالة اللغة فى العصور السابقة لهم حتى يستطيعوا الانتفاع بمخلفات آبائهم . هذا الى أن جمود الرسم على حالته القديمة يفيد الباحث فى اللغات أكبر فائدة . فهو يعرض له صورة صحيحة لأصول الكلمات ويقفه على ما كانت عليه أصواتها فى أقدم عصور اللغة : فالرسم للألفاظ أشبه شيء من هذه الناحية بالمتحف للآثار .

وقد كان للرسم فى اللغات الأوروبية فضل كبير فى تيسير النطق بكثير من الأسماء المتداولة المركبة من عدة كلمات . فقد جرت العادة أن يكتفى فى التعبير عن هذه الأسماء بذكر الحروف الأولى التى تتألف منها كلماتها :

« T.S.F. = télégraphe sans fil » ; « M.A. = Master of arts »

وشاع هذا الاستعمال فى أسماء المخترعات والشركات والأحزاب والفرق الحزبية والنظريات والشهادات العلمية .. وما الى ذلك . وقد أنزلت هذه الرموز منزلة الكلمات وأخذ الناس يصرفونها وينسبون اليها ويشتقون منها أفعالا وصفات . وللاقتصار عليها وكثرة استخدامها فى الحديث والكتابة تنوسى أصلها عند عامة الناس ، وأصبح كثير منهم يعتقد أنها كلمات كاملة (النازى ، الأنزاك ، النافى ، اليونسكو .. الخ) .

وللرسم أثر كبير فى تحريف النطق بالكلمات التى يقتبسها الكتاب والصحفيون عن اللغات الأجنبية. وذلك أن اختلاف اللغات فى الأصوات

وحروف الهجاء والنطق بها وأساليب الرسم .. كل ذلك يجعل من المتعذر أن ترسم كلمة أجنبية فى صورة تمثل نطقها الصحيح فى اللغة التى اقتبست منها . فينشأ من جراء ذلك أن ينطق بها معظم الناس بالشكل الذى يتفق مع رسمها فى لغتهم ، ويشيع هذا الأسلوب من النطق ، فتصبح الكلمة غريبة كل الغرابة أو بعض الغرابة عن الأصل الذى أخذت عنه . وليس هذا مقصورا على اللغات المختلفة فى حروف هجائها كالعربية واللغات الأوروبية ، بل يصدق كذلك على اللغات المتفقة فى حروف الهجاء كالفرنسية والانجليزية . فجميع الكلمات الانجليزية التى انتشرت فى الفرنسية عن طريق رسمها فى الصحف والمؤلفات ينطق بها الفرنسيون فى صورة لا تتفق مع أصلها الانجليزى (Boy-scout ; foot-ball ; rugby ; hockey ; sterling ; standard of Living...) ، حتى ان كثيرا منها لا يكاد يتبينها الانجليزى اذا سمعها من فرنسى .

ثانيا ـ حركة التجديد فى اللغة :

تبدو حركة التجديد المقصود فى مظاهر كثيرة من أكبرها أثرا فى التطور اللغوى الأمور الآتية :

١ ـ تأثر الأدباء والكتاب بأساليب اللغات الأجنبية ، واقتباسهم أو ترجمتهم لمفرداتها ومصطلحاتها ، وانتفاعهم بأفكار أهلها وانتاجهم الأدبى والعلمى . فلا يخفى ما لهذا كله من أثر بليغ فى نهضة لغة الكتابة وتهذيبها واتساع نطاقها وزيادة ثروتها . والأمثلة على ذلك كثيرة فى تاريخ الأمم الغابرة وفى العصر الحاضر . فأكبر قسط من الفضل فى نهضة اللغة العربية فى عصر بنى العباس يرجع الى انتفاع الأدباء والعلماء باللغتين الفارسية والاغريقية . فقد أخذوا فى ذلك العصر يترجمون آثارهما ، ويعقبون عليهما بالشرح والتعليق ويستغلونهما فى بحوثهم ، ويحاكون أساليبهما ، ويقتبسون منهما عددا كبيرا من المفردات العلمية وغيرها ، ويمزجونها بمفردات لغتهم عن طريق تعريبها تارة وعن طريق ترجمتها تارة أخرى ، فاتسع بذلك متن اللغة العربية وازدادت مرونة

وقدرة على تدوين الآداب والعلوم . — ويرجع كذلك أكبر قسط من الفضل فى نهضة اللغة العـــربية بمصر فى العصر الحاضر الى انتفاع الصحفيين والأدباء والعلماء باللغات الأوروبية الحـديثة ، ومحاكاتهم لأساليبها ، وتعريبهم أو ترجمتهم لألفاظها ومصطلحاتها ، واستغلالهم فى مؤلفاتهم ومترجماتهم لمنتجات أهلها فى شتى ميادين الحركة الفكرية .
ولغة الكتابة بفرنسا فى العصر الحـاضر مدينة بأهم نواحى رقيها الى تأثرها باللغتين اللاتينية والاغريقية من جهة وباللغات الأوروبية الحديثة من جهة أخرى . فمنذ « عصر النهضة » Renaissance لم ينفك أدباء فرنسا وعلماؤها دائبين على اقتباس المفردات اللاتينية واليونانية القديمة ومحاكاة أساليب هاتين اللغتـين ، وترسم قواعـــدهما ومناهجهما فى البحث (١) . وقد أخذوا منذ عهد بعيد يقتبسون كثيرا من المفــردات والأساليب عن اللغات الأوروبية الحديثة وخاصة الانجليزية والألمانية .— ولولا آلاف المفردات التى اقتبسها المحدثون من أدباء ألمانيا وعلمائها من اللغة اللاتينية وما تفرع عنها ومن اللغات الأوروبية الحديثة وبخاصة الفرنسية والانجليزية ، ما قويت لغة الكتابة بألمانيا أن تصل الى الشأو الذى هى عليه الآن . — ومثل هذا يقال فى معظم لغات الكتابة فى العصر الحاضر .

وكثيرا ما تقتبس لغة الكتابة عن اللغات الأخرى مفردات لهـا نظير فى متنها الأصلى؛ وكثيرا ما تقتبس مفردات من لغة وتقتبس نظيرها فى الدلالة من لغة أخرى . والى هذه الظواهر وما اليها يرجع السبب فى كثرة الألفاظ المترادفة (المشترك المعنوى) فى لغات الكتابة . فمـا يذهب اليه بعضهم من أن الترادف بالمعنى الكامل لهذه الكلمة لا وجود له فى اللغات ليس صحيحا الا فيما يتعلق ببعض لغات المحادثة التى تظل بمأمن من الاحتكاك باللغات الأخرى . أما لغات الكتابة التى يستحيل

(١) انتشرت بفرنسا حركة المحاكاة للقواعد والأساليب اللاتينيـة بفضـل كتـاب القرن السابع عشر ، وعلى الأخص بلزاك وديكارت وبوسويه
Balzac, Descartes, Boussuet .

بقاؤها بمعزل عن غيرها ، ولغات المحادثة التى يتاح لها هذا الاحتكاك ، فلا تخلو من الترادف بالمعنى الصحيح ، للسبب الذى ذكرناه .

٢ ـ احياء الأدباء والعلماء لبعض المفردات القديمة المهجورة . فكثيرا ما يلجئون الى ذلك للتعبير عن معان لايجدون فى المفـــردات المستعملة ما يعبر عنها تعبيرا دقيقا ، أو لمجرد الرغبة فى استخدام كلمات غريبة ، أو فى الترفع عن المفردات التى لاكتها الألسنة كثيرا . وبكثرة الاستعمال ، تبعث هذه المفردات خلقا جديدا ، ويزول ما فيهـا من غرابة ، وتندمج فى المتداول المألوف . ولا يخفى ما لذلك من أثر فى نهضة لغة الكتابة واتساع متنها وزيادة قدرتها على التعبير . وقد سار على هذه الوتيرة بمصر فى العصر الحاضر كثـــير من الأدباء والعلماء والصحفيين ، فردوا بذلك الى اللغة العربية جزءا كبـــيرا من ثروتها المفقودة ، وكشفوا عن عدة نواح من كنوزها المدفـونة فى أجـداث المعجمـات .

٣ ـ خلق الأدباء والعلماء لألفاظ جديدة . فكثيرا ما يلجئون الى ذلك للتعبير عن أمور مستحدثة فى الحياة الاجتماعية أو الفـــكرية لا يجدون فى مفردات اللغة المستعملة ولا فى مفرداتها الداثرة ما يعبر عنها تعبيرا دقيقا . وقد لا يضطرهم الى ذلك الا مجرد الرغبة فى الابتداع أو مجانبة الألفاظ المتداولة المألوفة ، أو ابراز المعنى فى صورة رائعـة وتثبيته فى الأذهان وتذليل سبل انتشاره بالاغراب فى تسميته . وقـد عم استخدام هذه الطريقة فى الأمم الأوروبية منذ القرن التاسع عشر ، وكثر التجاء الأدباء والعلماء اليها بنوع خاص فى تسمية المستحدث من المخترعات الصناعية والمصطلحات العلمية والأحزاب والمبادىء السياسية والاجتماعية ، وفى التعبير عن بعض معـان دقيقـــة فى عالم الأدب والفلسفة ، فناءت مؤلفاتهم بهذه الكلمات المصنوعة ، وتألف منها معظم المصطلحات فى الفلسفة وعلم النفس والعلوم الطبيعية والطب والصيدلة .. وما الى ذلك . وقد صبغ معظم هذه المصطلحات بصبغة دولية ،فأقرته

المؤتمرات والهيئات العلمية الممثلة لمختلف الأمم الأوروبية وعم استخدامه فى لغاتها (تلغراف ، تليفون ، سوسيولوجيا ، جيولوجيا .. الخ) . وقد أجاز المجمع اللغوى بمصر الالتجاء الى هذه الطريقة، حيث تدعو الى ذلك ضرورة ، بألا يوجد فى مفردات اللغة متداولها ومهجورها ما يعبر تعبيرا دقيقا عن الاصطلاح المراد التعبير عنـــه .

ولا يخفى ما لهذه الوسيلة من أثر فى نهضة لغة الكتابة ، واتساع متنها ، ودقة مصطلحاتها وزيادة مرونتها وقدرتها على التعبير .

وقد ارتضى الأدباء والعلماء بعض قواعد عامة فى وضع هـــذه الألفاظ . ويستعينون عادة فى تكوينها بالنحت والاشتقاق الأكبر ومزج كلمتين أو أكثر من كلمة واحدة . ويستمدون أصولها من اللغات الحية أو الميتة وخاصة اللاتينية واليونانية القديمة . وكثيرا ما يســـتعان فى تكوينها بأكثر من لغة واحدة . فمن المفردات ما هو مؤلف من لغتـــين («سوسيولوجيا» أى علم الاجتماع ، فصدر الكلمة «سوســيو» من أصل لاتينى معناه الجمعية وعجزها «لوجيا» من أصـــل يونانى معناه المقـــال أو البحث أو الخطبة) «Sociologie» du latin «societas» = société, et du grec «logos» = discours. بل ان منها ماهو مؤلف من ثلاث لغات («بيسيكلت» أى الدراجـــة فان «بى» من أصل لاتينى يدل على التثنية ، « وســـيكل » من أصل يونانى معنـــاه الدائرة ، و «ت» علامة فرنسية للتصغير Bicyclette : du latin «bi» = deux fois, et du grec «kiklos» = cercle, et du suffixe diminutif français «tte»

وقوام هذه المفردات هو التواضع والاصطلاح . ولذلك كثيرا ما تختلف معانيها اختـــلافا يســـيرا أو كبيرا عن معانى الأصـــــول التى استمدت منها .

ولا تبقى هذه الألفاظ جامدة على الحالة التى وضعت عليها . بل ينالها ما ينال غيرها من المفردات ، وتخضع فى تطورها الصوتى والدلالى للقوانين العامة نفسها التى تخضع لها الألفاظ الأصلية . فبمجرد أن يقذف

بها فى التداول اللغوى وتتناقلها الألسنة تفلت من ارادة مخترعيها وتخضع لنواميس التطور العامة المسيطرة على ظواهر الصوت والدلالة . فاللفظ الموضوع أشبه شىء بحجر يقذف به القاذف من جهة معينة بقوة خاصة فانه بمجرد أن يفارق يده يخضع فى سيره لقوانين ثابتة صارمة لا يد للقاذف ولا لغيره على تعطيلها أو وقف آثارها . ولذلك يختلف الآن النطق بالألفاظ الموضوعة ويختلف رسمها باختلاف الأمم واللغات . والأسلوب الصوتى الذى كانت تلفظ به منذ قرن أو قرنين مثلا غير الأسلوب الصوتى الذى تلفظ به الآن . وقد أخذ كثير منها عند جميع الكتاب أو عند بعضهم ينحرف فى دلالته نفسها عن المعنى الذى وضع له فى الأصل .

ثالثا ـ المؤلفات اللغوية :

وهى البحوث التى ترمى الى حفظ اللغة ، وضبطها ، وسلامتها، وتخليدها ، والوقوف على خواصها وتاريخها وآثارها .. وما الى ذلك؛ فتشمل المعجمات ودوائر المعارف وكتب القواعد بمختلف أنواعها (النحو الصرف ، الاشتقاق ، الوضع ، البيان ، المعانى ، البديع .. الخ) وأدب اللغة وتاريخه ، ودراسة أصوات اللغة ومخارج حروفها ودلالة كلماتها وحياتها والأدوار التى سارت فيها من مختلف نواحيها .. وهلم جرا .

فلا يخفى ما لهذه الجهود من أثر جليل فى حياة لغة الكتابة ، وحفظها من التحريف وتهذيبها ونهضتها ونقلها من السلف الى الخلف .

رابعا ـ نشاط التأليف والترجمة فى الآداب والعلوم والفنون والصحافة وما الى ذلك

فمن الواضح أنه لا حياة للغة الكتابة بدون استخدامها فى هذه الشئون . وأنه بمقدار نشاط أهلها فى هذه الميادين تتاح لها وسائل الانتشار والرقى والنهوض .

خامسا — تعليم لغة الكتابة :

تقوم معاهد التعليم فى مختلف الأمم بأهم ناحية من هذه الوظيفة، واليها يرجع أكبر قسط من الفضل فى حياة اللغة ، وتخليدها وسلامتها وما يتاح لها من نهوض . فهى التى تعلم الصغار الكتابة والقراءة، وتقوم ألسنتهم ، وتصلح فاسد نطقهم ، وتأخذهم بآداب اللغة وأساليبها ، وتفقهم على قواعدها ، وتلقنهم آثارها ، وتبعث فى نفوسهم حبها واجلالها ، وتدرس لهم بها مختلف المواد فتزيدها تثبيتا فى أذهانهم ، وتقدرهم على استخدامها فى مختلف مناحى التعبير .

وتعتمد معاهد التعليم فى أدائها لهذه الوظائف الجليلة على العوامل الأربعة السابق ذكرها ، وعلى طرق اعداد المعلمين ومؤلفات التربية وأساليب التعليم ... وما يتصل بذلك ، وعلى ما تلقاه من اشراف وتعضيد ومعونة من جانب أولى الأمر والأسرات والهيئات والأفراد .

ولا يفوتنا قبل أن نختم هذه الفقرة أن نشير الى أن كل تطور أو رقى فى لغة الكتابة يؤثر بطريق غير مباشر فى لغة الحديث . فطبقات الخاصة تعمل جاهدة على تقريب لغة حديثها من اللغة الفصحى ؛ وانتشار التعليم الأولى يساعد على تهذيب لغة الكلام فى طبقات العامة ويدنو بها من لغة الكتابة . فالعوامل السابق ذكرها فى هذه الفقرة — وان اتجه أثرها أولا وبالذات الى لغات الكتابة — تؤثر بطريق غير مباشر فى لغات التخاطب .

الفصل الخامس

أصوات اللغة: حياتها وتطورها

(الفونتيك Phonétique (١))

ترجع أهم ظواهر اللغة الى قسمين رئيسيين : الظواهر المتعلقة بالصوت ؛ والظواهر المتعلقة بالدلالة . وكلتا الناحيتين فى تطور مطرد وتغير مستمر . وهى فى تطورها تتأثر بعوامل شتى وتخضع لطائفة كبيرة من القوانين .

وسندرس فى هذا الفصل ما يتعلق بالصوت وتطوره ؛ ونقف الفصل التالى على الأمور المتصلة بالدلالة .

— ١ —

خواص التطور الصوتى وعوامله

للتطور الصوتى خواص كثيرة من أهمها ما يلى (٢) :

١ — أنه يسير ببطء وتدرج . فاختلاف الأصوات فى جيل عما كانت عليه فى الجيل السابق له مباشرة لا يكاد يتبينه الا الراسخون فى ملاحظة هذه الشئون ، ولكنه يظهر فى صورة جلية اذا وازنا بين حالتيهما فى جيلين تفصلهما مئات السنين . فلغتنا لا تكاد تختلف فى أصواتها عن لغة آبائنا المباشرين ، ولكنها تختلف اختلافا بينا فى هذه الناحية

---

(١) انظر رقم ٣ بصفحة ٧ .

(٢) أشرنا الى كثير من هذه الخواص فى الفصول السابقة . انظر صفحات ٢٠ — ٢٣ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ .

عما كانت عليه فى ألسنة أجدادنا فى العصور الوسطى أو فى صدر العصور الحديثة .

٢ ــ أنه يحدث من تلقاء نفسه بطريق آلى لا دخل فيه للارادة الانسانية . فتحول صوت الثاء العربية مثلا الى تاء (ثلاثة ، تلاتة) ، والذال الى دال (ذراع ، دراع) ، والظاء الى ضاد (الظل ، الضل) والقاف الى همزة (قلت ، ألت) ، أو جاف (جيم غير معطشة : قلت ، جلت) وانقراض الأصوات التى كانت تلحق أواخر الكلمات للدلالة على اعرابها ووظائفها فى الجمل (كنتُ أحسبُ أنَّ كتابَ محمدٍ أحسنُ منْ كتابِ عليٍّ ــ كنتْ احسبْ انْ كتابْ محمدْ أحسنْ منْ كتابْ عليْ) ... كل ذلك وما اليه قد حدث من تلقاء نفسه بطريق آلى لا دخل فيه للتواضع أو ارادة المتكلمين .

٣ ــ أنه جبرى الظواهر ، لأنه يخضع فى سيره لقوانين صارمة، لا اختيار للانسان فيها ، ولا يد لأحد على وقفها أو تعويقها أو تغيير ما تؤدى اليه . واليك مثلا حالة اللغة العربية فى صدر الاسلام وما آلت اليه الآن : فعلى الرغم من الجهود الجبارة التى بذلت فى سبيل صيانتها ومحاربة ما يطرأ عليها من تحريف ، ومع أن هذه الجهود كانت تعتمد على دعامة من الدين ، فان ذلك كله لم يحل دون تطور أصواتها الى الصورة التى تتفق مع نواميس التطور اللغوى ، فأصبحت على الحالة التى هى عليها الآن فى اللغات العامية .

٤ ــ أنه فى غالب أحواله مقيد بالزمان والمكان . فمعظم ظواهر التطور الصوتى يقتصر أثرها على بيئة معينة وعصر خاص ، ولا نكاد نعثر على تطور صوتى لحق جميع اللغات الانسانية فى صورة واحدة . فتحول صوت القاف مثلا الى همزة (قلت ، ألت) لم يظهر الا فى بعض المناطق الناطقة بالعربية ومنذ عهد غير بعيد ، وتحول صوت a الواقع فى نهاية بعض الكلمات اللاتينية الى صوت e لم يظهر الا عند الفرنسيين ولم يبد أثره لديهم الا فى أثناء المدة المحصورة بين نهاية القرن الثامن وأوائل القرن الرابع عشر .

٥ — أنه اذا لحق صوتا معينا فى بيئة ما ظهر أثره غالبا فى جميع الكلمات المشتملة على هذا الصوت وعند جميع الأفراد الذين تكتنفهم هذه البيئة . فتحول القاف العربية مثلا الى همزة فى بعض المناطق المصرية قد ظهر أثره فى جميع الكلمات المشتملة على هذا الصوت عند جميع أفراد هذه المناطق (١) .

ومن هذا يظهر فساد كثير من النظريات القديمة بهذا الصدد :

فليس بصحيح ما ذهب اليه بعض العلماء من أن تطور الأصوات يحدث نتيجة لأعمال فردية اختيارية تنتشر عن طريق التقليد والمحاكاة. (٢)

وليس بصحيح كذلك ما كانت تقول به المدرسة الانجليزية من عهد سايس Sayce الى عهد سويت Sweet من أن التطور الصوتى يتجه باللغة نحو التهذيب والكمال ، ولا ما ذهب اليه العلامة پول پاسى من أنه يتجه نحو اظهار العناصر الأساسية فى الكلمة وتجريدها مما عسى أن يكون بها من أصوات لا تدعو اليها كبير ضرورة ، فيخفف بذلك من ثقلها ويزيدها تمييزا . وذلك أن اتجاهات كهذه لا يمكن أن تتحقق الا فى تطور اختيارى مقصود تقوده الارادة الانسانية فى سبيل الاصلاح . أما وقد ثبت أن التطور الصوتى تطور تلقائى آلى لا دخل فيه للارادة الانسانية فلا يتصور أن يتقيد فى اتجاهه بالسبل التى تقول بها هذه النظريات . وان موازنة بين حالة الكلمات فى اللغة العربية الفصحى وما آلت اليه فى اللغات العامية لأكبر دليل على ما نقول . فمن الواضح أن هذا التطور لم يتجه نحو التهذيب والكمال ، ولم يحقق زيادة فى تمييز الكلمات، بل أدى فى معظم مظاهره الى اللبس فى وظيفة الكلمات ودلالاتها ، وجرد اللغة مما بها من دقة وسمو ، وهوى بها الى منزلة وضيعة فى التعبير . وما حدث فى اللغة العربية بهذا الصدد حدث

(١) لهذه الخاصة بعض استثناءات لا يتسع المقام لذكرها ، ومعظمها يمكن رجعه الى القوانين العامة لحياة اللغات (انظر بعض أمثلة لهذه الاستثناءات فى آخر ص ٢٩١ وصفحة ٢٩٢) .

(٢) انظر ص ٥٨ .

مثله فى كثير من اللغات الانسانية الراقية . فكثير من الكلمات اللاتينية مثلا كانت واضحة الشخصية مميزة الأصوات ، ثم فقدت بعد تطورها شخصيتها ومميزاتها ، وأصبحت فى حالة يكتنفها اللبس والابهام . ويظهر هذا مثلا بالموازنة بين كلمة aqua اللاتينية (الماء) وما انتهت اليه فى الفرنسية اذا استحالت الى صوت واحد من أصوات اللين (eau وينطق بها 6) .

وليس بصحيح كذلك ما ذهب اليه مكس مولر Max Müller ووتنى Whitney من أن التطور الصوتى يتجه نحو تسهيل النطق ويعمل على تحقيق الاقتصاد فى المجهود (١) . وذلك أن هذا الاتجاه من قبيل الاتجاهات التى تقول بها النظريات السابقة . فهو مثلها لايمكن أن يتحقق الا فى تطور اختيارى مقصود تقوده الارادة الانسانية فى سبيل الاصلاح . أما وقد ثبت أن التطور الصوتى تطور تلقائى آلى لا دخل فيه للارادة الانسانية ، فلا يتصور أن يتقيد فى اتجاهه بالخطة التى تقول بها هذه النظرية . حقا ان الحالة التى تتطور اليها أصوات الكلمة فى جيل ما تكون دائما أكثر من حالتها الأولى تلاؤما مع طبيعة أعضاء النطق واستعدادها عند أهل هذا الجيل، كما سيأتى بيان ذلك .(٢) ولكن لفظها قد يتطلب من الأعمال الصوتية وحركات أعضاء النطق أكثر مما يتطلبه لفظ الكلمة القديمة ، فلا يتحقق حينئذ الاقتصاد الذى تقول به هذه النظرية . ويظهر هذا مثلا بالموازنة بين الكلمة العربية «ماء» وما انتهت اليه فى عامية القاهرة اذ أصبحت « مَيَّه° » وبين الكلمة العربية « ذا الوقت » وما انتهت اليه فى عامية بعض المقاطعات المصرية اذ أصبحت « دلوجيتى » ، وبين الكلمة اللاتينية caballicet (٣) وما انتهت اليه فى فرنسية العصور الوسطى اذ أصبحت chevalcet (وكان ينطق بها tchevalst)

---

(١) «Loi du moindre effort» (Max Müller) — «Principe d'économie» (Witney). — V. Dauzat : Philosophie du Langage, p. 166; Patois. p. 117

(٢) انظر آخر صفحة ٢٨٩ وتوابعها .

(٣) Troisième personne du subjonctif présent du verbe chevaucher

أما العوامل التى تؤدى الى تطور الأصوات فيرجع أهمها الى الأمور الآتية :

١ ــ التطور الطبيعى المطرد لأعضاء النطق فى بنيتها واستعدادها.

٢ ــ اختلاف أعضاء النطق فى بنيتها واستعدادها باختلاف الشعوب .

٣ ــ الأخطاء السمعية .

٤ ــ تفاعل أصوات الكلمة بعضها مع بعض .

٥ ــ موقع الصوت فى الكلمة .

٦ ــ تناوب الأصوات وحلول بعضها مع بعض .

٧ ــ أثر الأمور النفسية والاجتماعية والجغرافية .

٨ ــ أثر العوامل الأدبية .

وقد تكلمنا بما فيه الكفاية فى الفصلين الأول والرابع من هذا الباب عن أثر العاملين الأخيرين فى التطور الصوتى (١) . فحسبنا هنا أن نذكر كلمة عن أثر كل عامل من العوامل الستة الأولى فى هذا التطور .

— ٢ —

التطور الطبيعى المطرد لأعضاء النطق

ونظرية روسلو Rousselot

من المقرر أن أعضاء النطق فى الانسان فى تطور طبيعى مطرد فى بنيتها واستعدادها ومنهج أدائها لوظائفها . فحناجرنا وحبالنا الصوتية وألسنتا وحلوقنا وسائر أعضاء نطقنا تختلف عما كانت عليه

(١) انظر صفحات ١٧٥ ـ ١٨٥ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ٢٥٧ ـ ٢٨٤ .

آبائنـــا الأولين ، ان لم يكن فى بنيتها الطبيعية فعـــلى الأقـل فى استعدادها (١) ، بل انها لتختلف عما كانت عليه عند آبائنا الأقربين . غير أن هذا التطور يسير ببط وتدرج ، ولذلك لايبدو أثره بشكل واضح الا بعد زمن طويل .

وغنى عن البيان أن كل تطور يحدث فى أعضاء النطق أو فى استعدادها يتبعه تطور فى أصوات الكلمات ، فتنحرف هذه الأصوات عن الصورة التى كانت عليها الى صورة أخرى أكثر منها ملاءمة مـع الحالة التى انتهت اليها أعضاء النطق .

وقد كان لكشف هذه الحقيقة أكبر فضل فى نهضة البحـــوث اللغوية المتعلقة بالصوت ، وفى القضاء على كثير من النظريات الفاسدة التى أشرنا الى بعضها فى الفقرة السابقة (٢) .

وقد اهتـــدى الى هذا الكشف ، من قبل العلامة Rousselot (٣) عدد كبير من الباحثين، ونخص بالذكر منهم هرمان Herman Paul (٤) . ولكن جرت العادة بنسبته الى العلامة روسلو ، لأنه وقف قسطا كبيرا من جهوده على دراسته وتدعيمه بالأدلة القاطعة وتحرى حقائقه بوسائل البحث القديمة ، وبوسيلة جديدة لم يكد يسبقه أحد اليها ، وهى وسيلة الأجهزة (الفونيتيك التجريبى (٥)) .

وليس من الميسور وضع قواعد عامة مضبوطة لاتجاهات هــذا

---

(١) يكاد العلماء يجمعون على أن أعضاء النطق تختلف بعض الشىء فى بنيتهــا واستعدادها باختلاف الشعوب وباختلاف الظروف المحيطة بكل شعب ، كما سيأتى بيان ذلك فى الفقره التالية ، ويكادون يجمعون كذلك على أنها فى الشعب الواحـد والظروف المتشابهة تتطور استعداداتها وتختلف باختلاف العصـور . أما تطور بنيتهـا الطبيعية واختلافها باختلاف العصور فى الشعب الواحد والظروف المتشابهة فقد اختلف العلمـاء بصدده : فمن منكر له ؛ ومن قائل به . والمذهب الأخير هو الأدنى الى الصواب .

(٢) انظر صفحتى ٢٨٧ ، ٢٨٨ .

(٣) انظر صفحة ٦١ وتعليقيها الأول والثانى .

(٤) انظر صفحات ٥٧ ، ٦٠ ، ٦١ .

(٥) انظر صفحات ٤٢ ــ ٤٥ .

التطور ، لأن الأمر يختلف اختلافا كبيرا باختلاف اللغات والبيئات والشعوب ، كما تقدمت الاشارة الى ذلك فى الفقرة السابقة (١). ولذلك سنقتصر بصدد هذا العامل على ضرب أمثلة من الظواهر الصوتية المترتبة عليه .

فمن ذلك ماحدث فى اللغة العربية بصدد أصوات الجيم والثاء والذال والظاء والقاف . فقد أصبحت هذه الأصوات ثقيلة على أعضاء النطق فى كثير من البلاد العربية ، وأصبح لفظها على الوجه الصحيح يتطلب تلقينا حاصا ومجهودا اراديا وقيادة مقصودة لحركات المخارج . ولعدم ملاءمتها مع الحالة التى انتهت اليها أعضاء النطق فى هذه البلاد أخذت تتحول منذ أمد بعيد الى أصوات أخرى قريبة منها . فالصوت الأول (الجيم) الذى كان ينطق به معطشا بعض التعطيش فى العربية الفصحى قد تحول فى معظم المناطق المصرية الى جاف (جيم غير معطشة)، وفى معظم المناطق السورية والمغربية الى جيم معطشة كل التعطيش J (٢) . والثاء قد تحولت الى تاء فى معظم المناطق المصرية وفى بلاد أخرى (فيقال: توب ، تلج ، تخين ، تعلب ، تعبان ، تفل ، تئيل ، تلت ، تلاتة ، تمن ، تمانية ، تور ، اتنين ، نتر ، جتة ، عتة ، عتر ، .... الخ ؛ بدلا من : ثوب ، ثلج ، ثخين ، ثعلب ، ثعبان ، ثفل ، ثقيل ، ثلث ، ثلاثة ، ثمن ، ثمانية ، ثور ، اثنان ، نثر ، حثة ، عثة ؛ عثر ... الخ (٣)) . والذال قد تحولت فى كثير من المناطق العربية الى دال فى معظم الكلمات (فيقال: داب ، دراع ، ديب ، ده ، دبل ، دبح ، دبان ، دأن ، أدان ، ودن ، دهب ، ديل .. الخ ، بدلا من : ذاب، ذراع، ذئب، ذا، ذى، ذبل، ذبح، ذباب، ذقن، أذان، أذن، ذهب، ذيل ... الخ) ، والى زاى فى بعض الكلمات (فيقال مثلا : زنب ،

---

(١) انظر رقم ٤ بصفحة ٢٨٦ .

(٢) لا يزال ينطق بصوت الجيم نطقا صحيحا فى بعض المناطق المصرية ، وخاصة فى محافظة الشرقية وفى كثير من البلاد العربية الأخرى .

(٣) تحول هذا الصوت فى كلمات قليلة الى سين أو صاد (ثراب مثلا ينطق بها احيانا سراب أو صراب) .

زهن زكى ، بزر ، رزالة ... الـخ ، بدلا من : ذنب ، ذهن ، ذكى ، بذر ، رذالة ... الخ) . والظاء قد تحولت الى ضاد فى معظم الكلمات (فيقال : ضلام ، ضفر ، ضل ، ضهر ... الخ ، بدلا من : ظلام ، ظفر ، ظل ، ظهر ... الخ) ، والى زاى مفخمة فى بعض الكلمـات (كما ينطق فى عامية المصريين بكلمات ، ظالم ، ظريف ، أظن ، حظ ... الخ) (١) . والقاف تحولت الى همزة فى بعض اللهجات العـربية (فيقال : أط ، ألت ، أبل ، عأد ، نطأ ... الخ ، بدلا من : قط ، قلت ، قبل ، عقـد ،نطق .. الخ) ، والى جـاف (جيم غـير معطشـة) فى معظم اللهجات العامية بمصر وغيرها من البلاد العربية . فيقال : جط جلت ، جبل ، عجد ، نطج ... الخ ، بدلا من قط ، قلت ، قبل، عقد ، نطق ... الخ) (٢) .

ومثل هذا حدث فى كثير من اللغات الأوروبية . فمن ذلك مالوحظ بصدد تطور الراء الفرنسية فى منطقة باريس وما اليها . فقد كان ينطق بها قديما فى صورة مرققة ، ثم أخذت تنحرف عن مخرجها تبعا لتطور أعضاء النطق واستعدادها حتى قربت من آخر الحلق ، فتحولت الى صوت بين الراء والغين ، وأصبح صوتها القديم ثقيلا على الألسنة يتطلب لفظه من أهل هـذه المناطق مجهودا اراديا وقيادة مقصودة لحركات المخارج .

---

(١) لا يزال ينطق بأصوات الثاء والذال والظاء نطقـا صـحيحا فى عاميـة العراق وليبيا وخاصة فى برقة وفى تونس والجزائر والمغرب وفى القبائل العربية النازحة الى مصر من المغرب (الفوايد ، الرماح ، البراعصة ، أولاد على ، الضعفاء ، سمالوس .. الخ) .

(٢) لا يزال صوت القاف محتفظا بنطقه الصحيح فى كثير من الكلمات فى عامية العراق والجزائر وتونس وبعض بلاد سوريا وعامية رشيد وبعض مناطق اليمن . وكان مستعملا منذ عهد غير بعيد فى بعض مناطق بنى سويف . وقد سمعت أنا نفسى بعض شيوخ أسرتى (ببلدة الحمام محافظة بنى سويف) يتكلمون بالقاف ، ولا يزال العامة فى هذه المناطق يتكلمون بالقاف ، حينما يروون عبارة منسوبة الى أجـدادهم فى الأقاصيص الشـعبية وما اليها ، وهذا يدل على أن صوت القاف لم ينقرض لديهم الا منذ أمد قريب (انظر تحقيقا لابن خلدون فى موضوع القاف والجاف فى صفحتى ١٣٩٣ ، ١٣٩٤ من الطبعة الثانية للجزء الرابع من مقدمة ابن خلدون ، تحقيق الدكتور على عبد الواحد وافى) .

- ٣ -

اختلاف أعضاء النطق باختلاف الشعوب

تختلف أعضاء النطق فى بنيتها واستعدادها ومنهج تطورها تبعا لاختلاف الشعوب وتنوع الخواص الطبيعية المزود بها كل شعب والتى تنتقل عن طريق الوراثة من السلف الى الخلف . حقا ان أعضاء النطق تظل مرنة طوال المرحلة الأولى من مراحل الطفولة . فمن المشاهد أن الطفل فى هذه المرحلة لا يستعصى عليه اكتساب أية لغة عن طريق التقليد ، مهما كانت هذه اللغة بعيدة عن لغة أبوية ، بل فى استطاعته أن يكتسب بهذه الوسيلة عدة لغات أجنبية اذا أتيحت له فرصة الاختلاط بالمتكلمين بها ، ويصل فى اجادتها جميعها الى درجة لايستطيع معها أكبر خبير فى اللغات أن يميزه من أهلها ، كما تقدمت الاشارة الى ذلك فى الفصل الثانى من الباب الأول من هذا الكتاب [1] . ولكن ليس من شك فى أنه كلما تقدمت به السن ظهرت عنده الاستعدادات الصوتية الكامنة الخاصة بأمته ، ورسخت لديه عاداتها الكلامية . فتفقد أعضاء نطقه مرونتها شيئا فشيئا ، وتتشكل بالشكل الذى فطرت عليه فى شعبه ، وتسلك فى تطورها منهجا خاصا يختلف عن المنهج الذى تسلكه أعضاء النطق فى الشعوب الأخرى .

ولا يخفى ما يترتب على اختلاف الشعوب بهذا الصدد من آثار خطيرة فى التطور الصوتى فى مختلف اللغات .

فالى هذا يرجع بعض السبب فى اختلاف اللغة الواحدة فى تطورها الصوتى باختلاف الشعوب الناطقة بها . وذلك أنها تسلك فى تطورها الصوتى عند كل شعب منها مسلكا يتفق مع ما فطرت عليه أعضاء نطقه فى طبيعتها واستعدادها ومنهج ارتقائها . فاللاتينية مثلا

---

(١) انظر صفحات ١٣٨ ـ ١٤٢ .

قد سلكت فى تطورها الصوتى عند كل شعب من الشعوب الناطقة بها مسلكا يختلف عن مسلكها فى الشعوب الأخرى ، فلم تلبث أن انشعبت من جراء ذلك الى عدة لغات (الفرنسية، الايطالية ، الأسبانية. البرتغالية ، لغة رومانيا ... الخ) . واللغة العربية قد اتجهت كذلك فى تطورها الصوتى عند كل شعب من الشعوب الناطقة بها وجهة تختلف عن وجهتها عند غيره ، فلم تلبث أن تولد عنها من جراء ذلك عدة لهجات (عامية العراق ، عامية الشام ، عامية نجد والحجاز ، عامية اليمن ، عامية مصر ، عامية المغرب ... الخ (١)) . حقا ان كثيرا من مظاهر هذا الاختلاف ترجع الى عوامل اجتماعية ونفسية أو الى آثار البيئة الجغرافية (٢) ، ولكن ليس من شك فى أن بعض هذه المظاهر يرجع الى العامل الشعبى الذى نحن بصدد الكلام عنه .

وعلى هذا العامل يقع كذلك قسط من التبعة فيما يصيب اللغة من تحريف فى أصواتها حينما تنتقل من شعب الى آخر (٣) . وذلك أنها تتشكل عند الشعب المنتقلة اليه فى الصورة التى تتفق مع ما فطرت عليه أعضاء نطقه فى بنيتها واستعدادها ، فتبعد بذلك عن أصولها الأولى ، ويزداد بعدها هذا كلما اتسعت مسافة الخلف بين أصول الشعبين . فما أصاب لغة الصقالبة من تحريف فى ألسنة البلغاريين يفوق كثيرا ما أصابها عند غيرهم ؛ وذلك لأن الشعب الفينى Finois الذى ينحدر منه البلغاريون لا تربطه صلة قريبة بالأصل السلافى الذى ينتمى اليه الصقالبة (٤) . — وما أصاب الأصوات اللاتينية من تحريف فى اللغة الفرنسية يفوق كثيرا ما أصابها فى اللغة الايطالية ، وذلك لأن الايطاليين أقرب رحما الى قدماء الرومان من الفرنسيين ، ففيهم يغلب

---

(١) انظر آخر ص ١٧٤ .

(٢) انظر صفحة ١٧٥ .

(٣) انظر صفحة ٢٣١ وآخر ص ٢٣٥ وأول ٢٣٦ وآخر ص ٢٤٤ . ونقول « قسط من التبعة » لا كل التبعة ، لأن لهذه الظاهرة أسبابا أخرى كثيرة غير هذا العامل (أسبابا اجتماعية ونفسية وجغرافية .. الخ) .

(٤) انظر صفحة ٢٣١ .

الدم اللاتيني ، بينما يغلب في الفرنسيين الدم السلتي والجرماني . — ولهجات القسم الجنوبي من فرنسا كالجسكونية والبروفنسية Gascon, Provençal etc. أقرب الى أصولها اللاتينية من لهجات القسم الشمالي ، وذلك أن الدم اللاتيني في سكان الجنوب أغزر منه في سكان الشمال . — ولهجات الجنوب نفسها تختلف في مبلغ قربها الى اللغة اللاتينية تبعا لاختلاف الناطقين بها في مبلغ قربهم الى الأصل اللاتيني . ولذلك كانت البروفنسية Provencal أقرب الى اللاتينية من الجسكونية Gascon لأن البرفنسيين أدنى الى اللاتينيين من الجسكونيين. ولهجات القبائل العربية النازحة الى مصر من المغرب (البراعصة ، الفوايد ، الرماح ، الجوازى ، أولاد على ، سمالوس ... الخ) أدنى في ناحيتها الصوتية الى العربية الفصحى من لهجات المصريين أنفسهم (١): وذلك لأنهم أقرب رحما الى العرب من المصريين .

وعلى ضوء هذا العامل يمكن كذلك قياس مسافة الخلف بين « اللهجات المحلية » (وهي اللهجات التي يتكلم بها في منطقة لغوية واحدة كلهجات البلاد المصرية) (٢) والوقوف على بعض الأسباب التي تؤدي الى بعدها بعضا عن بعض (٣) . فالمشاهد أن مبلغ اختلاف هذه اللهجات بعضها عن بعض في أصواتها يتبع الى حد كبير مبلغ اختلاف الناطقين بها بعضهم عن بعض في أصولهم الشعبية . فكلما كان هؤلاء متجانسين في أصولهم ضاقت مسافة الخلف بين لهجاتهم في ناحيتها الصوتية ، وكلما تعددت الأصول الشعبية التي ينتمون اليها اتسعت هذه المسافة . فلهجات المصريين لا تختلف كثيرا بعضها عن بعض في هذه الناحية ، وذلك لتجانسهم في الأصول التي انحدروا منها . ولهجات المنطقة الشمالية بفرنسا . (منطقة باريس وما اليها) تختلف كثيرا عن لهجات المنطقة الجنوبية منها (طولون ، نيس ... الخ

(١) انظر آخر ص ٢٩٢ والتعليق الأول فيها .

(٢) انظر ص ١٧٩ وتوابعها .

(٣) نقول « بعض الأسباب » لأن لهذه الظاهرة أسبابا أخرى كثيرة غير هذا العامل (أسبابا اجتماعية ونفسية وجغرافية ... الخ) .

Nice, Toulon) ؛ ولكن كلتـــا المنطقتين تحتـــوى مجموعة متشـــابهة من اللهجات (١) . وذلك لأن سكان المنطقة الشـــمالية يختلفون فى أصولهم الشعبية عن سكان المنطقة الجنوبية ؛ ولكن كلتا المنطقتـــين تضم من السكان مجموعة متجانســـة فى هذه الأصول . ــ ولهجات المناطق الوسطى بفرنسا يختلف بعضها عن بعض اختلافا غير يســـير؛ وذلك لتعدد الأصول الشعبية التى ينتمى اليها سكان هذه المناطق (٢) .

غير أنه من الخطأ المبالغة فى أثر هذا العامل والعامل السابق له كما حاول ذلك بعض الباحثين . ولا أدل على أن أثرهما ليس بالدرجة التى تصورها هؤلاء من أن الطفل من أية أمة وفى أى عصر يستطيع بسهولة أن يجيد لغة أمة أخرى أو عصر آخر عن طريق التقليد اذا أحيط فى دور طفولته بأفراد يتكلمون هذه اللغة ، كما تقدمت الاشارة الى ذلك فى أول هذه الفقرة .

— ٤ —

الأخطاء السمعية

وسقوط الأصوات الضعيفة

ونظرية روسلو وميبه Bousselot — Meillet

يعتمد الطفل فى محاكاته للغة أبويه على حاسة السمع ، كما سبق شرح ذلك فى الفصـــل الثانى من الباب الأول من هذا الكتاب (٣) . ولما كانت هذه الحاسة عرضة للزلل فى ادراكاتها ، كان لزاما أن يجانب الطفل السداد فى بعض ما يحاكيه وأن تختلف لغته بعض الاختلاف فى ناحيتها الصوتية عن لغة أبويه .

---

(١) انقرض الآن معظم هذه اللهجات وحلت محلها الفرنسية الحديثة .

(٢) V. Dauzat : Vie du Langage, 47

(٣) انظر صفحة ١٥١ .

وتنقسم الأخطاء اللغوية الناجمة عن هذا السبب قسمين :

١ ــ أخطاء خاصة مقصورة على بعض الأفراد كالأخطاء الناجمة عن ضعف السمع أو اختلال أجهزته وما الى ذلك . وليس لمثل هذه الأمور شأن كبير فى تطور اللغة ، لأن آثارها مقصورة على أصحابها . تبقى معهم وحدهم فى حياتهم وتموت بموتهم .

٢ ــ أخطاء عامة يشترك فيها جميع أفراد الطبقة الواحدة وتمتاز بها لغتهم عن لغة الطبقة السابقة لهم . وذلك كالأخطاء السمعية الناشئة عن ضعف بعض الأصوات . فقد يحيط بالصوت بعض مؤثرات تعمل على ضعفه بالتدريج ، فيتضاءل جرسه شيئا فشيئا حتى يصل فى عصر ما الى درجة لا يكاد يتبينه فيها السمع . فحينئذ يكون عرضة للسقوط. وذلك أن معظم الصغار فى هذا العصر لا يكادون يتبينونه فى نطق الكبار ، فينطقون بالكلمات مجردة منه . ولا يفطن الآباء لسقوطه فى لغة أولادهم للسبب نفسه الذى من أجله لم يفطن الأولاد لوجوده فى لغة آبائهم .

ولا يخفى ما لهذا القسم من الأخطاء من أثر بليغ فى تطور اللغة من ناحيتها الصوتية . فاليه يرجع السبب فى سقوط كثير من الأصوات فى مختلف اللغات الانسانية وخاصة فى اللغات الهندية ــ الأوروبية . وقد ظهر أثر هذا العامل أوضح ما يكون فى الأصوات الواقعة فى أواخر الكلمات كعلامات الاعراب فى اللغة العربية .

ويرجع أكبر قسط من الفضل فى توضيح هذا العامل وبيان آثاره الى العلامتين روسلو ومييه Rousselot, Meillet ولذلك تنسب اليهما نظريته (١) .

---

(١) انظر فى ذلك : Dauzat, Les Patois, p. 118 ; Meillet, Linguistique générales, p. 79 ; Delacroix, Le Langage et la Pensée, p. 180 et suiv.
وانظر فى التعريف بروسلو ومييه صفحات ٤٥ ، ٦١ ، ٦٧ والتعليق الثالث بصفة ٦٧ .

- ٥ -

تفاعل أصوات الكلمة بعضها مع بعض

يحدث بين الأصوات المتجاورة والمتقاربة فى الكلمة من ظواهر التفاعل أنواع كثيرة يؤدى كل نوع منها الى نتائج ذات بال فى التطور الصوتى . ومن أهم ما سجله الباحثون بهذا الصدد الأمور الآتية :

١ ـ التفاعل بين الأصوات الساكنة (ونعنى بها ما يقابل أصوات اللين) .

يحدث أحيانا بين الصوتين المتجاورين فى الكلمة مثل ما يحدث بين المواد المحملة بالكهرباء . فتجاور مادتين من هذه المواد يحدث بينهما تجاذبا اذا كانتا مختلفتين فى نوع كهربائهما ، بأن كانت احداهما موجبة والأخرى سالبة وتنافرا اذا كانتا متحدتين فيه بأن كانت كلتاهما موجبة أو سالبة . وكذلك يفعل أحيانا التجاور أو التقارب بين الصوتين:

(أ) فاذا تجاور صوتان مختلفان فى مخارجهما أو تقاربا انجذب أحيانا كل منهما نحو الآخر ، فينتهى بهما الأمر الى واحدة من النتائج الأربع الآتية :

فتارة يلتصق أحدهما بالآخر ، فتنتقل الأصوات التى كانت تفصل بينهما الى ما بعدهما (ظاهرة النقل المكانى Métathèse [١]) ، كما حدث لحرفى b-r فى كلمة berbis اذ تحولت الى brebis وفى كلمة abeuvrer اذا تحولت الى abreuver .

وتارة يتحول أحدهما الى صوت من نوع الصوت الآخر (ظاهرة التشاكل assimilation [٢]) . فأحيانا يتحول الأول الى نوع الصوت الثانى ،

---

(١) ليس النقل المكانى Métathèse مقصورا على الحالة التى نحن بصدد الكلام عنها ، بل يطلق اصطلاحا على كل حالة ينتقل فيها صوت أو أكثر من موضعه فى الكلمة الى موضع آخر كما سيأتى بيان ذلك فى آخر الفقرة السادسة من هذا الفصل .

(٢) استخدمنا كلمة assimilation فى معناها الواسع الذى يشمل التفاعل بين صوتين متجاورين ، لأنها لا تطلق فى معناها الاصطلاحى الضيق الا على التفاعل بين صوتين يفصل بينهما فاصل .

كما حدث فى cercher اذ تحولت الى chercher ، وكما حدث فى اللام الشمسية (١) فى اللغة العربية اذ تحولت الى صوت الحرف الذى يليها (التقوى ، الثوب ، الدار ، الذنب ، الرحمة ، الزهر ، السماء ، الشمس ، الصواب ، الضر ، الطول ، الظلم ، الناب) ؛ وكما حدث فى الكلمة العربية « شمس » اذ تحولت فى بعض اللهجات العامية الى « سمس » . وأحيانا يتحول الثانى الى نوع الصوت الأول كما حدث فى gamba, render اذ تحولت الى gamma, renner (٢) ، وكما حدث الكلمة العربية « شمس » اذ تحولت فى بعض لهجات الصعيد الى « شمش » .

وأحيانا يمتزجان معا ، فيتكون من امتزاجهما صوت ثالث به صفات من كليهما ، كما حدث فى جميع الكلمات التى تجاور فيها صوتا L, Y اذ تحول هذان الصوتان فى الفرنسية الى صوت واحد يجمع بين صفتيهما وهو صوت L. mouillé .

وأحيانا يتلاشى أحدهما فى الآخر : فيبقى الثانى وحده ، كما حدث فى الكلمة اللاتينية accapter اذ تحولت فى الفرنسية الى acheter ؛ أو يبقى الأول وحده ، كما حدث فى الكلمة اللاتينية cliave اذ تحولت فى الايطالية الى Chiave (ينطق بها Kyave) (٣) .

(ب) واذا تجاور صوتان متحدان أو تقاربا فانهما يتنافران أحيانا، فينتهى بهما الأمر الى واحدة من النتائج الثلاث الآتية :

فتارة يتحول صوت أحدهما الى صوت مغاير للآخر (ظاهرة

---

(١) وهى لام التعريف المتبوعه بأحد الحروف الآتية : ت ث د ذ ر ز س ش ص ض ط ظ ن .

(٢) تحول الصوت الاول الى نوع الصوت الثانى هو الغالب فى هذه الحالة : La Vie du Langage, pp. 57, 79

(٣) انقراض الاول وبقاء الثانى هو الغالب فى هذه الحالة V. Dauzat, op. cit., 57, 78

التباين dissimilation . (١) ويقع هذا على ضربين . فأحيانا يتحول أولهما كماحدث في orphani nus, pereg r inum اذ تحولا في الفرنسية الى orphe l in, pe l e rin . وأحيانا يتحول ثانيهما، كما حدث في الكلمة اللاتينية c r ib rum اذ تحولت في الفرنسية الى crib l e وكما حدث لصوتي اللام المشددة في اللاتينية اذ تحول صوتها الثاني الى ياء في معظم الكلمات الاسبانية castella تحولت الى castilla (وينطق بها castilya) (٢) .

وتارة يسقط أحدهما في النطق ، كما حدث في معظم الأصوات المشددة في اللاتينية اذتحولت في النطق الفرنسي والبرڤنسي provençal والاسباني الى أصوات مخففة (٣) ، وكما حدث في معظم الأصوات المشددة في العربية اذ تحولت في لهجات كثير من بلاد محافظة الشرقية الى أصوات مخففة (فيقال مثلا كلْمى ، أمْها ، عمْها ، من كلْ بدْ) بدلا من : كلّمى ، أمّها . عمّها . من كلّ بدّ ») .

وتارة يتساقطان معا ويحل محلهما صوت واحد غريب عنهما ، كما حدث في صوتي اللام المشددة اللاتينية اذ تحولا في الجسكونية Gascon الى تاء t في حالة وقوعهما في آخر الكلمة والى راء r في حالة وقوعهما بين حرفي لين (فالكلمتان اللاتينيتان bellum, bella محولا في الجسكونية الى bèt, bera) (٤) .

٢ — التفاعل بين أصوات اللين :

وتجاور صوتي لين أو تقاربهما في الكلمة يجعلهما كذلك عرضة للتغير والانحراف .

---

(١) استخدمنا كلمة dissimilation في معناها الواسع الذى يشمل التفاعل بين صوتين متجاورين ، لأنها لا تطلق في معناها الاصطلاحي الضيق الا على التفاعل بين صوتين يفصل بينهما فاصل .

(٢) تحول الأول الى صوت مغاير للثاني هو الغالب في هذه الحالة
V. Dauzat, op. cit., 57, 79

(٣) وهذا فيما عدا اللام المشددة V. Dauzat, op. cit., 79 ونقول « في النطق » لأن معظمها لا يزال محتفظا بشكله القديم في الرسم .

(٤) Dauzat, op. cit., 79

فتارة يلتصقان بعد تباعدهما ، فتسقط الأصوات التى تفصلهما ، ويتكون منهما صوت لين مركب diphtongue ، كما حدث فى الكلمة اللاتينية r e g i na اذ تحولت فى الفرنسية القديمة الى reïne (١) .

وتارة يتباعدان بعد التصاقهما ، فيقحم بينهما صوت ساكن (أى غير لين) لتسهيل النطق بهما ، كما حدث فى الكلمة الفرنسية القديمة Pooir اذ تحولت فى الفرنسية الحديثة الى Pouvoir

وتارة يتحول أحدهما الى صوت لين آخر اذا كانا متحدين ، كما حدث فى الكلمة اللاتينية V i c i nus اذ تحولت فى لغة التخاطب عند الرومان الى V e c i nus

وتارة يخرج أحدهما عن فصيلته خروجا تاما . فيتحول الى صوت ساكن (٢) (ونعنى به ما يقابل أصوات اللين) كما حدث فى الكلمة اللاتينية P l a tt e a اذ تحولت الى P l a tt s a (٣) ، وكما حدث فى بعض اللهجات العامية للمقاطعات الفرنسية (أوفرنى وفوريه ودوفينيه Auvergne, Forez, Dauphine) اذ تحولت فيها الكلمات التى من قبيل fialo ; lialo الى fsalo ; tsala

- ٦ -

موقع الصوت فى الكلمة

وموقع الصوت فى الكلمة يعرضه كذلك لكثير من صنوف التطور والانحراف .

١ ـ وأكثر ما يكون ذلك فى الأصوات الواقعة فى أواخر

---

(١) تحولت هذه فى الفرنسية الحديثة الى reine التى ينطق بها reine خضوعا لقانون « التناوب بين أصوات اللين » الذى سنتكلم عليه فى صفحتى ٣٠٨ ، ٣٠٩ .

(٢) يتحول الى ذلك فى الغالب الصوت الأول منهما ، كما يظهر من الأمثلة التى سنذكرها .

(٣) تحولت هذه فى الفرنسية الى Place .

الكلمات ، سواء أكانت أصوات لين أم أصواتا ساكنة (ونعنى بالساكنة ما عدا أصوات اللين) .

(أ) أما أصوات اللين فقد لوحظ أن وقوعها فى آخر الكلمة يجعلها فى الغالب عرضة للسقوط ، ويؤدى أحيانا الى تحولها الى أصوات أخرى .

فمن ذلك ما حدث فى اللغة العربية بصدد أصوات اللين القصيرة (المسماة بالحركات وهى الفتحة والكسرة والضمة) التى تلحق أواخر الكلمات . ففى جميع اللهجات العامية المنشعبة عن العربية (عاميات مصر والسودان والعراق والشام ولبنان وفلسطين والحجاز واليمن والمغرب ... الخ) قد انقرضت هذه الأصوات جميعها ، سواء فى ذلك ما كان منها علامة اعراب وما كان منها حركة بناء . فينطق الآن فى هذه اللهجات بجميع الكلمات مسكنة الأواخر (فيقال مثلا « رجعْ عمرْ للمدرسهْ بعدْ ما خفْ من عياه » بدلا من « رجعَ عمرُ الى المدرسةِ بعدَ ما خفَّ من اعيائه ») . ولعل هذا هو أكبر انقلاب حدث فى اللغة العربية ، فقد أتى جميع الكلمات فانتقصها من أطرافها ، وجردها من العلامات الدالة على وظائفها فى الجملة ، وقلب قواعدها القديمة رأسا على عقب (١) .

ومن هذا القبيل كذلك ما حدث فى اللغة العربية بصدد أصوات اللين الطويلة (الألف والياء والواو) الواقعة فى آخر الكلمات . فقد تضاءلت هذه الأصوات فى عامية المصريين وغيرهم حتى كادت تنقرض تمام الانقراض ، سواء فى ذلك ما كان منها داخلا فى بنية الكلمة . (رمى ، يرمى ... الخ) وما كان خارجا عنها (ضربوا ، ناموا .. الخ) . فيقال مثلا فى عامية المصريين . « سامِ وعيسَ ومصطف أبُ حسين سافرُ

---

(١) يرجع السبب كذلك فى هذه الظاهرة الى العامل الذى أشرنا اليه فى الفقرة الرابعة من هذا الفصل وهو الأخطاء السمعية التى تنشأ عن ضعف بعض الأصوات (انظر ص ٢٩٧) .

يوم الخميس لجرجَ » بدلا من « سامى وعيسى ومصطفى أبو حسين سافروا يوم الخميس الى جرجا » (١) .

وما حدث فى اللغة العربية حدث فى مثله فى كثير من اللغات الأخرى. فمعظم أصوات اللين المتطرفة فى اللغة اللاتينية قد انقرضت فى اللغات المنشعبة عنها (٢) . ففى الاسبانية سقط من هذه الأصوات صوتان وهما I.E. (٣) ، وفى البروفنسية Provençal والفرنسية القديمة لم يكد يبقى شىء منها (٤) . وبعض هذه الأصوات قد تحول الى أصوات لين أخرى كما حدث لصوت « a » اذ تحول فى الفرنسية القديمة الى « e » : (٥) . canta, chante ; lenta, lente ; fava, fève

(ب) ووقوع الصوت الساكن (ونعنى به ما يقابل الصوت اللين) فى آخر الكلمة يجعله كذلك عرضة للتحول أو السقوط .

فمن ذلك ما حدث فى اللغة العربية بصدد التنوين ونون الأفعال الخمسة والهمزة والهاء المتطرفين (٦) . فقد انقرضت هذه الأصوات فى معظم اللهجات العامية المنشعبة عن العربية ، كما يظهر ذلك من الموازنة بين العبارات العربية المدونة فى السطرين التاليين ونظائرهما فى عامية المصريين المدونين فى أول الصفحة التالية :

محمدٌ ولدٌ مطيعٌ ، الأولاد يلعبون ، الهواء شديدٌ ، انظرته ساعةً كاملةً .

---

(١) يرجع السبب كذلك فى هذه الظاهرة الى العامل المشار اليه فى التعليق السابق .

(٢) يستثنى من ذلك الايطالية فقد احتفظت بمعظم هذه الأصوات .

(٣) يستثنى من ذلك بعض كلمات قليلة بقى فيها أحد هذين الصوتين .

(٤) انقرضت جميعها فى الواقع ماعدا صوت A الذى سيأتى الكلام عنه وماعدا بعض حالات شاذة .

(٥) يستثنى من ذلك بعض كلمات قليلة . وقد حدث هذا التطور فى المدة المحصورة بين نهاية القرن الثامن وأوائل القرن الرابع عشر كما سبقت الاشارة الى ذلك ، انظر رقم ٤ بصفحة ٢٨٦ ، وانظر Dauzat, op. cit., 142

(٦) التاء المربوطة حكمها فى ذلك حكم الهاء المتطرفة ، كما يظهر فى المثال المذكور فيما بعد . ويرجع السبب كذلك فى هذه الظاهرة الى العامل الذى أشرنا اليه فى التعليق الأول فى الصفحة السابقة .

محمدْ ولدْ مطيعْ ، الأولادْ بيلعبْ ، الهوَ شديدْ ، انتظرتْ ساعَ كامْلَ .

ومن هذا القبيل كذلك حذف آخر الكلمة التى يوقف عليها فى عامية كثير من المناطق المصرية كبعض مناطق بنى سويف والشرقية ورشيد وغيرها ، فيقال مثــلا « أنت ياول » بدلا من « أنت يا ولد » « فين أخوك محمود » بدلا من « أين أخوك محمود » « ادّيلْ خمسأرو » بدلا من « أدّ له خمسة قروش » (١) .

وما حدث فى اللغة العربية بهذا الصدد حدث مثله فى كثير من اللغات الأخرى . فمعظم الأصوات الســاكنة المختتمة بها الكلمــات اللاتينية قد انقرضت فى النطق الفرنسى أو تحولت الى أصوات ساكنة أخرى أضعف منها أو الى أصوات لين .

أما الانقراض فلم يكد ينجو منه الا القليــل من أنواع هــذه الأصوات (plunbum تحولت فى الفرنسية الى plomb التى ينطق بها plon بدون صوت الباء الأخير ، campus تحولت فى الفرنسية الى champ ينطق بها chan بدون صوت P الأخير ... الخ (٢). ومن ذلك أيضا حذف علامة الجمع S فى النطق الفرنسى ، وبذلك أصبح المفرد وجمعه المختتم بصوت S سيين فى النطق ولا يختلفان الا فى الرسم .

وأما تحولها الى أصوات ساكنة ضعيفة فقد حدث فى كثير من الكلمات المنتهية بأصوات مدوية sonores مثــل أصــوات v.d.b. اذ تحولت فى الفرنسية القديمة هذه الأصوات القوية الى أصوات ضعيفة صامتة sourds مثل أصوات f t, p (na v em , gran dem تحولتا فى الفرنسية القديمة الى nef. grant) . وقد جرت عادة العلماء أن يطلقوا على

(١) سار على هذا الأسلوب كذلك بعض اللغات العربية الفصيحة ، كلغة طيىء ، وقد جرت عــادة المؤلفين من العرب بتسمية قطعة طيىء (أى قطع اللفظ تمــامه) ، فكان يقال مثلا فى لغتهم : «يا أبا الحك» بدلا من يا أبا الحكم . ولم يكن هذا مقصورا لديهم على المنادى بل كان عاما فى جميع الكلمات .

(٢) V. Dauzat, op. cit., 75.76

هذه الظاهرة اسم « توهين الأصوات الساكنة الأخيرة .
assourdissement des consonnes sonores finales (١) .

وأما تحولها الى أصوات لين فقد حدث على الأخص فى حرف اللام المتطرفة (vocalisation de «l» final) (٢) .

هذا ، وقد أحدث سقوط الأصوات اللينة والساكنة الواقعة فى أواخر الألفاظ انقلابا كبيرا فى عالم اللغات . فقد كان من آثاره انقراض « طريقة الاعراب » فى كثير من اللغات التى كانت تسير عليها كالعربية واللاتينية وما اليهما (٣) .

٢ ــ ووقوع الصوت فى وسط الكلمة يعرضه كذلك لكثير من صنوف التطور والانحراف .

فمن ذلك ما حدث فى اللغة العربية بصدد الهمزة الساكنة الواقعة فى وسط الثلاثى فقد تحولت الى ألف لينة فى عامية المصريين وغيرهم (فيقال . راس ، فاس ، فال ، ضانى ... بدلا من : رأس ، فأس ، فأل ، ضأن ... الخ) .

ومن هذا القبيل كذلك ما حدث بصدد الياء والواو الساكنتين فى وسط الكلمة فى مثل عين ويوم . فقد تحولتا فى بعض المناطق المصرية وغيرها الى صوتين من أصوات اللين : فأولهما تحول الى صوت يشبه صوت ai, è فى اللغة الفرنسية (عين ، خيل ، بين ، زينب ... الخ) ، وثانيهما تحول الى صوت يشبه صوت ô الفرنسى (يوم ، نوم ، فوز ، لوم ... الخ) .

---

(١) حدث مثل ذلك أيضا فى الالمانية الحديثة اذ تحول فيها مثلا grob, tod الى grop, tot انظر Dauzat, op. cit., 75

(٢) حدث ذلك فى الفرنسية وفى البروفنسية حوالى القرن الثانى عشر الميلادى V. Dauzat, op. cit., 75

(٣) « طريقة الاعراب » هى الطريقة التى تعتمد فى بيان نوع الكلمة ووظيفتها فى الجملة على ما يلحق آخرها من أصوات . ولا يزال لهذه الطريقة آثار كثيرة فى بعض لغات التخاطب كالالمانية وما اليها .

ومن ذلك تحريك الحرف الساكن اذا وقع فى وسط كلمة ثلاثية فى كثير من لهجات البلاد العربية (عامية الشرقية ، وبعض عاميات الصعيد ، ولهجات القبائل العربية النازحة الى مصر من المغرب ، ولهجة العراق ... الخ) ، فيقال مثلا : اسِم ، رَسِم ، مصِر ، جُرُن ، بِدِر ، فَحِل ، ـ فِجِل بدلا من : اسْم ، رسْم ، مصْر ، جرْن ، بدْر ، فحْل ، فجْل . . . الخ (١) .

وقد سجل الباحثون ظواهر كثيرة من هذا القبيل فى اللغات الهندية ـ الأوروبية

فمن ذلك ما حدث بصدد صوت اللين القوى tonique الواقع قبيل آخر الكلمة ، وخاصة اذا كان حراVoyelle libreأى متبوعا بصوت ساكن واحد أو بصوتين من احدى المجموعات الآتية : br, cr, dr, tr فقد تحول هذا الصوت فى معظم حالاته فى اللغات اللاتينية والجرمانية واليونانية القديمة الى صوت لين مركب diphtongue . وأشد أصوات اللين اتجاها الى هذا التحول صوتان هما è, ô ، وأقل منهما ميلا الى ذلك صوتا é,o ، وأقلها جميعا ميلا الى هذا التحول صوتا U,i فانه لم يكد يبدو فيهما هذا الميل الا فى اللغات الجرمانية (scinan تحولت فى الألمانية scheinen وينطق بها chaïnen ، وفى الانجليزية الى shine وينطق بها shaïne) (٢) .

ومن ذلك ما حدث للصوت الساكن الواقع بين صوتى لين . فموقعه هذا قد أدى به أحيانا الى السقوط وأحيانا الى الانحراف عن مخرجه الأصلى والتحول الى صوت آخر . فصوت الباء b قد تحول فى لغة التخاطب اللاتينية الى صوت v (faba تحولت الى fava) (٣) ، وصوت السين قد تحول فى اللاتينية الى راء (arbosis تحول

---

(١) هذه كذلك لهجة قديمة من لهجات بعض القبائل العربية .

(٢) ظهر هذا الميل كذلك فى بعض اللهجات العامية الايطالية .
Dauzat, op. cit., 70

(٣) لم يشذ عن ذلك الا عدد يسير من الكلمات .

الى arboris) وصوت الدال d في الكلمات اللاتينية قد تحول الى z في البروڤنسية (١) وسقط في الفرنسية والاسبانية .

latin : videre ; proveneWal : vezer ; français : veoir, voir ; espagnol : veer, ver

. وصوتا اللام والنون الواقعتان بين صوتين لين قد سقطا في اللغة البرتغالية في العصور الوسطى (p o pu l u s تحول الى: povo ; rationem تحول الى razoe .. الخ) . والأصوات الصامتة consonnes sourdes (p,t,k... etc.) الواقعة بين صوتي لين قد تحولت في اللاتينية الحديثة حوالى القرن السادس الى أصوات مدوية consonnes sonores قريبة منها b. d. g... etc. والى هذا الحد وقف تطور هذا النوع في الاسبانية والبروڤنسية. أما في الفرنسية الحديثة فقد حدث تحول آخر ، اذ انقلب صوت الباء b الى v وسقط صوتا الدال والجيم d, g ، كما يظهر ذلك من الأمثلة الآتية (٢)

latin : ripa, amata, securus.
esp. et prov. : libera (riba), amada, segur(o)
français : rive, aimée, sûr

٣ ــ ووقوع الصوت في أول الكلمة يجعله كذلك عرضة للانحراف . فمن ذلك ما حدث في بعض المفردات العربية المفتتحة بالهمزة اذ تحولت همزتها في بعض اللهجات العامية الى فاء أو واو (« أذن » تحولت في عامية المصريين الى « ودن » ، و « أين » تحولت الى « فين » أو الى « وين » في عامية القبائل العربية النازحة الى مصر من المغرب وفي عامية العراق والحجاز ، و « أدى » تحولت في بعض المواضع في عامية المصريين الى « ودى » فيقال مثلا « وداه المدرسة » بمعنى « أدى به الى المدرسة » أى أوصله اليها) (٣) .

---

(١) كان ينطق بصوت z في البروفنسية كما ينطق بالذال العربية (th في الانجليزية) .

(٢) انظر في هذا الموضوع Dauzat, op. cit., 74, 75

(٣) ليس هذا مقصورا على اللغات العامية بل يوجد له نظير في بعض اللغات العربية الفصحى ، ففي لغة لأهل اليمن تبدل الهمزة واوا في مثل « آتيته » ، فيقال مثلا واتيته على الأمر مواتاة ، وهي المشهورة على ألسنة الناس .

٤ — وقد تتبادل الأصوات مواقعها فى الكلمة ويحل بعضها محل بعض ، فيتقدم المتأخر منها ويتأخر السابق . وتسمى هذه الظاهرة «بالنقل المكانى» (Métathèse) كماحدث فى abeuvrer, berbis اذ تحولا الى abreuver, brebis ، وكما حدث فى الكلمة العربية « أرانب » اذ تحولت فى عامية القاهرة وغيرها الى « أنارب » .

- ٧ -

تناوب الأصوات وحلول بعضها محل بعض

وفيما عدا الحالات السابقة قد لوحظ أن الأصوات المتحدة النوع تتناوب ويحل بعضها محل بعض . وقد سجل الباحثون ظواهر كثيرة بهذا الصدد بعضها خاص بأصوات اللين وبعضها يتعلق بالأصوات الساكنة .

١ — أما تناوب أصوات اللين فلم تكد تخلو منه لغة من اللغات الانسانية . ففى اللغة العربية حدث تناوب واسع النطاق بين أصوات اللين القصيرة (التى يرمز اليها بالفتحة والكسرة والضمة) . ويمثل هذا التناوب انقلابا من أهم الانقلابات التى اعتورت هذه اللغة . فقد كان من آثاره أن انحرفت أوزان الكلمات وانقلبت أشكالها رأسا على عقب ، حتى لانكاد نجد فى اللهجات العامية كلمة واحدة باقية على وزنها العربى القديم. فالفتحة قد استبدل بها الضمة أحيانا والكسرة فى كثير من الأحوال (فبدلا من : يَعوم ، يَسجد ، يَسمع ، عَثر ، خَلص ، سَكت ، كَبير ، أَلكتاب ... الخ ، يقال فى عامية المصريين : يُعوم ، يُسجد ، يِسمع ، عِتِر أو عُتُر ، خِلِص أو خُلُص ، سِكِت أو سُكُت ، كِبير ، اِلكتاب ... الخ) ؛ والكسرة قد استبدل بها الضمة أحيانا والفتحة فى كثير من الأحوال (فبدلا من : يلطِم ، يضرِب ، يسرِق ، عِند ... الخ ، يقال فى عامية المصريين : يلطُم ، يضرَب ، يسرَأ ، عَند ... الخ) ؛ والضمة قد استبدل بها الفتحة

أحيانا والكسرة فى معظم الحالات (فبدلا من : مُحمد ، ثُعبان ، أُنثى ، عُثّة ، يقتُل ، يذُم ، ظُفر ... الخ ، يقال فى عامية المصريين : مِحمد ، تِعبان ، انتاية ، عِتّة ، يئتِل ، يزِم ، ضِفر ... الخ) .

وحدث كذلك تناسخ فى أصوات اللين الطويلة نفسها ، وخاصة فى الألف اللينة اذ أميلت فى لغات بعض القبائل العربية القديمة ، وتمال الآن فى كثير من لهجات المغاربة وفى لهجات القبائل العربية النازحة الى مصر من المغرب وفى بعض اللهجات فى بلاد الشرقية .

وما حدث فى اللغة العربية بهذا الصدد حدث مثله فى اللغات الأوربية .

فمن ذلك تحول أصوات اللين المركبة diphtongue الى أصوات لين بسيطة فى كثير من هذه اللغات . فاللغة الفرنسية مثلا قد تحول فى نطقها معظم أصوات اللين المركبة الى أصوات لين بسيطة ، وان كانت لا تزال ترسم حسب حالتها القديمة (ai, ei, au, eau, eu, etc.) وعلى هذه الظاهرة يقع قسط كبير من التبعة فى صعوبة الرسم الفرنسى وعدم مطابقته للنطق (١) . وما حدث فى اللغة الفرنسية بهذا الصدد حدث مثله فى سائر اللغات الأوربية وخاصة الأسبانية والايطالية والألمانية والانجليزية (٢) .

ومن ذلك أيضا تحول صوت a الى صوت i فى عدد كبير من مفردات اللغة اليونانية وفى بعض مواطن فى اللغتين السلتية والفرنسية . وقد لوحظ أن هذا التحول يتم بالتدريج ، فينحرف صوت a الى صوت آخر قريب منه ، وهذا الى ثالث ... وهذا حتى يصل الى i ولوحظ كذلك أنه يقطع لهذه الغاية أحد طريقين : طريق قصير وهو a, è, é, i وطريق طويل وهو a, o, ô, ou, u,i . ولم يحدث مطلقا أن قطع فى تطوره سبيلا آخر غير هذين الطريقين أو تخطى مرحلة من المراحل المرسومة فى كليهما ، أو غير شيئا فى ترتيبها السابق بيانه .

(١) V. Dauzat, op. cit., 64, 65

(٢) V. Dauzat, op. cit., 63, 64

٢ـ وأما تناسخ الأصوات الساكنة فقد حدث كذلك فى جميع اللغات لانسانية . فكثير من الأصوات الساكنة فى اللغة العربية قد تناسخت في اللهجات العامية وحل بعضها محل بعض . فالسين قد تحولت الى صاد فى بعض المواطن (« ساخن » تحولت الى « صاخن » فى عامية الشرقية وغيرها) ، والصاد الى سين فى كثيرة من الألفاظ فى عامية القاهرة وغيرها (فبدلا من يصدق ، مصير ... الخ ، يقال : يسدق ، مسير) ، والضاد الى ظاء فى عامية المغرب وخاصة برقة ، وفى لهجة العراق ، وفى لهجة نجد والقصيم وفى لهجات القبائل العربية النازحة الى مصر من الغرب [١] (فبدلا من : وضوء ، يضيع ، يضرب ، يضم ... الخ ، يقال : وظوء ، يظيع ، يظرب ، يظم .. الخ) ، والعين الى نون فى بعض الكلمات فى لهجة العراقيين . فيقال مثلا : « ينطى » بدلا من « يعطى ») [٢] ، واللام الى ميم فى بعض الكلمات فى عامية القاهرة (« امبارح » بدلا من « البارحة ») [٣] ، والميم الى نون أحيانا فى عامية المصريين (فيقال « فاطنة » بدلا من « فاطمة ») ... وهلم جرا .

وما حدث فى اللغة العربية بهذا الصدد حصل مثله فى اللغات الهندية ـ الأوربية . فمن ذلك تحول صوت w فى اللغة اللاتينية (وكان ينطق به كما ينطق به الآن فى الانجليزية وكما ينطق بالواو فى العربية) الى صوت v . فقد أخذ الصوت الأول ، منذ مبدأ العصور الوسطى ، يدنو شيئا فشيئا من الصوت الأخير حتى استبدل به فى كثير من الكلمات فى معظم اللغات المنشعبة عن اللاتينية [٤] .

---

(١) نعنى بها القبائل الحاضرة التى تسكن فى مختلف محافظات مصر وخاصة الفيوم وبنى سويف والمنيا والبحيرة والشرقية والقليوبية (ألفوايد ، الرماح ، الحرابى ، أولاد على ، خويلد ، الضعفاء ، سمالوس .. الخ) .

(٢) تكاد تكون هذه الظاهرة مقصورة لديهم على العين المتبوعة بطاء ، وهذه كذلك هى لهجة هذيل .

(٣) هذه كذلك لغة حمير ، وقد جاء بها الحديث «ليس من امبر امصيام فى امسفر »

(٤) V. Dauzat, op. cit., 65,70

ومن هذا القبيل كذلك ما حدث فى صوت c المتبوع بصوت a فى الكلمات اللاتينية . فقد تحول فى اللغة الفرنسية فى معظم مواطنه الى ch (canem, caballum) تحـــولا فى الفرنســـية الى (chien, cheval) (1) .

ومن ذلك أيضا ما حدث فى اللغـــات الجـــرمانية من تنـــاوب بين المجموعات الثلاثة الآتية من الأصوات : (b, d, g) (P, t, k). (f,th, kh) فان كل صوت من أصوات المجموعة الأولى قد تحول الى ما يقابله فى الترتيب من أصوات المجموعة الثانية ، وأصوات المجموعة الثانية تحولت بهذا النظام الى أصوات الثالثة ، وأصوات الثالثة الى أصوات الأولى . فبالموازنة بين الكلمات الجرمانية وأصولها فى اللغات الهندية ــ الأوربية القديمة ونظائرها فى اللاتينية والاغريقية يظهر أن الأصوات الآتية المدونة فى السطر الأول قد تحولت فى اللغات الجرمانية الى الأصوات المدونة تحتها فى السطر الثانى :

b d g	p t k	f (ph) th kh
P t k	f (Ph) th kh (gh)	b d g

كما يظهر ذلك فى الأمثلة الآتية :

(sanscrit)	(Latin)	(Anglais)
pitar	pater	father
	frater	brother
	dentis	touth
	genu	knee
	pedis	fout

وقد حدث فى بعض اللغات الجرمانية فى العصور الوسطى تطور ثان فى الأصوات الجديدة التى نجمت عن التطور الأول ، فتحولت هذه الأصوات نفسها الى ما يقابلها فى الجدول السابق . وحدث فى اللغة الألمـــانية فى العصور الحديثة تطور ثالث فى الأصوات التى جاء بهـــا

(1) V. Delacroix, Langage et pensée, 144

التطور الثانى وفقا للخطة نفسها المرسومة آنفا ، وقد أدى ذلك الى رجوع بعض هذه الأصوات الى الأصل القديم الذى كانت عليه قبل التطور الأول . فالتاء مثلا t فى كلمة **frater** قد تحولت الى ذال th فأصبحت **bruther** ، ثم تحولت هذه الذال الى دال d فأصبحت **bruder** ، وهذه الدال قد تحولت فى الألمـانية الحديثة الى تاء فأصبحت **bruter** ، وبذلك عاد هذا الصوت بعد هذه التطورات الثلاثة الى الأصل القديم الذى كان عليه قبل التطور الأول . وهذا هو ما اصطلح علمـاء اللغة من الألمـان على تسـميته « بالدورة الثلاثية » (١) .

---

(1) V. Dauzat, op. cit., 66-69

الفصل السادس

الدلالة وتطورها

La Sémantique

ذكرنا فى فاتحة الفصل السابق أن أهم ظواهر اللغة ترجع الى ناحيتين رئيسيتين وهما الظواهر المتعلقة بالصوت والظواهر المتعلقة بالدلالة ، وأن كلتا الناحيتين فى تطور مطرد وتغير مستمر ، وأنها فى تطورها وتغيرها تتأثر بعوامل شتى وتخضع لطائفة كبيرة من القوانين . وقد فرغنا فى الفصل السابق من دراسة الناحية الأولى ، وهى المتعلقة بالصوت وتطوره ، وسنقف هذا الفصل على دراسة الناحية الثانية وهى المتعلقة بالدلالة .

— ١ —

أنواع التطور الدلالى

ترجع أهم ظواهر التطور الدلالى الى ثلاثة أنواع :

(أحدها) تطور يلحق القواعد المتصلة بوظائف الكلمات وتركيب الجمل وتكوين العبارة .. وما الى ذلك كقواعد الاشتقاق والصرف (المورفولوجيا) والتنظيم (السنتكس) ... وهلم جرا . وذلك كما حدث فى اللغات العامية المنشعبة من اللغة العربية ، اذ تجردت من علامات الاعراب (١) وتغيرت فيها قواعد الاشتقاق (٢) واختلفت مناهج تركيب

---

(١) يوقف فى جميع هذه اللهجات بالسكون على جميع الكلمات المعربة بالحركات ، وتلتزم حالة واحدة فى الكلمات المعربة بالحروف (المثنى ، جمع المذكر السالم ، الأسماء الخمسة .. الخ فيقال مثلا أخوك مجتهد ، ضربت أخوك ، سلم على أخوك ..) . فوظيفة الكلمة فى العبارة لا تفهم فى لهجاتنا العامية الا من مجرد السياق أو من ترتيبها بالنسبة لبقية عناصر الجملة .

(٢) تغيرت وجوه التصريف العربية تغيرا كبيرا فى اللغات العامية ، حتى لا نكاد نعثر فيها على فعل باق على حالته العربية الصحيحة من هذه الناحية .

العبـارات (١) .

(وثانيها) تطور يلحق الأساليب ، كما حدث فى لغات المحـادثة العامية المنشعبة عن العـربية ، اذ اختلفت أسـاليبها اختلافا كبيرا عن الأساليب العربية الأولى ، وكما حدث للغة الكتابة فى عصرنا الحاضر اذ تميزت أسـاليبها عن أساليب الكتابة القـديمة تحت تأثير الترجمة والاحتكاك بالآداب الأجنبية ورقى التفكير وزيادة الحاجة الى الدقة فى التعبير عن حقائق العلوم والفلسفة والاجتماع ... وهلم جرا .

(وثالثها) تطور يلحق معنى الكلمة نفسه ، كأن يخصص معناها العام ، فلا تطلق الا على بعض ما كانت تطلق عليه من قبل ، أو يعمم مدلولها الخاص فتطلق على معنى يشمل معناها الأصلى ومعانى أخرى تشترك معه فى بعض الصفات ، أو تخرج عن معناها القديمة فتطلق على معنى آخر تربطه به علاقة ما ، وتصبح حقيقة فى هذا المعنى الجديد بعد أن كانت مجازا فيه ، أو تستعمل فى معنى غريب كل الغرابة عن معناها الأول ... وهلم جرا .

- ٢ -

خواص التطور الدلالى ومناهجه

للتطور الدلالى بمختلف أنواعه خواص كثيرة تشبه فى جملتها خواص التطور الصوتى التى أشرنا اليها فى الفصل السابق (٢) . ومن أهم هذه الخواص ما يلى :

١ ـ أنه يسير ببطء وتدرج . فتغير مدلول الكلمة مثلا لا يتم بشكل فجائى سريع ، بل يستغرق وقتا طويلا ، ويحدث عادة فى صورة

---

(١) فمن ذلك مثلا نعت المثنى بصيغة الجمع وتأخر الاشارة فى تركيب الجملة عن المشار اليه .. وهلم جرا .

(٢) انظر صفحات ٢٨٥ ـ ٢٨٧ .

تدريجية ، فينتقل الى معنى آخر قريب منه ، وهذا الى ثالث متصل به ... وهكذا دواليك ، حتى تصل الكلمة أحيانا الى معنى بعيد كل البعد عن معناها الأول . فكلمة bureau مثلا كانت تطلق فى المبدأ على صنف خاص من الأقمشة (Etoffe de bure) ، ثم أطلقت على غطاء مائدة المكتب لاتخاذه غالبا من هذا الصنف ، ثم أطلقت على مائدة المكتب نفسها ، ثم أطلقت على مقر العمل والادارة لملازمة المكتب لهما . فلا علاقة مطلقا بين أول مدلول لهذه الكلمة وهو القماش الصوفى وآخر مدلول لها وهو مقر العمل والادارة ، على حين أن العلاقة وثيقة بين كل معنى من المعانى التى اجتازتها والمعنى السابق له (١) .

٢ ـ أنه يحدث من تلقاء نفسه بطريق آلى لا دخل فيه للارادة الانسانية : فسقوط علامات الاعراب فى اللهجات العربية الحاضرة ، وتغير أوزان الأفعال (٢)، وتأنيث بعض الكلمات المذكرة ، وتذكير بعض الكلمات المؤنثة (٣) ، وجمع صفة المثنى (٤) ، وتأخر الاشارة عن المشار اليه (٥) ، وتزحزح كثير من المفردات عن مدلولاتها الأولى الى معان جديدة ... كل ذلك وما اليه قد حدث من تلقاء نفسه فى صورة آلية لا دخل فيها للتواضع أو ارادة المتكلمين .

٣ ـ أنه جبرى الظواهر ، لأنه يخضع فى سيره لقوانين صارمة

---

(١) هذه الخاصة صحيحة فى تطور معانى الكلمات وتطور الأساليب . أما تطور القواعد فكثيرا ما يحدث بدون تدرج .

(٢) فيقال مثلا فى عامية بعض المناطق المصرية « كبر (بكسر الكاف والباء) يكبر (بكسر الباء وفتح الباء) » بدلا من «كبر يكبر» (من باب تعب) أو «كبر يكبر» (من باب شرف) . ومثل هذا يقال فى معظم الأفعال .

(٣) فيقال مثلا فى عامية بعض المناطق المصرية : رأس كبيرة وبطن كبيرة ، بدلا من رأس كبير وبطن كبير .

(٤) فيقال مثلا فى عامية المصريين : « كتابين كبار » بدلا من « كتابان كبيران » .

(٥) فيقال مثلا فى عامية المصريين « الكتاب ده » و « الكتابين دول » بدلا من « هذا الكتاب » و « هذان الكتابان » .

لا يد لأحد على وقفها أو تعويقها ، أو تغيير ما تؤدى اليه . واليك مثلا حالة اللغة العربية . فعلى الرغم من الجهود الجبارة التى بذلت فى سبيل صيانتها ومحاربة ما يطرأ عليها من لحن وتحريف ، ومع أن هذه الجهود كانت تعتمد على دعامة من الدين ، فان ذلك كله لم يحل دون تطورها فى القواعد والأساليب ودلالة المفردات الى الصورة التى تتفق مع قوانين التطور اللغوى ، فأصبحت على الحالة التى هى عليها الآن فى اللهجات العـامية .

غير أن علماء اللغة لم يصلوا بعد الى الكشف عن جميع القوانين التى يسير عليها التطور الدلالى ، وما كشفوه منها لم يصل بعد فى دقته وضبطه وعمومه الى مستوى القوانين المتعلقة بالتطور الصوتى ، كما أشرنا الى ذلك والى أسبابه فى مقدمة هذا الكتاب (١) .

٤ ـ أن الحالة التى تنتقل اليها الدلالة ترتبط غالبا بالحالة التى انتقلت منها باحدى العلاقتين اللتين يعتمد عليهما تداعى المعانى (٢) : ونعنى بهما علاقتى المجاورة والمشابهة (٣) : فتارة يعتمد انتقال الدلالة على علاقة المجاورة المكانية ، كتحول معنى « ظعينة » (معناها فى الأصل المرأة فى الهودج) الى معنى الهودج نفسه والى معنى البعير (٤)، وتحول معنى ذقن فى عامية المصريين الى معنى اللحية (٥) ، وتحـول bureau من غطـاء المـكتب الى المكتب نفسـه ، وكتأنيث الرأس فى عامية بعض المناطق المصرية (انتقل اليه التأنيث من الأعضاء المؤنثة المجاورة له وهى العين والأذن) ... وهلم جرا . ـ وتارة يعتمد على علاقة المجاورة الزمنية كتحول معنى العقيقة (هى فى الأصل الشـعر

---

(١) انظر صفحة ٢٣ .

(٢) من المقرر فى علم النفس أن حضور معنى يدعو الى الذاكرة بعض المعانى المرتبطة معه بعلاقة المجاورة أو المشابهة .

(٣) هذا هو تفصيل ما يقصده علماء اللغة اذ يقرون أن تطور الدلالة خاضع لقانون التماثل loi de l'analogie

(٤) المزهر للسيوطى الجزء الاول ٢٠٧ .

(٥) الذقن فى الأصل هو مجمع عظمى الحنك ، ولا يخفى أن هذا الموضع مجاور للشعر النابت فى الوجه .

الذى يخرج على الولد من بطن أمه) الى معنى الذبيحة التى تنحر عند حلق الشعر (١) وكتذكير كلمة été (فصل الصيف) التى كانت مؤنثة فى الأصـــل لمجاورة مدلولها مجاورة زمنية لمدلول كلمة مذكرة وهى printemps فصل الربيع (٢) . ـ وتارة يعتمد على علاقة المشابهة. كتحول معنى « الأفن » (وهو فى الأصل قلة لبن الناقة) الى معنى قلة العقل والسفه ، وتحول معنى « المجد » (وهو فى الأصل امتلاء بطن الدبة من العلف) الى معنى الامتلاء بالكرم ... وهلم جرا (٣) .

٥ ـ أن التطور الدلالى فى غالب أحواله مقيد بالزمان والمكان . فمعظم ظواهره يقتصر أثرها على بيئة معينة وعصر خاص . ولا نكاد نعثر على تطور دلالى لحق جميع اللغات الانســانية فى صورة واحدة ووقت واحد ..

٦ ـ أنه اذا حدث فى بيئته ما ظهر أثره عند جميع الأفراد الذين تشملهم هذه البيئة . فسقوط علامات الاعراب فى لغة المحادثة المصرية مثلا لم يفلت من أثره أى فرد من المصريين .

ومن هذه الخواص يتبين فساد كثير من النظريات القديمة بصدد هذا التطور .

---

(١) المزهر للسيوطى ج١ ص٣٠٧ .

(٢) كانت الفصــول فى الفرنسية القديمة من حيث التذكير والتانيث على النـحو التالى : الربيع (مذكر) ، الصيف (مؤنث) ، الخريف (مذكر) ، الشـــتاء ،مذكر) . ثم انتقل تأنيث الصيف الى الخريف ، وانتقل فيما بعــد تأنيث الخريف الى الشــتاء ، فأصبحت الفصول جميعا مؤنثة ماعدا الربيع . ولكن تذكير الربيع لم يلبث أن انتقل فيما بعد الى الصيف ، وتذكير الصيف رد الى الخريف والشتاء نوعهما المذكر القديم ، فأصبحت جميع الفصول مذكرة فى الفرنسية الحالية V. Dauzat, op. cit., 106

(٣) قد يعتمد انتقال الدلالة من حالة الى حالة على عــلاقة التضــاد بين الحالتين (اطلاق الكلمة مثلا على ضد مدلولها القديم) : والتضاد فى الواقع مظهر من مظــــاهر التشابه ، اذ لا يوجد تضاد الا بين شيئين يشتركان فى صفة عامة كالطويل والقصـــير والاسود والابيض . أما الأمران اللذان لا يشتركان فى صفة ما فلا يوجد بينهما تضــاد كالاحمر والطويل مثلا . (انظر كلمة عن التضاد فى اللغة العربية بكتابنا « فقه اللغــة » الطبعة السابعة صفحات ١٩٢ ـ ١٩٨ .

فليس بصحيح ما ذهب اليه بعض العلماء من أن هذا التطور يحدث نتيجة لأعمال فردية اختيارية يقوم بها بعض الأفراد وتنتشر عن طريق المحاكاة (١) .

وليس بصحيح ما ذهب اليه أعضاء المدرسة الانجليزية وبعض الباحثين من الفرنسيين كالعلامة بريال Bréal ، اذ يرون أن التطور الدلالى يسير باللغة نحو التهذيب والكمال ويسد ما بها من نقص ويخلصها مما لاتدعو اليه الحاجة (٢) . وذلك أن اتجاهات كهذه لايمكن أن تتحقق الا فى تطور اختيارى مقصود تقوده الارادة الانسانية فى سبيل الاصلاح . أما وقد ثبت أن التطور الذى نحن بصدده تطور تلقائى آلى لا دخل فيه للارادة الانسانية، فلا يتصور أن يتقيد فى اتجاهه بالسبل التى تقول بها هذه النظرية .

وان موازنة بين الحالة التى كانت عليها اللغة العربية فيما يتعلق بدلالة ألفاظها وقواعدها فى الاعراب وغيره وما آلت اليه فى اللغة العامية الحاضرة لأكبر دليل على ما نقول . فمن الواضح أن هذا التطور لم يتجه دائما نحو التهذيب والكمال ، بل أدى فى معظم مظاهره الى اللبس فى دلالة الكلمات والخلط بين وظائفها وأنواعها ، وجرد اللغة مما بها من دقة وسمو ، وهوى بها الى منزلة وضيعة فى التعبير . وما حدث فى اللغة العربية بهذا الصدد حدث مثله فى كثير من اللغات . واليك مثلا قواعد اللغة اللاتينية التى انقرضت فى اللغات المنشعبة عنها. فان معظم هذه القواعد كبير الفائدة فى بيان وظيفة الكلمات وتحديد مولولاتها وتعيين العلاقات التى تربط عناصر العبارة بعضها ببعض ، وقد أدى انقراض هذه القواعد فى اللهجات المنشعبة عن اللاتينية الى كثير من اللبس والاضطراب .

---

(١) قال بهذا المذهب الفاسد جماعة من العلماء على رأسهم سايس وسويت وجيسبرسن وتارد Sayce, Sweet, Jespersen, Tarde (انظر ص ٥٨) .

(٢) انظر آخر ص ٥٦ وصفحتى ٥٧ ، ٥٨ وأول ٥٩ ، وانظر كذلك Dauzat, op. cit., 99, 100

حقا ان هذه المذاهب تصدق على بعض مظاهر التطور الدلالى الخاص بلغات الكتابة . فتطور لغات الكتابة يعتمد فى كثير من نواحيه على عوامل أدبية مقصودة ترمى الى تنقيح اللغة وتهذيبها والسير بها فى سبيل الكمال ، كما أشرنا الى ذلك فى الفقرة الرابعة من الفصل الرابع (١) .

— ٣ —

عوامل التطور الدلالى

عرضنا فى الفصول السابقة لطائفة كبيرة من عوامل التطور فى القواعد والأساليب وأشرنا فى شيء من التفصيل الى مختلف آثارها فى كثير من اللغات الانسانية (٢) . ولكن لم يتح لنا فيما سبق أن نوفى البحث فى عوامل النوع الثالث من أنواع التطور الدلالى ، وهو التطور فى معانى الكلمات ، ولذلك سنقصر عليها دراستنا فى هذه الفقرة .

لهذا النوع من التطور عوامل كثيرة من أهمها الطوائف الآتية ؛

١ — عوامل تتعلق باستخدام الكلمات ، فمدلول الكلمة يتغير تبعا للحالات التى يكثر فيها استخدامها .

فكثرة استخدام العام مثلا فى بعض ما يدل عليه يزيل مع تقادم العهد عموم معناه ويقصر مدلوله على الحالات التى شاع فيها استعماله. ولدينا فى اللغة العربية وحدها آلاف من أمثلة هذا النوع . فمن ذلك جميع المفردات التى كانت عامة المدلول ثم شاع استعمالها فى الاسلام فى معان خاصة تتعلق بالعقائد أو الشعائر أو النظم الدينية ، كالصلاة والحج والصوم والمؤمن والكافر والمنافق والركوع والسجود .. وهلم جرا . فالصلاة مثلا معناها فى الأصل الدعاء (٣) . ثم شاع استعمالها

---

(١) انظر على الأخص صفحات ٢٧٩ — ٢٨٤ .

(٢) انظر على الأخص صفحات ٢٥٧ — ٢٦٧ ؛ ٢٧٩ — ٢٨٤ ، ٣٠١ — ٣١٢ .

(٣) وقد جاء على الأصل قوله تعالى : « وصل عليهم ان صلاتك سكن لهم » .

فى الاسلام فى العبادة المعروفة لاشتمالها على مظهر من مظاهر الدعاء ، حتى أصبحت لاتنصرف عند اطلاقها الى غير هذا المعنى؛ والحج معناه فى الأصل قصد الشيء والاتجاه اليه ، ثم شاع استعماله فى قصد البيت الحرام ، حتى أصبح مدلوله الحقيقى مقصورا على هذه الشعيرة .. وقس على ذلك جميع أفراد هذه الطائفة . ومن ذلك أيضا كلمة «الرث» فقـــد كانت تطلق على الخسيس من كل شيء ، ثم قصر مدلولها على الخسيس مما يفرش أو يلبس لكثرة استخدامها فى هاتين الطائفتين ؛ وكلمة « المدام » فهى فى الأصل كل ما سكن ودام ، ثم شاع استعمالها فى الخمر لدوامها فى الدن ، أو لأنه يغلى عليها حتى تسكن ، فأصبحت لا تنصرف الى غير هذا المعنى .

وكثرة استخدام الخاص فى معـــان عامة عن طريق التوسع تزيل مع تقادم العهد خصوص معناه وتكسبه العموم . فمن ذلك مثلا فى اللغة العربية . البأس والورد والرائد والنجعة والحوة .. وهلم جرا : فالبأس فى الأصل الحرب ، ثم كثر استخدامه فى كل شدة ، فاكتسب من هذا الاستخدام عموم معناه ؛ وأصل الورد اتيان الماء وحده ثم صار اتيان كل شيء وردا ، لكثرة استخدامه فى هذا المعنى العام ؛ والرائد فى الأصل طالب الكلأ ثم صار طالب كل حاجة رائداً ؛ والنجعة فى الأصل طلب الغيث ثم عممت فى الاستخدام فأصبح كل طلب انتجاعا؛ والحوة فى الأصل شية من شيات الخيل ، وهى بين الدهمة والكمتة ، ثم توسع فى استعمالها حتى صار كل أسود أحوى ، فيقال ليل أحوى ، وشعر أحوى . ومن ذلك فى اللغة الفرنسية كلمة salaire : فقد كان معناها فى الأصل ــ كما تدل على ذلك بنيتها ــ ما يصرف للجندى من نقود فى نظير ما يحتاج اليه من ملح الطعام ، ثم شاع استعمالها فى كل أجرة حتى نسى معناها الأصلى ؛ وكلمة arriver : فقد كانت تدل فى الأصل ــ كما تشير الى ذلك بنيتها ــ على الوصول الى الشـــاطىء ، ثم شاع استعمالها فى كل وصول ، فاستقر معناها على هذا الوضـــع العـــام .

وكثرة استخدام الكلمة فى معنى مجازى تؤدى غالبا الى انقراض معناها الحقيقى وحلول هذا المعنى المجازى محله . فمن ذلك مثلا فى اللغة العربية كلمات المجد والأفن والوغى والغفران والعقيقة .. وهلم جرا . فالمجد معناها فى الأصل امتلاء بطن الدابة من العلف ، ثم كثر استخدامه مجازا فى الامتلاء بالكرم حتى انقرض معناه الأصلى وأصبح حقيقة فى هذا المعنى المجازى . ولهذا السبب نفسه انتقل معنى «الأفن» من قلة لبن الناقة الى نقص العقل ؛ وانتقل معنى «الوغى» من اختلاط الأصوات فى الحرب الى الحرب نفسها ؛ ومعنى « الغفر » والغفران من الستر الى الصفح عن الذنوب ؛ ومعنى «العقيقة» من الشعر الذى يخرج على الولد من بطن أمه الى ما يذبح عنه عند حلق ذلك الشعر .

وكثرة استخدام الكلمة فى العبارات المنفية ينزع عنها معناها الأصلى ويكسبها معنى العموم والاطلاق ، فتصبح أشبه شىء بأداة من أدوات النفى . فمن ذلك فى العربية كلمات أحد وديّار وقط وأبدا وما اليها ، وفى الفرنسية كلمات . Pas, rien, Personne, etc.

واستخدام الكلمة فى فن بمعنى خاص يجردها فى هذا الفن من معناها اللغوى ويقصرها على مدلولها الاصطلاحى . ويدخل فى هذا مصطلحات الآداب والفلسفة والقانون والاجتماع والعلوم والفنون .. وما الى ذلك .. ومن ثم نرى أن الكلمة الواحدة تستعمل فى الشعر بمعنى ، وفى الرسائل بمعنى آخر ، وفى السياسة بمعنى ثالث ، وفى القانون بمعنى رابع ، وفى الفنون الحربية بمعنى خامس ، وفى الطبيعة بمعنى سادس ، وفى الطب بمعنى سابع .. وهلم جرا . وقد عرضنا لهذا الموضوع بشىء من التفصيل فى الفصل الأول من الباب الثانى من هذا الكتاب (١) .

٢ ـ عوامل تتعلق بمبلغ وضوح الكلمة فى الذهن . فكلما كان مدلول الكلمة واضحا فى الأذهان قل تعرضه للتغير ، وكلما كان مبهما

---

(١) انظر على الأخص صفحات ١٨٦ ـ ١٨٨ .

غامضا مرنا كثر تقلبه وضعفت مقاومته لعوامل الانحراف . ويساعد على وضوح مدلول الكلمة عوامل كثيرة من أهمها أن تكون مرتبطة بفصيلة من الكلمات معروفة الأصل . ويعمل على ابهامها عوامل كثيرة من أهمها أن لا تكون لها أسرة معروفة الأصل متداولة الاستعمال .

٣ — عوامل تتعلق بأصوات الكلمة. فثبات أصوات الكلمة يساعد على ثبات معناها ، وتغيرها يذلل أحيانا السبيل الى تغيره . وذلك أن صلتها بالأسرة التى تنتمى اليها وبالأصل المشتقة منه تظل وثيقة وواضحة فى الذهن ما دامت محتفظة بصورتها الصوتية ، وقوة هذه الصلة تساعد على ثبات مدلولها ؛ على حين أن تغير صورتها الصوتية يضعف صلتها فى الأذهان بأصلها وأسرتها ويبعدها عنهما ، وهذا يجعل معناها عرضة للتغير والانحراف . فالوصف اللاتينى vivus مثلا ظل محتفظا بمعناه الأصلى (الحى ، ضد الميت) طوال المدة التى احتفظ فيها بأصوات بنيته. وذلك لقوة ارتباطه عن طريق هذه البنية بأفراد أسرته vivere, vita, etc. ولكنه لم يلبث ، بعد أن تغيرت صورته الصوتية الفرنسية الى Vif أن أخذ ينحرف شيئا فشيئا عن مدلوله القديم حتى بعد عنه وأصبح يدل الآن على الوصف بالقوة والحدة والنشاط. وذلك لأن تغير صورته الصوتية باعد ما بينه وبين أفراد أسرته (vivre, vivant... etc.) فعرض مدلوله لهذا الانحراف . ومن هذا القبيل كذلك كلمة Sage فان انحراف صورتها الصوتية الى هذا الوضع قد عزلها عن أفرد فصيلتها (savoir, savant) وعرض مدلولها للتغير ، فانحرف من معنى العالم الى معنى الهادىء المطيع .

٤ — عوامل تتعلق بالقواعد . فقد تذلل قواعد اللغة نفسها السبيل الى تغير مدلول الكلمة ، وتساعد على توجيهه وجهة خاصة. فتذكير كلمة « ولد » مثلا فى العربية (ولد صغير) قد جعل معناها يرتبط فى الذهن بالمذكر ، ولذلك أخذ مدلولها يدنو شيئا فشيئا من هذا النوع حتى أصبحت لا تطلق فى كثير من اللهجات العامية الا على الولد من الذكور. وكذلك كلمة homo فى اللاتينية . فقد كانت تطلق فى الأصل على

الانسان رجلا كان أم امرأة ، ولكن تذكيرها ربط مدلولها فى الذهن بنوع الذكور ، فأخذ يدنو شيئا فشيئا من هذا النوع حتى أصبحت فى كثير من اللغات المنشعبة عن اللاتينية لا تطلق الا على الرجال .

٥ ــ عوامل تتعلق بانتقال اللغة من السلف الى الخلف . فكثيرا ما ينجم عن هذا الانتقال تغير فى معانى المفردات . وذلك أن الجيل اللاحق لا يفهم جميع الكلمات على الوجه الذى يفهمها عليه الجيل السابق . ويساعد على هذا الاختلاف كثرة استخدام المفردات فى غير ما وضعت له على طريق التوسع أو المجاز . فقد يكثر استخدام الكلمة مثــلا فى جيل ما فى بعض ما تدل عليه ، أو فى معنى مجازى تربطه بمعناها الأصلى بعض العلاقات ، فيعلق المعنى الخاص أو المجازى وحده بأذهان الصغار ، ويتحول بذلك مدلولها الى هذا المعنى الجــديد . واليك مثلا كلمة saoul الفرنسية ، فقد كان معناها فى الأصل «الشبعان» من الطعام ، ثم كثر استخدامها فى عصر ما فى النشوان من الخمر عن طريق المجاز والتهكم وللتحرج من استخدام الكلمة الصريحة فى هذا المعنى وهى ivre ، فعلق هذا المعنى الجديد بأذهان الصغار فى هذا الجيل ، وتحول اليه مدلول هذه الكلمة فأصبحت صريحــة فيه (١) ، وانقرض معناها القديم .

والى هذا العامل يرجع أهم الأســباب فى تحول الكلمات الى معان كانت مجازية فى الأصــل ، وفيما يعترى المدلولات فى نطاقها من سعة أو ضيق . بل ان طائفة من العلماء على رأسها العلامة هرزوج Herzog قد رجعت الى هذا العامل وحده كل ما يحدث من تطور فى الدلالة (٢) .

٦ ــ وكثيرا ما يتغير مدلول الكلمة على أثر انتقالها من لغة الى

---

(١) لا تقل الآن كلمة Saoul عن كلمة Ivre فى صراحتها فى التعبير عن النشوان ، ان لم تزد عنها فى ذلك .

(٢) V. Meillet, dans «L'Année Sociologique» T. 9, pp. 6, 7 et Herzog : der Roma[illegible]schen Phlologie.

لغة : فقد يخصص مدلولها العام وتقصر على بعض ما كانت عليه فى لغتها الأصلية ، وقد يعمم مدلولها الخاص ، وقد تستعمل فى غير ما وضعت له لعلاقة ما بين المعنيين ، وقد تنحط الى درجة وضيعة فى الاستعمال فتصبح من فحش الكلام وهجره ، وقد تسمو الى منزلة راقية فتعتبر من نبيل القول ومصطفاه ، كما تقدمت الاشارة الى ذلك والى أسبابه وأمثلته فى الفصول السابقة (١) .

٧ — وقد يكون العامل فى تغير معنى الكلمة أن الشيء نفسه الذى تدل عليه قد تغيرت طبيعته أو عناصره أو وظائفه أو الشئون الاجتماعية المتصلة به .. وما الى ذلك . فكلمة « الريشة » مثلا (Plume) كانت تطلق على آلة الكتابة أيام أن كانت تتخذ من ريش الطيور ، ولكن تغير الآن مدلولها الأصلى تبعا لتغير المادة المتخذة منها آلة الكتابة فأصبحت تطلق على قطعة من المعدن مشكلة فى صورة خاصة . والقطار كان يطلق فى الأصل على عدد من الابل على نسق واحد تستخدم فى السفر ، ولكن تغير الآن مدلوله الأصلى تبعا لتطور وسائل المواصلات ، فأصبح يطلق على مجموعة عربات تقطرها قاطرة بخارية . و « البريد » كان يطلق على الدابة التى تحمل عليها الرسائل ، ثم تغير الآن مدلوله تبعا لتطور الطرق المستخدمة فى ايصال الرسائل ، فأصبح يطلق على النظم والوسائل المتخذة لهذه الغاية فى العصر الحاضر . و « بنى الرجل بامرأته » كانت تستخدم كناية عن دخوله بها ، لأن الشاب البدوى كان اذا تزوج يبنى له ولأهله خباء جديدا ، ولا تزال تستخدم هذه العبارة كناية عن المعنى نفسه مع أن الزفاف لا علاقة له فى نظمنا الحاضرة بالبناء . وقد جرت العادة فى بعض العصور بفرنسا أن يقضى المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة مدة عقوبتهم فى أعمال التجديف على ظهر السفن الملكية، ومن ثم جاءت عبارة envoyer aux galères وجاء وصف galérien ، ولكن تغير الآن مدلولها تبعا لتغير النظم المتصلة بهذه العقوبة ونوعها .

---

(١) انظر صفحات ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤ .

٨ ــ عوامل تتعلق باختلاف الطبقات والجماعات . فكثيرا ما ينجم عن اختلاف الناس فى طبقاتهم وفئاتهم اختلاف مدلول الكلمات وخروجها عن معانيها الأولى . ويؤدى الى ذلك ما يوجد بين الجماعات النـاطقة باللغة الواحدة من فروق فى الخواص الشعبية والجسمية والنفسية وفى شئون السياسة والاجتماع والثقافة والتربية ومناحى التفكير والوجدان ومستوى المعيشة وحياة الأسرة والتقاليد والعـادات ، وفى الظروف الطبيعية والجغرافية المحيطة بكل جماعة منها ، وما تزاوله كل طبقة من أعمال وتضطلع به من وظائف ، والآثار العميقة التى تتركها كل وظيفة ومهنة فى عقلية المشتغلين بها ، وحاجة أفراد كل طبقة الى دقة التعبير وسرعته وانشاء مصطلحات خاصة بصدد الأمور التى يكثر ورودها فى حياتهم وتسـتأثر بقسـط كبير من انتباههم ، وما يلجئون اليه من استخدام مفردات فى غير ما وضعت له أو قصرها على بعض مدلولاتها للتعبير عن أمور تتصل بصناعاتهم وأعمالهم .. وهلم جرا . فمن الواضح أن هذه الأمور وما اليها من شأنها أن تخرج بالكلمات عن مدلولاتها الأولى وتوجه معانيها فى كل طبقة وفى كل جماعة وجهة تختلف عن وجهتها عند غيرها كما تقدم شرح ذلك بتفصيل فى الفصل الأول من الباب الثانى من هذا الكتاب (١) .

ويدخل فى موضوع التطور الدلالى نشأة كلمات لم تكن موجودة فى اللغة من قبل وهجر كلمات كانت مستخدمة فيها أو انقراضها انقراضا تاما .

أما نشأة كلمات فى اللغة فتدعو اليها فى الغالب مقتضيات الحاجة الى تسمية مستحدث جديد مادى أو معنوى (مخترع جديد ؛ نظـام حديث فى الشئون الاجتماعية أو الاقتصادية أو غيرها ؛ نظرية جديدة علمية أو فلسفية .. وهلم جرا) . ويتم ذلك باحدى الوسائل الآتية :

١ ــ انشاء الكلمة انشاء على الوجه الذى بيناه بتفصيل فى آخر

---

(١) انظر على الأخص صفحات ١٧٥ ، ١٨٨ ــ ١٩٤ .

الفصل الرابع من الباب الثانى بصدد موضوع التجديد فى اللغة (١) . وهذه الوسيلة لا تكاد تستخدم الا فى لغات الكتابة وخاصة فى انشاء المصطلحات العلمية وما شاكلها (٢) .

٢ — انتقال الكلمة من اللغة أو اللهجة الى لغة أو لهجة أخرى على الوجه الذى شرحناه فى الفصول الأول والثالث والرابع من الباب الثانى (٣) .

٣ — احياء الأدباء والعلماء لبعض المفردات المهجورة فى اللغة على الوجه الذى شرحناه فى أواخر الفصل الرابع من الباب الثانى (٤) .

٤ — تفرع الكلمة فى صورة تلقائية أو مقصودة من الكلمات المستخدمة فى اللغة . ويتم ذلك عن طريق الاشتقاق بأوسع معانيه ، أو تكوين كلمة من كلمتين أو أكثر ، أو تسمية شىء جديد باسم مكانه أو مخترعه ، أو نحت أفعال من بعض الأسماء الجامدة أو أسماء الأعلام لعلاقة ما ... وهلم جرا (٥) .

وأما انقراض الكلمة من الاستعمال فترجع أسبابه الى عوامل كثيرة من أهمها ما يلى :

١ — انقراض مدلول الكلمة نفسه أو عدم استخدامه . ويصدق

---

(١) انظر صفحات ٢٨١ — ٢٨٣ .

(٢) تستخدم أحيانا هذه الوسيلة كذلك فى اللهجات الاجتماعية كما سبقت الاشارة الى ذلك فى صفحات ١٩٢ ، ١٩٣ .

(٣) انظر فى الفصل الأول صفحات ١٨٠ — ١٨٤ ، وفى الفصل الثالث ٢٣٥ — ٢٣٩ . وفى الفصل الرابع صفحات ٢٥٢ — ٢٥٦ .

(٤) انظر ص ٢٨١ .

(٥) من أمثلة نحت الأفعال من أسماء الأعلام كلمة تبغدد فلان اذا صار مترقا فانها من بغداد . ومن أمثلة ذلك فى اللغات الاوربية كلمة to boycott . وأصل ذلك أن مزارعا ارلنديا يسمى Boycot كان غير مرضى عنه فى أثناء حركة من الحركات الشعبية الوطنية ، فقوطع من جميع جيرانه وزملائه ، وأخذ من اسمه فعل to boycott المستخدم الآن فى المقاطعة السياسية والاقتصادية وما اليها . وقد انتقل هذا الفعل من الانجليزية الى معظم اللغات الأوربية (الفرنسية boycotter والالمانية boycotten .. الخ) V. Meillet, op. cit., p. 29

هذا على الملابس والأثاث وعدد الحرب ووسائل النقل وآلات الصناعة والمقاييس والنقود ومظاهر النشاط والنظم الاجتماعية ... التي انقرضت أو بطل استخدامها فانقرضت معها المفردات الدالة عليها . فمن ذلك فى الفرنسية Veste, casaquin, cabas, carosse, soupentes, briquet, pacotille, corvette, frégate, brulot, boulet, arpent, écu, liard, toise... etc. (١)

وقد انقرض كذلك فى اللغة العربية كثير من الكلمات الدالة على نظم جاهلية قضى عليها الاسلام كالمرباع والصرورة والنوافج .. وهلم جرا (٢) ؛ ومن اللهجات العامية المصرية بعض أسماء النقود القديمة كالبارة والخردة والفضة .. الخ .

٢ ـ انعزال الكلمة وعدم ارتباطها بفصيلة من الكلمات معروفة الأصل متداولة الاستعمال . فانعزال الكلمة ، أى عدم اتصالها بأسرة معروفة ، لا يقف أثره عند تعريض مدلولها للانحراف عن وضعه الأصلى على الوجه الذى سبق شرحه (٣) ، بل كثيرا ما يعرضها هى نفسها للفناء. فما أشبه الكلمات بأفراد الحيوانات الاجتماعية : يظل الواحد منها قويا منيع الجانب ما اندمج فى أفراد قطيعه وقوى تضامنه معه ، ويتعرض للأذى والهلاك كلما انعزل عنه أو وهنت العلاقات التى تربطه به . ـ ولهذا السبب كادت تنقرض من لغة التخاطب الفرنسية : besicles, binocle, missive, visage, miroir وحل محل كل منها كلمة معروفة الاشتقاق قوية الصلة بأفراد أسرتها Lunettes, lorgnon, lettre, figure, glace

٣ ـ ثقل الكلمة على اللسان أو عدم تلاؤم أصواتها مع الحالة التى انتهى اليها تطور أعضاء النطق . فان هذا العامل لا يقف أثره عند تعريض أصواتها للانحراف عن مخارجها الأولى على الوجه الذى سبق

---

(١) Y. Dauzat, op. cit., 218 et suiv.

(٢) المرباع ربع الغنيمة كان رئيس القوم يأخذه لنفسه فى الجاهلية . والصرورة هو الذى يدع النكاح تبتلا أو الذى يحدث حدثا ويلجأ الى الحرم . والنوافج الابل تساق فى الصداق .

(٣) انظر آخر ص ٣٢١ وصفحة ٣٢٢ .

شرحه (١) ، بل قد يعرضها هى نفســها للانقراض . والى هذا يرجع السبب فى انقراض كثير من الكلمات العربية من لغات التخاطب العامية فى العصر الحاضر .

هذا ، وكثير من الكلمات التى تنقرض من لغات المحادثة تأوى الى ركن شديد فى ميادين الشعر أو الأمثال أو الآداب أو الفنون ،فتتوطد لها فيه أسباب المنعة والبقاء .

---

(١) انظر صفحة ٢٨٩ وتوابعها .

أهم المراجع

أولا ـ أهم المراجع العربية

١ ـ ابن السكيت (يعقوب الجمحى) كتاب الألفاظ
٢ ـ ابن جنى (أبو الفتح عثمان) الخصائص
٣ ـ ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد) المقدمة تحقيق الدكتور على عبدالواحد وافى
٤ ـ ابن خلكان (أحمد بن محمد بن ابراهيم) وفيات الأعيان
٥ ـ ابن دريد (محمد بن الحسن) جمهرة الكلام
٦ ـ ابن رشيق (أبوعلى الحسن بن رشيق القيروانى) العمدة فى صناعة الشعر ونقده
٧ ـ ابن سلام (أبو عبد الله محمد بن سلام) طبقات الشعراء
٨ ـ ابن سيدة (على بن اسماعيل) المخصص
٩ ـ ابن سينا (الرئيس أبو على الحسين) أسباب حدوث الحروف . مطبوع بمصر
١٠ ـ ابن عبد ربه (أحمد بن محمد) العقد الفريد
١١ ـ ابن فارس (أبو الحسن أحمد) الصاحبى فى فقه اللغة وسنن العرب فى كلامها
١٢ ـ ابن قتيبة أدب الكاتب
١٣ ـ ابن منظور (جمال الدين بن مكرم) لسان العرب
١٤ ـ أبو البقاء (الحسينى الكفوى) الكليات
١٥ ـ أحمد تيمور باشا معجم اللغة العامية (مخطوط بالخزانة التيمورية) وقد نشر بعض نماذج منه بمجلة المجمع العلمى بدمشق ، فى المجلد السادس
١٦ ـ أحمد تيمور باشا الأمثال العامية طبع سنة ١٩٤٩
١٧ ـ أحمد تيمور باشا الكنايات العامية طبع سنة ١٩٤٩
١٨ ـ أحمد عيسى (الدكتور) التهذيب فى صول التعريب
١٩ ـ الأزهرى (محمد بن أحمد بن الأزهرى) تهذيب اللغة منه نسخة بدار الكتب المصرية .
٢٠ ـ الاسكافى (محمد بن عبد الله) مبادىء اللغة
٢١ ـ الأصفهانى (أبو الفرج على بن الحسين) كتاب الأغانى

٢٢ — الاصمعى (عبد الملك بن قريب) غريب الحديث (انظر كذلك رسائله فى طوائف خاصة من الألفاظ والمعانى بصفحة ٢٨٠ من الطبعة السابعة من كتابنا « فقه اللغة » .

٢٣ — الأنبارى (أبو بكر محمد بن القاسم) كتاب الاضداد

٢٤ — البستانى (بطرس) محيط المحيط

٢٥ — البستانى (بطرس) قطر المحيط

٢٦ — البستانى (بطرس) دائرة المعارف

٢٧ — البستانى (عبد الله) البستان

٢٨ — البغدادى (عبد القادر) خزانة الأدب

٢٩ — التبريزى (يحيى بن على) تهذيب كتاب الألفاظ لابن السكيت (المذكور برقم ١)

٣٠ — التهانوى (محمد على بن على) كشاف اصطلاحات الفنون

٣١ — الثعالبى (أبو منصور عبد الله بن محمد) فقه اللغة

٣٢ — الجاحظ (أبو عثمان عمر بن بحر) البيان والتبيين

٣٣ — الجرجانى (على بن محمد) التعريفات

٣٤ — الجزائرى (الشيخ طاهر) التقريب الى أصول التعريب

٣٥ — الجوالقى (أبو منصور موهوب بن أحمد) المعرب من الكلام الأعجمى طبعته أخيرا « دار الكتب المصرية » فى مجلد يقع فى ٤٥٦ صفحة من القطع الكبير مع بعض شروح وتعليقات للأستاذ أحمد محمد شاكر

٣٦ — الجوهرى (اسماعيل بن حماد) الصحاح (تاج اللغة وصحاح العربية)

٣٧ — الخفاجى (شهاب الدين أحمد بن محمد) شفاء العليل فيما ورد فى كلام العرب من الدخيل

٣٨ — الخليل بن أحمد العين

٣٩ — الدسوقى تهذيب الألفاظ العامية

٤٠ — الرازى (محمد بن أبى بكن بن عبد القادر) مختار الصحاح

٤١ — الزمخشرى (أبو القاسم محمود) أساس البلاغة

٤٢ — السيوطى (جلال الدين عبد الرحمن) المزهر فى علوم اللغة وأنواعها

٤٣ — الشدياق (أحمد فارس) سر الليال فى القلب والابدال

٤٤ — الشرتونى (سعيد) أقرب الموارد فى فصح العربية والشوارد

٤٥ — العسكرى (أبو هلال) المعجم فى بقية الأشياء

٤٦ — العسكرى كتاب الصناعتين : الكتابة والشعر

الرقم	المؤلف	الكتاب
٤٧	الفيروزابادى (محمد بن يعقوب)	الروض المألوف فيما له اسمان الى ألوف
٤٨	الفيروزابادى	القاموس المحيط
٤٩	الفيومى (أحمد بن محمد بن على المقرى)	المصباح المنير
٥٠	القالى (أبو على)	الأمالى وذيل الأمالى والنوادر
٥١	الكرملى (أنستاس)	مجلة لغة العرب
٥٢	المبرد (أبو العباس محمد بن يزيد)	كتاب الكامل فى اللغة والأدب
٥٣	الهمذانى (عبد الرحمن بن عيسى)	الألفاظ الكتابية
٥٤	اليازجى (ابراهيم)	نجعة الرائد وشرعة الوارد فى المترادف والمتوارد
٥٥	جرجى زيدان	الفلسفة اللغوية
٥٦	جرجى زيدان	تاريخ اللغة العربية
٥٧	جرجى زيدان	تاريخ آداب اللغة العربية
٥٨	جرجى زيدان	اللغة العربية كائن حى
٥٩	طه حسين	الأدب الجاهلى
٦٠	على العنانى ومحمد عطية الابراشى وليون محرز	كتاب الأساس فى الأمم السامية ولغاتها وقواعد اللغة العبرية وآدابها
٦١	على العنانى ومحمد عطية الابراشى وليون محرز	كتاب المفصل فى قواعد اللغة السريانية وآدابها والموازنة بين اللغات السامية
٦٢	على عبد الواحد وافى	اللغة والمجتمع
٦٣	على عبد الواحد وافى	فقه اللغة
٦٤	على عبد الواحد وافى	نشأة اللغة عند الانسان والطفل
٦٥	على عبد الواحد وافى	عوامل التربية
٦٦	مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق	
٦٧	مجلة مجمع اللغة العربية	
٦٨	محب الدين الخطيب	اتجاه الموجات البشرية فى جزيرة العرب
٦٩	مرمرجى الدومنكى (الأب)	هل العربية منطقية أبحاث ثنائية السنية
٧٠	معلوف (الأب لويس)	المنجد (معجم لغوى)
٧١	ولفنسن (الدكتور اسرائيل)	تاريخ اللغات السامية
٧٢	ياقوت	معجم الأدباء

ثانيا - أهم المراجع الافرنجية

1 — Baldwin : Le Développement mental chez l'enfant et dans la race (trad. fr.).

2 — Bally : Le Langage et la Vie.

3 — Bally : Précis de Stylistique.

4 — Berry : An Experimental study of Imitation.

5 — Bloch : Les Premiers stades du Langage de l'enfant «J. de Psych. 1921».

6 — Boas : Handbook of American Indian Languages, 2 vols, Washington.

7 — Brandenburg : Language development.

8 — Bréal : Essai de Sémantique.

9 — Bréal : Mélange de Mythologie et de Linguistique.

10 — Brockelmann : Précis de Linguistique (trad. fr.).

11 — Claparède : Psychologie de l'Enfant... etc.

12 — Clodd : Story of the Alphabet (New York).

13 — Crammont : Mélanges Meillet.

14 — Darmesteter : La Vie des Mots.

15 — Darmesteter : L'Expression des Emotions (trad. fr.).

16 — Darwin : L'Origine des Espèces (trad. fr.).

17 — Dauzat : La Philosophie du Langage.

18 — Dauzat : Les Patois.

19 — Dauzat : La vie du Langage.

20 — Dauzat : Etudes Linguistiques sur la Basse-Auvergne.

21 — Delacroix : Le Langage et la Pensée.

22 — Dumas et collaborateurs : Traité de Psychologie.

23 — Durkheim : Les Règles de la Méthode Sociologique.

24 — Durkheim : Les Formes élémentaires de la Vie Religieuse.

25 — Durkheim : La Prohibition de l'Inceste, dans «L'Année Sociologique» T. 1.

26 — Gennep (Van) : Essai d'une théorie des Langues Spéciales (dans «Revue des Etudes Ethnographiques et Sociologiques»).

27 — Gillieron et Roques : Etude de Géographie Linguistique.

28 — Ginneken : Principes de Linguistique psychologique.

29 — Gramont : La Dissimilation.

30 — Grégoire : Petit Traité de Linguistique.

31 — Guillaum : L'Imitation chez l'Enfant.

32 — Hermann (Paul) : Etudes sur les Changements Phonétiques.

33 — Hovelacque : La Linguistique.

34 — Jespersen : Language : its nature, development and origin.

35 — Jesperen : The Progress of Language.

36 — Kohler : L'Intelligence des Singes Supérieurs (trad. fr.).

37 — Larousse du XXe Siècle.

38 — Leroy : Le Langage.

39 — Levy Bruhl : Les Fonctions mentales dans les Societés Primitives.

40 — Malinowski : Primitive Language.

41 — Mallery : Sign Language among the North American Indians.

42 — Marichelle : L'Enseignement de la Parole aux sourd-muets.

43 — Meillet : Comment les Mots changent de Sens (dans «L'Année Sociologique» T. IX, pp. 3-33).

44 — Meillet : Les Dialectes Indo-Européennes.

45 — Meillet : Introduction à l'Etude Comparative des Langues Indo-Européennes.

46 — Meillet : Les Langues dans l'Europe Nouvelle.

47 — Meillet : Linguistique Historique et Linguistique générale.

48 — Meillet et Cohen (groupe de linguistes sous la direction de Meillet et Cohen) : Les Langues du Monde.

49 — Müller (Max) : The Science of Language.

50 — Müller (Max) . New Lectures on the Science of Language.

51 — Paulhan : La Double Fonction du Langage.

52 — Pawlowitch : Le Langage enfantin.

53 — Piaget : Le Langage et la Pensée chez l'Enfant.

54 — Renan : Histoire générale des Langues Sémitiques.

55 — Renan : L'Origine du Langage.

56 — Roudet : Elements de Phonetique générale.

58 — Rousselot : Introduction à l'Etude des Patois.

59 — Rousselot : Les Modifications Phonetiques du Langage.

60 — Rousselot : Principe de Phonétique experimentale.

61 — Roustan : Psychologie.

62 — Sapir (E) : Langage (New York).

63 — Saussure (De) : Cours de Linguistique Générale.

64 — Sayce : Introduction to the Science of Language (2 vols).

65 — Sayce : Principles of Comparative Philology.

66 — Sechehaye : Programme et Méthode de la Linguistique théorique.

67 — Sweet : History of English Sounds.

68 — Sweet : The Practical Study of Language.

69 — Taine : Observation sur l'Acquisition du Langage par les Enfants (Revue Phil. 1876).

70 — Tarde : Lois de l'Imitation.

71 — Tomas (Antoine) : Essai de philologie Française.

72 — Tomas (Antoine) : Mélange d'Etymologie Française.

73 — Tylor : Early History of Mankind.

74 — Tylor : Origin of Civilisation.

75 — Vannier : L'Esprit et les Mœurs d'une nation d'après sa Langue.

76 — Vendryès : Le Langage.

77 — Vendryès : Réflexion sur les lois phonétiques.

78 — Whitney : Language and the Study of Language.

79 — Wright : Lectures on the comparative grammar of the Semitic Languages.



الفهرس

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

تعقيب

تعقيب على المدون فى هامش رقم ٢ ص ٢٠٥ بصدد سكان العالم :

نشر فى عدد ٨٣/٩/١ من جريدة الأهرام مايلى :

« أعلن مكتب الإحصاء الأمريكى أن عدد سكان العالم زاد نحو ٨٢ مليون شخص خلال العام الماضى (يقصد عام ١٩٨٢) وبذلك يصير عدد سكان العالم ٤٫٧ مليار نسمة بزيادة قدرها مليار نسمة خلال السنوات العشر الماضية . وأوضح الإحصاء الأمريكى أن ٥٢٪ من سكان العالم يتمركزون فى خمس دول ، هى الصين والهند والاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة الأمريكية واندونسيا على التوالى . وأن أكبر خمس دول ساهمت فى الزيادة السكانية فى العام الماضى هى الهند(١٥٫٥ مليون نسمة) والصين (١٥ مليون نسمة) وأندونسيا (٣٫٣ مليون نسمة) والبرازيل (٣ ملايين نسمة) وبنجلاديش(٢٫٩ مليون نسمة) . فى حين بلغت نسبة مساهمة الدول الأوروبية كلها فى هذه الزيادة(١٫٥ مليون نسمة) .وانخفض العدد الحقيقى للسكان فى خمس دول أوروبية هى ألمانيا الشرقية والمجر والدنمارك ومالطة وألمانيا الغربية »

من مؤلفات الدكتور على عبد الواحد وافى

كتب باللغات الأجنبية :

١ ـ نظرية اجتماعية فى الرق

٢ ـ الفرق بين رق الرجل ورق المرأة
طبعا باللغة الفرنسية بباريس سنة ١٩٣١ وحصل بهما المؤلف على شهادة الدكتوراه بدرجة الامتياز مع مرتبة الشرف الأولى من جامعة باريس .

كتب باللغة العربية :

٣ ـ علم اللغة (الطبعة السابعة ، مزيدة ومنقحة)
٤ ـ فقه اللغة (الطبعة السابعة ، مزيدة ومنقحة)
٥ ـ نشأة اللغة عند الانسان والطفل (الطبعة الثالثة ، مزيدة ومنقحة)
٦ ـ اللغة والمجتمع (الطبعة الثالثة ، مزيدة ومنقحة)
٧ ـ علم الاجتماع
٨ ـ الأسرة والمجتمع (الطبعة السادسة ، مزيدة ومنقحة)
٩ ـ المسئولية والجزاء (الطبعة الثالثة ، مزيدة ومنقحة)
١٠ ـ قصة الملكية فى العالم (الطبعة الثانية ، مزيدة ومنقحة)
١١ ـ قصة الزواج والعزوبة فى العالم
١٢ ـ مشكلات المجتمع المصرى والعالم العربى وعلاجها فى ضوء العلم والدين
١٣ ، ١٤ ـ غرائب النظم والتقاليد والعادات (جزءان)
١٥ ـ المجتمع العربى
١٦ ـ الهنود الحمر (سلسلة اقرأ عدد ٨٨ ، الطبعة الثانية)
١٧ ـ الطوطمية (سلسلة اقرأ ١٩٤)
١٨ ـ الأدب اليونانى القديم ودلالته على عقائد اليونان ونظامهم الاجتماعى (ظهر فى السلسلة التى تصدرها « دار المعارف » بعنوان « مكتبة الدراسات الأدبية »)

١٩ - ابن خلدون منشىء علم الاجتماع

٢٠ - عبد الرحمن بن خلدون : حياته وآثاره ومظاهر عبقريته (ظهر فى سلسلة « أعلام العرب » التى تصدرها وزارة الثقافة)

٢١ - ٢٤ - « مقـــدمة ابن خلدون » مع تمهيد وتكملة وتحقيق وشرح وتعليق (أربعة أجزاء ، طبعة لجنة البيان العربى - بها نحو ثلاثة آلاف تعليق ، وتمهيد فى نحو ٣٥٠ صفحة من القطع الكبير)

٢٥ - فصول « من آراء أهل المدينة الفاضلة للفارابى » مع مقدمة وتحقيق وشرح وتعليق

٢٦ - الاقتصاد السياسى (الطبعة الخامسة ، مزيدة ومنقحة)

٢٧ - البطالة ووسائل علاجها والتعليم الأقليمى وأثره فى علاج البطالة (نال جائزة المباراة الأدبية سنة ١٩٣٥)

٢٨ - عوامل التربية

٢٩ - فى التربية (الطبعة الثانية ، مزيدة ومنقحة)

٣٠ - أصول التربية ونظام التعليم (مع آخرين)

٣١ - الوراثة والبيئة (الطبعة الثانية ، مزيدة ومنقحة)

٣٢ - اللعب والعمل

٣٣ - مواد الدراسة

٣٤ - حقوق الانسان فى الاسلام (الطبعة الرابعة ، مزيدة ومنقحة)

٣٥ - المساواة فى الاسلام (سلسلة «اقرأ» عدد ٢٣٥ الطبعة السابعة ، مزيدة ومنقحة)

٣٦ - الحرية فى الاسلام (سلسلة « اقرأ » عدد ٣٠٤)

٣٧ - بيت الطاعة والطلاق وتعدد الزوجات فى الاسلام (ظهر فى السلسلة التى تصدرها مؤسسة المطبوعات الحديثة بعنوان « مع الاسلام »)

٣٨ - الصوم والأضحية فى الاسلام والشرائع السابقة (ظهر فى السلسلة التى يصدرها المجلس الأعلى للشئون الاسلامية بعنوان « دراسات فى الاسلام »)

٣٩ - حماية الاسلام للأنفس والأعراض

٤٠ - المرأة فى الاسلام

٤١ ـ الأسفار المقدسة فى الأديان السابقة للاسلام ، الطبعة الثانية ، مزيدة ومنقحة

٤٢ ـ اليهودية واليهود

بحوث باللغات الأجنبية طبعت على حدة :

١ ـ نظرية جديدة في وأد البنات عند العرب فى الجاهلية (نشر باللغة الفرنسية فى مطبوعات المجمع الدولى لعلم الاجتماع)

٢ ـ حقوق الانسان فى الاسلام (قدم باللغتين الفرنسية والانجليزية الى مؤتمر اليونسكو الخاص بدراسة حقوق الانسان المنعقد فى أكسفورد سنة ١٩٦٥ ونشر فى مطبوعاته بهاتين اللغتين)

بحوث باللغة العربية طبعت على حدة وفصول من كتب :

٣ ـ رغبات المؤتمر الدولى الخامس للتربية العائلية (ترجمة عن الفرنسية وتعليقات ، طبعته وزارة المعارف المصرية سنة ١٩٣٦)

٤ ـ تعليمات تربوية لمدرسى المدارس المتوسطة والثانوية العراقية (طبعته وزارة المعارف العراقية سنة ١٩٣٧)

٥ ـ ميادين الخدمة الاجتماعية ، شغل أوقات الفراغ (ألقى فى مؤتمر الاصلاح الاجتماعى سنة ١٩٤٠ ، وقامت بطبعه « رابطة الاصلاح الاجتماعى »)

٦ ـ الحرية والأخاء والمساواة فى الاسلام (ألقى فى مؤتمر الاصلاح الاجتماعى سنة ١٩٤١ وقامت بطبعه على حدة « جماعة التعريف الدولى بالاسلام »)

٧ ـ الصوم (فصله من مجلة كلية الآداب عدد مايو ١٩٥٠)

٨ ـ النظم الدينيه عند قدماء اليونان

٩ ـ أقدم البحوث الاجتماعية عند قدماء اليونان

١٠ ـ الشعر الحماسى عند قدماء اليونان

١١ ـ النزعات الاجتماعية الفطرية عند الحيوان

١٢ ـ الفلسفة الاجتماعية لابن خلدون وأوجيست كونت

ظهرت هذه البحوث الخمسة الأخيرة مطبوعا كل منها فى فصلة على حدة فى مؤلفات « الجمعية المصرية لعلم الاجتماع » سنتى ١٩٥١ ، ١٩٥٢)

١٣ ـ حقوق كل من الزوجين وواجباته فى الأسرة المصرية (ألقى فى

مؤتمر لرابطة الاصلاح الاجتماعي ونشرته لجنة المؤتمرات والندوات بالرابطة في يناير سنة ١٩٥٦)

١٤ ـ الاختلاط بين الجنسين (ألقى في مؤتمر رابطة الاصلاح الاجتماعي ونشرته لجنة الندوات بالرابطة في مارس سنة ١٩٥٦)

١٥ ـ تطور البيت العربي وأثر المدنية الحديثة فيه (من مطبوعات ادارة الشئون الاجتماعية بجامعة الدول العربية)

١٦ ـ نظام الأسرة في الأسلام (فصل من كتاب « الاسلام اليوم وغدا » نشرته مكتبة عيسى الحلبي سنة ١٩٥٧)

١٧ ـ مشكلة مصر هي قلة النسل لا كثرته (من مطبوعات ، ادارة الثقافة بوزارة الأوقاف سنة ١٩٥٨)

١٨ ـ كيف يتكلم الطفل (كتاب الشهر من مجلة « حياتك » عدد أكتوبر سنة ١٩٥٨)

١٩ ـ المدرسة المصرية (كتاب الشهر من مجلة « حياتك » عدد ديسمبر سنة ١٩٥٨)

٢٠ ـ ألعاب الطفل (كتاب الشهر من مجلة « حياتك » عدد فبراير سنه ١٩٥٩)

٢١ ـ الوراثة والبيئة (كتاب الشهر من مجلة « حياتك » عدد أبريل سنة ١٩٥٩)

٢٢ ـ وظائف الأسرة (كتاب الشهر من مجلة « حياتك » عدد سبتمبر سنة ١٩٥٩)

٢٣ ـ الاسلام في المجتمع العربي (محاضرة عامة ألقيت في قاعة محمد عبده في مايو ١٩٥٦ وقامت الادارة العامة للثقافة الاسلامية بالأزهر بطبعها على حدة سنة ١٩٥٦)

٢٤ ـ الرد على الشيوعيين العراقيين في افترائهم على الاسلام في كراستهم الرمادية (الكتاب رقم ٣٢ من كتب قومية صدر في نوفمبر سنة ١٩٥٩)

٢٥ ـ علم اللغة (فصل من « السجل الثقافي » لسنة ١٩٦٠ ، تصدره وزارة الثقافة والارشاد)

٢٦ ـ علم الاجتماع (فصل من « السجل الثقافي» لسنة ١٩٦١ ، تصدره وزارة الثقافة والارشاد)

٢٧ ـ علم الاجتماع (فصل من « السجل الثقافي » لسنة ١٩٦٢ تصدره وزارة الثقافة والارشاد)

٢٨ - ابن خلدون أول مؤسس لعلم الاجتماع (ألقى فى مهرجان ابن خلدون المنعقد فى القاهرة سنة ١٩٦٢ ٠ ونشره مع بقية بحوث المهرجان فى كتاب خاص « المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية » بعنوان « أعمال مهرجان ابن خلدون »)

٢٩ - مقدمة ابن خلدون (فصل من العدد الرابع من المجلد الأول من السلسلة التى تصدرها وزارة الثقافة تحت عنوان «تراث الانسانية» أبريل سنة ١٩٦٣)

٣٠ - آراء أهل المدينة الفاضلة للفارابى (فصل من العدد السابع من المجلد الثانى من السلسلة التى تصدرها وزارة الثقافة تحت عنوان « تراث الانسانية » يولية ١٩٦٤)

٣١ - الحرية المدنية فى لاسلام (ألقى فى الموسم الثقافى لجامعة أم درمان الاسلامية سنة ١٩٦٧ وطبعته الجامعة فى فصله على حدة)

٣٢ - القرآن وحرية الفكر (ألقى فى مؤتمر أسبوع القرآن الذى عقدته جامعة أم درمان الاسلامية سنة ١٣٨٧ هـ ١٩٦٨ م ، وتقوم الجامعة بطبعه مع بقية بحوث المؤتمر ، وعمل فصلة منه على حدة)

٣٣ - التراث العربى وأثره فى علم الاجتماع (ألقى فى الحلقة التى عقدتها جمعية الأدباء بالقاهرة سنة ١٩٦٨ ٠ وقامت الجمعية بطبعه مع بقية بحوث المؤتمر فى كتاب بعنوان « التراث العربى ، دراسات »

٣٤ - الوراثة وقوانينها وآثارها فى الفرد والأسرة والمجتمع (فصلة من العدد الثانى من مجلة جامعة أم درمان الاسلامية سنة ١٣٨٩ هـ ١٩٦٩ م)

٣٥ ، ٣٦ - التعليم الاقليمى وأثره فى علاج البطالة ؛ البطالة بين طبقة المشتغلين بالزراعة : أسبابها ووسائل علاجها (بحثان ألقيا فى المؤتمر الذى عقدته جامعة أم درمان الاسلامية سنة ١٩٦٩ لدراسة مشكلة البطالة فى السودان ، وطبعا مع بقية أعمال المؤتمر) ٠

٣٧ - الملكية الخاصة فى الاسلام (ألقى فى الموسم الثقافى سنة ١٩٦٩ لجامعة أم درمان الاسلامية وتقوم الجامعة بطبعه مع بقية بحوث الموسم وعمل فصلة منه على حدة)

٣٨ - التكامل الاقتصادى فى الاسلام (بحث قدم الى مجمع البحوث الاسلامية ، بدعوة خاصة من المجمع ، وألقى فى مؤتمره السادس فى مارس ١٩٧١ ٠ وقام المجمع بطبعه فى كتاب على حدة)

٣٩ ـ ٤٠ المرأة والأسرة فى الاسلام ، الحـــرية المدنية فى الاسلام • بحثان ألقيا فى « الملتقى الرابع للتعرف على الفكر الاسلامى » المنعقد فى مدينة قسنطينة بجمهورية الجزائر فى شهر أغسطس ســـنة ١٩٧٠ ، وطبعا مع بقية بحوث الملتقى فى كتاب بعنوان « محاضرات الملتقى الرابع للتعرف على الفكر الاسلامى » •

٤١ ، ٤٣ ـ اللغة العربية فى الوطن العربى . أهميتها وتاريخها . ـ نظام الطلاق فى الاسلام • ـ نظام الاقتصاد فى الاسلام (ثلاثة بحوث أرسلت الى « الملتقى الخامس للتعرف على الفكر الاسلامى » المنعقد فى مدينـــة وهران بجمهورية الجزائر من ١٩٧١/٧/٢٥ الى أول أغسطس ١٩٧١ ، وطبعت مع بقية بحوث الملتقى فى كتاب بعنوان « محاضرات الملتقى الخامس للتعرف على الفكر الاسلامى ») •

٤٤ ـ موقف الاسلام من الأديان الأخرى والرد على ما يفتريه بعـــض مؤرخى الفرنجة وبعض المستشرقين على الاسلام فى هـــذا الصدد (بحث ألقى فى « الملتقى السادس للتعرف على الفكر الاسلامى » المنعقد فى مدينة الجزائر عاصمة الجمهورية الجزائرية من ٢٠/٧/٧٢ الى ٧٢/٨/١١ ، وسيطبع مع بقية بحوث المؤتمر فى كتاب)